www.kotobarabia.com



مشيناها خطى

سيرة ذاتية

د. رؤوف عباس

www.alkottob.com
www.alkottob.com

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

www.alkottob.com



إلى الشباب

عساهم يجدون فيه ما يفيد

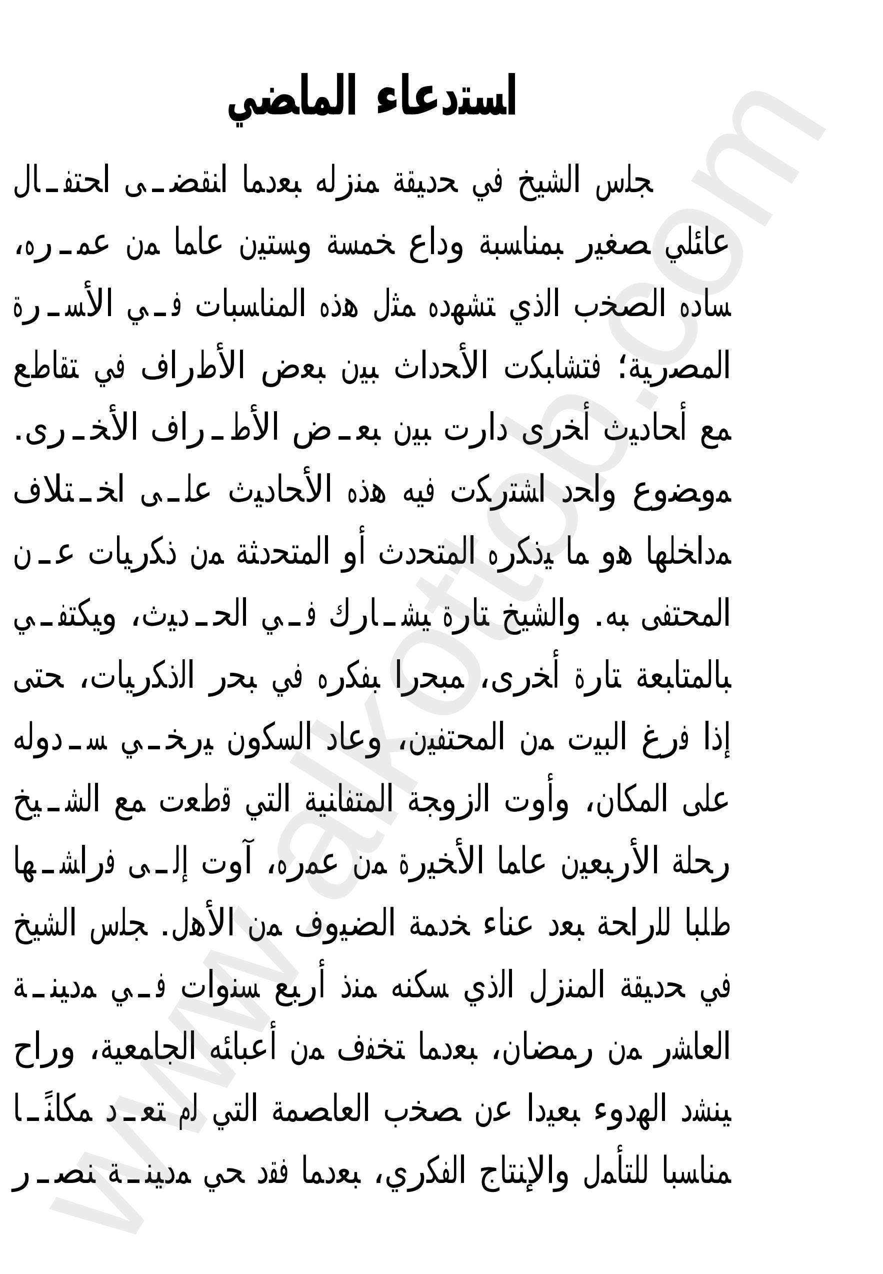
وإلى الذين يسممون أمامهم الآبار

لعلهم يتعظون

www.alkottob.com

فهرس

www.alkottob.com



استدعاء الماضي

جلس الشيخ في حديقة منزله بعدما انقضى احتفال عائلي صغير بمناسبة وداع خمسة وستين عاما من عمره، ساده الصخب الذي تشهده مثل هذه المناسبات في الأسرة المصرية؛ فتشابكت الأحداث بين بعض الأطراف في تقاطع مع أحاديث أخرى دارت بين بعض الأطراف الأخرى. موضوع واحد اشتركت فيه هذه الأحاديث على اختلاف مداخلها هو ما يذكره المتحدث أو المتحدثة من ذكريات عن المحتفى به. والشيخ تارة يشارك في الحديث، ويكتفي بالمتابعة تارة أخرى، مبحرا بفكره في بحر الذكريات، حتى إذا فرغ البيت من المحتفين، وعاد السكون يرخي سدوله على المكان، وأوت الزوجة المتفانية التي قطعت مع الشيخ رحلة الأربعين عاما الأخيرة من عمره، آوت إلى فراشها طلبا للراحة بعد عناء خدمة الضيوف من الأهل. جلس الشيخ في حديقة المنزل الذي سكنه منذ أربع سنوات في مدينة العاشر من رمضان، بعدما تخفف من أعبائه الجامعية، وراح ينشد الهدوء بعيدا عن صخب العاصمة التي لم تعد مكانًا مناسبا للتأمل والإنتاج الفكري، بعدما فقد حي مدينة نصر

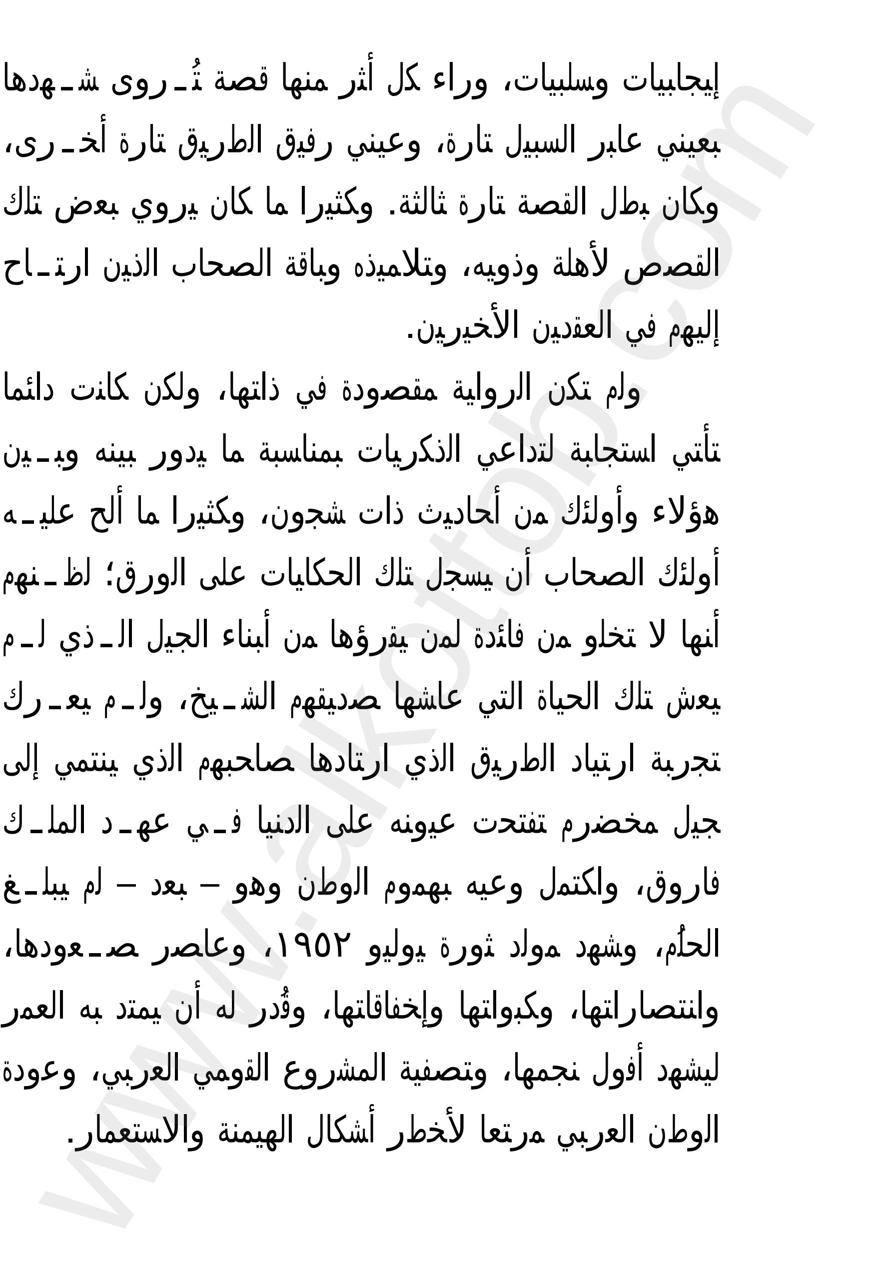
www.alkottob.com

هدوءه في عصر "الانفتاح" أو "الانفـلات"، فـازدحم الحـي (بالمولات) والمقاهي، وأصبحت شـوارعه سـاهرة حتـى الصباح، ولم يعد هناك أمل في الراحة وسط هذا الصـخب؛ ففضل الشيخ ترك القاهرة إلى مدينة لا تبعد عنها كثيرا، تتيح له ولزوجه أن يعيشها ما بقي لهما من عمر بمنأى عن معاناة الحياة القاهرية.

راح الشيخ – في جلسته تلك – يسترجع ما قطعه على طريق الحياة الطويل من خطوات لم تكن تمثل دوما - خطًا ممتدا على استقامته، أو خطًا صاعدا إلـى هـدف مرسـوم معلوم، بل كانت خطًا فيه من التعاريج والانحناءات أكثر مما فيه من الاستقامة والوضوح. ولم تكن تلك الطريـق ممهـدة خالية من العثرات إلا نادرا، كما لم يكن بين يديه دليل يحدد خطواته على تلك الطريق، فكان عليه أن يقطعه بما حباه به ا من خصائص جمعت بين العناد والإصـرار والصـبر، فاقت في حجمها أحاسيس الإحباط ،والعجز، وخيبة الأمل.

وها هو ذا وهو يتأمل طريقًا قطعها على مر كل تلـك السنين، يكاد يلمح آثار أقدامه على تلك الطريق التي اختلفت مواقعها، ولكنها تسجل تجربة الشيخ الذاتية بكل ما فيها مـن

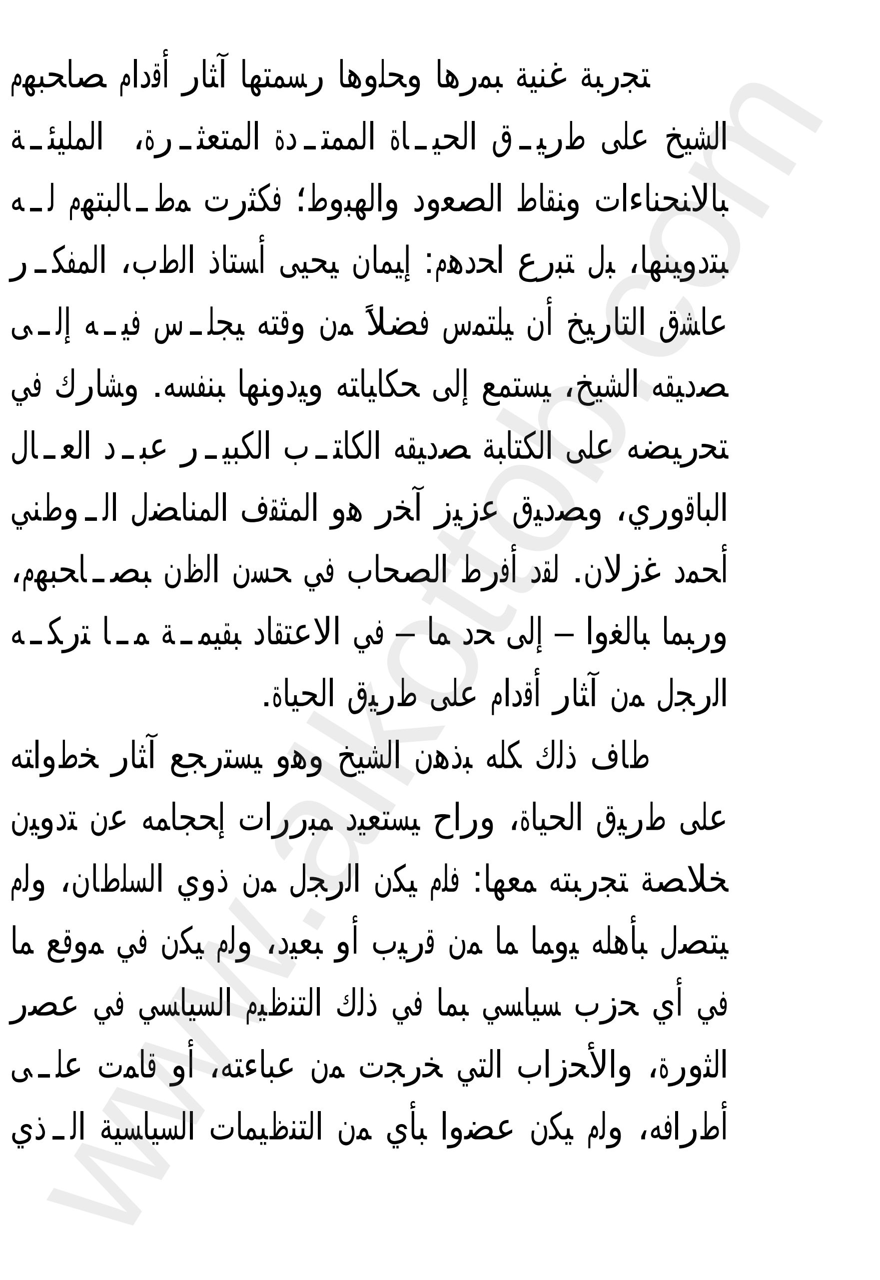
www.alkottob.com



إيجابيات وسلبيات، وراء كل أثر منها قصة تُروى شهدها بعيني عابر السبيل تارة، وعيني رفيق الطريق تارة أخرى، وكان بطل القصة تارة ثالثة. وكثيرا ما كان يروي بعض تلك القصص لأهلة وذويه، وتلاميذه وباقة الصحاب الذين ارتاح إليهم في العقدين الأخيرين.

ولم تكن الرواية مقصودة في ذاتها، ولكن كانت دائما تأتي استجابة لتداعي الذكريات بمناسبة ما يدور بينه وبين هؤلاء وأولئك من أحاديث ذات شجون، وكثيرا ما ألح عليه أولئك الصحاب أن يسجل تلك الحكايات على الورق؛ لظنهم أنها لا تخلو من فائدة لمن يقرؤها من أبناء الجيل الذي لم يعش تلك الحياة التي عاشها صديقهم الشيخ، ولم يعرك تجربة ارتياد الطريق الذي ارتادها صاحبهم الذي ينتمي إلى جيل مخضرم تفتحت عيونه على الدنيا في عهد الملك فاروق، واكتمل وعيه بهموم الوطن وهو – بعد – لم يبلغ الحلم، وشهد مولد ثورة يوليو ١٩٥٢، وعاصر صعودها، وانتصاراتها، وكبواتها وإخفاقاتها، وقُدر له أن يمتد به العمر ليشهد أفول نجمها، وتصفية المشروع القومي العربي، وعودة الوطن العربي مرتعا لأخطر أشكال الهيمنة والاستعمار.

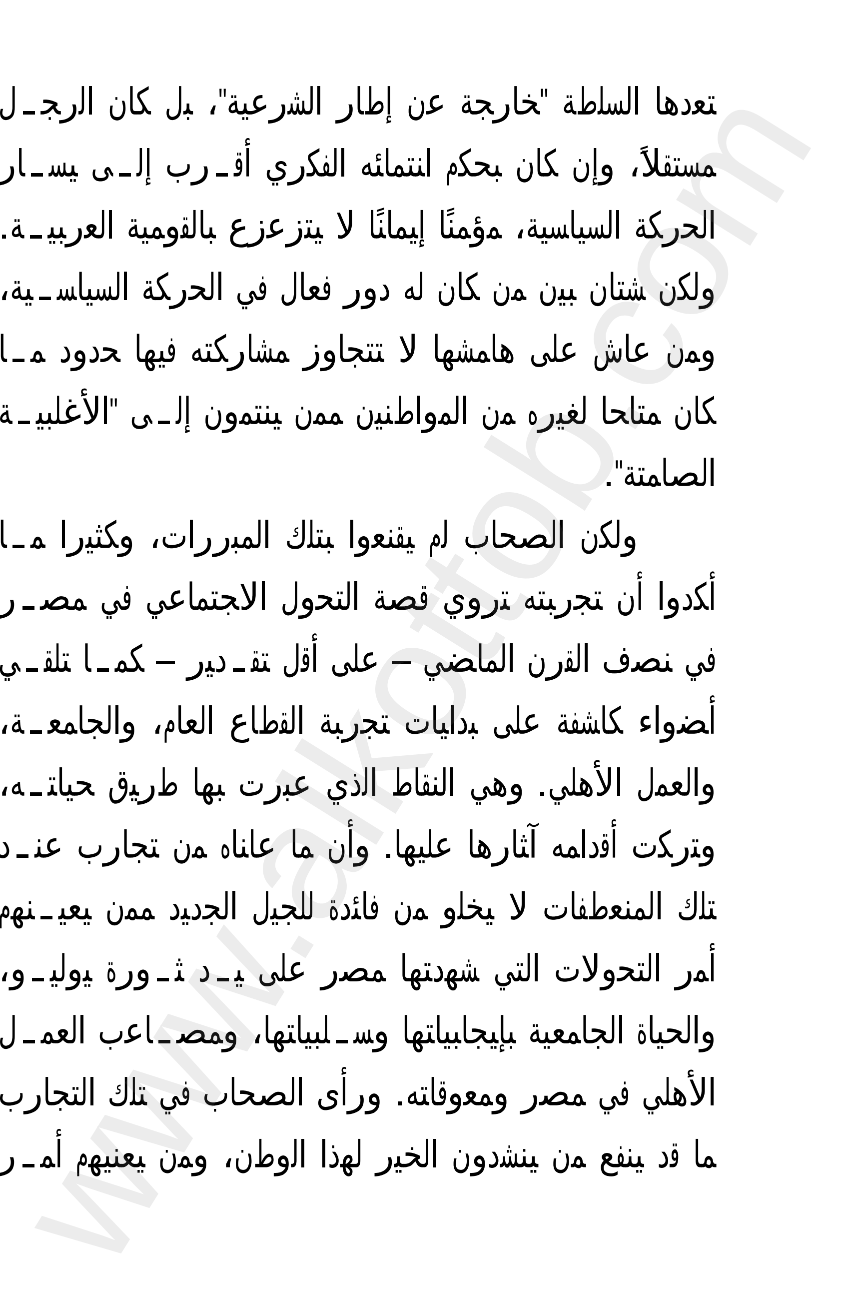
www.alkottob.com



تجربة غنية بمرها وحلوها رسمتها آثار أقدام صاحبهم الشيخ على طريـق الحيـاة الممتـدة المتعثـرة، المليئـة بالانحناءات ونقاط الصعود والهبوط؛ فكثرت مطـالبتهم لـه بتدوينها، بل تبرع احدهم: إيمان يحيى أستاذ الطب، المفكـر عاشق التاريخ أن يلتمس فضلاً من وقته يجلـس فيـه إلـى صديقه الشيخ، يستمع إلى حكاياته ويدونها بنفسه. وشارك في تحريضه على الكتابة صديقه الكاتـب الكبيـر عبـد العـال الباقوري، وصديق عزيز آخر هو المثقف المناضل الـوطني أحمد غزلان. لقد أفرط الصحاب في حسن الظن بصـاحبهم، وربما بالغوا – إلى حد ما – في الاعتقاد بقيمـة مـا تركـه الرجل من آثار أقدام على طريق الحياة.

طاف ذلك كله بذهن الشيخ وهو يسترجع آثار خطواته على طريق الحياة، وراح يستعيد مبررات إحجامه عن تدوين خلاصة تجربته معها: فلم يكن الرجل من ذوي السلطان، ولم يتصل بأهله يوما ما من قريب أو بعيد، ولم يكن في موقع ما في أي حزب سياسي بما في ذلك التنظيم السياسي في عصر الثورة، والأحزاب التي خرجت من عباءته، أو قامت علـى أطرافه، ولم يكن عضوا بأي من التنظيمات السياسية الـذي

www.alkottob.com



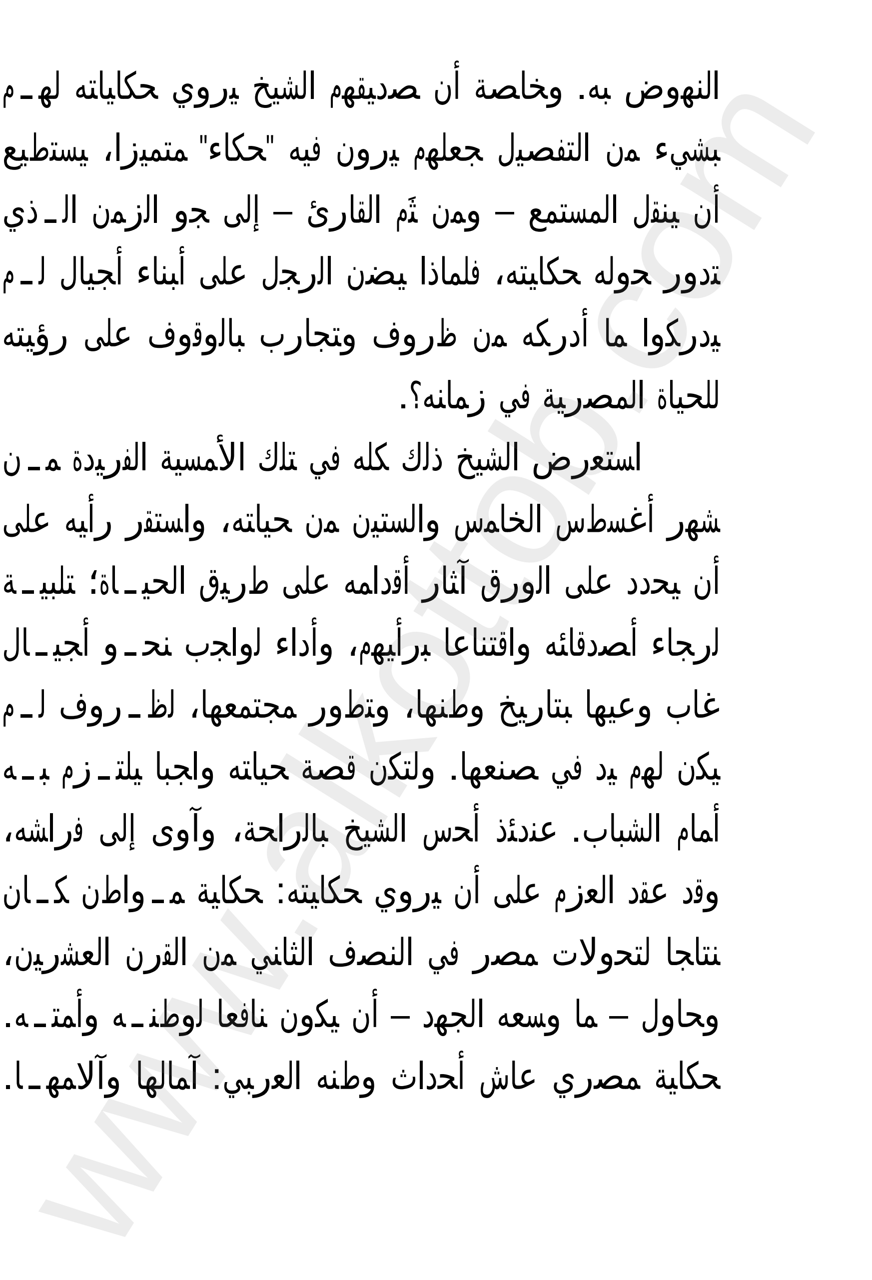
تعدها السلطة "خارجة عن إطار الشرعية"، بل كان الرجل مستقلاً، وإن كان بحكم انتمائه الفكري أقرب إلى يسار الحركة السياسية، مؤمنًا إيمانًا لا يتزعزع بالقومية العربية. ولكن شتان بين من كان له دور فعال في الحركة السياسية، ومن عاش على هامشها لا تتجاوز مشاركته فيها حدود ما كان متاحا لغيره من المواطنين ممن ينتمون إلى "الأغلبية الصامتة".

ولكن الصحاب لم يقنعوا بتلك المبررات، وكثيرا ما أكدوا أن تجربته تروي قصة التحول الاجتماعي في مصر في نصف القرن الماضي – على أقل تقدير – كما تلقي أضواء كاشفة على بدايات تجربة القطاع العام، والجامعة، والعمل الأهلي. وهي النقاط الذي عبرت بها طريق حياته، وتركت أقدامه آثارها عليها. وأن ما عاناه من تجارب عند تلك المنعطفات لا يخلو من فائدة للجيل الجديد ممن يعينهم أمر التحولات التي شهدتها مصر على يد ثورة يوليو، والحياة الجامعية بإيجابياتها وسلبياتها، ومصاعب العمل الأهلي في مصر ومعوقاته. ورأى الصحاب في تلك التجارب ما قد ينفع من ينشدون الخير لهذا الوطن، ومن يعنيهم أمر

www.alkottob.com

النهوض به. وخاصة أن صديقهم الشيخ يروي حكاياته لهـم بشيء من التفصيل جعلهم يرون فيه "حكاء" متميزا، يستطيع أن ينقل المستمع – ومن ثَم القارئ – إلى جو الزمن الـذي تدور حوله حكايته، فلماذا يضن الرجل على أبناء أجيال لـم يدركوا ما أدركه من ظروف وتجارب بالوقوف على رؤيته للحياة المصرية في زمانه؟.

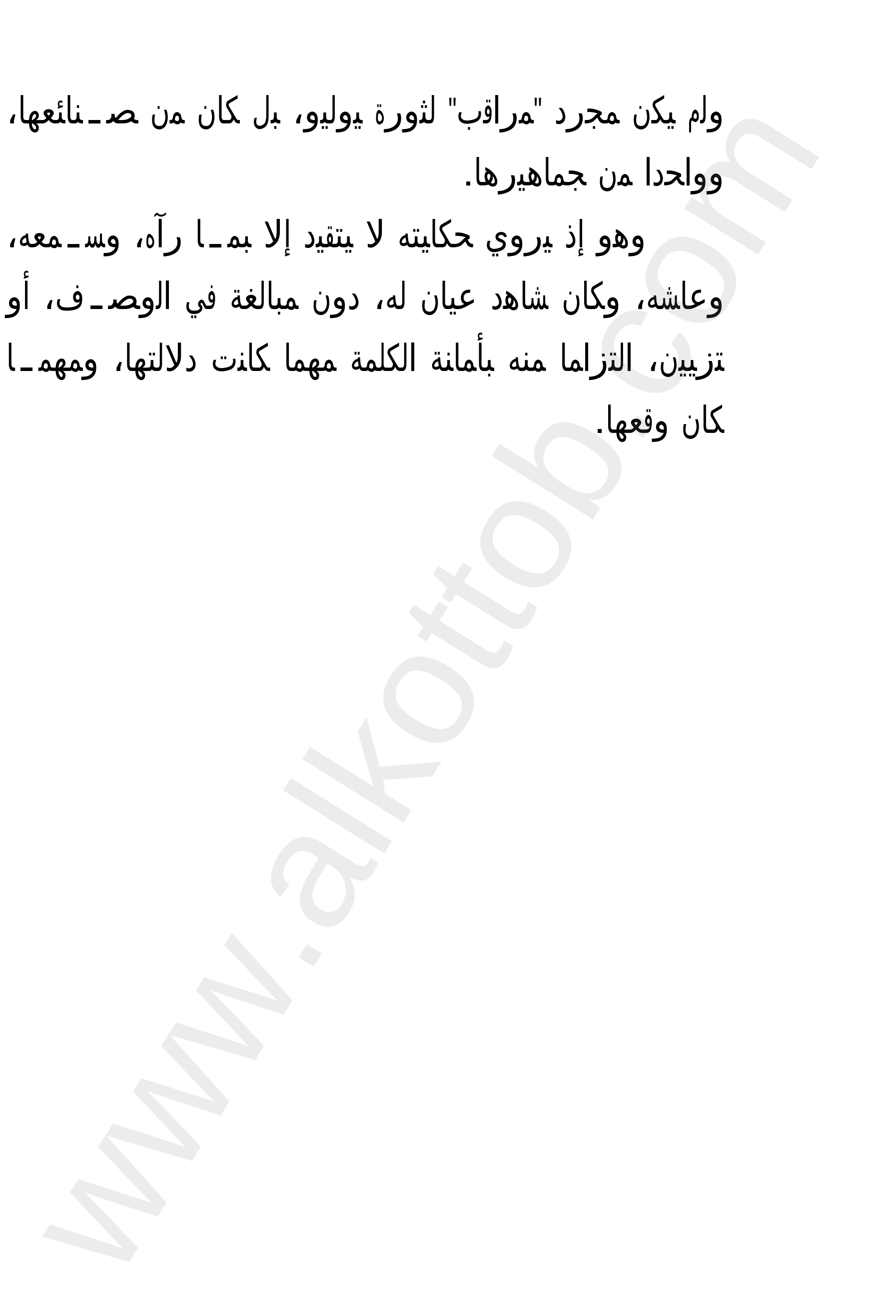
استعرض الشيخ ذلك كله في تلك الأمسية الفريدة مـن شهر أغسطس الخامس والستين من حياته، واستقر رأيه على أن يحدد على الورق آثار أقدامه على طريق الحيـاة؛ تلبيـة لرجاء أصدقائه واقتناعا برأيهم، وأداء لواجب نحـو أجيـال غاب وعيها بتاريخ وطنها، وتطور مجتمعها، لظـروف لـم يكن لهم يد في صنعها. ولتكن قصة حياته واجبا يلتـزم بـه أمام الشباب. عندئذ أحس الشيخ بالراحة، وآوى إلى فراشه، وقد عقد العزم على أن يروي حكايته: حكاية مـواطن كـان نتاجا لتحولات مصر في النصف الثاني من القرن العشرين، وحاول – ما وسعه الجهد – أن يكون نافعا لوطنـه وأمتـه. حكاية مصري عاش أحداث وطنه العربي: آمالها وآلامهـا.



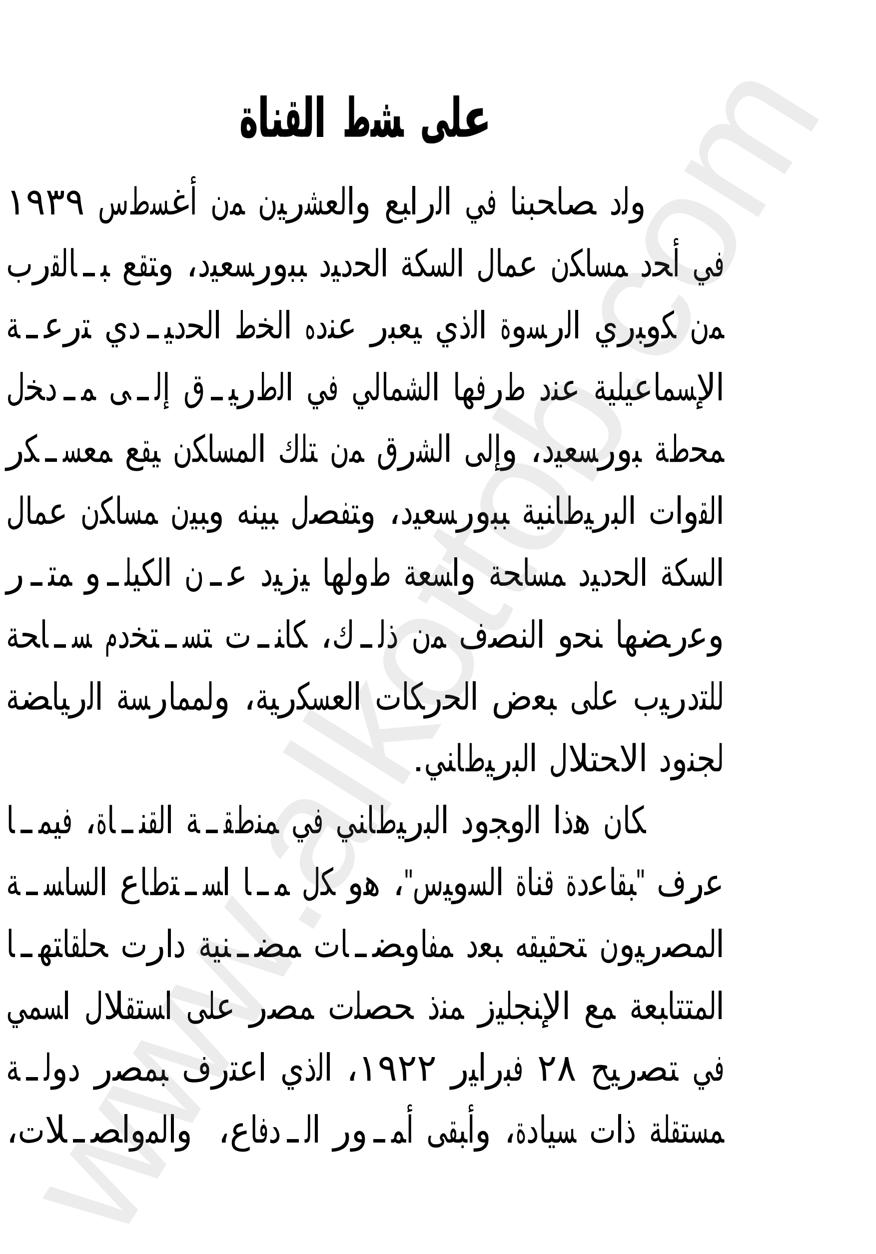
www.alkottob.com

ولم يكن مجرد "مراقب" لثورة يوليو، بل كان من صـنائعها، وواحدا من جماهيرها.

وهو إذ يروي حكايته لا يتقيد إلا بمـا رآه، وسـمعه، وعاشه، وكان شاهد عيان له، دون مبالغة في الوصـف، أو تزيين، التزاما منه بأمانة الكلمة مهما كانت دلالتها، ومهمـا كان وقعها.



www.alkottob.com



على شط القناة

ولد صاحبنا في الرابع والعشرين من أغسطس ١٩٣٩ في أحد مساكن عمال السكة الحديد ببورسعيد، وتقع بالقرب من كوبري الرسوة الذي يعبر عنده الخط الحديدي ترعة الإسماعيلية عند طرفها الشمالي في الطريق إلى مدخل محطة بورسعيد، وإلى الشرق من تلك المساكن يقع معسكر القوات البريطانية ببورسعيد، وتفصل بينه وبين مساكن عمال السكة الحديد مساحة واسعة طولها يزيد عن الكيلو متر وعرضها نحو النصف من ذلك، كانت تستخدم ساحة للتدريب على بعض الحركات العسكرية، ولممارسة الرياضة لجنود الاحتلال البريطاني.

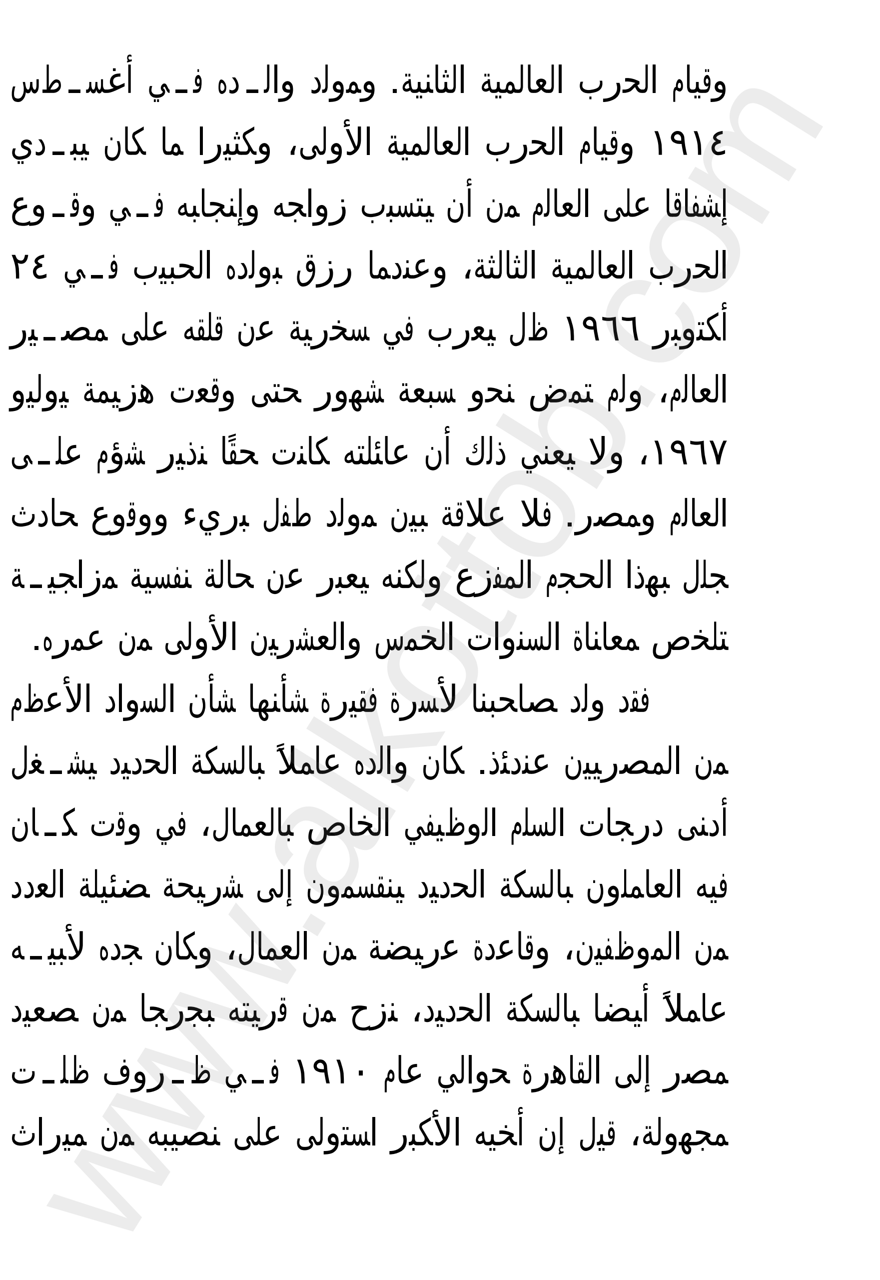
كان هذا الوجود البريطاني في منطقة القناة، فيما عرف "بقاعدة قناة السويس"، هو كل ما استطاع الساسة المصريون تحقيقه بعد مفاوضات مضنية دارت حلقاتها المتتابعة مع الإنجليز منذ حصلت مصر على استقلال اسمي في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، الذي اعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأبقى أمور الدفاع، والمواصلات،

www.alkottob.com

والأجانب والأقليات، والسودان لتكون موضوع مفاوضـات تدور بين (الحكومة المصرية) وحكومة (صـاحب الجلالـة البريطانية) للتوصل إلى تسوية بشأنها. وانتهى المطاف إلـى توقيع معاهدة ١٩٣٦ التي عقدت (تحالفًـا) بـين البلـدين، أصبحت مصر بموجبـه ملزمـة بالـدفاع عـن بريطانيـا ومساعدتها ضد أعدائها في حالة وقـوع حـرب، وتعهـدت بريطانيا بأن تفعل مثل ذلك مع مصر، وأُتفق على أن يتركز الوجود البريطاني في منطقة القناة بعد وفاء مصر بالتزاماتها لتيسير سبيل تركز الإنجليز بالقناة، وهي إنشاء معسـكرات على حسابها وفق متطلبات القوات البريطانية لتنتقل القـوات البريطانية إليها، وإنشاء شبكة طرق تـربط قنـاة السـويس بمصر لتسهيل حركة القوات البريطانية في حالات الطوارئ وقد ظل الوجود البريطاني العسـكري فـي طـول الـبلاد وعرضها حتى نهاية الحرب فتم تركيزهم في منطقـة قنـاة السويس بعد العام، ١٩٤٦.

وشاء القدر أن يولد صاحبنا في هذا الموقع بالذات في ظروف أزمة دولية أشعلت نار الحـرب العالميـة الثانيـة. وعندما أصبح شابا كان يتندر بهذا التوافق الغريب بين مولده

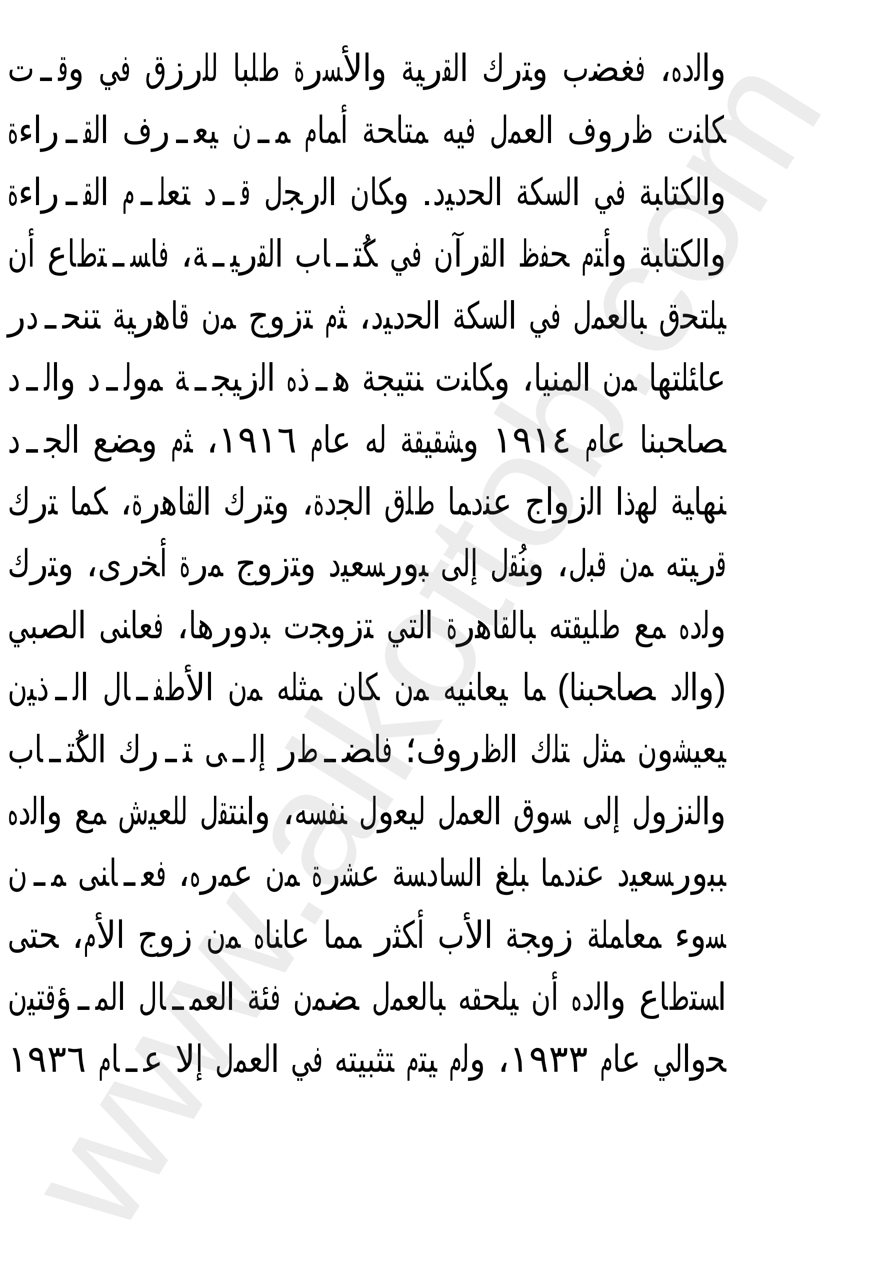
www.alkottob.com



وقيام الحرب العالمية الثانية. ومولد والـده فـي أغسـطس ١٩١٤ وقيام الحرب العالمية الأولى، وكثيرا ما كان يبـدي إشفاقا على العالم من أن يتسبب زواجه وإنجابه فـي وقـوع الحرب العالمية الثالثة، وعندما رزق بولده الحبيب فـي ٢٤ أكتوبر ١٩٦٦ ظل يعرب في سخرية عن قلقه على مصـير العالم، ولم تمض نحو سبعة شهور حتى وقعت هزيمة يوليو ١٩٦٧، ولا يعني ذلك أن عائلته كانت حقًا نذير شؤم علـى العالم ومصر. فلا علاقة بين مولد طفل بريء ووقوع حادث جلل بهذا الحجم المفزع ولكنه يعبر عن حالة نفسية مزاجيـة تلخص معاناة السنوات الخمس والعشرين الأولى من عمره.

فقد ولد صاحبنا لأسرة فقيرة شأنها شأن السواد الأعظم من المصريين عندئذ. كان والده عاملاً بالسكة الحديد يشـغل أدنى درجات السلم الوظيفي الخاص بالعمال، في وقت كـان فيه العاملون بالسكة الحديد ينقسمون إلى شريحة ضئيلة العدد من الموظفين، وقاعدة عريضة من العمال، وكان جده لأبيـه عاملاً أيضا بالسكة الحديد، نزح من قريته بجرجا من صعيد مصر إلى القاهرة حوالي عام ١٩١٠ فـي ظـروف ظلـت مجهولة، قيل إن أخيه الأكبر استولى على نصيبه من ميراث

www.alkottob.com



والده، فغضب وترك القرية والأسرة طلبا للرزق في وقـت كانت ظروف العمل فيه متاحة أمام مـن يعـرف القـراءة والكتابة في السكة الحديد. وكان الرجل قـد تعلـم القـراءة والكتابة وأتم حفظ القرآن في كُتـاب القريـة، فاسـتطاع أن يلتحق بالعمل في السكة الحديد، ثم تزوج من قاهرية تنحـدر عائلتها من المنيا، وكانت نتيجة هـذه الزيجـة مولـد والـد صاحبنا عام ١٩١٤ وشقيقة له عام ١٩١٦، ثم وضع الجـد نهاية لهذا الزواج عندما طلق الجدة، وترك القاهرة، كما ترك قريته من قبل، ونُقل إلى بورسعيد وتزوج مرة أخرى، وترك ولده مع طليقته بالقاهرة التي تزوجت بدورها، فعانى الصبي (والد صاحبنا) ما يعانيه من كان مثله من الأطفـال الـذين يعيشون مثل تلك الظروف؛ فاضـطر إلـى تـرك الكُتـاب والنزول إلى سوق العمل ليعول نفسه، وانتقل للعيش مع والده ببورسعيد عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، فعـانى مـن سوء معاملة زوجة الأب أكثر مما عاناه من زوج الأم، حتى استطاع والده أن يلحقه بالعمل ضمن فئة العمـال المـؤقتين حوالي عام ١٩٣٣، ولم يتم تثبيته في العمل إلا عـام ١٩٣٦

www.alkottob.com

الذي كان نقطة تحول في حياته، كما كان نقطة تحـول فـي حياة مصر كلها.

فقد تزوج في ذلـك العـام مـن أم صـاحبنا: فتـاة بورسعيدية من أصول دمياطية، يعمل والدها "بامبوطي" وهي مهنة معروفة في بورسعيد، يشتغل صاحبها ببيع التـذكارات الشرقية (من منتجات خان الخليلي) على ظهر قارب يسـير بجوار السفن عند دخولها القناة، ويبيـع بضـاعته للركـاب والبحارة بكل العملات المعروفة، ويتفاهم معهم بعدة لغـات. نموذج مصري تقليدي لزيجات الفقراء ممن يعملون بوظيفـة حكومية دائمة، فيسعون للزواج من شريحة اجتماعية أحسـن حالاً، وإن كانت تقع ضمن طبقة الفقراء. وأتاح الزواج لوالد صاحبنا حق الحصول على مسكن من مساكن العمال، وهـي مساكن ذات نمط واحد يتكون كل منها من غرفتين وصـالة، ومرحاض، لا يدفع العامل إيجارا لها، ويرتبط بقـاؤه فيهـا باستمراره في العمل، وجاء مولد صاحبنا في واحد من تلـك البيوت. واقتضت ظروف الحرب التوسع في خدمة السـكة الحديد للمجهود الحربي للحلفاء في قناة السويس، فنُقِل والـد صاحبنا للعمل فـي محطـة العجـرود بـين الإسـماعيلية

www.alkottob.com

والسويس، وظل هناك مع أسرته الصغيرة حتى عام ١٩٤٣ عندما نُقِل إلى القاهرة فلم تستطع الأسرة الحياة فيها بالراتب الضئيل الذي يتقاضاه الأب، الذي حرم من السكن المجـاني شانه في ذلك شأن من يعملون بالقاهرة، فسارع بطلب النقـل إلى الريف؛ فكان من نصيبه العمل بمحطة أوسيم بمحافظـة الجيزة عام ١٩٤٤ على خط المناشي (مديرية التحرير فيمـا بعد). وظلت الأسرة هناك حتى عام ١٩٥١ عندما رقِي الأب إلى وظيفة "ملاحظ بلوك" ونُقِل إلى طوخ – قليوبيـة. ومـع هذه التنقلات تأثرت أحوال صاحبنا تأثرا شديدا. فمنذ أواخر عام ١٩٤٣ عاش بالقاهرة مع جدته لأبيه. كان الأب يحـس بالذنب تجاهها لتركه لها (رغم مـا عانـاه مـن زوجهـا) وخاصة أن طلاقها من زوجها الثاني جعلها في حاجة إلـى رعاية ولدها الوحيد لها، فقد كانـت تكسـب عيشـها مـن الاشتغال بالخياطة لجيرانها من سكان المنطقة الشعبية التـي كانت تقطنها بشبرا.

رفضت الجدة أن تترك القاهرة وتعيش مع أسرة ابنها، فقد كانت تكره زوجته (أم صاحبنا) لأنها كانت من اختيـار طليقها (والده)، فخصص لها نجلها ربـع دخلـه المحـدود،

www.alkottob.com

وأصرت على أن تحتفظ بصاحبنا(الطفل) معها ليلتحق بكتاب مشهور بشبرا بأرض البدراوي الذي تقـع مقابـل مدرسـة التوفيقية على شارع شبرا. وكانت فاتحة الإقامة مع الجـدة، سقوط صاحبنا(الطفل) من الطابق الثـاني مـن فـوق درج البيت(الذي كان بلا سياج) ليهوي على رأسـه فـي صـحن البيت. وظل صوت ارتطام رأسه بالأرض يدوي في أذنيـه عدة سنوات، وظل لمدة سنتين (بعد الحادث) يهب من نومـه مذعورا يبكي لساعات. ويذكر أن الجدة وجيرانها ترددوا به على عدد من المشايخ، كان آخرهم بمشتهر، صنع له "حجابا" ظل معلقًا في رقبته نحو العامين، ولم يعد يستيقظ بعدها فـي منتصف الليل مذعورا. وذات يوم دفعه الفضول لمعرفة مـا يحتويه الحجاب، فمزق غلافه من القماش ؛ليجد بداخل الكيس ورقة مطوية عدة طيات فيها حروف متفرقة، ورسم كهيئـة الطير وسيف غُطي نصله بالكتابة، فمزق الورقـة وادعـى لجدته أن الحجاب سقط منه دون أن يدري.

ولم يكن الاستيقاظ في منتصف الليل في حالـة هلـع وذعر شديد هو كل ما ترتب على الحادث المروع من نتائج؛ فقد أصيب صاحبنا بكسر في الفك الأيسر لم ينتبه إليه أحـد

www.alkottob.com

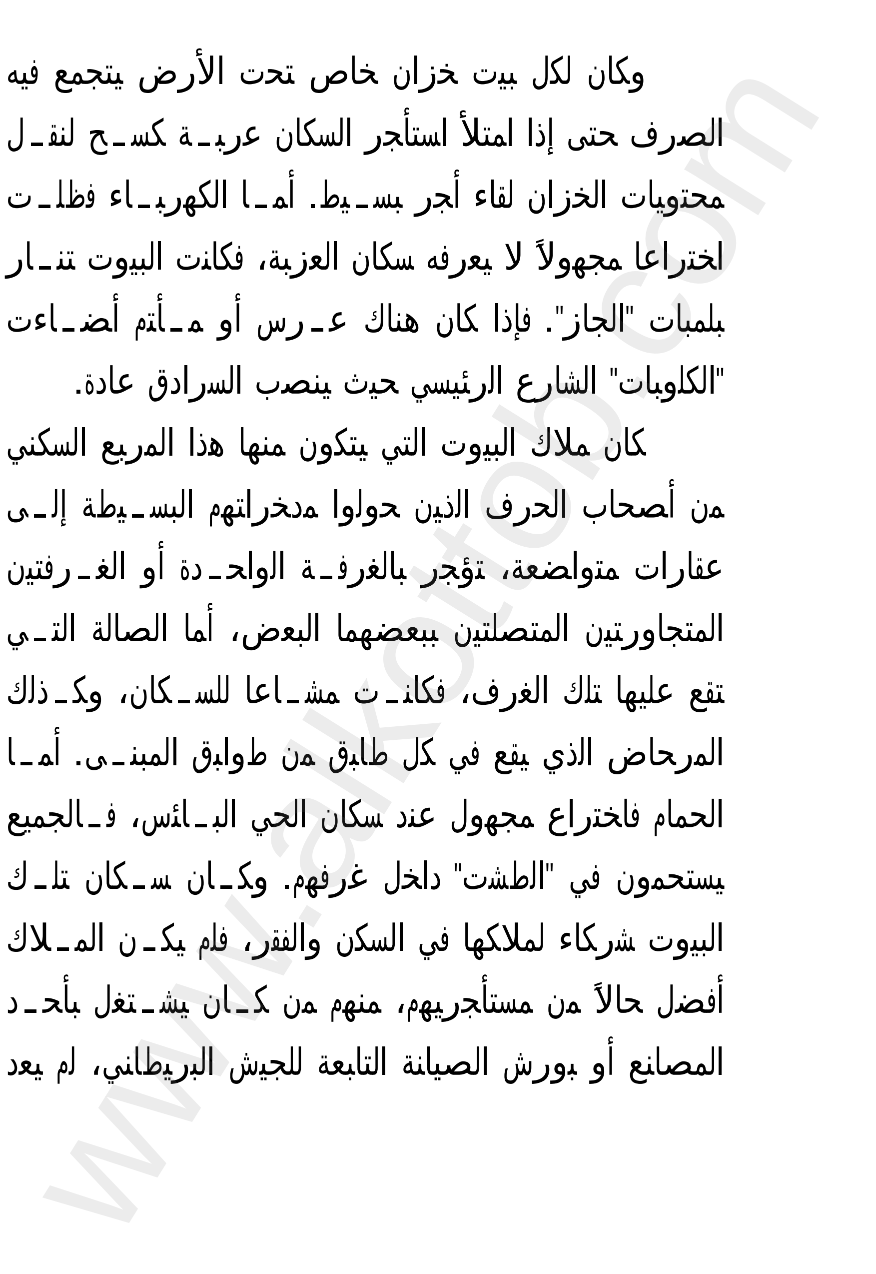
إلا بعد نحو خمس سنوات من الحادث، ترتب عليـه عـدم استطاعته فتح فمه باتساع يزيد عن نحـو واحـد ونصـف سنتيمتر. وأورثته هذه العاهة (التـي لازمتـه حتـى اليـوم وستصحبه إلى قبره) متاعب نفسية شديدة في فترة المراهقـة على وجه التحديد، فكان لا يتناول طعاما أمام غرباء عنـه؛ حتى لا يثير فضولهم السؤال عن سبب تناوله الطعام بطريقة غريبة عن المألوف. بل جعلته هذه العاهة يحرص علـى أن يكون آخر من يدخل مطعم المدرسة الابتدائية، ويتلكـأ فـي تناول وجبته حتى ينصرف من حوله على المائـدة، عندئـذ يسرع بالتهام الطعام. وأورثته تلك العاهة، وحياته بعيدا عن أسرته وأخوته الذين كان يزورهم يوم الخميس بعـد انتهـاء اليوم الدراسي، ويعود من عندهم مساء الجمعة، أورثته الميل إلى الانطواء، حذر شديد في الاختلاط مع أقرانه، وحـرص شديد في اختيار من يتخذه صديقًا. وصـاحبته الكثيـر مـن أعراض هذه الحالة النفسية حتى التحاقـه بالجامعـة، فبـدأ يتخلص – تدريجيا – منها، فلم يبق منها إلا الحرص الشديد في انتقاء الأصدقاء.

www.alkottob.com

عزبة هرميس

كانت الجدة تقيم بعزبة هرميس، التي كانت تقـع فـي نهاية شارع الرافعي، الذي يعد امتدادا لشـارع الجيوشـي، المتفرع من شارع الترعة البولاقية بشبرا، ولم تكن عزبـة هرميس التي وقعت عند سور مدخل الخط الحديـدي إلـى محطة مصر منطقة زراعية بل كانت منطقة سكنية خاضعة للتنظيم من حيث التخطيط إلى شارع رئيسـي تتفـرع منـه حواري ،وتتفرع منها دروب. وكان ارتفاع المباني فيهـا لا يتجاوز ثلاثة طوابق، تشترك معظمها في خلوها من الميـاه والصرف الصحي، فكانت هناك "حنفية عمومي" ضخمة أشبه ما تكون بصنبور الإطفاء (الآن) بجوارها "كشك يجلس فيها العامل الذي يقوم بتحصيل مليم واحد على كل قربة مـاء أو أربع صفائح مياه. وكان يتولى خدمة المنطقة سقاءان، لعلهما كانا كل ما بقي من حرفة قديمة في تلك المنطقة. أما من لـم يكن باستطاعتهم استئجار السقا، فكان عليهم أن يدبروا أمـر الحصول على الماء بأنفسهم، وكان السقا يتقاضى من الجـدة خمسة قروش شهريا.

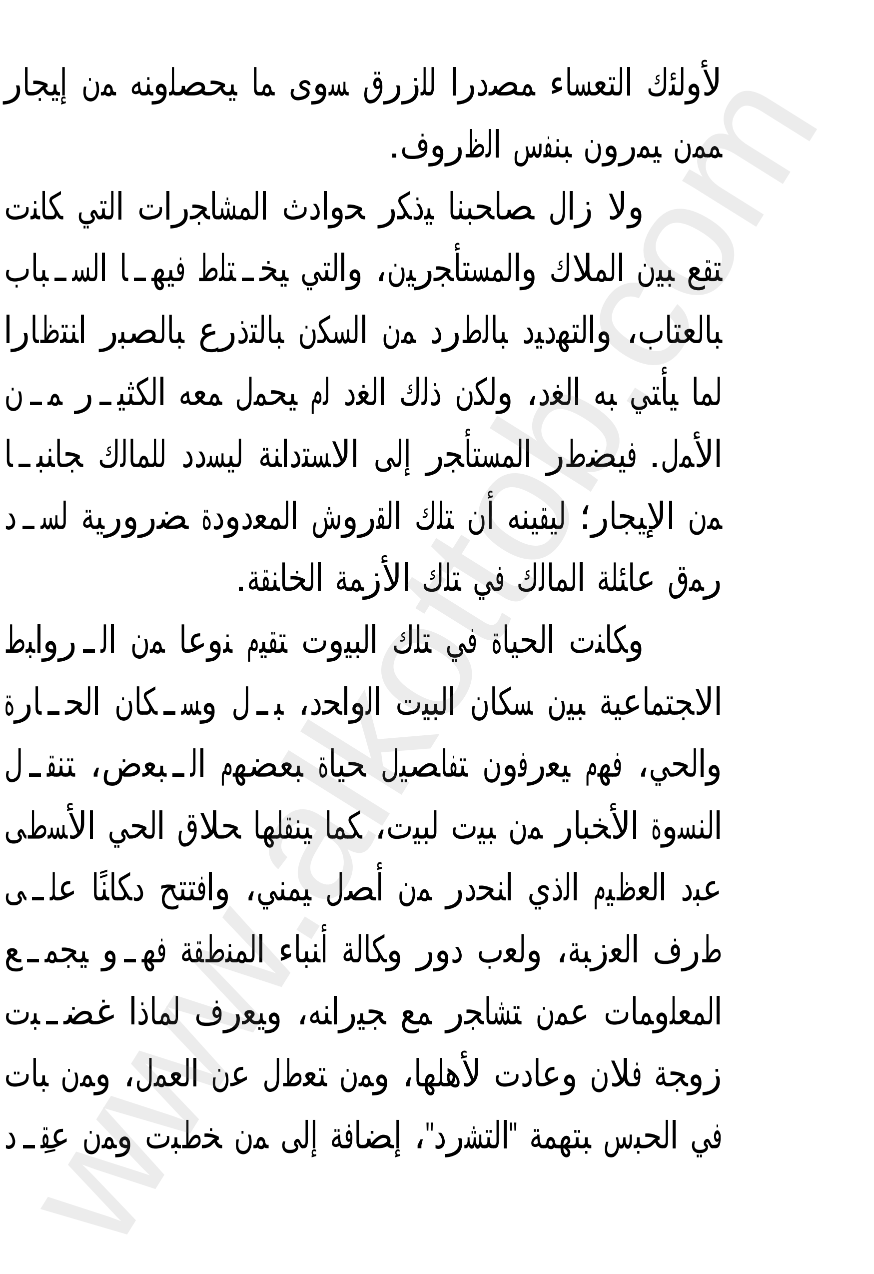
www.alkottob.com



وكان لكل بيت خزان خاص تحت الأرض يتجمع فيه الصرف حتى إذا امتلأ استأجر السكان عربة كسح لنقل محتويات الخزان لقاء أجر بسيط. أما الكهرباء فظلت اختراعا مجهولاً لا يعرفه سكان العزبة، فكانت البيوت تنار بلمبات "الجاز". فإذا كان هناك عرس أو مأتم أضاءت "الكلوبات" الشارع الرئيسي حيث ينصب السرادق عادة.

كان ملاك البيوت التي يتكون منها هذا المربع السكني من أصحاب الحرف الذين حولوا مدخراتهم البسيطة إلى عقارات متواضعة، تؤجر بالغرفة الواحدة أو الغرفتين المتجاورتين المتصلتين ببعضهما البعض، أما الصالة التي تقع عليها تلك الغرف، فكانت مشاعا للسكان، وكذلك المرحاض الذي يقع في كل طابق من طوابق المبنى. أما الحمام فاختراع مجهول عند سكان الحي البائس، فالجميع يستحمون في "الطشت" داخل غرفهم. وكان سكان تلك البيوت شركاء لملاكها في السكن والفقر، فلم يكن الملاك أفضل حالاً من مستأجريهم، منهم من كان يشتغل بأحد المصانع أو بورش الصيانة التابعة للجيش البريطاني، لم يعد

www.alkottob.com

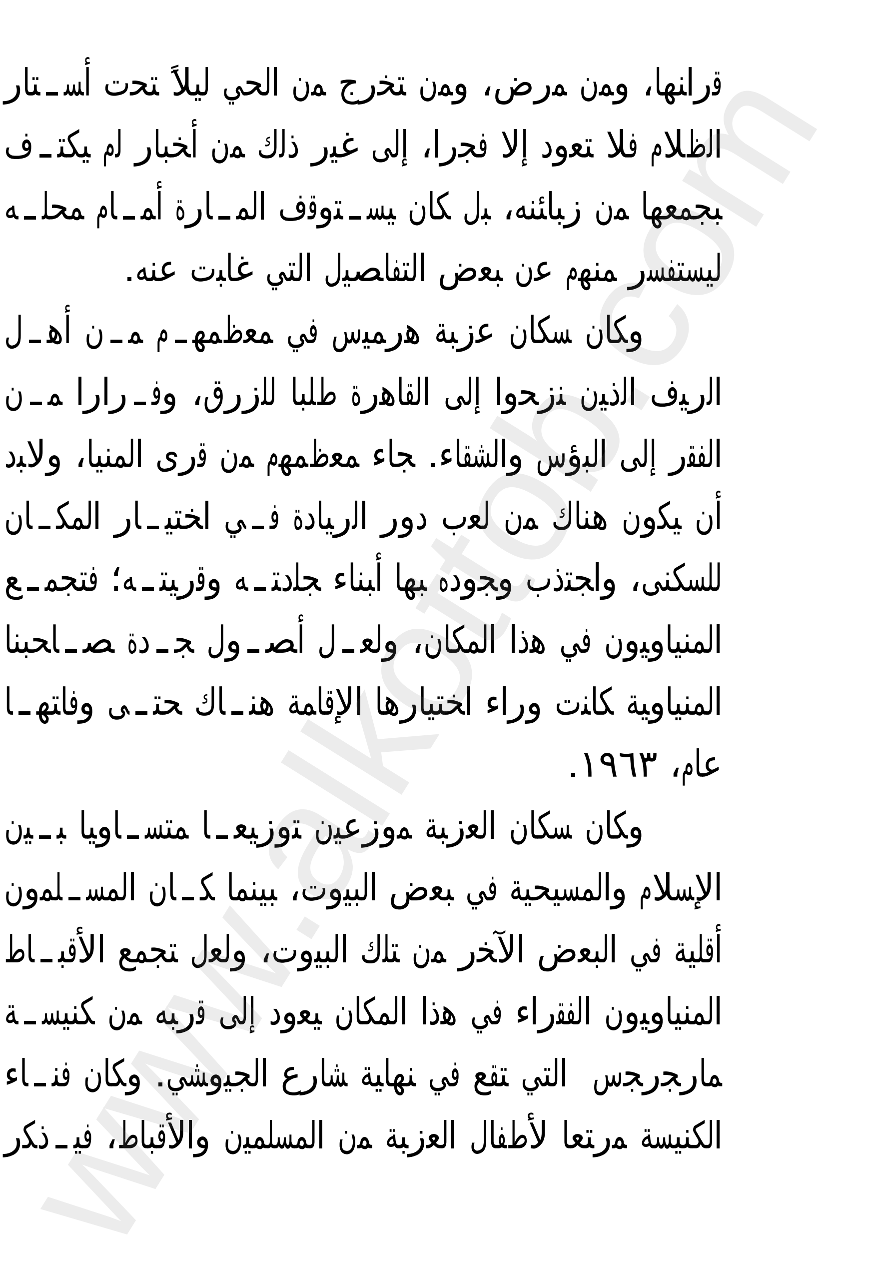


لأولئك التعساء مصدرا للزرق سوى ما يحصلونه من إيجار ممن يمرون بنفس الظروف.

ولا زال صاحبنا يذكر حوادث المشاجرات التي كانت تقع بين الملاك والمستأجرين، والتي يختلط فيها السباب بالعتاب، والتهديد بالطرد من السكن بالتذرع بالصبر انتظارا لما يأتي به الغد، ولكن ذلك الغد لم يحمل معه الكثير من الأمل. فيضطر المستأجر إلى الاستدانة ليسدد للمالك جانبا من الإيجار؛ ليقينه أن تلك القروش المعدودة ضرورية لسد رمق عائلة المالك في تلك الأزمة الخانقة.

وكانت الحياة في تلك البيوت تقيم نوعا من الروابط الاجتماعية بين سكان البيت الواحد، بل وسكان الحارة والحي، فهم يعرفون تفاصيل حياة بعضهم البعض، تنقل النسوة الأخبار من بيت لبيت، كما ينقلها حلاق الحي الأسطى عبد العظيم الذي انحدر من أصل يمني، وافتتح دكانًا على طرف العزبة، ولعب دور وكالة أنباء المنطقة فهو يجمع المعلومات عمن تشاجر مع جيرانه، ويعرف لماذا غضبت زوجة فلان وعادت لأهلها، ومن تعطل عن العمل، ومن بات في الحبس بتهمة "التشرد"، إضافة إلى من خطبت ومن عِقد

www.alkottob.com



قرانها، ومن مرض، ومن تخرج من الحي ليلاً تحت أستار الظلام فلا تعود إلا فجرا، إلى غير ذلك من أخبار لم يكتف بجمعها من زبائنه، بل كان يستوقف المارة أمام محله ليستفسر منهم عن بعض التفاصيل التي غابت عنه.

وكان سكان عزبة هرميس في معظمهم من أهل الريف الذين نزحوا إلى القاهرة طلبا للزرق، وفرارا من الفقر إلى البؤس والشقاء. جاء معظمهم من قرى المنيا، ولابد أن يكون هناك من لعب دور الريادة في اختيار المكان للسكنى، واجتذب وجوده بها أبناء جلدته وقريته؛ فتجمع المنياويون في هذا المكان، ولعل أصول جدة صاحبنا المنياوية كانت وراء اختيارها الإقامة هناك حتى وفاتها عام، ١٩٦٣.

وكان سكان العزبة موزعين توزيعا متساويا بين الإسلام والمسيحية في بعض البيوت، بينما كان المسلمون أقلية في البعض الآخر من تلك البيوت، ولعل تجمع الأقباط المنياويون الفقراء في هذا المكان يعود إلى قربه من كنيسة مارجرجس التي تقع في نهاية شارع الجيوشي. وكان فناء الكنيسة مرتعا لأطفال العزبة من المسلمين والأقباط، فيذكر

www.alkottob.com

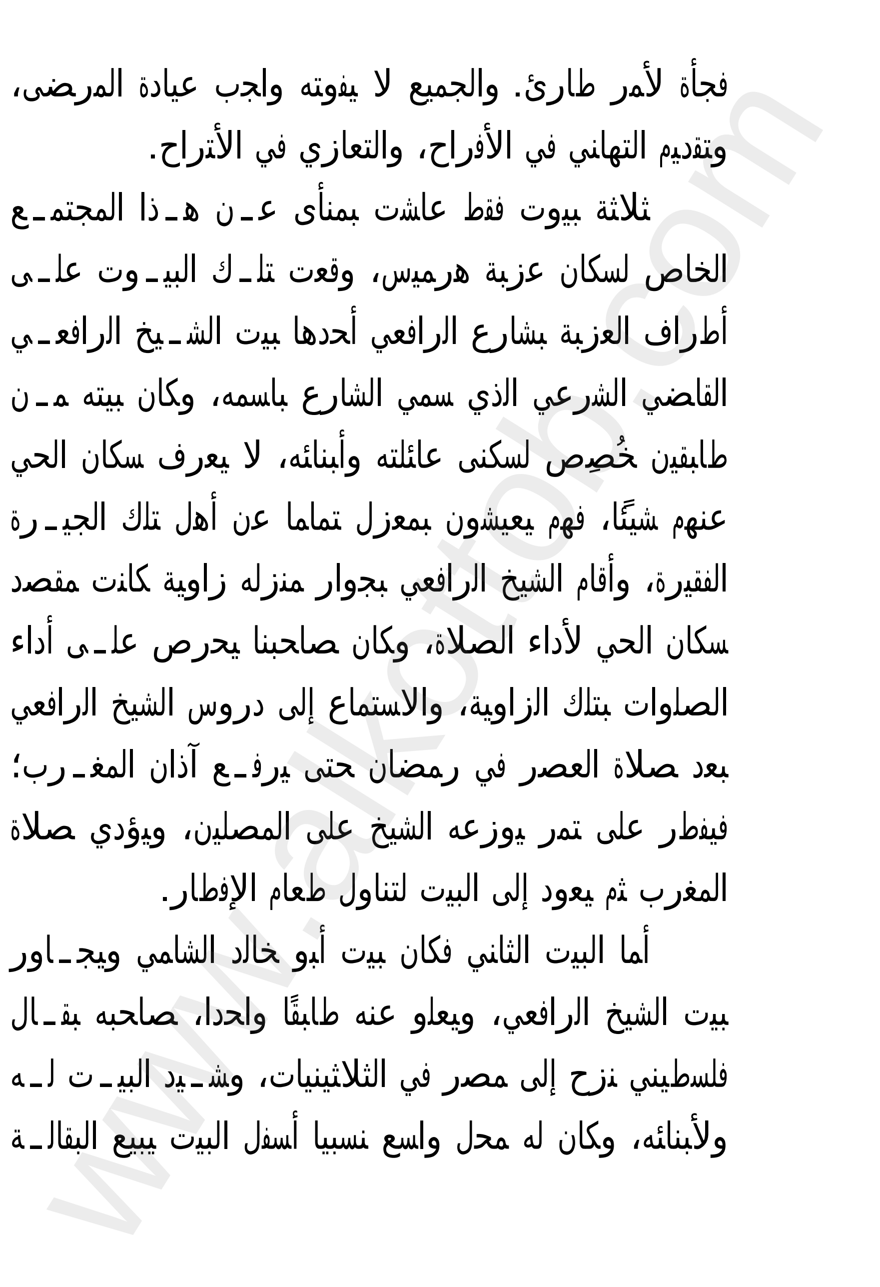
صاحبنا تلك الأيام التي شارك فيها أترابه اللعب فـي فنـاء الكنيسة، وتناول معهم لقمة القربان من يد "أبونـا" القمـص، ويذكر "عمته" أم جرجس، جارة جدته التي كانت تناديها:

"يا أمي"، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه:

"يا أخويا"، وظل صاحبنا حتى بلغ الثامنة من عمره يعتقد أن "عمته" أم جرجس شقيقة لوالده وابنة لجدته، وخاصة أن أبي جرجس كان ينادي الجدة "يا حماتي"، وعندما كـان يحـدث سوء تفاهم بين آباء جرجس كانت الجـدة تعنـف الـزوج؛ فيسترضيها ويقبل رأسها.

لذلك كانت عزبة هرميس "مصر الصـغرى" عـاش سكانها معا وكأنهم أسرة واحدة يأكلون معا من طبق واحـد، فرغم فقرهم الشديد كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلـوى. ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقًا أمام استمرار هـذه العادة، بل كان الجميع مسلمين وأقباط صائمون معظم العـام بالمفهوم القبطي للصيام، لا تعرف "طباليهم" اللحوم إلا فـي المواسم والأعياد، وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض، بل ورعاية أطفال بعضـهن البعض إذا اضطرت إحدى الأمهات إلى السفر إلى قريتهـا

www.alkottob.com

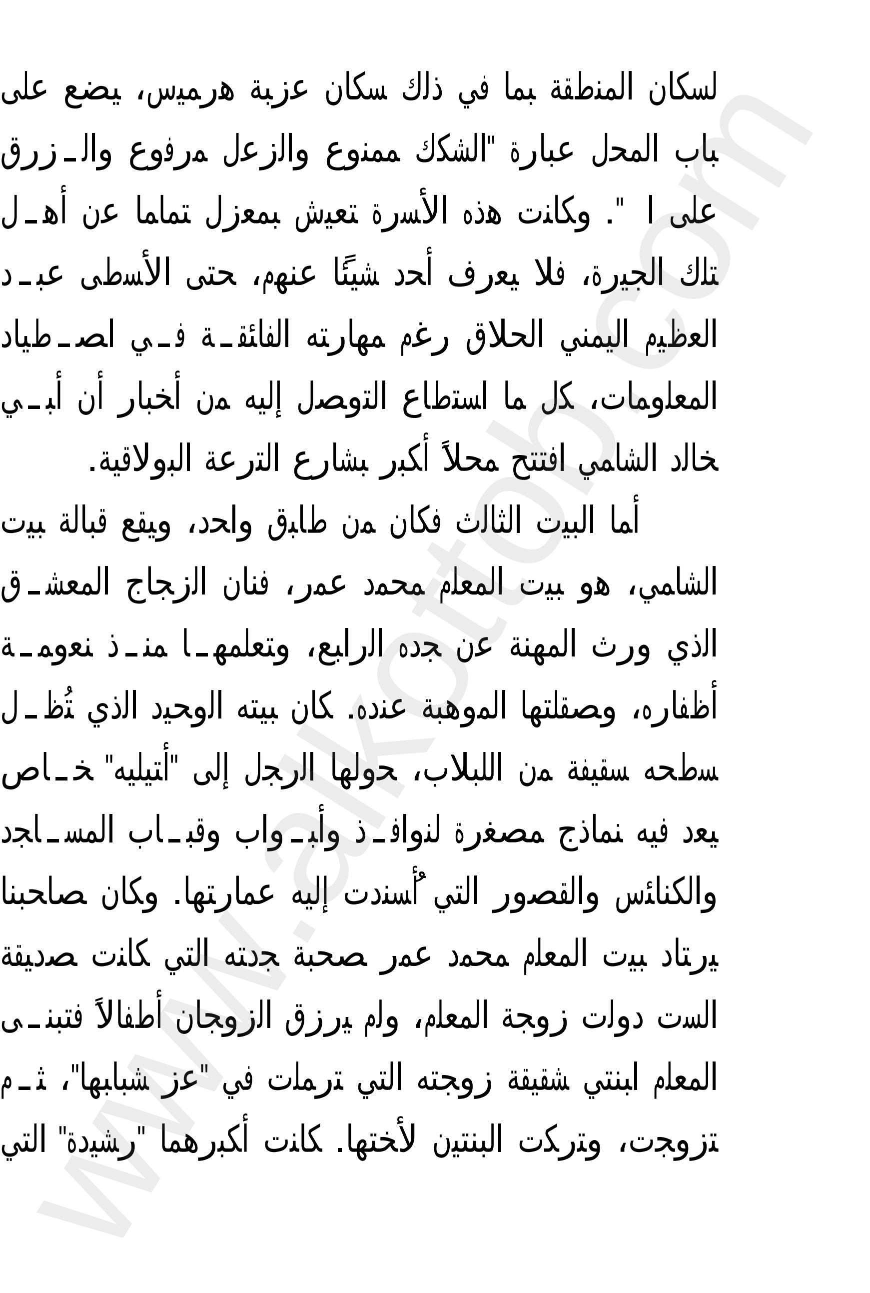


فجأة لأمر طارئ. والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضى، وتقديم التهاني في الأفراح، والتعازي في الأتراح.

ثلاثة بيوت فقط عاشت بمنأى عن هذا المجتمع الخاص لسكان عزبة هرميس، وقعت تلك البيوت على أطراف العزبة بشارع الرافعي أحدها بيت الشيخ الرافعي القاضي الشرعي الذي سمي الشارع باسمه، وكان بيته من طابقين خُصِص لسكنى عائلته وأبنائه، لا يعرف سكان الحي عنهم شيئًا، فهم يعيشون بمعزل تماما عن أهل تلك الجيرة الفقيرة، وأقام الشيخ الرافعي بجوار منزله زاوية كانت مقصد سكان الحي لأداء الصلاة، وكان صاحبنا يحرص على أداء الصلوات بتلك الزاوية، والاستماع إلى دروس الشيخ الرافعي بعد صلاة العصر في رمضان حتى يرفع آذان المغرب؛ فيفطر على تمر يوزعه الشيخ على المصلين، ويؤدي صلاة المغرب ثم يعود إلى البيت لتناول طعام الإفطار.

أما البيت الثاني فكان بيت أبو خالد الشامي ويجاور بيت الشيخ الرافعي، ويعلو عنه طابقًا واحدا، صاحبه بقال فلسطيني نزح إلى مصر في الثلاثينيات، وشيد البيت له ولأبنائه، وكان له محل واسع نسبيا أسفل البيت يبيع البقالة

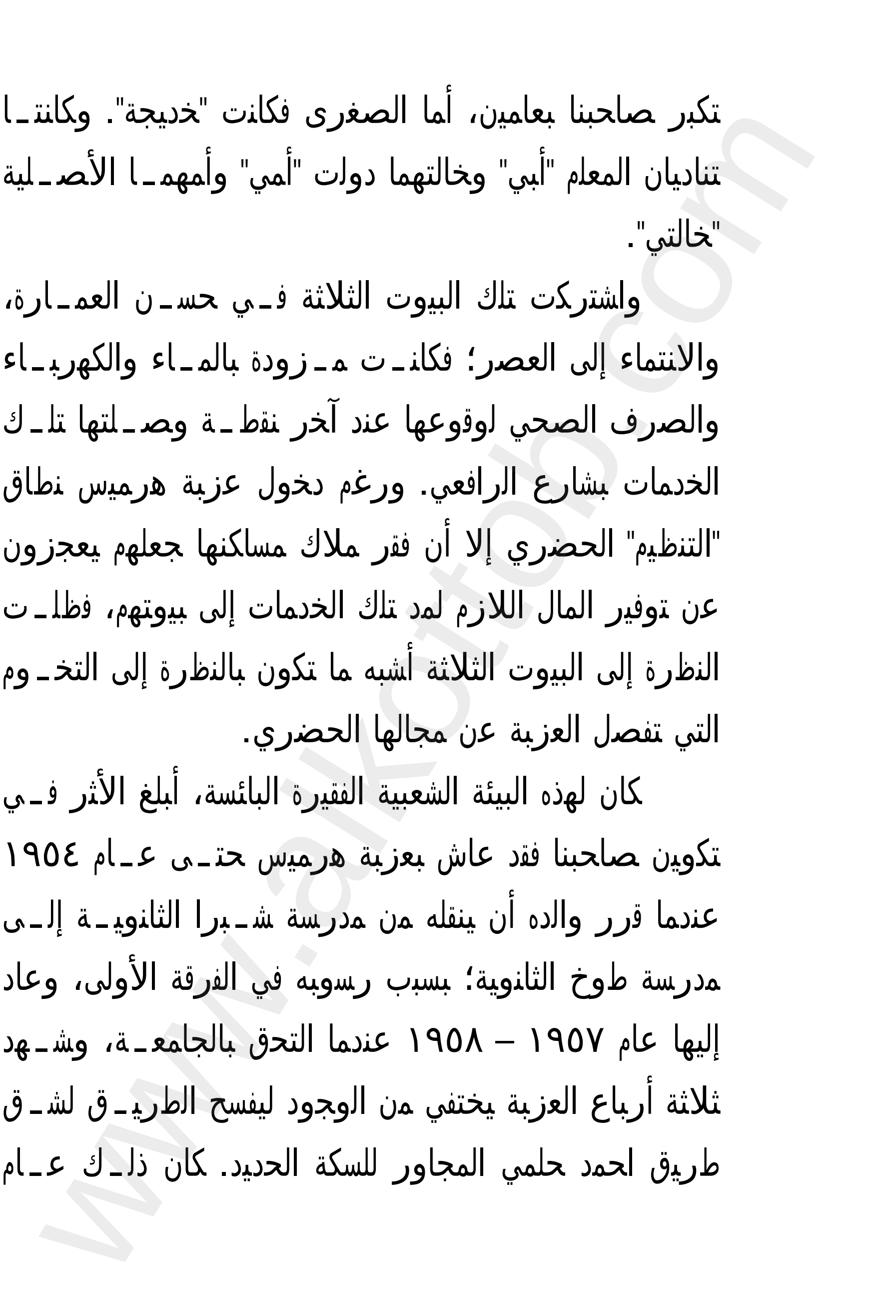
www.alkottob.com



لسكان المنطقة بما في ذلك سكان عزبة هرميس، يضع على باب المحل عبارة "الشكك ممنوع والزعل مرفوع والـزرق على ا ". وكانت هذه الأسرة تعيش بمعزل تماما عن أهـل تلك الجيرة، فلا يعرف أحد شيئًا عنهم، حتى الأسطى عبـد العظيم اليمني الحلاق رغم مهارته الفائقـة فـي اصـطياد المعلومات، كل ما استطاع التوصل إليه من أخبار أن أبـي خالد الشامي افتتح محلاً أكبر بشارع الترعة البولاقية.

أما البيت الثالث فكان من طابق واحد، ويقع قبالة بيت الشامي، هو بيت المعلم محمد عمر، فنان الزجاج المعشـق الذي ورث المهنة عن جده الرابع، وتعلمهـا منـذ نعومـة أظفاره، وصقلتها الموهبة عنده. كان بيته الوحيد الذي تُظـل سطحه سقيفة من اللبلاب، حولها الرجل إلى "أتيليه" خـاص يعد فيه نماذج مصغرة لنوافـذ وأبـواب وقبـاب المسـاجد والكنائس والقصور التي أُسندت إليه عمارتها. وكان صاحبنا يرتاد بيت المعلم محمد عمر صحبة جدته التي كانت صديقة الست دولت زوجة المعلم، ولم يرزق الزوجان أطفالاً فتبنـى المعلم ابنتي شقيقة زوجته التي ترملت في "عز شبابها"، ثـم تزوجت، وتركت البنتين لأختها. كانت أكبرهما "رشيدة" التي

www.alkottob.com



تكبر صاحبنا بعامين، أما الصغرى فكانت "خديجة". وكانتـا تناديان المعلم "أبي" وخالتهما دولت "أمي" وأمهمـا الأصـلية "خالتي".

واشتركت تلك البيوت الثلاثة فـي حسـن العمـارة، والانتماء إلى العصر؛ فكانـت مـزودة بالمـاء والكهربـاء والصرف الصحي لوقوعها عند آخر نقطـة وصـلتها تلـك الخدمات بشارع الرافعي. ورغم دخول عزبة هرميس نطاق "التنظيم" الحضري إلا أن فقر ملاك مساكنها جعلهم يعجزون عن توفير المال اللازم لمد تلك الخدمات إلى بيوتهم، فظلـت النظرة إلى البيوت الثلاثة أشبه ما تكون بالنظرة إلى التخـوم التي تفصل العزبة عن مجالها الحضري.

كان لهذه البيئة الشعبية الفقيرة البائسة، أبلغ الأثر فـي تكوين صاحبنا فقد عاش بعزبة هرميس حتـى عـام ١٩٥٤ عندما قرر والده أن ينقله من مدرسة شـبرا الثانويـة إلـى مدرسة طوخ الثانوية؛ بسبب رسوبه في الفرقة الأولى، وعاد إليها عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨ عندما التحق بالجامعـة، وشـهد ثلاثة أرباع العزبة يختفي من الوجود ليفسح الطريـق لشـق طريق احمد حلمي المجاور للسكة الحديد. كان ذلـك عـام

www.alkottob.com

١٩٦١ عندما نُزعت ملكية تلك البيوت الفقيرة وبدأت معاول الهدم تسويها بالأرض، من بينها البيت الذي أورثـه عاهـة مستديمة عندما سقط من الطابق الثاني، والبيت الذي انتقلـت إليه الجدة (بعد الحادث)، وبيت ثالث انتقلت إليه الجدة بعدما رغب صاحبه في الحصول علـى غرفتهـا لسـكنى ولـده المتزوج حديثًا. هذه البيوت الثلاثـة الـذي طويـت تحـت (أسفلت) طريق أحمد حلمي شهدت طفولة وصبا صاحبنا.

كان الكُتاب هو التعليم الذي حصله جده وأباه، فقد حلم الجـد والأب بالدراسة في الأزهر، والحصـول علـى "العالميـة". فالأزهر كان المؤسسة التعليمية المتاحة للفقراء الذين تقعدهم رسوم الدراسة بالمدارس (التي لم تتوفر إلا للطبقة الوسطى) عن الالتحاق بالمدارس. وإذا كانـت ظـروف الجـد والأب العائلية قد حالت دون تحقيق أي منهما آماله في التعليم، فقـد علق الأب أمله على صاحبنا ليحقق أمله في أن يصبح والـدا لعالم من علماء الأزهر.

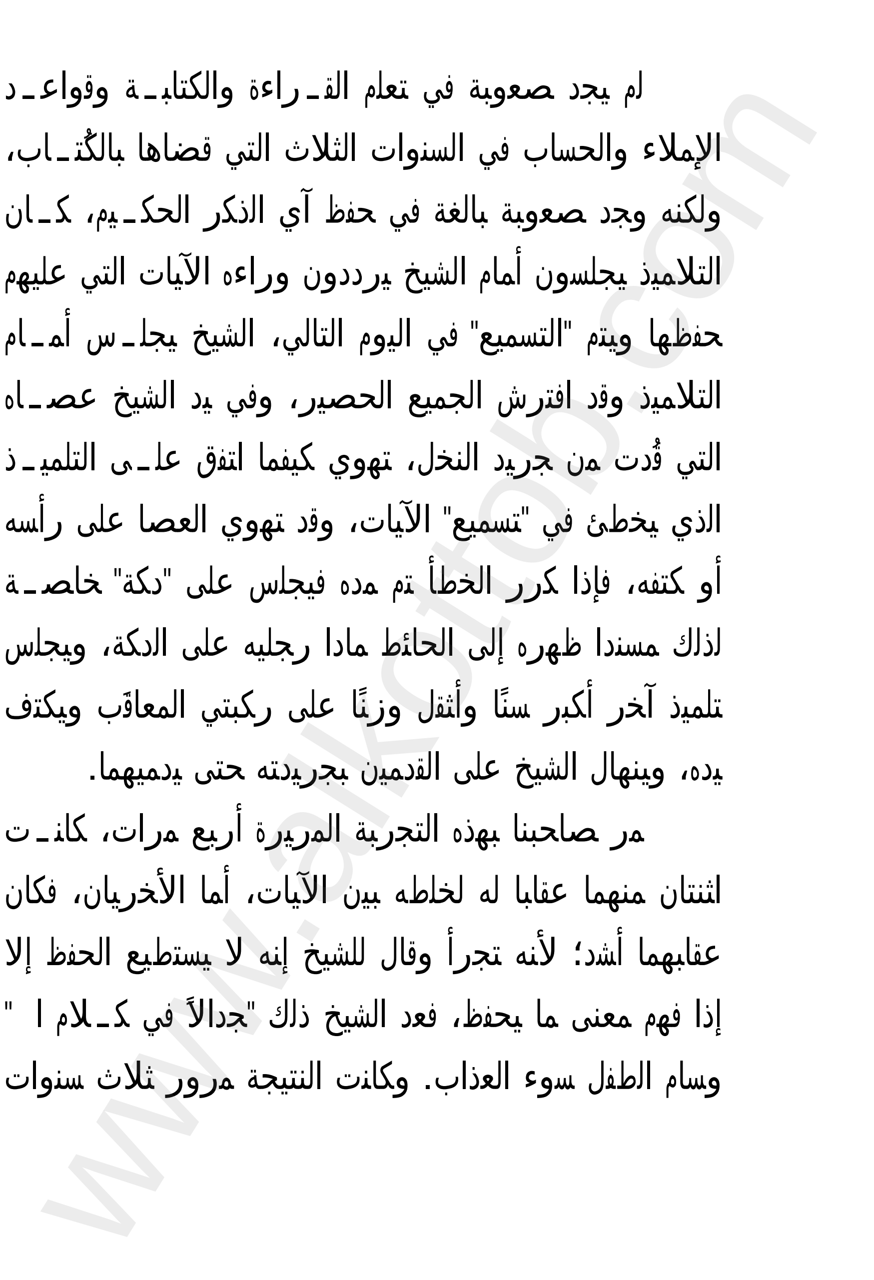
التحق الطفل ابن الرابعة بكتاب يحمل اسم "مدرسة الفتـوح الجديدة الأولية" يقع في شـقة بالـدور الأرضـي بـأرض البدراوي التي تقع في ظهير شارع شيكولاني المتفرع مـن

www.alkottob.com

شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية الثانوية (وقد أصبح اسـم الشارع مستشفى كتشنر، ثم "المستشفى" بعد الثورة)، وكانت الشقة مكونة من حجرتين وصالة، تقيم صاحبة المدرسـة (أم جلال) بإحدى الغرف، وهي أرملة صاحب الكُتـاب. تولـت إدارته بعد رحيل زوجها، واستعانت باثنين من الفقهاء مـن قراء القرآن الذين حصلوا تعليما دينيا محدودا لا يرقى إلـى مستوى الأزهر، كان أحدهما الشيخ محمد أبو السعود نصف كفيف أو نصف مبصر، والآخر الشيخ محمد حسان. كانـت مهمة الأخير تعليم الصبية القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وكانت مهمة الأول تحفيظ القرآن، أما أم جلال فكانت تتولى تعليم الأبجدية للتلاميذ الجدد، رغم أميتها، فلم تكـن تعـرف سوى الأبجدية.

ويذكر صاحبنا يومه الأول بالكُتاب، عندما سأله الشيخ عن اسمه، فقال: "رءوف" ففزع الشيخ واستعاذ با ، وأمـره أن يفتح يده ليضربه بقطعة من جريد النخل، ثـم قـال لـه: "الرءوف هو ا .. أما اسمك فعبد الرءوف.. اسمك إيه "فرد الطفل بصوت خنقه البكاء: "عبد الرءوف" .كانـت البدايـة منفرة، جعلت الطفل يكره الكُتاب.

www.alkottob.com



لم يجد صعوبة في تعلم القـراءة والكتابـة وقواعـد الإملاء والحساب في السنوات الثلاث التي قضاها بالكُتـاب، ولكنه وجد صعوبة بالغة في حفظ آي الذكر الحكـيم، كـان التلاميذ يجلسون أمام الشيخ يرددون وراءه الآيات التي عليهم حفظها ويتم "التسميع" في اليوم التالي، الشيخ يجلـس أمـام التلاميذ وقد افترش الجميع الحصير، وفي يد الشيخ عصـاه التي قُدت من جريد النخل، تهوي كيفما اتفق علـى التلميـذ الذي يخطئ في "تسميع" الآيات، وقد تهوي العصا على رأسه أو كتفه، فإذا كرر الخطأ تم مده فيجلس على "دكة" خاصـة لذلك مسندا ظهره إلى الحائط مادا رجليه على الدكة، ويجلس تلميذ آخر أكبر سنًا وأثقل وزنًا على ركبتي المعاقَب ويكتف يده، وينهال الشيخ على القدمين بجريدته حتى يدميهما.

مر صاحبنا بهذه التجربة المريرة أربع مرات، كانـت اثنتان منهما عقابا له لخلطه بين الآيات، أما الأخريان، فكان عقابهما أشد؛ لأنه تجرأ وقال للشيخ إنه لا يستطيع الحفظ إلا إذا فهم معنى ما يحفظ، فعد الشيخ ذلك "جدالاً في كـلام ا " وسام الطفل سوء العذاب. وكانت النتيجة مرور ثلاث سنوات

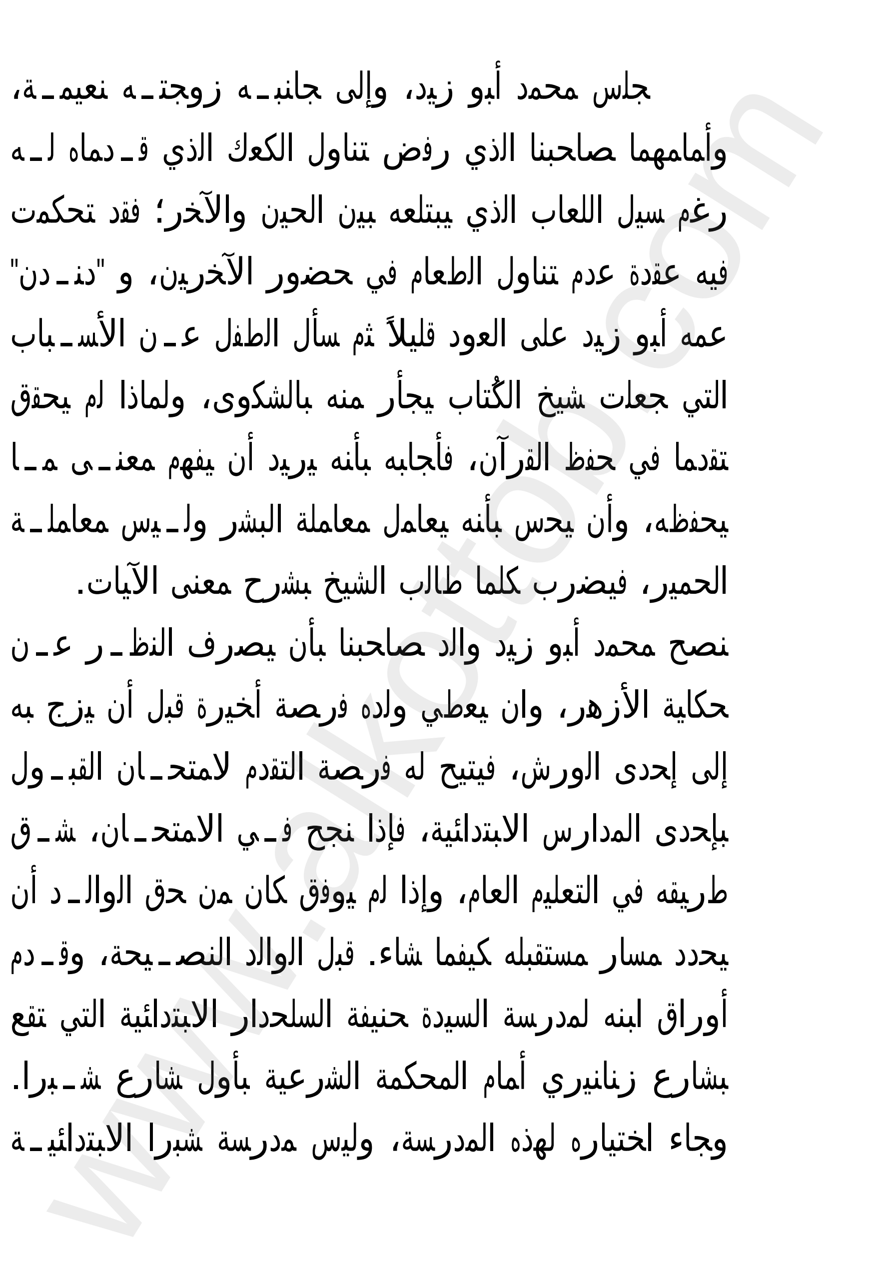
www.alkottob.com

لم يستطع خلالها سوى حفظ "العشر الأخيـر" مـن القـرآن الكريم.

ولم يقتصر الأمر على ما لقيه الطفل من عذاب علـى يد الشيخ، بل كان والده يقرعه كل أسبوع عنـدما يـراه لا يحقق التقدم المأمول في الطريق إلى حفظ القرآن واستظهاره تمهيدا لدخوله الأزهر، وكانت جدته تروي لجيرانهـا قصـة "خيبة الأمل اللي راكبة جمل" فأحس الطفل بالكراهية للشـيخ ولأهله، بل ولنفسه، وزاده ذلك إحساسا بالاغتراب وميلاً إلى الانطواء، والانزواء بعيدا عن أقرانه.

كان للأب زميل في العمل وصديق يدعى محمد أبـو زيد رجلاً طيبا لم يرزق أبناء، وكان فنانًا مرهف الحس يجيد العزف على العود. وعندما ضاق الأب ذرعا بخيبة الأمل في والده عبر لصديقه عن رغبته في أن يدفع بولده إلى إحـدى الورش عساه يتعلم "صنعة تنفعه" طالما كان لا يصلح للتعليم، فهال ذلك الأمر صديقه محمد أبو زيد وطلب منه أن يتـذرع بالصبر ويعطيه فرصة لسماع وجهة نظر الطفل، فقبل الأب على مضض.

www.alkottob.com



جلس محمد أبو زيد، وإلى جانبـه زوجتـه نعيمـة، وأمامهما صاحبنا الذي رفض تناول الكعك الذي قـدماه لـه رغم سيل اللعاب الذي يبتلعه بين الحين والآخر؛ فقد تحكمت فيه عقدة عدم تناول الطعام في حضور الآخرين، و "دنـدن" عمه أبو زيد على العود قليلاً ثم سأل الطفل عـن الأسـباب التي جعلت شيخ الكُتاب يجأر منه بالشكوى، ولماذا لم يحقق تقدما في حفظ القرآن، فأجابه بأنه يريد أن يفهم معنـى مـا يحفظه، وأن يحس بأنه يعامل معاملة البشر ولـيس معاملـة الحمير، فيضرب كلما طالب الشيخ بشرح معنى الآيات.

نصح محمد أبو زيد والد صاحبنا بأن يصرف النظـر عـن حكاية الأزهر، وان يعطي ولده فرصة أخيرة قبل أن يزج به إلى إحدى الورش، فيتيح له فرصة التقدم لامتحـان القبـول بإحدى المدارس الابتدائية، فإذا نجح فـي الامتحـان، شـق طريقه في التعليم العام، وإذا لم يوفق كان من حق الوالـد أن يحدد مسار مستقبله كيفما شاء. قبل الوالد النصـيحة، وقـدم أوراق ابنه لمدرسة السيدة حنيفة السلحدار الابتدائية التي تقع بشارع زنانيري أمام المحكمة الشرعية بأول شارع شـبرا. وجاء اختياره لهذه المدرسة، وليس مدرسة شبرا الابتدائيـة

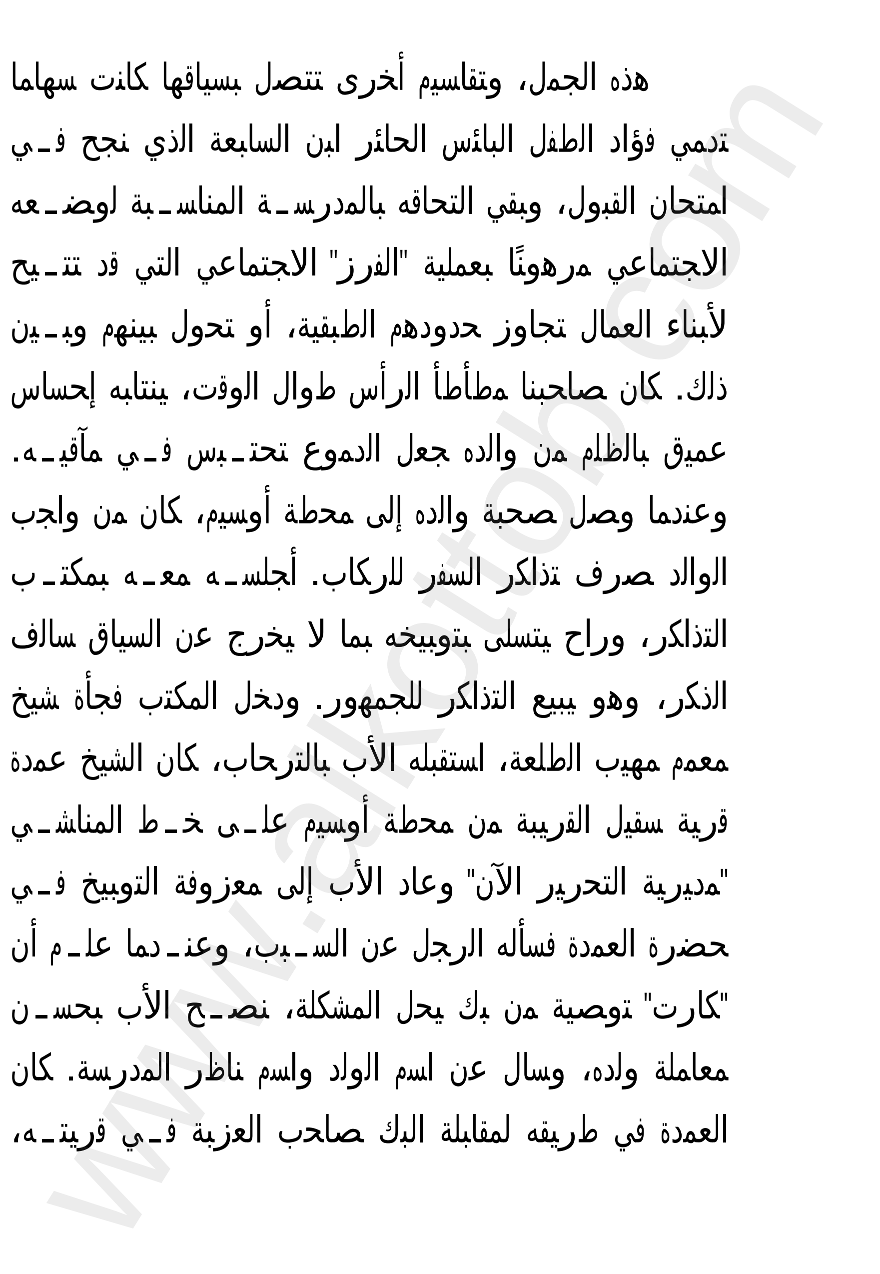
www.alkottob.com

الأقرب موقعا من عزبة هرميس حيث يقيم مـع الجـدة؛ أن لمدرسة السيدة حنيفة السلحدار وقف خاص للإنفـاق علـى المدرسة التي خصصتها صاحبة الوقف لتعليم أبنـاء فقـراء المسلمين. فكان الاختيار مرتبطًا بما توفره هذه المدرسة من ميزة تحمل الوقف الخاص بالمدرسة لثلثي رسوم الدراسة.

أدى صاحبنا امتحان القبول في الحسـاب والإمـلاء، وذهب إلى المدرسة برفقة والده لاسـتطلاع النتيجـة عنـد سكرتير المدرسة، فعلم منه أن النجاح كان من نصيبه، وأنه قُبل بالمدرسة، ولكن القبول لا يعـد نهائيـا إلا إذا أحضـر "كارت" توصية من أحد "البكوات" موجهـا إلـى "حضـرة صاحب العزة محمد بك الكاشف ناظر المدرسة".

خرج الوالد من المدرسة مكتئبا، يائسا، يصب جام غضبه – طوال الطريق إلى باب الحديد، وطوال رحلة القطـار إلـى أوسيم – على ولده المسكين قائلاً: "آدى أخرة كلام عمك أبو زيد.. فاكرك بني آدم. ماله الكُتاب.. ده من توبنا. لكن تقول إيه للخيبة.. تقدر تقوللي أجيب لك كارت (بك) إزاي؟! لازم ترجع الكُتاب وتحفظ القرآن في سنة واحدة.. أو أبعتك ورشة تتعلم صنعة ما دمت فقري".

www.alkottob.com



هذه الجمل، وتقاسيم أخرى تتصل بسياقها كانت سهاما تدمي فؤاد الطفل البائس الحائر ابن السابعة الذي نجح فـي امتحان القبول، وبقي التحاقه بالمدرسـة المناسـبة لوضـعه الاجتماعي مرهونًا بعملية "الفرز" الاجتماعي التي قد تتـيح لأبناء العمال تجاوز حدودهم الطبقية، أو تحول بينهم وبـين ذلك. كان صاحبنا مطأطأ الرأس طوال الوقت، ينتابه إحساس عميق بالظلم من والده جعل الدموع تحتـبس فـي مآقيـه. وعندما وصل صحبة والده إلى محطة أوسيم، كان من واجب الوالد صرف تذاكر السفر للركاب. أجلسـه معـه بمكتـب التذاكر، وراح يتسلى بتوبيخه بما لا يخرج عن السياق سالف الذكر، وهو يبيع التذاكر للجمهور. ودخل المكتب فجأة شيخ معمم مهيب الطلعة، استقبله الأب بالترحاب، كان الشيخ عمدة قرية سقيل القريبة من محطة أوسيم علـى خـط المناشـي "مديرية التحرير الآن" وعاد الأب إلى معزوفة التوبيخ فـي حضرة العمدة فسأله الرجل عن السـبب، وعنـدما علـم أن "كارت" توصية من بك يحل المشكلة، نصـح الأب بحسـن معاملة ولده، وسال عن اسم الولد واسم ناظر المدرسة. كان العمدة في طريقه لمقابلة البك صاحب العزبة فـي قريتـه،

www.alkottob.com

ورغم أنه لم يذكر ذلك لوالد صاحبنا عندما سمع منه القصة كاملة، عاد مساء اليوم نفسه حاملاً كارت التوصية؛ وبـذلك وجد صاحبنا نفسه تلميذًا في السيدة حنيفة السـلحدار، وبـدأ النحس الذي لازمه منذ الرابعة من عمره ينقشـع، وتحـول الكُتاب وقسوة الشيخ، وساديته في تعذيب التلاميذ إلى مصاف الذكريات الحزينة.

وإذا كان النحس قد فارقه عند هـذا المنعطـف مـن حياته، فإن ذلك لم يضع نهاية لعقدته النفسية، فمنـذ وعـى، كان يسمع جدته تختتم صلواتها (التي تحرص عليها) بالدعاء على أمه سائلة ا أن "يحرق قلبها على أولادهـا" وكانـت تعامله بجفاء شديد، تمنعه من الخروج من الغرفة محـدودة المساحة إلى الشارع، ولم يستطع أن يتمتع بمـا يتمتـع بـه أترابه من حرية اللعب إلا بعد التحاقه بالمدرسـة، فكـان لا يعود إلى البيت كل يوم إلا قبيل الغروب، يتوقف أثناء العودة بملاعب التوفيقية الثانوية للفرجة على تـدريبات الملاكمـة والمصارعة والجمباز، ثم يتوقف في فناء كنيسة مارجرجس.

وحرصت الجدة على أن تكلفه بأمور لا تفسير لهـا سوى إرهاقه انتقاما من أمه في شخصه، فلا ترتـاح إلا إذا

www.alkottob.com

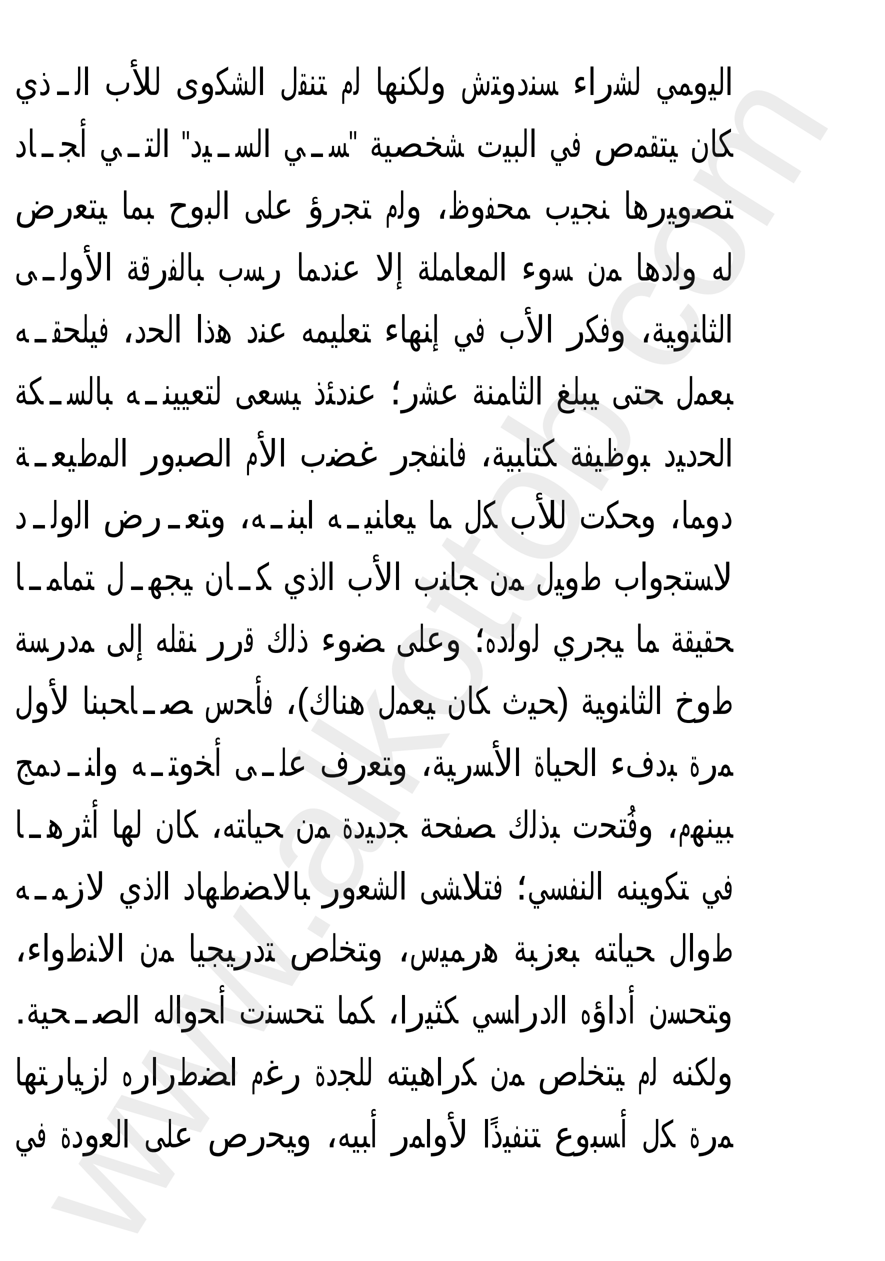
أرسلته إلى حقول منية السيرج ليقطع المسافة فـي سـاعتين ذهابا وإيابا ليشتري من هناك بخمسـة مليمـات الملوخيـة والطماطم ويحصل على الفجل والجرجير (فوق البيعة). حتى إذا عاد من تلك الرحلة المضنية، صبت عليه وعلـى أمـه اللعنات ؛لأنه تأخر في مشوار هو مجرد "فركة كعـب". وإذا احتاجت لشراء الخبز أرسلته إلى مخبز يقع علـى مسـيرة ساعة ذهابا وإيابا برغم توفر الخبز عند بقال الحي. وكانـت ترى أن وجبة العشاء مضرة ولا تنفعه؛ لأنه صغير وتنـاول العشاء قبل النوم يؤثر على قدرته على الفهم، وتتناول وحدها العشاء وهو يرقبها حتى تَعود على ذلك، فحذف من قاموسه مصطلح العشاء. وإذا طبخت لحما أكلتـه وحـدها (لأنهـا مريضة والحكيم وصفه لها)، وعندما تجرأ وأكل - سـرا – قطعة من اللحم ظنًا منه أنها لن تكتشف الأمر، اتضح أنهـا تحمل معها (محضر الجرد) فاكتشفت السرقة، ولعنته وأمـه لأنه (مفجوع) مثلها، وتوعدته أن ينال من ا جزاء السارق، فيصلى نارا موقدة. أما الإفطار فلا مكان لـه سـوى أيـام الكُتاب، أما بعد الالتحاق بالمدرسة فلم تعد هناك حاجة إليه؛ لأن المدرسة تقدم وجبة ساخنة أيام السبت والأحد والثلاثـاء

www.alkottob.com

والأربعاء، ووجبة جافة يومي الاثنين والخمـيس، وتنـاول وجبة الإفطار يؤثر على قدرته على التحصيل. فكان عليه أن يذهب إلى المدرسة في الصباح سيرا على الأقدام لمدة ساعة يوميا، دون أن يتناول طعاما منذ ظهر اليوم السابق.

غير أن تطورا خطيرا عوضه عـن الحرمـان مـن الإفطار؛ فقد رفع والده مصروفه اليومي من مليم واحد (أيام الكُتاب) إلى خمسة مليمات دفعـة واحـدة عنـدما التحـق بالمدرسة، وكانت الجدة ملزمة بإعطائه المصروف يوميـا؛ لأن والده يعطيها أمامه مصـروف الشـهر ويحـدد قيمـة مصروفه اليومي، فكان يصر على الحصول على الخمسـة مليمات يوميا، يشتري بها سندوتش أحيانًا، ويشتري بها مجلة "البعكوكة" أسبوعيا، وعندما اكتشف وجود مجلة "سندباد" كان يشتريها من بائع الصحف بالتقسيط، فيدفع له خمسة مليمـات لمدة أربعة أيام متتالية، وظل يشتري "البعكوكة"؛ وبذلك لـم يتبق له إلا مصروف يوم واحد. شكا حاله لأمه يومـا عنـد زيارته لأسرته في نهاية الأسـبوع، فبكـت وهـي تسـتمع لشكواه، وحرصت على أن تعطيه (سـرا) ثلاثـة قـروش أسبوعيا حتى يشتري مجلاته المحببة، ويحتفظ بالمصـروف

www.alkottob.com



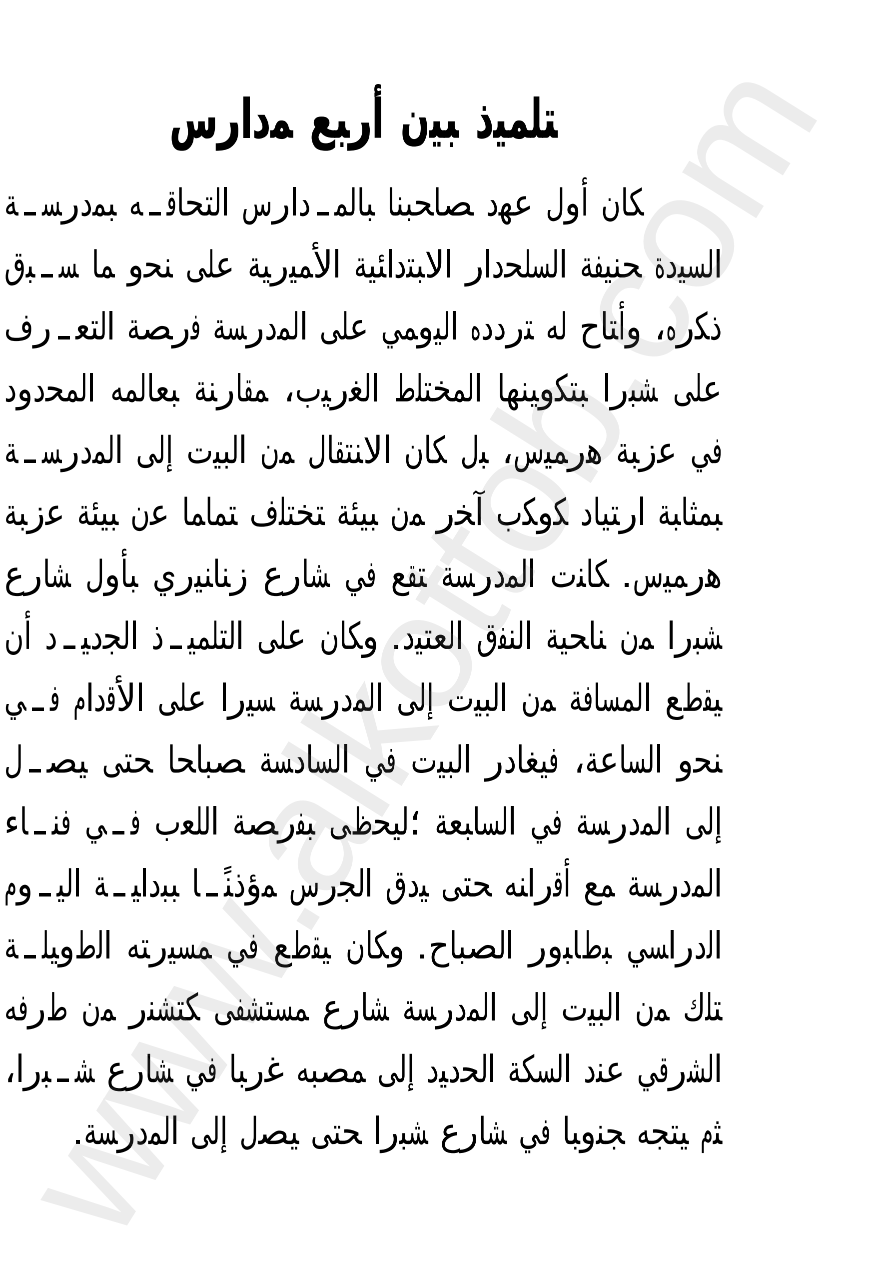
اليومي لشراء سندوتش ولكنها لم تنقل الشكوى للأب الذي كان يتقمص في البيت شخصية "سي السيد" التي أجاد تصويرها نجيب محفوظ، ولم تجرؤ على البوح بما يتعرض له ولدها من سوء المعاملة إلا عندما رسب بالفرقة الأولى الثانوية، وفكر الأب في إنهاء تعليمه عند هذا الحد، فيلحقه بعمل حتى يبلغ الثامنة عشر؛ عندئذ يسعى لتعيينه بالسكة الحديد بوظيفة كتابية، فانفجر غضب الأم الصبور المطيعة دوما، وحكت للأب كل ما يعانيه ابنه، وتعرض الولد لاستجواب طويل من جانب الأب الذي كان يجهل تماما حقيقة ما يجري لولده؛ وعلى ضوء ذلك قرر نقله إلى مدرسة طوخ الثانوية (حيث كان يعمل هناك)، فأحس صاحبنا لأول مرة بدفء الحياة الأسرية، وتعرف على أخوته واندمج بينهم، وفُتحت بذلك صفحة جديدة من حياته، كان لها أثرها في تكوينه النفسي؛ فتلاشى الشعور بالاضطهاد الذي لازمه طوال حياته بعزبة هرميس، وتخلص تدريجيا من الانطواء، وتحسن أداؤه الدراسي كثيرا، كما تحسنت أحواله الصحية. ولكنه لم يتخلص من كراهيته للجدة رغم اضطراره لزيارتها مرة كل أسبوع تنفيذًا لأوامر أبيه، ويحرص على العودة في

www.alkottob.com

نفس اليوم بعدما تُسمعه معزوفتها المعتادة في نقائص أمـه، وتنعي عليه ما أصابه من زيادة الوزن؛ مما يدل على أن أمه (تحشر) له الطعام، فيؤدي ذلك إلى (تخن) مخه وخيبته فـي الدراسة(بإذن واحد أحد)!!

لم يعد الفتى يلقي بالاً لهذا الهراء، طالما كانت الزيارة قصيرة روتينية. وعندما طلب منه والده أن يقضـي إجـازة الصيف مع جدته بعزبة هرميس، جرؤ – لأول مرة – على رفض طلب أبيه، ولكنه برر ذلك برغبته فـي العـيش مـع أخوته لأنه يشعر أنه يعامل معاملة(المنبـوذ) دون مبـرر، واكتفى الأب بتسديد نظرة قاسية نحوه، وقد كسـت ملامـح الغضب وجهه، ولكنه لازم الصمت. وانتهى الأمر عند هـذا الحد.

www.alkottob.com



تلميذ بين أربع مدارس

كان أول عهد صاحبنا بالمـدارس التحاقـه بمدرسـة السيدة حنيفة السلحدار الابتدائية الأميرية على نحو ما سـبق ذكره، وأتاح له تردده اليومي على المدرسة فرصة التعـرف على شبرا بتكوينها المختلط الغريب، مقارنة بعالمه المحدود في عزبة هرميس، بل كان الانتقال من البيت إلى المدرسـة بمثابة ارتياد كوكب آخر من بيئة تختلف تماما عن بيئة عزبة هرميس. كانت المدرسة تقع في شارع زنانيري بأول شارع شبرا من ناحية النفق العتيد. وكان على التلميـذ الجديـد أن يقطع المسافة من البيت إلى المدرسة سيرا على الأقدام فـي نحو الساعة، فيغادر البيت في السادسة صباحا حتى يصـل إلى المدرسة في السابعة ؛ليحظى بفرصة اللعب فـي فنـاء المدرسة مع أقرانه حتى يدق الجرس مؤذنًـا ببدايـة اليـوم الدراسي بطابور الصباح. وكان يقطع في مسيرته الطويلـة تلك من البيت إلى المدرسة شارع مستشفى كتشنر من طرفه الشرقي عند السكة الحديد إلى مصبه غربا في شارع شـبرا، ثم يتجه جنوبا في شارع شبرا حتى يصل إلى المدرسة.

www.alkottob.com

وشبرا عندئذ تعكس واقع مصر كلها، فكـان شـارع شبرا الرئيسي- حيث خط الترام وكذلك شـارع مستشـفى كتشنر، وجانبا من شارع الترعة البولاقيـة- مقـر إقامـة الأجانب في العمارات الواقعة على جانبي هذه الشوارع، وهم جميعا من الطبقة المتوسطة الصغيرة، ومن العمـال وباعـة المحلات الكبرى. كان اليونانيون يمثلون الأغلبية من سـكان شبرا يليهم الأرمن (تقريبا)، نظرا لتنـاقص حجـم الجاليـة الإيطالية أثناء الحرب العالمية الثانية، وإن بقي لهـم وجـود ملموس في مهن ميكانيكا السـيارات والكهربـاء، ونجـارة الأثاث. وكان الأرمن يشتغلون بالتجارة والمهن الفنية وبعض الحرف، فكان منهم الترزي والساعاتي والإسكافي وغيـرهم من أرباب الحرف.

وكانت محال شبرا تحمل لافتـات باللغـة الفرنسـية، وقليلاً ما كانت تُجمع إليها العربية، ويكتسي شارع شبرا حلة من الزينات التي تقيمها المحلات على جانبي الشارع احتفالاً بعيد الميلاد المجيد، فتضع المحال تماثيل صغيرة أو كبيـرة لبابا نويل، وعبارات "عام سعيد" "عيد ميلاد سـعيد" باللغـة الفرنسية غالبا وباليونانية والأرمنية في بعض الأحيان ولـم

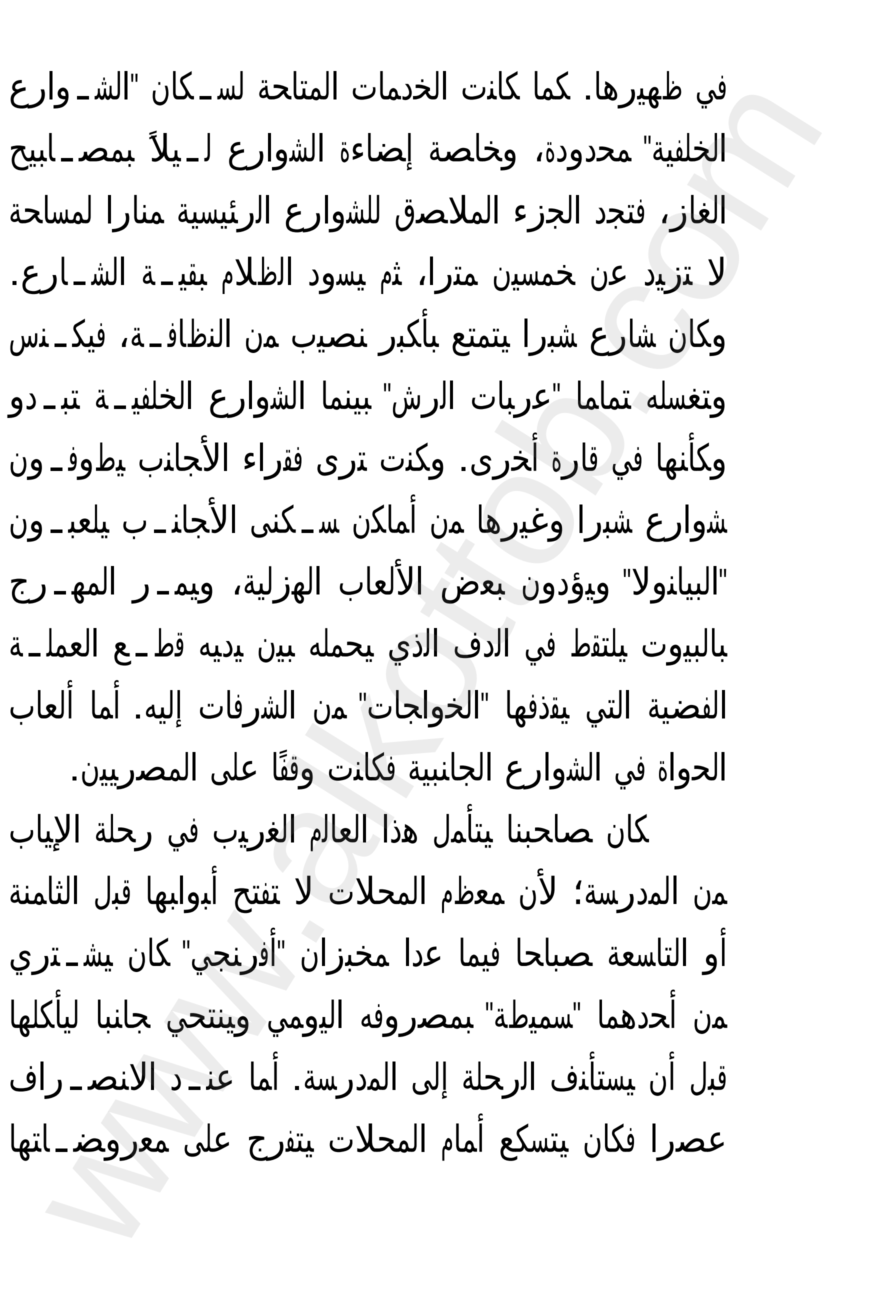
www.alkottob.com

تكن تضاف إليها العربية إلا في المحلات القليلة التـي كـان يملكها مصريون (معظمهم من الأقباط). وكانت المحال ترفع على أبوابها – بهذه المناسبة – أعلامها الوطنية وإلى جانبها (أحيانًا) علم المملكة المصرية :الأخضر يتوسـطه الهـلال الأبيض والنجوم الثلاثة البيضاء.

وكان بشارع شبرا خمسـة أو سـتة محـال جـزارة مخصصة للحم الخنزير، كما كانت هناك نحو الأربع حانات، تَمثل الوجود الوطني إلى جانبها في محل كبير لصناعة وبيع "البوظة" على شارع شبرا في مواجهة شارع علي بك النجار الذي يقع عليه مدخل المدرسة، وكانت "البوظة" تجتذب حشدا كبيرا من الزبائن منذ الصباح، وقد تسمر صاحبنا في مكانـه عندما رأى ذات يوم "عربجي" حنطور يجلس علـى حافـة رصيف الشارع، وبين يديه "قرعة" (وعاء) البوظة يشـرب منه ويسقي الحصان معه من نفس الوعاء.

أما الوجود المصري بين سكان شارع شبرا وشـارع مستشفى كتشنر، والمدخل الجنوبي لشارع الترعة البولاقية، فكان يقع في ظهير الشوارع الرئيسية، وكان التباين كبيـرا بين الطرز المعمارية على الشوارع الرئيسية وتلك التي تقع

www.alkottob.com



في ظهيرها. كما كانت الخدمات المتاحة لسـكان "الشـوارع الخلفية" محدودة، وخاصة إضاءة الشوارع لـيلاً بمصـابيح الغاز، فتجد الجزء الملاصق للشوارع الرئيسية منارا لمساحة لا تزيد عن خمسين مترا، ثم يسود الظلام بقيـة الشـارع. وكان شارع شبرا يتمتع بأكبر نصيب من النظافـة، فيكـنس وتغسله تماما "عربات الرش" بينما الشوارع الخلفيـة تبـدو وكأنها في قارة أخرى. وكنت ترى فقراء الأجانب يطوفـون شوارع شبرا وغيرها من أماكن سـكنى الأجانـب يلعبـون "البيانولا" ويؤدون بعض الألعاب الهزلية، ويمـر المهـرج بالبيوت يلتقط في الدف الذي يحمله بين يديه قطـع العملـة الفضية التي يقذفها "الخواجات" من الشرفات إليه. أما ألعاب الحواة في الشوارع الجانبية فكانت وقفًا على المصريين.

كان صاحبنا يتأمل هذا العالم الغريب في رحلة الإياب من المدرسة؛ لأن معظم المحلات لا تفتح أبوابها قبل الثامنة أو التاسعة صباحا فيما عدا مخبزان "أفرنجي" كان يشـتري من أحدهما "سميطة" بمصروفه اليومي وينتحي جانبا ليأكلها قبل أن يستأنف الرحلة إلى المدرسة. أما عنـد الانصـراف عصرا فكان يتسكع أمام المحلات يتفرج على معروضـاتها

www.alkottob.com

وعلى هذا الخليط الغريب من البشر، ويتفرج علـى لاعـب "البيانولا" وغير ذلك من مظاهر الحياة التي لا تمت بصـلة إلى عالمه المحدود. وكان يدخر (أحيانًا) مصروفه اليـومي (نصف القرش) فلا يفطر يوما ليشتري بها "الآيس كريم" من محل أحد "خواجات" شارع شبرا ليستمتع بمذاق هذه البدعـة التي تختلف تماما عن "الجرنيدة" التي كان يسرح بهـا بـائع متجول يمر بعزبة هرميس، وشتان بين ما كان يـدفع فيـه مليما واحدا، وما يدفع فيه خمسة مليمات بالتمام والكمال من حيث الكم والنوع والمذاق.

بدعة أخرى لفتت نظره هي: دور السينما، فلـم يكـن حتى دخوله المدرسة (عام ١٩٤٧) قد شاهد فيلما سـينمائيا، وهكذا كان يطيل الوقوف في مدخل سينما "دوللي" يـتفحص الصور المعروضة في المدخل للقطات من الفيلم المعـرض، وغَير طريق العودة خصيصا ليمر بشارع الترعة البولاقيـة، ويشاهد دور سينما "روي" (وكانت تعرض الأفلام الأجنبية)، وسينما "فريال" ثم "شبرا بالاس" فيتفحص مجموعات الصور هنا وهناك، ورأى أن الفرجة من الخارج لا تجـدي نفعـا، فقرر يوما أن يستثمر بعض القروش الثلاثة التي تعطيها لـه

www.alkottob.com

أمه في نهاية الأسبوع (سرا، بعدما تقتصد هذا من مصروف البيت)، فاختار حفلة بعد الظهر بأحد أيـام الاثنـين حيـث تنصرف المدرسة في الواحدة والنصف، واشـترى تـذكرة "ترسو" (درجة ثالثة) بخمسة عشر مليما بالتمـام والكمـال، وتفرج على أول فيلم في حياته، لعله كان أحد أفـلام فريـد الأطرش ومعه (في نفس العرض) فيلم أمريكي آخر، وشغل ذهنه في طريق العودة للبيت بالبحث عن مبرر لهذا التـأخير الشديد غير المعتاد ليرويه لجدته، ولكنه لم يحتج لذلك ؛لأنها كانت في زيارة لبعض أقاربها، وعادت إلى البيت بعده، ولم تهتم بسؤاله عما كان من شأن يومه. فنام ليلتها قرير العـين منتشيا بما حقق من أمل، وكأنه "جاب الديب من ديله".

آفاق أخرى أُتيحت له، تمثلـت فـي حركـة الطلبـة وإضرابات المدارس، التي كانت تبدأ من التوفيقية الثانوية ثم تزحف على بقيـة مـدارس الحـي، تحاصـرها، وتطالـب مشاركتها، وكان ناظر مدرسة السيدة حنيفة السلحدار يخشى ما قد يترتب على رفض السماح لتلاميذ المدرسة بـالخروج للمشاركة في المظاهرة من قذف الطلاب (الكبار) للمدرسـة بالطوب من الخارج؛ فيتحطم زجاج النوافذ وتلحق الإصابات

www.alkottob.com

ببعض التلاميذ، كما حدث ذات مرة. لذلك كان يسارع بفـتح أبواب المدرسة وصرف التلاميذ قبيل وصـول المظـاهرة الكبرى إلى المدرسة، مع توصـية التلاميـذ بـالعودة إلـى منازلهم. فكان صاحبنا يقضي سحابة اليـوم مشـاركًا فـي المظاهرات، فتفتح وعيه منذ حرب فلسطين (١٩٤٨) علـى هموم الوطن شأنه شأن غيره من أطفال مصر من أبناء ذلك الجيل الذي أنضجته هموم الوطن قبل الأوان.

وأضافت المظاهرات منطقة قلب القاهرة إلى عالمـه، فعرف – لأول مرة – الطريق إلى قصـر عابـدين، وحـي الدواوين حيث رئاسة مجلس الوزراء والبرلمان، فقـد كـان المتظاهرون يوجهون الترام وجهة أخرى في الاتجـاه إلـى ميدان إسـماعيل (التحريـر الآن)، ومـن هنـاك تتحـرك المظاهرات إلى مقصدها حتى يشتتها جنود "بلوكات النظـام" بعصيهم الغليظة؛ فيهرب الطلاب إلى الشوارع الجانبية حتى إذا انفض الجمع، عاد صاحبنا من قلب القاهرة إلى عزبـة هرميس سيرا على الأقدام ليصل إلى هناك بعـد الغـروب، فتستقبله جدته باللعنات ؛لأنه يسـير فـي طريـق الضـياع باشتراكه في المظاهرات مع "العيال البطالين" وتتوعده بإبلاغ

www.alkottob.com

أبيه، وكان حاضرا ذات مرة وهي تقص على الأب ما حدث من والده، فاستمع الأب للقصة ثم قال لوالده: "أهم حاجة عندي إنك تأخذ الابتدائية، وبعدها كلـه بـأمر ا ". فـاعتبر هـذا تصريحا من والده بالموافقة(ضـمنًا) علـى اشـتراكه فـي المظاهرات، وخاصة أن الأب كان وفديا حتى النخاع، ويرى أن النحاس باشا "زعيم الأمة" بلا منازع، ويعتز بمصـافحته للزعيم على رصيف محطة بورسعيد عام ١٩٣٦، وحضوره بعض المناسبات التي خطب فيها.

كانت مدة الدراسة بالمرحلة الابتدائية أربع سـنوات، أما المرحلة الثانوية فكانت خمس سنوات. وتنتهي المرحلـة الابتدائية بالحصول على شهادة الابتدائية التي تحشر صاحبها في زمرة "الأفندية"، أما الثانوية فلها شهادتان أولاهمـا بعـد الرابعة هي شهادة الثقافة وهنا يستطيع من لا يملك أسـباب الالتحاق بالجامعة أن ينهي دراسته، حاملاً مؤهلاً متوسـطًا يؤهله للعمل بوظيفة إدارية، قد توصله إلـى أعتـاب الإدارة العليا إذا حصل على فرصة للترقي عن طريق المحسوبية أو الرشوة، وكانتا وسيلتين معتمدتين للترقي في وظائف الدولة. أما من يواصل الدراسة الثانوية حتى نهايتها فيحصل علـى

www.alkottob.com

"التوجيهية"، وكانت تنقسم إلى شعبتين: أدبي وعلمي، عندئـذ يستطيع التقدم بأوراقه إلى الكلية التي يرغب الالتحـاق بهـا بالجامعة.

كان بمدرسة السيدة حنيفة السلحدار الابتدائية ثمانيـة فصول: فصلان لكل فرقة من الفرق الأربع يضمها جميعـا القصر (الذي تحول إلى مدرسة) إضافة إلى مكتب النـاظر وحجرة الموسيقى، واحتلت حجرة الأشغال مكانًا تحت شرفة الدور الأول للقصر الذي تم تحويله إلـى حجـرة بقواطـع وفواصل خشبية ذات نوافذ زجاجية. أمـا بـدروم القصـر فتحول إلى مطعم للتلاميذ. واقتطع جانب من الفناء أقيمت فيه حجرة الرسم ومكتب السكرتير، وحجرة "ضـابط المدرسـة" وهو مدرس التربية الرياضية، واحتل ملعب كرة السلة فنـاء المدرسة، أما شرفة القصر فوضعت بهـا طاولتـان لكـرة المضرب (البنج بونج). وفي ركن قصي من الفناء المطـل على شارع زنانيري كانت هناك مزرعـة للـدواجن حيـث الدجاج والبط والإوز والأرانب.

كان عدد تلاميذ الفصل الواحد في الفرقة الأولـى ٣٢ تلميذًا وعندما وصل صاحبنا إلى الفرقة الرابعة كـان عـدد

www.alkottob.com



تلاميذ فصله ٢٤ تلميذًا، وكان عدد تلاميذ المدرسة لا يصل إلى ٢٥٠ تلميذًا، وشملت برامج الدراسة بالإضافة إلى اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيـا والعلـوم للفـرقتين الأولى والثانية يضاف إليهـا الإنجليزيـة للفـرقتين الثالثـة والرابعة، شملت برامج الدراسة الرسم حيث ينتقـل الفصـل إلى حجرة الرسم، فيشرح المدرس قواعد الرسم ويمر علـى التلاميذ ؛ليوجههم ويصحح أخطاءهم، ويولي اهتمامـا لمـن يلمس لديه بعض الاستعداد فينمي موهبته، وجـرت العـادة على إقامة معرض في نهاية العام لرسوم التلاميذ. ويحـدث نفس الشيء في حصة الأشغال فيتعلم التلاميذ تشكيل الطـين الصلصال، والزخرفة بمواد مختلفة، والأعمال الخشبية ويهتم المدرس - أيضا – بذوي المواهب الخاصة مـن التلاميـذ ليزدان بإنتاجهم معرض نهاية العام. أمـا حصـة الألعـاب فكانت تربية بدنية بحق. وكانت حجرة الموسيقى بها بيـانو وآلات وترية وطبول، وكان التلاميذ يدربون علـى النوتـة الموسيقية تدريبا جديا، ويختار من بين الطلاب الموهـوبين فريق الموسيقى الذي يعزف في طابور الصباح أثناء إلقـاء

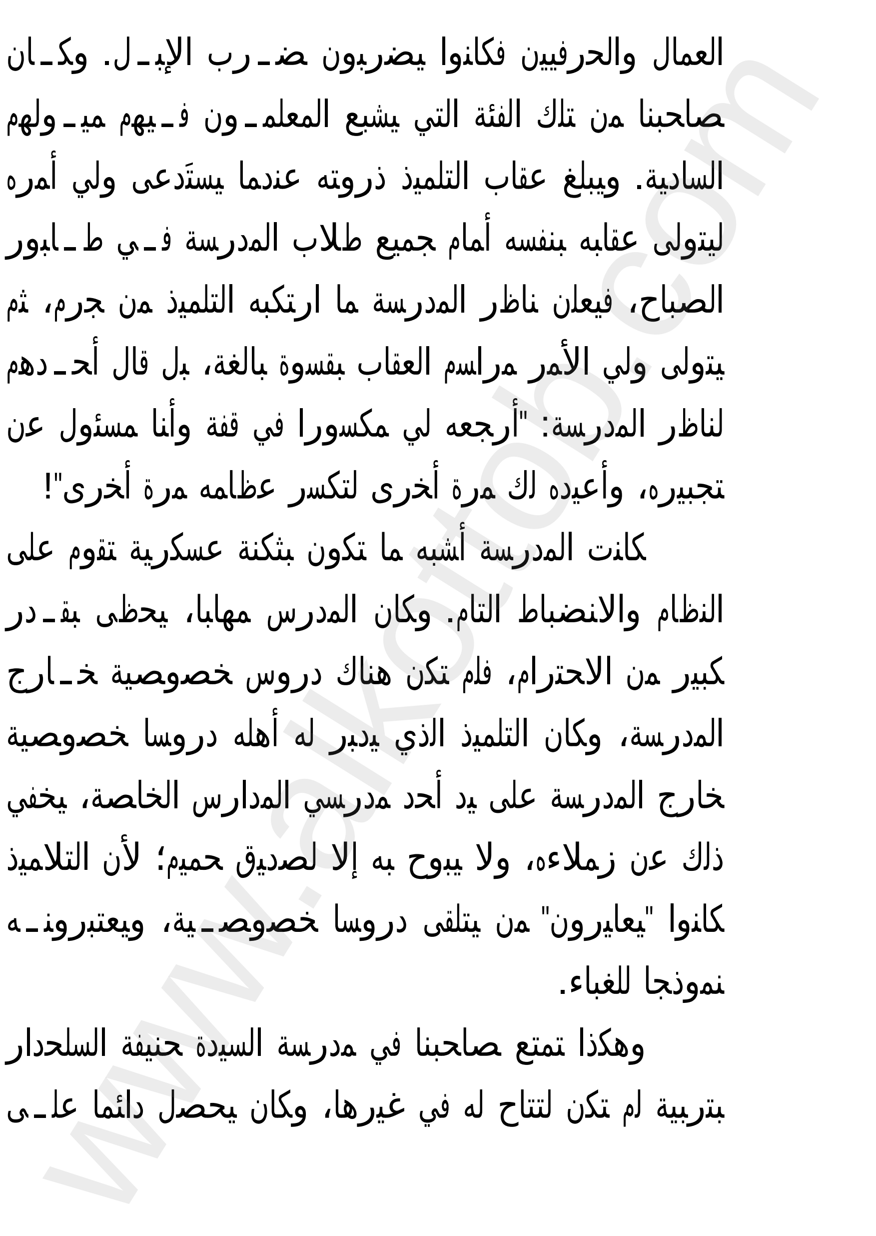
www.alkottob.com

النشيد الوطني، وكذلك في الحفل السنوي فـي ختـام العـام الدراسي.

ولم يكن للمدرسة زي موحد، ولكن اُشـتُرط ارتـداء البنطلون القصير (شورت) والجورب طويل يصل إلـى مـا تحت الركبة، مع ضرورة لبس الطربوش الذي تسـبب فـي تعرض صاحبنا للعقاب في الأسبوع الأول مـن الدراسـة، عندما نسي الطربوش في الفصل ونزل إلى "الفسحة" عـاري الرأس فلمحه الناظر، وأمر الفراش "بعبطه" ثم ضربه علـى مؤخرته عدة ضربات بكرباجه الصغير.

كان الضرب أساسيا في عملية التعليم، وكان المدرس يدخل الفصل حاملاً خيزرانة، وانفرد مدرس اللغة العربيـة بحمل "مقرعة" عبارة عن يد جلدية كيد الكرباج تتفرع منهـا نحو خمسة سيور جلدية صغيرة. ولكن المقامات الاجتماعية كانت تُراعى عند توقيع العقاب؛ فالمدرس يحرص في بدايـة العام على سؤال كل تلميذ عن "وظيفة" والده، فإذا كان موظفًا اهتم بالسؤال عن درجته، فإذا كان ولي أمر التلميذ موظفًـا "محترما" حظي بعقاب متوسط، وإذا كان الوالد برتبة "بـك" اكتفى المدرس بقرص أذنه، أما غالبية التلاميذ مـن أبنـاء

www.alkottob.com



العمال والحرفيين فكانوا يضربون ضـرب الإبـل. وكـان صاحبنا من تلك الفئة التي يشبع المعلمـون فـيهم ميـولهم السادية. ويبلغ عقاب التلميذ ذروته عندما يستَدعى ولي أمره ليتولى عقابه بنفسه أمام جميع طلاب المدرسة فـي طـابور الصباح، فيعلن ناظر المدرسة ما ارتكبه التلميذ من جرم، ثم يتولى ولي الأمر مراسم العقاب بقسوة بالغة، بل قال أحـدهم لناظر المدرسة: "أرجعه لي مكسورا في قفة وأنا مسئول عن تجبيره، وأعيده لك مرة أخرى لتكسر عظامه مرة أخرى"!

كانت المدرسة أشبه ما تكون بثكنة عسكرية تقوم على النظام والانضباط التام. وكان المدرس مهابا، يحظى بقـدر كبير من الاحترام، فلم تكن هناك دروس خصوصية خـارج المدرسة، وكان التلميذ الذي يدبر له أهله دروسا خصوصية خارج المدرسة على يد أحد مدرسي المدارس الخاصة، يخفي ذلك عن زملاءه، ولا يبوح به إلا لصديق حميم؛ لأن التلاميذ كانوا "يعايرون" من يتلقى دروسا خصوصـية، ويعتبرونـه نموذجا للغباء.

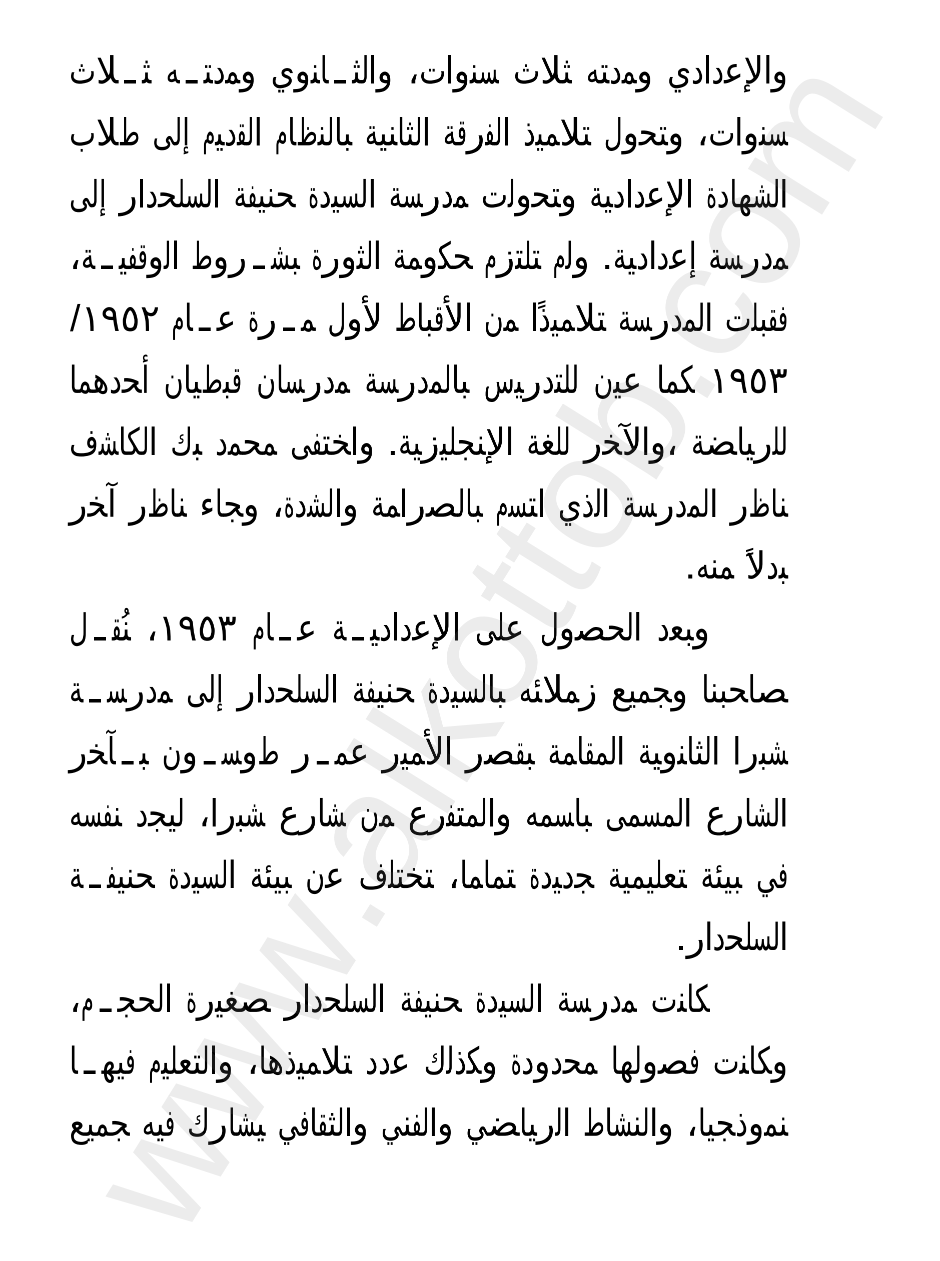
وهكذا تمتع صاحبنا في مدرسة السيدة حنيفة السلحدار بتربية لم تكن لتتاح له في غيرها، وكان يحصل دائما علـى

www.alkottob.com

درجات متوسطة؛ لأنه كان يعتمد تماما علـى المدرسـين، وكان يفضل أداء واجباته المنزلية في طريق العـودة إلـى المنزل في ركن من حديقة مدرسة شبرا الابتدائية المتسـعة الجميلة. فلم يكن هناك ما يحفزه على بذل جهـد أكبـر، لأن والده كرر عدة مرات أمامه أنه لن يستطع تحمل مصروفات المدرسة الثانوية حتى بعد أن قررت وزارة الوفـد مجانيـة التعليم، وكان التلاميذ يدفعون فقط رسوما رمزية بلغت فـي التعليم الثانوي نحو ثلاثة جنيهات وهـو يتجـاوز القـدرات المالية لوالده.

وأثناء وجوده بالفرقة الرابعة، أُقتطِع جانب من فنـاء المدرسة أقيمت عليه بناية ضمت تسعة فصول وزعت على ثلاثة طوابق لتصبح المدرسة ابتدائية ثانوية؛ ولذلك عنـدما حصل على الابتدائية عام ١٩٥١، نُقل مباشرة إلـى الفرقـة الأولى بالقسم الثانوي، وعندما وصل إلى الفرقة الثانية (العام الدراسي ١٩٥٣/١٩٥٢) كان العهد قد تغير وتولى إسماعيل القباني وزارة المعارف في أول وزارة في عهد الثورة وتقرر "إصلاح" نظام التعليم – على الطريقة الأمريكية – ليتكـون من ثلاث مراحل: الابتدائي(الأساسي) ومدته ست سـنوات،

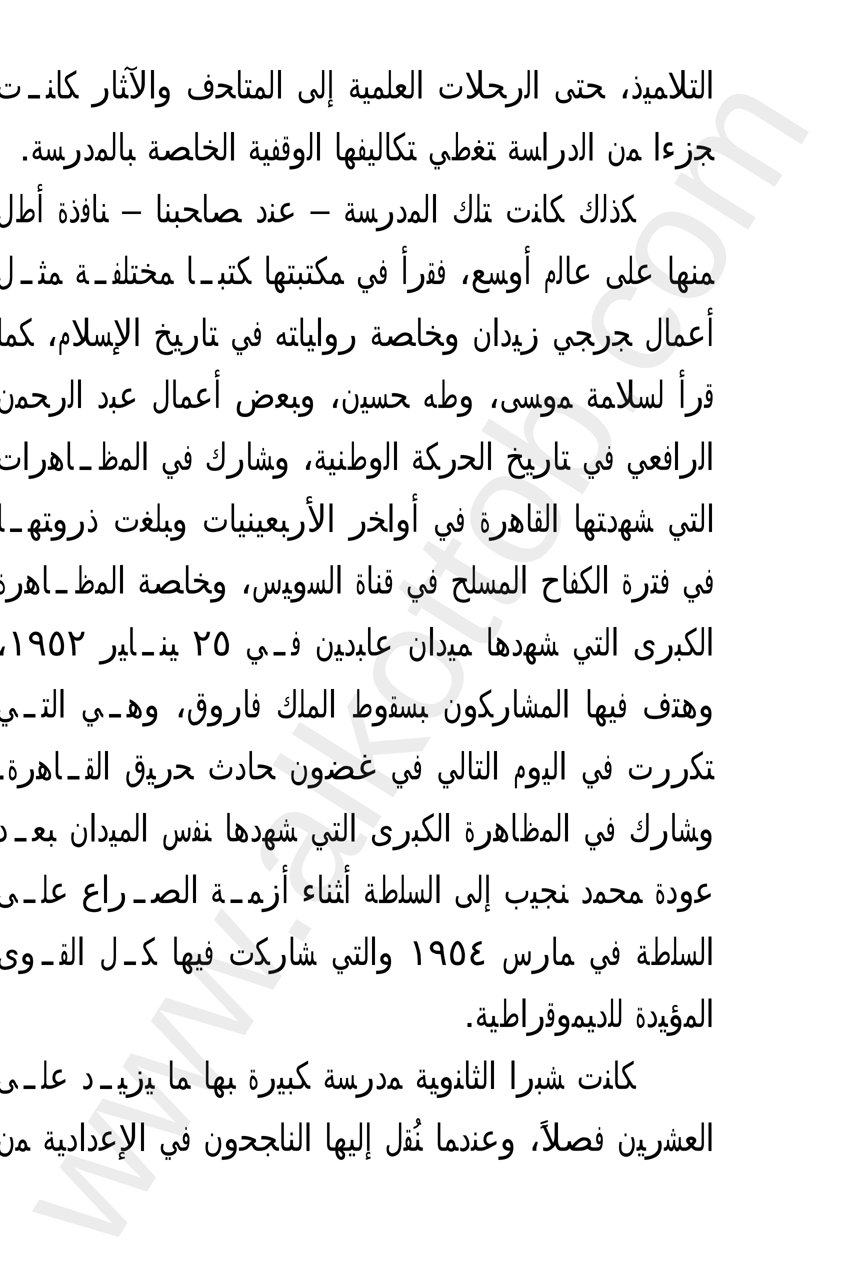
www.alkottob.com


والإعدادي ومدته ثلاث سنوات، والثـانوي ومدتـه ثـلاث سنوات، وتحول تلاميذ الفرقة الثانية بالنظام القديم إلى طلاب الشهادة الإعدادية وتحولت مدرسة السيدة حنيفة السلحدار إلى مدرسة إعدادية. ولم تلتزم حكومة الثورة بشـروط الوقفيـة، فقبلت المدرسة تلاميذًا من الأقباط لأول مـرة عـام ١٩٥٢/ ١٩٥٣ كما عين للتدريس بالمدرسة مدرسان قبطيان أحدهما للرياضة ،والآخر للغة الإنجليزية. واختفى محمد بك الكاشف ناظر المدرسة الذي اتسم بالصرامة والشدة، وجاء ناظر آخر بدلاً منه.

وبعد الحصول على الإعداديـة عـام ١٩٥٣، نُقـل صاحبنا وجميع زملائه بالسيدة حنيفة السلحدار إلى مدرسـة شبرا الثانوية المقامة بقصر الأمير عمـر طوسـون بـآخر الشارع المسمى باسمه والمتفرع من شارع شبرا، ليجد نفسه في بيئة تعليمية جديدة تماما، تختلف عن بيئة السيدة حنيفـة السلحدار.

كانت مدرسة السيدة حنيفة السلحدار صغيرة الحجـم، وكانت فصولها محدودة وكذلك عدد تلاميذها، والتعليم فيهـا نموذجيا، والنشاط الرياضي والفني والثقافي يشارك فيه جميع

www.alkottob.com



التلاميذ، حتى الرحلات العلمية إلى المتاحف والآثار كانت جزءا من الدراسة تغطي تكاليفها الوقفية الخاصة بالمدرسة.

كذلك كانت تلك المدرسة – عند صاحبنا – نافذة أطل منها على عالم أوسع، فقرأ في مكتبتها كتبا مختلفة مثل أعمال جرجي زيدان وخاصة رواياته في تاريخ الإسلام، كما قرأ لسلامة موسى، وطه حسين، وبعض أعمال عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة الوطنية، وشارك في المظاهرات التي شهدتها القاهرة في أواخر الأربعينيات وبلغت ذروتها في فترة الكفاح المسلح في قناة السويس، وخاصة المظاهرة الكبرى التي شهدها ميدان عابدين في ٢٥ يناير ١٩٥٢، وهتف فيها المشاركون بسقوط الملك فاروق، وهي التي تكررت في اليوم التالي في غضون حادث حريق القاهرة. وشارك في المظاهرة الكبرى التي شهدها نفس الميدان بعد عودة محمد نجيب إلى السلطة أثناء أزمة الصراع على السلطة في مارس ١٩٥٤ والتي شاركت فيها كل القوى المؤيدة للديموقراطية.

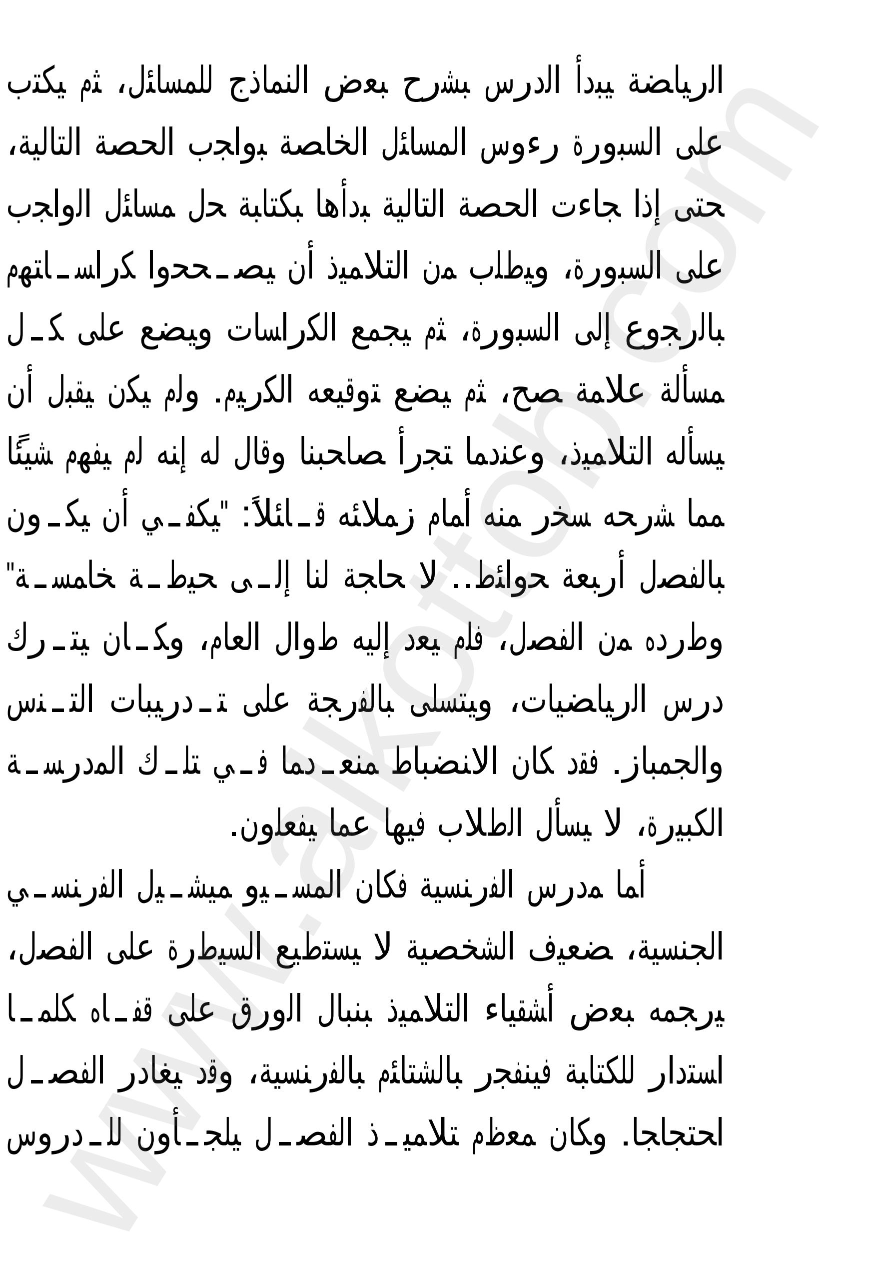
كانت شبرا الثانوية مدرسة كبيرة بها ما يزيد على العشرين فصلاً، وعندما نُقل إليها الناجحون في الإعدادية من

www.alkottob.com

السيدة حنيفة كان عددهم ٣٢ تلميذًا، بعثـروا علـى ثلاثـة فصول من فصول الفرقة الأولى الثانوية وكان موقع صاحبنا بالفصل الخامس مع أربعة فقط من زملائه السابقين، وكانت نوعية تلاميذ شبرا الثانوية (عـام ١٩٥٣/ ١٩٥٤) مختلفـة تماما من حيث الأصول الاجتماعية، جاءت غـالبيتهم مـن الشرائح المتوسطة والدنيا.من الطبقة الوسطى: أبناء تجـار، وأطباء ومحامين ومحاسبين وموظفين من مختلف درجـات الإدارة العليا والوسطى بالحكومة، وكـان أبنـاء الكـادحين الفقراء يمثلون أقلية ضئيلة الحجم في تلك المدرسة عندئـذ؛ مما جعل صاحبنا يشعر بالغربة هناك.

نوعية المدرسين أيضا كانت مختلفة، فبعـد أن كـان المدرس يعرف أسماء تلاميذه في السيدة حنيفة بعد أسـبوع واحد من بداية العام الدراسي ؛نظرا لصغر حجم الفصـول. كانت فصول الفرقة الأولى السبعة بشبرا الثانوية لا يقل عدد الطلاب في كل منها عن ٤٨ طالبا، ولم يكن هناك اهتمام من جانب المدرس بمتابعة أداء كل تلميذ، على نحو مـا كانـت عليه الحال في السيدة حنيفة، وكان أصعب ما واجهه صاحبنا دروس الرياضة واللغة الفرنسية. كان أمين قسطندي مدرس

www.alkottob.com



الرياضة يبدأ الدرس بشرح بعض النماذج للمسائل، ثم يكتب على السبورة رءوس المسائل الخاصة بواجب الحصة التالية، حتى إذا جاءت الحصة التالية بدأها بكتابة حل مسائل الواجب على السبورة، ويطلب من التلاميذ أن يصـحـحوا كراسـاتهم بالرجوع إلى السبورة، ثم يجمع الكراسات ويضع على كـل مسألة علامة صح، ثم يضع توقيعه الكريم. ولم يكن يقبل أن يسأله التلاميذ، وعندما تجرأ صاحبنا وقال له إنه لم يفهم شيئًا مما شرحه سخر منه أمام زملائه قـائلاً: "يكفـي أن يكـون بالفصل أربعة حوائط.. لا حاجة لنا إلـى حيطـة خامسـة" وطرده من الفصل، فلم يعد إليه طوال العام، وكـان يتـرك درس الرياضيات، ويتسلى بالفرجة على تـدريبات التـنس والجمباز. فقد كان الانضباط منعـدما فـي تلـك المدرسـة الكبيرة، لا يسأل الطلاب فيها عما يفعلون.

أما مدرس الفرنسية فكان المسـيو ميشـيل الفرنسـي الجنسية، ضعيف الشخصية لا يستطيع السيطرة على الفصل، يرجمه بعض أشقياء التلاميذ بنبال الورق على قفـاه كلمـا استدار للكتابة فينفجر بالشتائم بالفرنسية، وقد يغادر الفصـل احتجاجا. وكان معظم تلاميـذ الفصـل يلجـأون للـدروس

www.alkottob.com

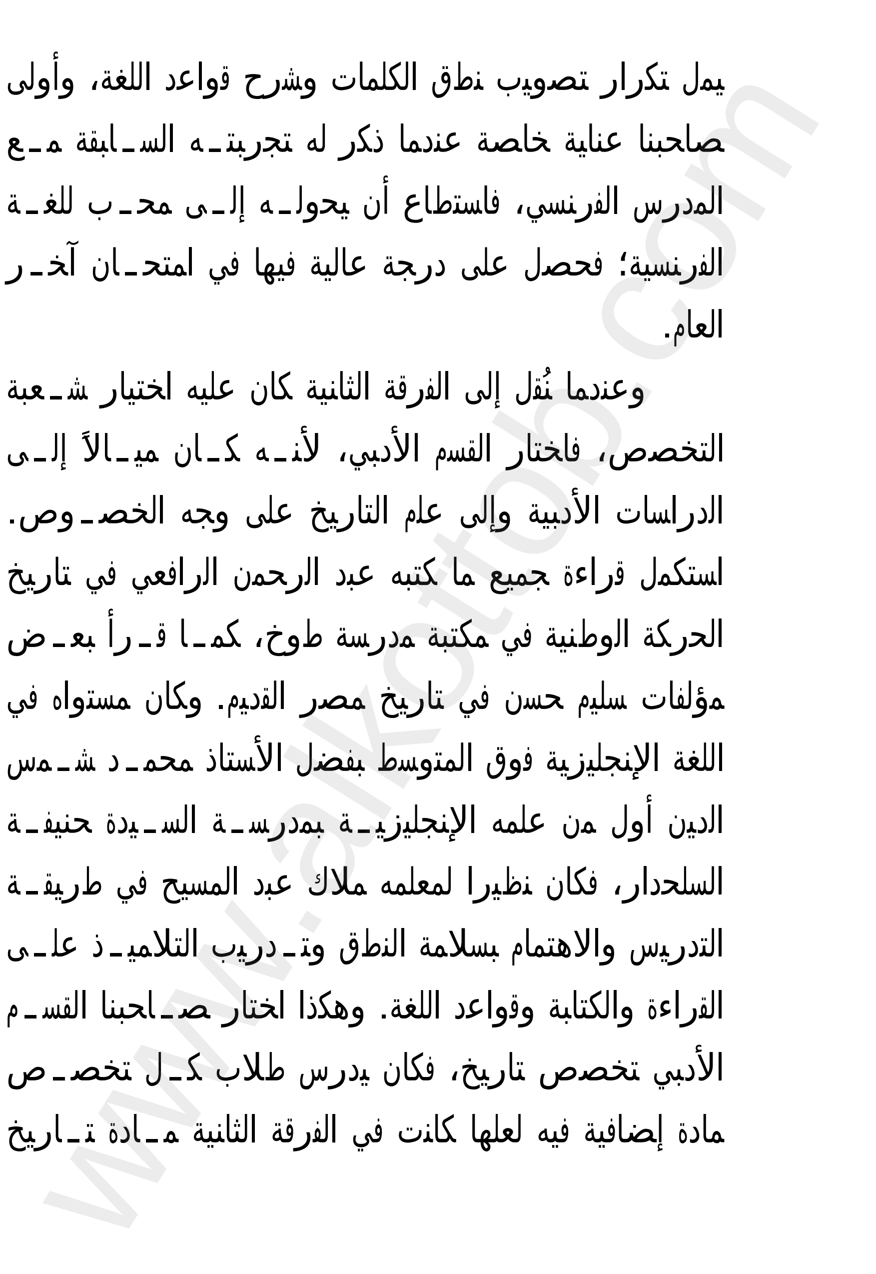
الخصوصية في مادتي الرياضيات واللغة الفرنسية أو يعتمـد الفقراء منهم على بعض أقاربهم لمساعدتهم على فهم المادتين أو إحداهما، وهو ما لم يتوفر لصاحبنا، فقد سدد أبوه بالكـاد (٢٨٩ قرشًا) قيمة رسوم الدراسة، وكان يعطيه ربع جنيـه شهريا كمصروف شخصي، ويدفع لجدته مصـروفًا قـدره أربعة جنيهات شهريا كانت تعادل ثلث راتبه – عندئذ – فلم يكن بوسعه تحمل نفقات الدروس الخصوصية، وهـو الـذي تورط في إدخاله التعليم الثانوي؛ لأن مدرسة السيدة حنيفـة نقلت من حصلوا على الإعدادية منها إلى شـبرا الثانويـة، وكان يفضل إلحاقه بمدرسة متوسطة فنية أو بمعهد المعلمين (كانت مدة الدراسة به خمس سنوات بعد الإعدادية) لذلك كله لم يستطع صاحبنا أن يجـد حـلاً لمشـكلته إلا بالاسـتعانة المحدودة ببعض زملائه. وكان من الطبيعي أن يرسب فـي المادتين في نهاية العام، وتطوع بعض المتعاطفين معه مـن معارف والده لمساعدته على اجتياز امتحـان الملحـق دون جدوى، فقد رسب في الملحق، وأصبح باقيا للإعادة. وكـان هذا الرسوب نقطة تحول في حياته، فقـد نقلـه الأب إلـى

www.alkottob.com

مدرسة طوخ الإعدادية الثانوية لينعم للمرة الأولى بجو الحياة الأسرية بين أخوته ووالديه.

كانت مدرسة طوخ بالقرب من محطة السكة الحديـد، تقع مقابل مساكن عمال المحطة، فـلا يفصـلها عـن تلـك المساكن سوى شريط القطار. وكانت بها ثلاثة فصول للفرقة الأولى الثانوي لم يزد عدد التلاميذ في كل منهـا عـن ٣٦ تلميذًا، وكانت إدارة المدرسة حازمة تحرص على الانضباط، أما المدرسون فكانوا على مستوى عالٍ من الكفاءة. ولما كان صاحبنا (باقيا للإعادة)، فقد كان لامعا بين تلاميذ فصله فـي معظم المواد، حتى الرياضة تعلمها جيدا على يد مدرس كان بارعا في شرحه للدرس، لا يترك نقطة دون أن يتأكد مـن فهم الجميع لها، ويجمع كراسات الواجب ليصححها بنفسـه، ويحدد لكل تلميذ موطن الخطأ عنده ويكلفه بواجب إضـافي؛ ليتأكد من استيعابه التام للدرس، تماما كما كان يحـدث فـي مدرسة السيدة حنيفة السلحدار، فاستطاع الأستاذ محمد حسن أن يصلح ما أفسده أمين قسطندي. أما الأستاذ مـلاك عبـد المسيح معلم الفرنسية فكان – أيضا – على درجة عالية من المقدرة في جذب التلاميذ إلى تلك اللغة الجديـدة علـيهم، لا

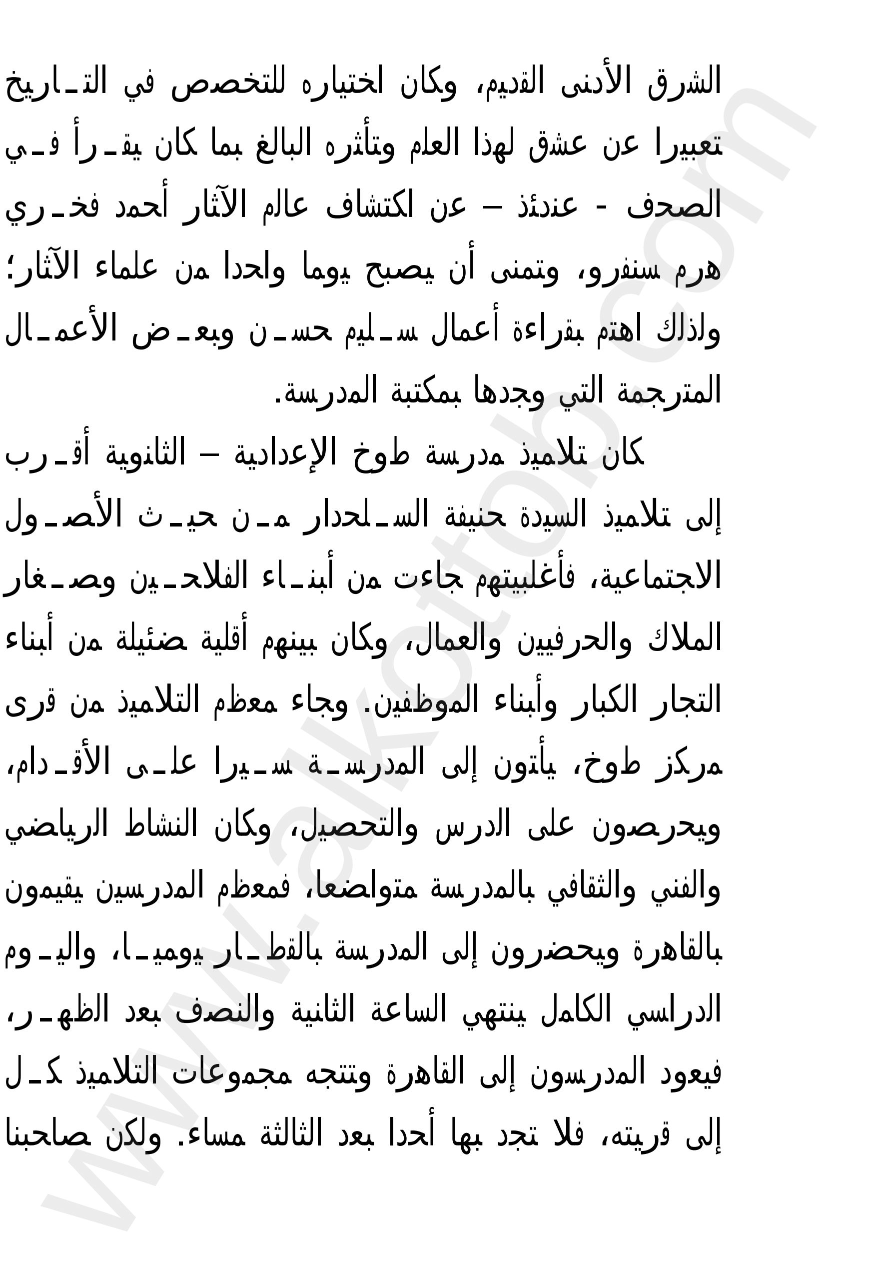
www.alkottob.com



يمل تكرار تصويب نطق الكلمات وشرح قواعد اللغة، وأولى صاحبنا عناية خاصة عندما ذكر له تجربته السابقة مع المدرس الفرنسي، فاستطاع أن يحوله إلى محب للغة الفرنسية؛ فحصل على درجة عالية فيها في امتحان آخر العام.

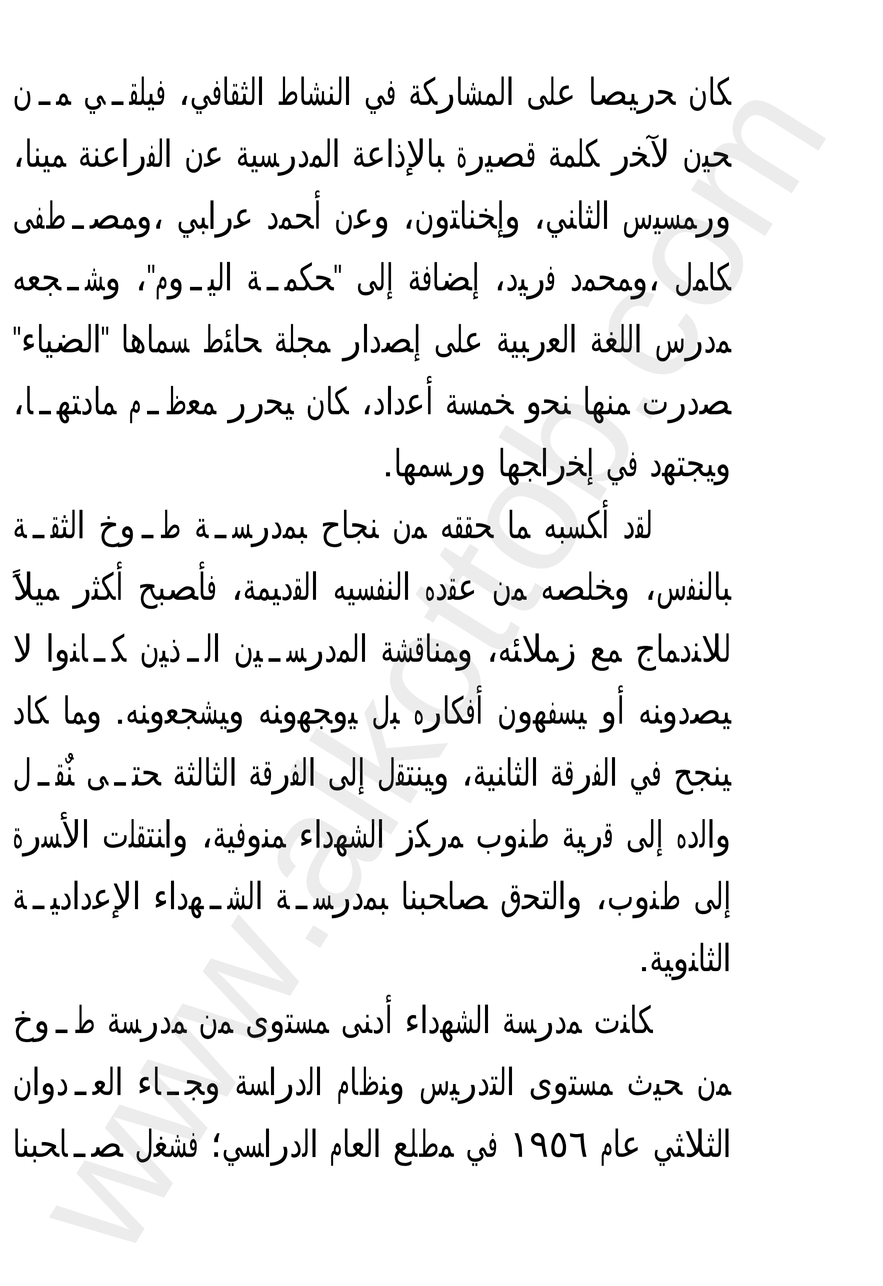
وعندما نُقل إلى الفرقة الثانية كان عليه اختيار شعبة التخصص، فاختار القسم الأدبي، لأنه كان ميالاً إلى الدراسات الأدبية وإلى علم التاريخ على وجه الخصوص. استكمل قراءة جميع ما كتبه عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة الوطنية في مكتبة مدرسة طوخ، كما قرأ بعض مؤلفات سليم حسن في تاريخ مصر القديم. وكان مستواه في اللغة الإنجليزية فوق المتوسط بفضل الأستاذ محمد شمس الدين أول من علمه الإنجليزية بمدرسة السيدة حنيفة السلحدار، فكان نظيرا لمعلمه ملاك عبد المسيح في طريقة التدريس والاهتمام بسلامة النطق وتدريب التلاميذ على القراءة والكتابة وقواعد اللغة. وهكذا اختار صاحبنا القسم الأدبي تخصص تاريخ، فكان يدرس طلاب كل تخصص مادة إضافية فيه لعلها كانت في الفرقة الثانية مادة تاريخ

www.alkottob.com


الشرق الأدنى القديم، وكان اختياره للتخصص في التـاريخ تعبيرا عن عشق لهذا العلم وتأثره البالغ بما كان يقـرأ فـي الصحف - عندئذ – عن اكتشاف عالم الآثار أحمد فخـري هرم سنفرو، وتمنى أن يصبح يوما واحدا من علماء الآثار؛ ولذلك اهتم بقراءة أعمال سـليم حسـن وبعـض الأعمـال المترجمة التي وجدها بمكتبة المدرسة.

كان تلاميذ مدرسة طوخ الإعدادية – الثانوية أقـرب إلى تلاميذ السيدة حنيفة السـلحدار مـن حيـث الأصـول الاجتماعية، فأغلبيتهم جاءت من أبنـاء الفلاحـين وصـغار الملاك والحرفيين والعمال، وكان بينهم أقلية ضئيلة من أبناء التجار الكبار وأبناء الموظفين. وجاء معظم التلاميذ من قرى مركز طوخ، يأتون إلى المدرسـة سـيرا علـى الأقـدام، ويحرصون على الدرس والتحصيل، وكان النشاط الرياضي والفني والثقافي بالمدرسة متواضعا، فمعظم المدرسين يقيمون بالقاهرة ويحضرون إلى المدرسة بالقطـار يوميـا، واليـوم الدراسي الكامل ينتهي الساعة الثانية والنصف بعد الظهـر، فيعود المدرسون إلى القاهرة وتتجه مجموعات التلاميذ كـل إلى قريته، فلا تجد بها أحدا بعد الثالثة مساء. ولكن صاحبنا

www.alkottob.com



كان حريصا على المشاركة في النشاط الثقافي، فيلقي من حين لآخر كلمة قصيرة بالإذاعة المدرسية عن الفراعنة مينا، ورمسيس الثاني، وإخناتون، وعن أحمد عرابي ،ومصطفى كامل ،ومحمد فريد، إضافة إلى "حكمة اليوم"، وشجعه مدرس اللغة العربية على إصدار مجلة حائط سماها "الضياء" صدرت منها نحو خمسة أعداد، كان يحرر معظم مادتها، ويجتهد في إخراجها ورسمها.

لقد أكسبه ما حققه من نجاح بمدرسة طوخ الثقة بالنفس، وخلصه من عقده النفسيه القديمة، فأصبح أكثر ميلاً للاندماج مع زملائه، ومناقشة المدرسين الذين كانوا لا يصدونه أو يسفهون أفكاره بل يوجهونه ويشجعونه. وما كاد ينجح في الفرقة الثانية، وينتقل إلى الفرقة الثالثة حتى نُقل والده إلى قرية طنوب مركز الشهداء منوفية، وانتقلت الأسرة إلى طنوب، والتحق صاحبنا بمدرسة الشهداء الإعدادية الثانوية.

كانت مدرسة الشهداء أدنى مستوى من مدرسة طوخ من حيث مستوى التدريس ونظام الدراسة وجاء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ في مطلع العام الدراسي؛ فشغل صاحبنا

www.alkottob.com

بهذه القضية وتطوع في الحرس الـوطني، وأتـم التـدريب السريع على استخدام البندقيـة الآليـة والمـدفع الرشـاش واستخدام القنابل اليدوية، وبعد انتهاء التـدريب قابـل قائـد المعسكر طالبا منه إرساله إلى بورسعيد للاشتراك في الدفاع عنها ضد العدوان، فقال لـه القائـد (وكـان مـن ضـباط الاحتياط): "يا بني أنت واخد الحكاية جد؟ لأ الحكومة عايزة تلهي الشباب بالتدريب "فمادت الأرض تحت أقدامه، وانفجر في الضابط يتهمه بالخيانة والعمالة للاستعمار، وأكد له أنـه سيرسل برقية إلى عبد الناصر بما دار معـه مـن حـديث. انزعج الرجل ومعه ضابط صغير برتبة ملازم وباشجاويش المعسكر فالتفوا حول المتطوع الغاضـب يتحـدثون معـه بأسلوب لين، فذكر الضابطان أنهما مدرسان فـي الأصـل، وأنهما يعاملانه كأحد أبنائهما، والحكومة لا شك تقدر للشباب حماسه وحرصه الدفاع عن الوطن ولكن ما تلقاه الشباب من تدريب لا يكفي لإرسالهم إلى قتال عدو مدجج بالسلاح، وأنه عندما ذكر القائد ما ذكر إنما أراد أن يعبر عن عدم وجـود تعليمات لديه بإرسال المتطوعين إلى بورسعيد، ولم يكتـفِ الرجل بذلك، بل علم من المدرسة مكان عمل والده. واتصل

www.alkottob.com

به تليفونيا طالبا تدخله لمنع ابنه من التهور وتقـديم شـكوى ضد للرئيس.

وإذا كان صاحبنا قد عدل عن شكوى قائد المعسـكر، فقد أحس في أعماق نفسه بالهزيمة، ذلك الإحسـاس الـذي لازمه كلما رأى جنود الاحتلال البريطاني يتدربون في ساحة الجولف أمام مساكن عمال محطة بورسـعيد (حيـث ولـد) ويجوسون خلال المدينة، عندما كان يزور أخواله في إجازة الصيف صحبة أسرته، ومضت فترة الأزمة وهـو مهمـوم بالبحث عن سبيل للتسلل إلى بورسعيد، والبحث عن الفدائيين الذين علم بنشاطهم من الصحف، وحسدهم على نيلهم شرف الدفاع عن الوطن. وعندما استؤنفت الدراسة كانـت متابعـة الأحداث السياسية تغطي على معظم الوقت، وتمنى لو كـان بالقاهرة لوجد السبيل لأداء الواجب نحو وطنه.

وبعد أن استقرت الأمور واقترب موعـد الامتحـان جلس إلى والده للتعرف على رأيه في الخطوة التاليـة بعـد حصوله على الثانوية العامة، فقال له والده إن ما حصله من تعليم حتى هذه الفترة كافٍ تماما لتحديد مستقبله، فهو يستطيع الحصول على وظيفة بالكادر المتوسـط بالدرجـة الثامنـة

www.alkottob.com

الكتابية، وهي درجة لا يحلم أبوه بالوصول إليها. وذكره أن عبء إعالة الأسرة التي أصبحت مكونة من الوالدين وثمانية أبناء (هو أكبرهم) قد ناء به كاهله، وأنـه آن الأوان لكـي يؤدي صاحبنا دوره في مساعدة والده على تربية أخوته حتى يبلغوا ما بلغ، وعندما قال له صاحبنا إنه يعلم أن نزوله إلـى ميدان العمل مسألة ضرورية للأسرة، ولكنه يتمنى أن ينتسب إلى الجامعة إلى جناب العمل ؛حتى يحقق أمله في أن يصبح عالم آثار. اعترض الأب على ذلك بأسـلوب منطقـي (وإن كان صاحبنا لم يرتح له عندئذ) وذكره بـأن الجامعـة قـد تستنزف جانبا كبيرا من راتبه لتغطية مصـاريف الدراسـة والكتب ؛مما يجعله غير قادر على تقديم مساهمة ذات قيمـة في إعالة الأسرة. وحذر الأب ابنه من الإفراط فـي التطلـع إلى ما "ليس من ثوبه وأن "القناعة كنز لا يفنى" و "للضرورة أحكام". لم يصدم صاحبنا لهذا الموقف من جانب الوالد فهـو يقدر تحمل الرجل له كل تلك السـنوات، ويعلـم أن مرتبـه الضئيل لا يكفي لتوفير مستلزمات الحياة الضرورية لأسـرة كبيرة العدد، ويعلم أن من واجبه أن يـرد الجميـل لأبيـه، ويساعد أخوته على تحقيق ما عجز هو عن تحقيقه، وليترك

www.alkottob.com

مسألة الانتساب إلى الجامعة لما تأتي به الأيام، غير أن همته فترت في السعي للحصول على مجموع مناسـب للالتحـاق بكلية الآداب شأنه شأن زملائه، فماذا يجـدي المجمـوع إذا كانت الطريق إلى الجامعة لا تتقاطع مع طريقه فـي الحيـاة الذي رسمه له وضعه الاجتماعي؟! فلم يهتم كثيرا بالنجـاح والحصول على "الشهادة" ؛وهكذا حصل على الثانوية العامة القسم الأدبي بمجموع بلغـت نسـبته ٦١,٥% وكـان أول الخريجين قد حصل على ٧٦% فلم تكن المجـاميع الفلكيـة التي صاحبت تدني مستوى التعليم معروفة في ذلك الحـين، وكان طبيعيا أن تحمل الجريدة المسائية التي دأبت على نشر نتيجة الشهادات أسماء العديد من المدارس وتحتها عبارة "لم ينجح أحد". وكان ترتيب صاحبنا بهذا المجموع الصغير رقم ٩٦٦ من مجموع الناجحين بالقسم الأدبي الـذين تجـاوزوا المائة والعشرين ألفًا.

www.alkottob.com

التسلل إلى الجامعة

شغل من حصلوا معه على الثانوية العامة عام ١٩٥٧ بالتقدم إلى مكتب التنسيق (الذي كان من جهود ثورة يوليـو الإصلاحية لضمان عدالة توزيع الطلاب على الجامعات) فلم يعد القبول مرهونًا بالوساطة والمحسوبية كما كانت الحال في العصر الملكي. أما صاحبنا فأعد كل أوراقه لغرض آخـر: البحث عن عمل، فإلي جانب شهادة الثانوية العامة وشـهادة الميلاد، هناك شهادات أخرى لابد من تجهيزها أيضـا همـا شهادة الجنسية المصرية ،وشهادة حسن السـير والسـلوك، وهما توقعان من اثنين من الموظفين لا يقل مرتب كل منهما عن عشرين جنيها، ولما لم يكن والده يعـرف أحـدا مـن أصحاب هذه الرواتب (الكبيرة)، لجأ إلى البديل وهو عمـدة قرية طنوب الذي تولى مهمة إعداد الشهادتين من مركز كفر الزيات عن طريق المأمور، هذه الأمور التي تبـدو تافهـة اليوم، لا مبرر لها، كانت من المعضلات التي تواجه الفقراء في تلك الأيام.

www.alkottob.com

كانت البلاد تمر – عندئذ – بفترة ركود اقتصادي فلم تكن هناك وظائف متاحة بالحكومة. سأل الوالد كل معارفه بالسكة الحديد والتلغراف، فكانت الوظائف المتاحة تتطلب سلامة الإبصار (٦/٦) أما قوة إبصار صاحبنا فكانت (١٨/٦)، وكان يستخدم نظارة طبية منذ العاشرة من عمره؛ وبذلك لا يصلح للالتحاق بمدرسة الحركة والتلغراف التي كانت تابعة لمصلحة السكة الحديد، ومدة الدراسة بها تسعة شهور، يعين الطالب بعدها بوظيفة معاون محطة أو معاون تلغراف. فلم يتبق إلا البحث عن العمل بإحدى الشركات، ودل بعض أهل الخير الوالد على موظف بشركة مصر للتأمين يقيم بحي العباسية بالقاهرة، فتوجه صاحبنا لزيارته بمنزله في أقرب يوم جمعة.

كان عبد الحكيم أفندي رجلاً طيبا عنده خمسة أولاد حصل أكبرهم على الثانوية العامة القسم الأدبي في نفس العام بمجموع نسبته٥٢ % وعندما ألقى نظرة على استمارة النجاح في الثانوية العامة الخاصة بصاحبنا، قال له: "يا بني خسارة تضيع فرصة دخول الجامعة، دا أنت مكانك فيها مضمون"، وراح يشرح له الظروف الاقتصادية الراهنة،

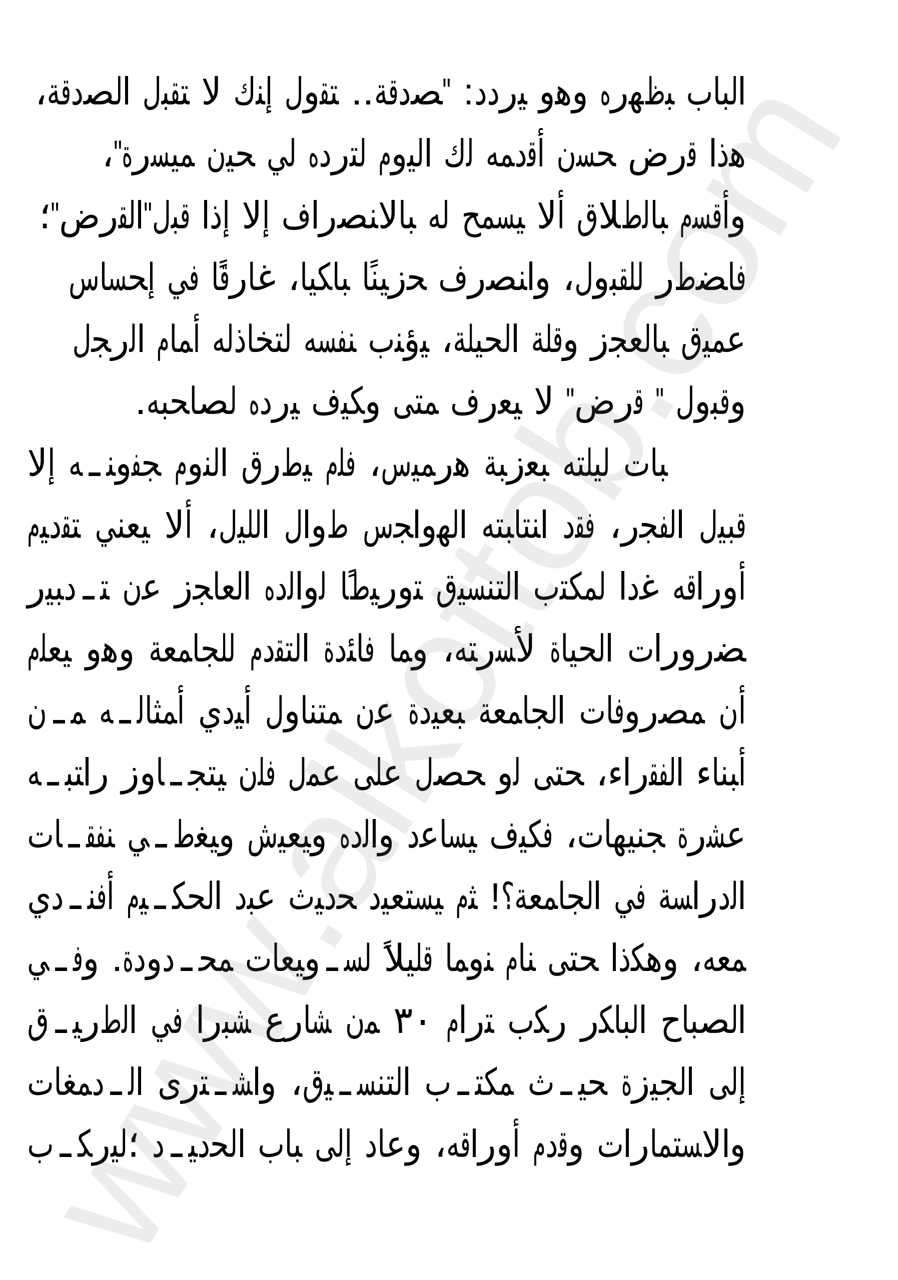
www.alkottob.com

وكيف أن الشركات "توفر "الموظفين، وأنه نفسه في وضـع غير مستقر (على كف عفريت)، ونصحه بتقديم أوراقه إلـى مكتب التنسيق يوم السبت، قبل أن يغلق أبوابه يوم الاثنـين؛ فتضيع الفرصة من يده ربما إلى الأبد. أما الحصـول علـى عمل فسوف يستغرق وقتًا طويلاً بسـبب الأزمـة، ويمكنـه مواصلة البحث عن عمل أثناء الدراسة وتغيير حالتـه مـن طالب نظامي إلى طالب منتسب عندما يحصل على عمل.

وراح صاحبنا يشرح للرجل ظروفه العائلية البائسـة التي تجعل حصوله على عمل هدفًا أساسيا، وأنـه إذا قُبلـت أوراقه بالجامعة، فمن أين يسـتطع أن يـدفع مصـروفات الجامعة التي كانت تبلغ ثمانية عشر جنيها ونصف، فهو مبلغ يزيد عن راتب والده بحوالي خمسة جنيهات، ثم أن ما معـه من نقود يقل عن الجنيه الواحد، فكيف يدبر الجنيهات القليلة لرسوم التقديم والدمغات وكان يقترب من الثلاثة جنيهات؟!

أطرق الرجل مليا، وحوقل عدة مرات، ثم قام من مجلسه وترك الغرفة، وعاد بعد دقائق ليضع فوق أوراق صاحبنا مظروفًا صغيرا فيه ثلاثة جنيهات، فرفض صاحبنا قبول المبلغ، وهب للانصراف كمن لدغه ثعبان، فسد الرجل

www.alkottob.com



الباب بظهره وهو يردد: "صدقة.. تقول إنك لا تقبل الصدقة، هذا قرض حسن أقدمه لك اليوم لترده لي حين ميسرة"، وأقسم بالطلاق ألا يسمح له بالانصراف إلا إذا قبل"القرض"؛ فاضطر للقبول، وانصرف حزينًا باكيا، غارقًا في إحساس عميق بالعجز وقلة الحيلة، يؤنب نفسه لتخاذله أمام الرجل وقبول " قرض" لا يعرف متى وكيف يرده لصاحبه.

بات ليلته بعزبة هرميس، فلم يطرق النوم جفونـه إلا قبيل الفجر، فقد انتابته الهواجس طوال الليل، ألا يعني تقديم أوراقه غدا لمكتب التنسيق توريطًا لوالده العاجز عن تـدبير ضرورات الحياة لأسرته، وما فائدة التقدم للجامعة وهو يعلم أن مصروفات الجامعة بعيدة عن متناول أيدي أمثالـه مـن أبناء الفقراء، حتى لو حصل على عمل فلن يتجـاوز راتبـه عشرة جنيهات، فكيف يساعد والده ويعيش ويغطـي نفقـات الدراسة في الجامعة؟! ثم يستعيد حديث عبد الحكـيم أفنـدي معه، وهكذا حتى نام نوما قليلاً لسـويعات محـدودة. وفـي الصباح الباكر ركب ترام ٣٠ من شارع شبرا في الطريـق إلى الجيزة حيـث مكتـب التنسـيق، واشـترى الـدمغات والاستمارات وقدم أوراقه، وعاد إلى باب الحديـد ؛ليركـب

www.alkottob.com

القطار إلى منوف ومنها إلى طنوب حاملاً معه إيصال مكتب التنسيق، وطوال الطريق يفكر فيما يكون من رد الفعل عنـد أبيه.

بدأ حديثه مع والده بما دار بينه وبـين عبـد الحكـيم أفندي من حديث الأزمة الاقتصادية ،وتعذر العثور على عمل في المنظور القريب، ثم انتقل إلـى حـديث الرجـل حـول ضرورة تقديم الأوراق إلى مكتب التنسيق ثـم يبحـث عـن عمل، فقاطعه الأب: "قصره، قدمت ورقك للجامعـة؟" فهـز رأسه بالإيجـاب، فقـال الأب: "إن ا لا يكلـف نفسـا إلا وسعها.. لا شأن لي بك، حسبي ا ونعم الوكيـل (كررهـا ثلاث مرات)".

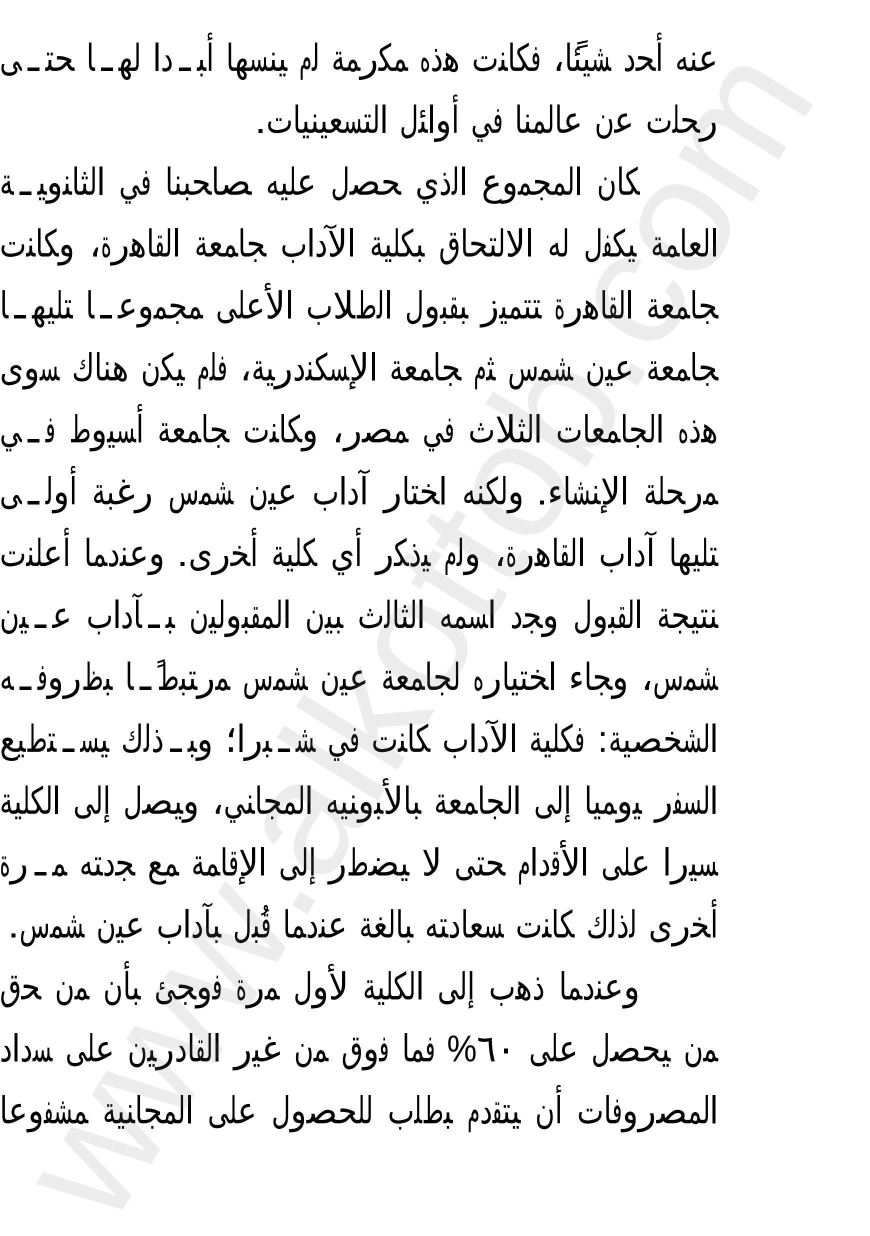
كانت ليلة حزينة في البيت تداخلت فيها أسباب الحزن، فالأم ومن يعي من الأخوة حزانى لموقـف الأب دون إدراك لحقيقة بؤسه التي كان صاحبنا يعيها جيـدا، ويقـدر لـلأب موقفه، أما الأخوة الصغار فهم حزانى؛ لأن جو البيت تسوده الكآبة بمجرد غضب الأب على أحد أفـراد الأسـرة. ونـام صاحبنا ليستيقظ فزعا على حلم مفزع رأى فيه الأب يسـقط بين يديه ميتًا، وهو يندب حظه العاثر. قرر بينه وبين نفسـه

www.alkottob.com

أن يلتحق بأي عمل مهما كان شأنه ليعول نفسه حتى يجد عملاً ثابتًا يستطيع مساعدة والده عن طريقه في تحمل أعباء الأسرة.

وفي صباح اليوم التالي طلب من أمه أن تخبر أباه اعتزامه السفر إلى القاهرة (وكان يحمل أبونيه مجانيا يصرف لأبناء العاملين بالسكة الحديد)، فقد جرت العادة أن يقاطع الأب من يغضب عليه عدة أيام. فلم يرد الأب بما يفيد الرفض أو الموافقة، بل نظر إليها ولزم الصمت، واعتبر صاحبنا أن هذا السكوت لا يعني الرفض على أقل تقدير، فسافر توا إلى القاهرة وراح يبحث عمن يقرضه من أقاربه حتى يجمع المبلغ المطلوب لرسوم الدراسة فلم يجد ترحيبا من أحد، حتى من كان باستطاعتهم مساعدته منهم امتنع بحجة عدم جدوى ذلك ؛لأن أمامه مرحلة طويلة، والبلد حالتها الاقتصادية سيئة والبطالة تتزايد، فلا أمل لمن يتعاون معه في استرداد ما دفع، سيدة واحدة هي ابنة خالة أبيه قدمت له خمسة جنيهات كاملة، وطلبت أن يبقى الأمر سرا بينهما ؛لأن تلك الجنيهات من مبلغ ادخرته للزمن لا يعرف

www.alkottob.com



عنه أحد شيئًا، فكانت هذه مكرمة لم ينسها أبـدا لهـا حتـى رحلت عن عالمنا في أوائل التسعينيات.

كان المجموع الذي حصل عليه صاحبنا في الثانويـة العامة يكفل له الالتحاق بكلية الآداب جامعة القاهرة، وكانت جامعة القاهرة تتميز بقبول الطلاب الأعلى مجموعـا تليهـا جامعة عين شمس ثم جامعة الإسكندرية، فلم يكن هناك سوى هذه الجامعات الثلاث في مصر، وكانت جامعة أسيوط فـي مرحلة الإنشاء. ولكنه اختار آداب عين شمس رغبة أولـى تليها آداب القاهرة، ولم يذكر أي كلية أخرى. وعندما أعلنت نتيجة القبول وجد اسمه الثالث بين المقبولين بـآداب عـين شمس، وجاء اختياره لجامعة عين شمس مرتبطًـا بظروفـه الشخصية: فكلية الآداب كانت في شـبرا؛ وبـذلك يسـتطيع السفر يوميا إلى الجامعة بالأبونيه المجاني، ويصل إلى الكلية سيرا على الأقدام حتى لا يضطر إلى الإقامة مع جدته مـرة أخرى لذلك كانت سعادته بالغة عندما قُبل بآداب عين شمس.

وعندما ذهب إلى الكلية لأول مرة فوجئ بأن من حق من يحصل على ٦٠% فما فوق من غير القادرين على سداد المصروفات أن يتقدم بطلب للحصول على المجانية مشفوعا

www.alkottob.com

ببحث اجتماعي عن حالته من وحـدة الشـئون الاجتماعيـة التابعة لمحل إقامته، فقام بإعداد الأوراق المطلوبة وتقديمها، وأُعلنت كشوف أسماء من حصلوا على المجانية بعد ثلاثـة أسابيع، فلم يدفع سوى ٣٦٠ قرشًا رسوما للقيـد بـدلاً مـن المصروفات التي كانت تبلغ ثمانية عشر ونص جنيها فيمـا يذكر، ولم تكن مجانية التعليم قد امتدت إلى التعليم العالي إلا في يوليو ١٩٦٣، ورغم ذلك بنت حكومة الثـورة سياسـتها على التوسع في منح المجانية لمن يطلبها، وكـان المسـتند الوحيد الذي يبرر الإعفاء (البحث الاجتماعي) يتم بمجـرد تقديم الطلب، فيسأل الطالب عن وظيفة أبيه وراتبه الشهري، وعدد أفراد الأسرة، دون مطالبته بأي مستندات دالـة علـى صحة البيانات، ويتم تحرير البحـث الاجتمـاعي وتسـليمه لطالبه بعد ختمه بخاتم الدولـة. وأغلـب الظـن أن أولئـك الموظفين بالشئون الاجتماعية كانت لديهم تعليمات بالتساهل مع طلاب المجانية، فكان عدد من يعفون من المصـروفات بالكلية سنويا يزيد قليلاً عن نصف جملة عدد الطلاب، وكان الاحتفاظ بالمجانية يقتضي الحصول على تقدير "جيد" علـى الأقل كل عام، وهو ما حصل عليه صاحبنا واستطاع عـن

www.alkottob.com

طريقه متابعة الدراسة حتى التخرج بفضـل القواعـد التـي وضعتها ثورة يوليو للقبول بالجامعات التي ركـزت علـى التحصيل الدراسي، وأسقطت من اعتبارها الخلفية الاجتماعية للطالب، وبفضل التوسع في منح المجانية لغير القادرين على سداد المصروفات، ففتحت باب التعليم الجامعي أمـام فئـات اجتماعية لم تكن تحلم في عهد الملكية بالوقوف أمـام بـاب الجامعة فضلاً عن الالتحاق بها، وكان صاحبنا مـن ضـمن هؤلاء.

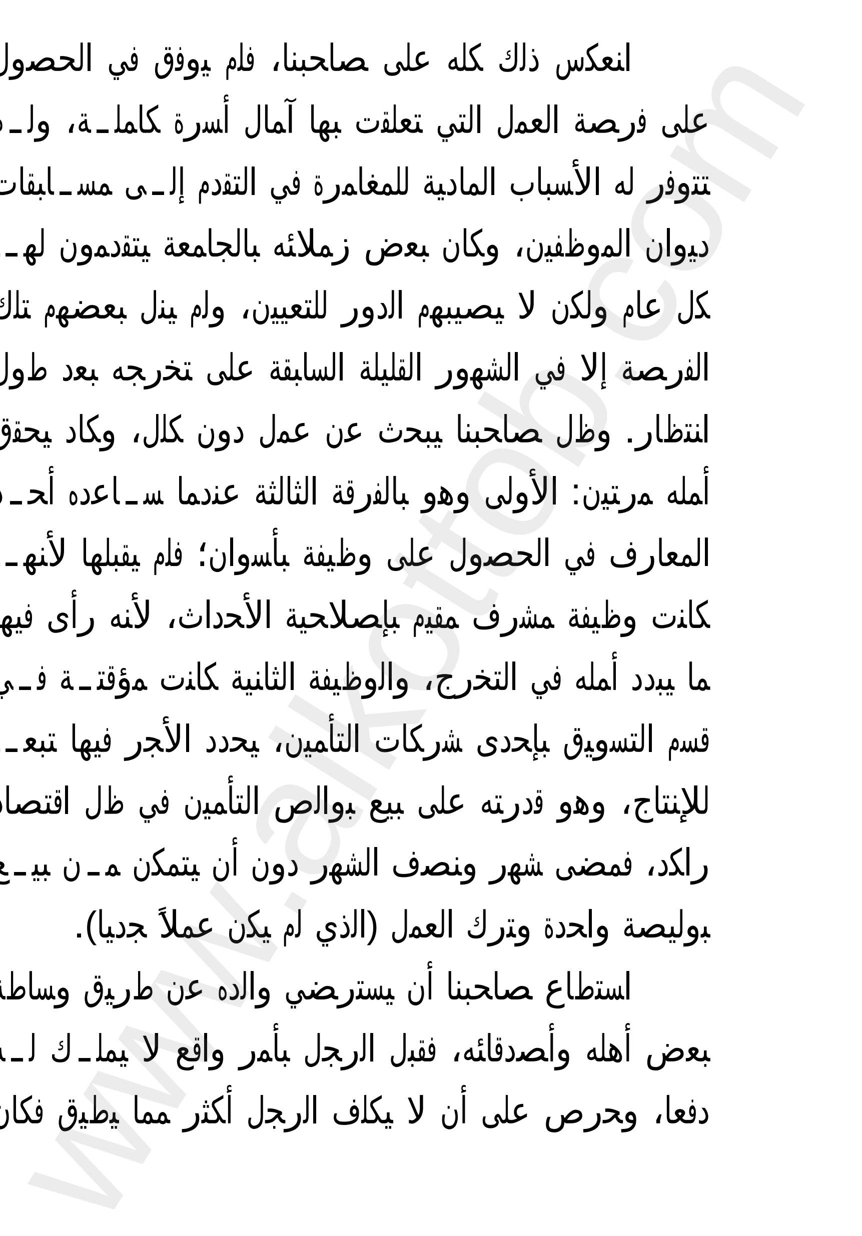
كانت السنوات من ١٩٥٧ (تاريخ التحاقه بالجامعـة) حتى ١٩٦١ (تاريخ تخرجه) سنواتٍ عجافًا في تطور مصر الاقتصادي، فرغم الإغراءات التي قدمتها حكومـة الثـورة لرأس المال من خلال الدراسات الجاهزة التي أتاحها المجلس القومي للإنتاج والمجلس القومي للخدمات عـن مشـروعات استثمارية في المجالين، ورغم تقديم ظرف تـاريخي نـادر وملائم للتنمية الرأسمالية عندما صدرت قـرارات تمصـير الشركات والبنوك الأجنبية الإنجليزية والفرنسية والبلجيكيـة وغيرها من الشركات التي سيطرت على الاقتصاد المصري، وطُرحت أسهمها للمصريين، لم يقبل رأس المـال الـوطني

www.alkottob.com

على الاستثمار، كما لم تكن تلك الخطوة مشجعة لرأس المال الأجنبي. وكانت تلك الأزمة الاقتصادية الخانقة التي لم تجـد الحكومة مخرجا منها إلا بالتحول نحو القيام بأعباء التنميـة بنفسها، فكانت قرارات يوليو ١٩٦١(الاشتراكية).

وكان لهذا الركود أثره البالغ طوال السنوات الأربـع على سوق العمل، فكانت الفرص محدودة، ويحتاج الحصول عليها إلى وساطة، وكان التعيين في الحكومة مركزيا يتم من خلال مسابقات ديوان الموظفين التي كانت تكلف المتقدم نحو العشرة جنيهات، ثم يتم ترتيب الناجحين ويتم التعيين بالدور من بين الناجحين حسب الترتيب، ومن لم يصبه الدور فـي السنة المالية التي دخل فيها المسـابقة؛ كـان عليـه التقـدم للمسابقة الجديدة، وكانت إعلانات ديوان الموظفين قاصـرة على حملة الشهادات المتوسطة، فاضطر حملـة المـؤهلات العليا إلى التقدم إلى هذه المسابقة للحصول على وظيفة كتابية أو فنية أملاً في تسوية أوضاعهم وفق مؤهلاتهم العليا فيمـا بعد. ولم يزد عدد من يحصـلون علـى فرصـة التعيـين بالحكومة (المجال الوحيد المتاح) عـن ٢٠ – ٢٥ % مـن جملة عدد الناجحين في تلك المسابقة.

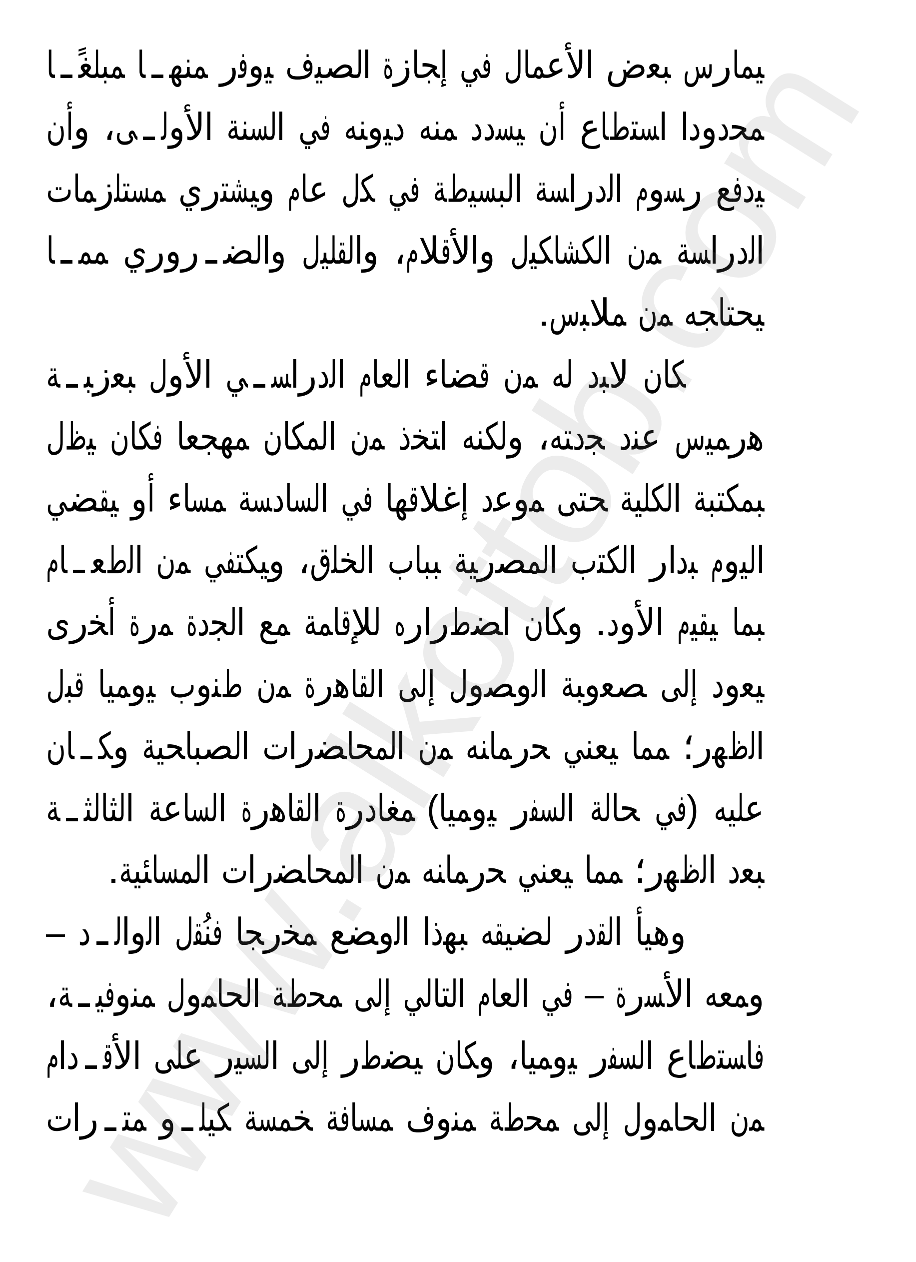
www.alkottob.com



انعكس ذلك كله على صاحبنا، فلم يوفق في الحصول على فرصة العمل التي تعلقت بها آمال أسرة كاملة، ولم تتوفر له الأسباب المادية للمغامرة في التقدم إلى مسابقات ديوان الموظفين، وكان بعض زملائه بالجامعة يتقدمون لها كل عام ولكن لا يصيبهم الدور للتعيين، ولم ينل بعضهم تلك الفرصة إلا في الشهور القليلة السابقة على تخرجه بعد طول انتظار. وظل صاحبنا يبحث عن عمل دون كلل، وكاد يحقق أمله مرتين: الأولى وهو بالفرقة الثالثة عندما ساعده أحد المعارف في الحصول على وظيفة بأسوان؛ فلم يقبلها لأنها كانت وظيفة مشرف مقيم بإصلاحية الأحداث، لأنه رأى فيها ما يبدد أمله في التخرج، والوظيفة الثانية كانت مؤقتة في قسم التسويق بإحدى شركات التأمين، يحدد الأجر فيها تبعا للإنتاج، وهو قدرته على بيع بوالص التأمين في ظل اقتصاد راكد، فمضى شهر ونصف الشهر دون أن يتمكن من بيع بوليصة واحدة وترك العمل (الذي لم يكن عملاً جديا).

استطاع صاحبنا أن يسترضي والده عن طريق وساطة بعض أهله وأصدقائه، فقبل الرجل بأمر واقع لا يملك له دفعا، وحرص على أن لا يكلف الرجل أكثر مما يطيق فكان

www.alkottob.com



يمارس بعض الأعمال في إجازة الصيف يوفر منهـا مبلغًـا محدودا استطاع أن يسدد منه ديونه في السنة الأولـى، وأن يدفع رسوم الدراسة البسيطة في كل عام ويشتري مستلزمات الدراسة من الكشاكيل والأقلام، والقليل والضـروري ممـا يحتاجه من ملابس.

كان لابد له من قضاء العام الدراسـي الأول بعزبـة هرميس عند جدته، ولكنه اتخذ من المكان مهجعا فكان يظل بمكتبة الكلية حتى موعد إغلاقها في السادسة مساء أو يقضي اليوم بدار الكتب المصرية بباب الخلق، ويكتفي من الطعـام بما يقيم الأود. وكان اضطراره للإقامة مع الجدة مرة أخرى يعود إلى صعوبة الوصول إلى القاهرة من طنوب يوميا قبل الظهر؛ مما يعني حرمانه من المحاضرات الصباحية وكـان عليه (في حالة السفر يوميا) مغادرة القاهرة الساعة الثالثـة بعد الظهر؛ مما يعني حرمانه من المحاضرات المسائية.

وهيأ القدر لضيقه بهذا الوضع مخرجا فنُقل الوالـد – ومعه الأسرة – في العام التالي إلى محطة الحامول منوفيـة، فاستطاع السفر يوميا، وكان يضطر إلى السير على الأقـدام من الحامول إلى محطة منوف مسافة خمسة كيلـو متـرات

www.alkottob.com

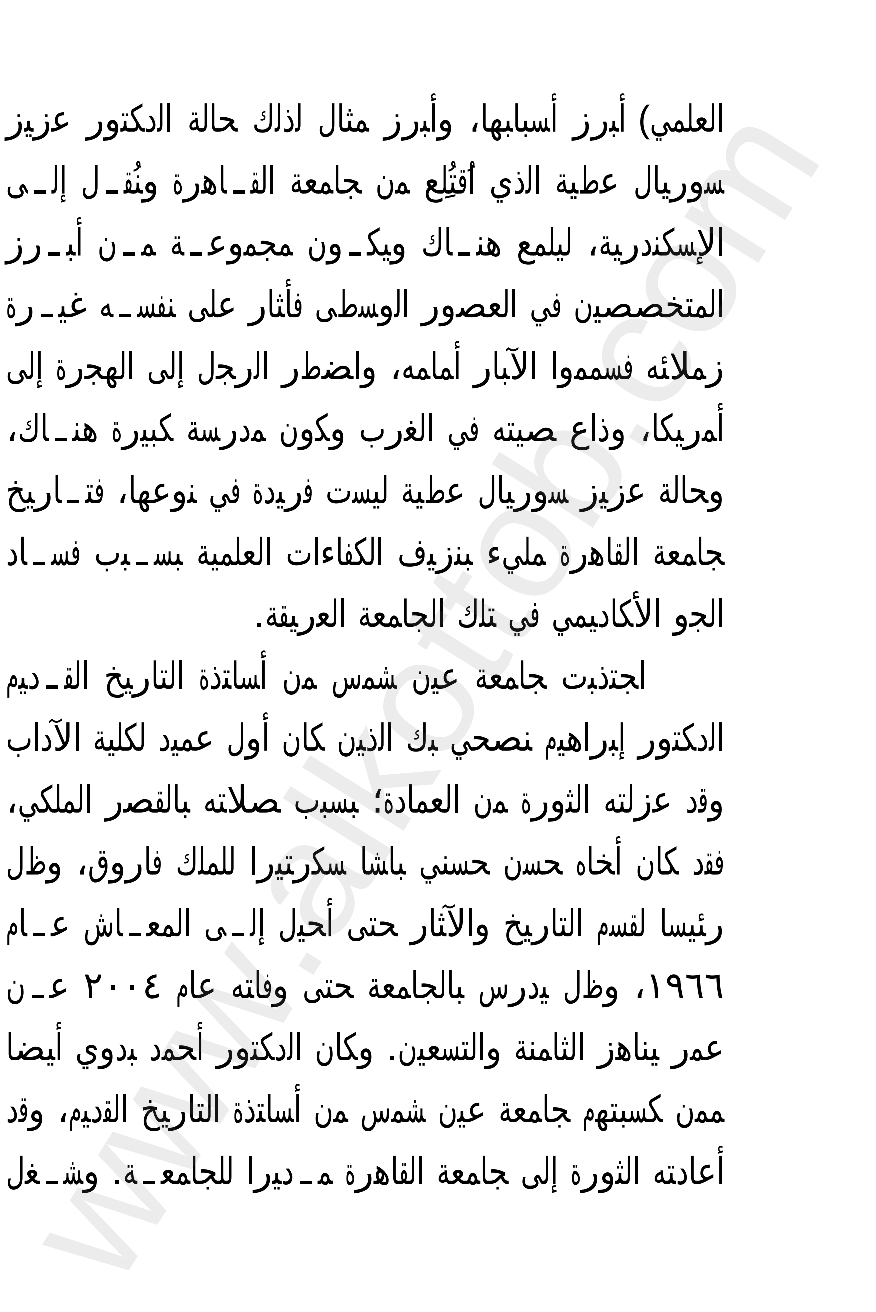
للحاق بالقطار السريع القادم من شبين الكوم والمتجـه إلـى القاهرة (وكان لا يتوقف بالحامول) ويغادر محطة منوف في السابعة صباحا. ولما كان هذا القطار يمكنه مـن حضـور المحاضرات الصباحية التي تبدأ في التاسعة، وكان عليـه أن يلحق به مرتين أسبوعيا (على الأقل)، وكان يضطر للعـودة بالقطار الذي يغادر القاهرة في السادسة والنصف مساء مرة واحدة على الأقل أسبوعيا فيصل إلى منوف في الثامنـة إلا ربعا، ثم يقطع صاحبنا مسافة الخمسة كيلومترات ليصل إلى البيت حوالي التاسعة مساء.

أما كل تنقلاته بالقاهرة من باب الحديـد إلـى الكليـة بشبرا، أو إلى أماكن البحث عن عمل، فكانت تتم سيرا على الأقدام، واستمر على هذه الحال حتى تخرجه عـام ١٩٦١. دون أن يضيق بواقعه البائس، أو يجعل أحدا مـن زملائـه يعرف عنه شيئًا، بل كان حريصا أن لا يبدو مظهره مختلفًـا عن زملائه. وجاءت ملامحه الصارمة وجديته في الدراسـة لتجعل زملاءه الذين يقتربون منه أو يقترب منهم يعاملونـه بقدر ملحوظ من الاحترام، وخاصة أنه كان لا يتوانى عـن تقديم العون العلمي لكل من يلجأ إليه من الزملاء.

www.alkottob.com

كان اختياره لآداب عين شمس - الذي دفعته إلى الظروف – اختيارا موفقًا بكل المعايير ؛لأنها تميزت عن جامعة القاهرة في كل شيء: برامج الدراسة، أسلوب التدريس، نظم الامتحانات وتقييم الأداء. افتتحت الجامعة عام ١٩٥١ باسم "جامعة إبراهيم باشا الكبير"، بعد نحو ستة أعوام من افتتاح جامعة الإسكندرية التي حملت اسم "جامعة فاروق الأول". ولعبت جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول عندئذ) دورا مهما في تزويد الجامعتين الوليدتين بالأساتذة، وكان هناك نوع من الحافز (في الحالتين) لتشجيع أعضاء هيئة التدريس على الانتقال إلى جامعة الإسكندرية أو جامعة عين شمس هو إمكانية شغل كراسي الأستاذية المنشأة حديثًا بتلك الجامعات بالنسبة للأساتذة المساعدين الذين كان عليهم الانتظار سنوات لا يعلم عددها إلا ا للترقية إلى درجة أستاذ عندما يخلو الكرسي برحيل شاغله إلى رحاب ا أو بلوغه سن المعاش؛ فحظيت كل من الجامعتين الوليدتين بعناصر متميزة من هيئة التدريس بجامعة القاهرة، انتقلت برغبتها، أو أجبرت على الانتقال؛ للتخلص من جو الصراعات التي كانت الغيرة المهنية (وليس التنافس

www.alkottob.com



العلمي) أبرز أسبابها، وأبرز مثال لذلك حالة الدكتور عزيز سوريال عطية الذي أُقتُلِع من جامعة القاهرة ونُقل إلى الإسكندرية، ليلمع هناك ويكون مجموعة من أبرز المتخصصين في العصور الوسطى فأثار على نفسه غيرة زملائه فسمموا الآبار أمامه، واضطر الرجل إلى الهجرة إلى أمريكا، وذاع صيته في الغرب وكون مدرسة كبيرة هناك، وحالة عزيز سوريال عطية ليست فريدة في نوعها، فتاريخ جامعة القاهرة مليء بنزيف الكفاءات العلمية بسبب فساد الجو الأكاديمي في تلك الجامعة العريقة.

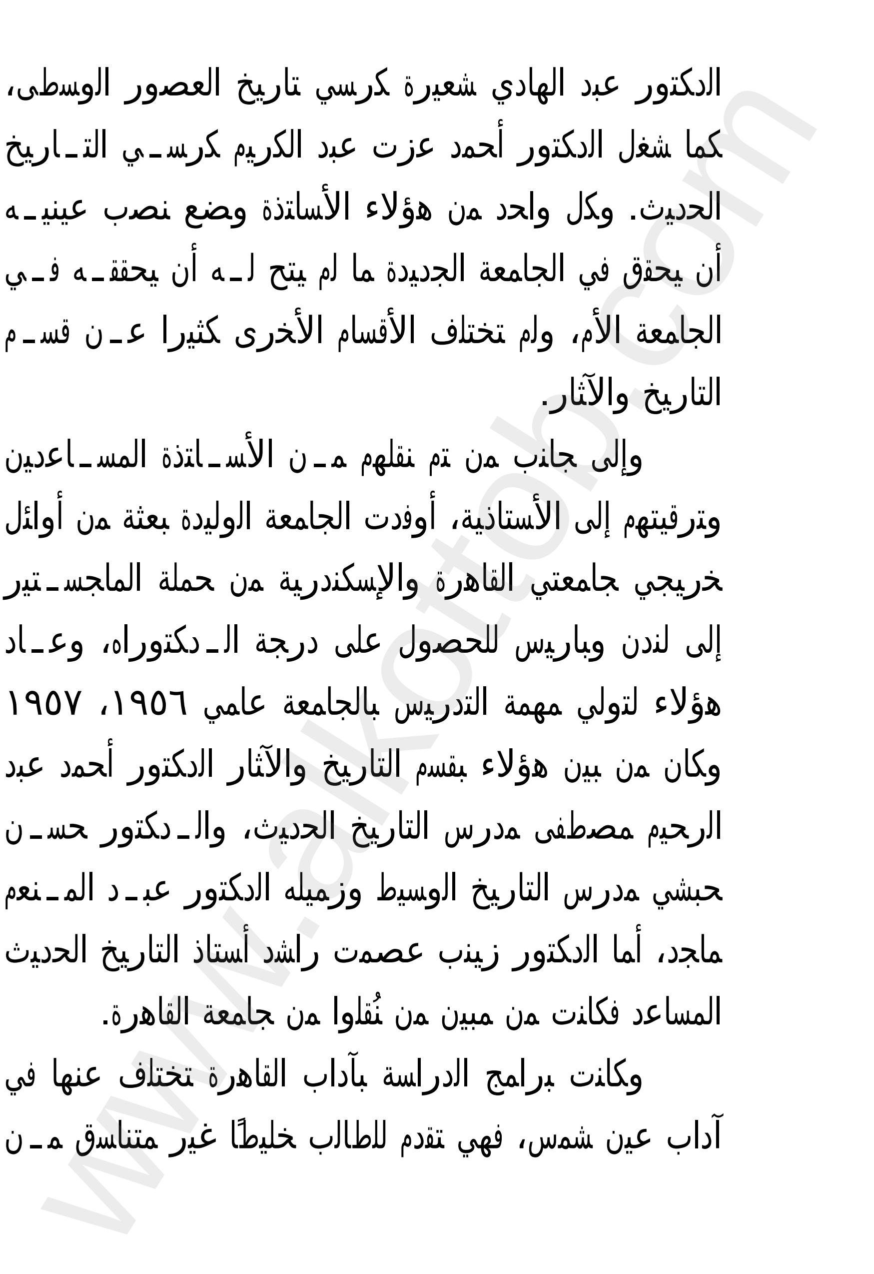
اجتذبت جامعة عين شمس من أساتذة التاريخ القديم الدكتور إبراهيم نصحي بك الذين كان أول عميد لكلية الآداب وقد عزلته الثورة من العمادة؛ بسبب صلاته بالقصر الملكي، فقد كان أخاه حسن حسني باشا سكرتيرا للملك فاروق، وظل رئيسا لقسم التاريخ والآثار حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٦٦، وظل يدرس بالجامعة حتى وفاته عام ٢٠٠٤ عن عمر يناهز الثامنة والتسعين. وكان الدكتور أحمد بدوي أيضا ممن كسبتهم جامعة عين شمس من أساتذة التاريخ القديم، وقد أعادته الثورة إلى جامعة القاهرة مديرا للجامعة. وشغل

www.alkottob.com

الدكتور عبد الهادي شعيرة كرسي تاريخ العصور الوسطى، كما شغل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم كرسي التاريخ الحديث. وكل واحد من هؤلاء الأساتذة وضع نصب عينيه أن يحقق في الجامعة الجديدة ما لم يتح له أن يحققه في الجامعة الأم، ولم تختلف الأقسام الأخرى كثيرا عن قسم التاريخ والآثار.

وإلى جانب من تم نقلهم من الأساتذة المساعدين وترقيتهم إلى الأستاذية، أوفدت الجامعة الوليدة بعثة من أوائل خريجي جامعتي القاهرة والإسكندرية من حملة الماجستير إلى لندن وباريس للحصول على درجة الدكتوراه، وعاد هؤلاء لتولي مهمة التدريس بالجامعة عامي ١٩٥٦، ١٩٥٧ وكان من بين هؤلاء بقسم التاريخ والآثار الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى مدرس التاريخ الحديث، والدكتور حسن حبشي مدرس التاريخ الوسيط وزميله الدكتور عبد المنعم ماجد، أما الدكتور زينب عصمت راشد أستاذ التاريخ الحديث المساعد فكانت من مبين من نُقلوا من جامعة القاهرة.

وكانت برامج الدراسة بآداب القاهرة تختلف عنها في آداب عين شمس، فهي تقدم للطالب خليطًا غير متناسق من



www.alkottob.com

مواد من مختلف عصور التاريخ، وضعت تلبيـة لرغبـات ومصالح أساتذة التخصص في تاريخ كل عصر مـن تلـك العصور، فتحدث مزاحمة بالمناكب من أجل زيادة حصة كل عصر على حساب الآخر، بلغ هذا التـزاحم ذروة المأسـاة عندما قُسم تاريخ العصـور الوسـطى إلـى كرسـيين (أي تخصصين) الإسلامي والعصور الوسطى. وبلغـت المأسـاة ذروتها عندما شغل كرسي التاريخ الإسلامي وكرسي التاريخ الوسيط متخصصان في تاريخ المماليك؛ ممـا يعنـي غلبـة المصالح الشخصية على الهدف الأسمى وهو التكوين العلمي للطالب.

أما في جامعة عين شمس فقد صاغ الآباء المؤسسون برامج الدراسات على نسق السوربون بباريس، فأخذت بنظام "الشهادات" الذي يبدأ بشهادة إعدادية، يدرس الطالـب فيهـا اللغات والمنهج ومقررات تمهيدية فـي العصـور القديمـة والوسيطة والحديثة. وكان من المنطقي أن تخصص الشهادة الأولى في التخصص للعصور القديمة، ولكن نظـرا لكـون أستاذ التخصص كان يشغل وظيفة رئيس القسم وعميد الكلية، فقد أرجئت إلى الفرقة الرابعة دون مبرر علمي لذلك، كمـا

www.alkottob.com

تسببت في عجز قسم التاريخ عن تخريج من يحصلون على تقدير "جيد جدا" ويصلحون للتقدم لوظيفـة "المعيـد"، علـى عكس الأقسام الأخرى بنفس الكلية التي أفـرزت كوادرهـا الأكاديمية من بين خريجيها، وهكذا جاءت "شهادة العصـور الوسطى" تالية للشهادة الإعدادية (الفرقة الثانيـة) و "شـهادة العصر الحديث" في الفرقة الثالثة.

ولم تعرف آداب عين شمس – عندئـذ – المـذكرات والكتب الدراسية، فقد تأخر وصول هذا الوباء إليها إلى أوائل الستينات، فكان الأستاذ يعرف الطلاب في محاضرته الأولى على مكونات المقرر، ويحـدد مـا يتـولى تغطيتـه فـي المحاضرات، وما يتركه ليعده الطلاب بأنفسهم بالرجوع إلى قائمة المراجع التي يزودهم بها، فإذا لم يجدها الطالـب فـي مكتبة الكلية كان عليه أن يبحث عنها بدار الكتب المصـرية. وكان الكثير من المراجع الأساسية بالإنجليزية؛ ممـا جعـل الطالب ملزما باستخدامها. وكان الاهتمام كبيـرا بالجانـب التطبيقي، فعلى الطالب أن يعد ما لا يقل عـن بحثـين فـي الفصل الدراسي الواحد على يد من يتـولى تـدريس "مـادة البحث"، وكانت تلك المادة تؤخذ من جانب الأسـاتذة مأخـذ

www.alkottob.com

الجد، فهناك متابعة أسبوعية لمدى تقدم الطالب فـي إعـداد المقال العلمي الذي كلفه به الأستاذ، وهناك تصحيح دقيق لكل مقال، وإلزام الطالب بإعادة كتابته إذا لم يكن مناسبا، وهناك جدول زمني معين على الطالب الالتزام به وعـدم تجـاوزه لتقديم المقال، ومعنى ذلك أن الطالب يدرب على كتابة مقال علمي في تخصص معين(عصر محدد) أربع مرات في العام الدراسي الواحد، وكانت نتيجة "أعمال السنة" تعلن قبل موعد الامتحان التحريري بأسبوعين، ويحرم الراسب فيهـا مـن دخول امتحان الفصل الدراسي. فكان الرسوب فيهـا يعنـي الرسوب في أربع مواد ؛مما يعني وضع مصيره فـي كـف القدر فإذا لم يحصل على درجات مناسبة في الفصل الدراسي الآخر تؤهله للحصول على تقدير "ضـعيف"، فُصـل مـن الجامعة؛ لأن اللائحة كانت تنص على فصل كل من يحصل على تقدير "ضعيف جدا" أما من يحصل على تقدير "ضعيف" فله حق الإعادة فيما رسب فيه.

وهكذا كانت مكتبة الكلية مكتظة بالطلاب طوال اليوم من التاسعة صباحا إلى السادسة مساء، وانتشر طلبـة آداب عين شمس في قاعات دار الكتب المصـرية. أمـا طـلاب

www.alkottob.com

الانتساب فكانوا يكلفون بدراسة موضوع معين في كل فصل دراسي يحدد له أربعة مراجع على الأقل، يؤدون فيه امتحانًا تحريريا قبل موعد الفصل الدراسي بشهر، فإذا لـم يـنجح الطالب المنتسب في تلك المادة حرم مـن دخـول امتحـان الفصل الدراسي وتعرض لما يتعرض له الطالب المنتظم من مخاطر.

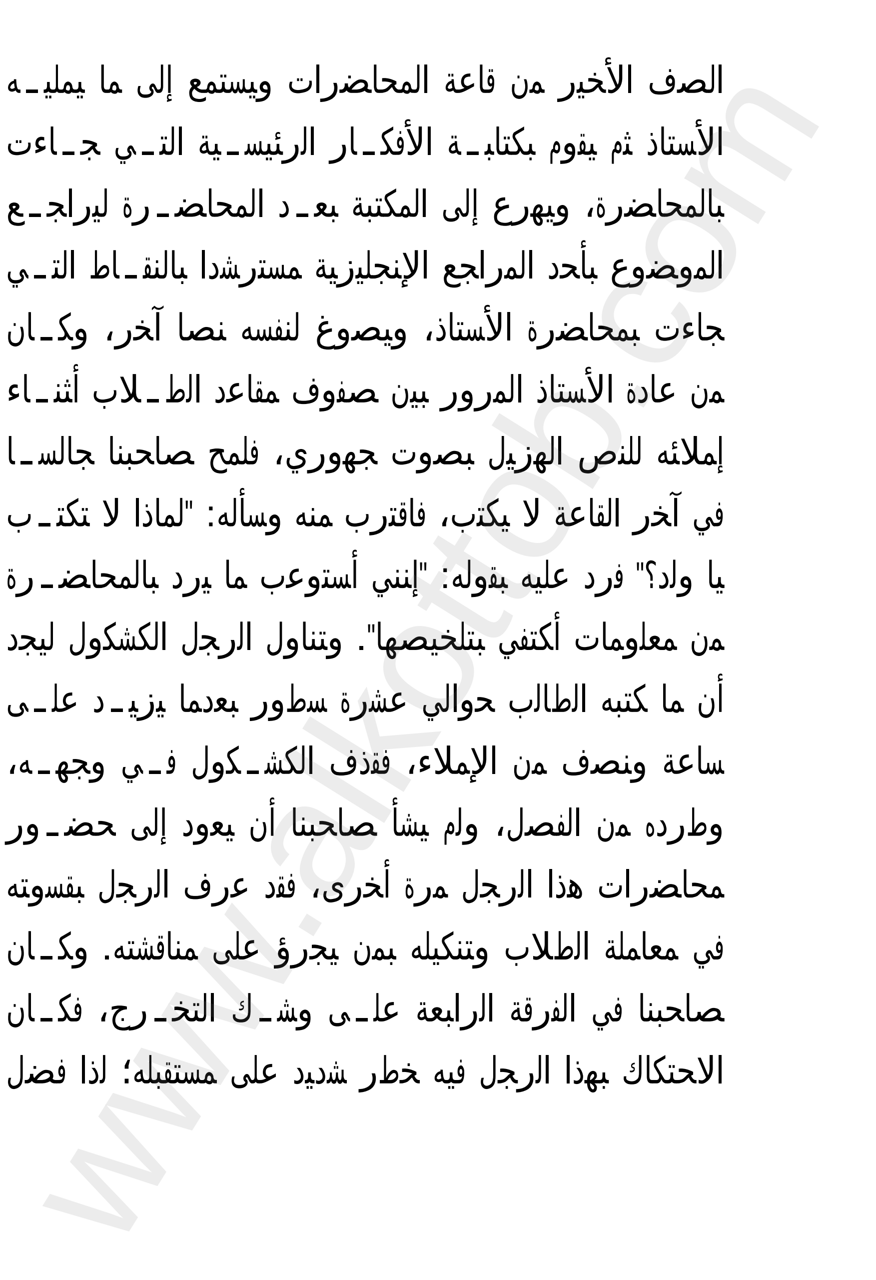
ولا عجب أن تجد طلاب الفرقة الأولى عـام ١٩٥٧ (الذين كان من بينهم صاحبنا) يبلغـون نحـو ٢٧٥ طالبـا (٢٠٠ منتظما + ٧٥ منتسبا) تتم تصـفيتهم ليصـبح عـدد خريجي قسم التاريخ عام ١٩٦١(الدفعة العاشرة التي ينتمي إليها صاحبنا) ٦٨ خريجا فقط؛ ممـا يعكـس مـدى جديـة الدراسة، ودقة تقويم أداء الطلاب، ونوعية تكوين الخـريج، ويكفي للدلالة على ذلك كله أن أربعة من بين خريجي هـذه الدفعة تابعوا دراستهم العليا حتى حصلوا علـى الـدكتوراه، واحتلوا مكانهم ضمن هيئة التدريس بالجامعة، كان صـاحبنا واحدا منهم.

وكان من بين شباب الأساتذة (عندئـذ) الـذين درس عليهم صاحبنا: مصطفى الشكعة في الأدب العربي، وحسين

www.alkottob.com

مجيب المصري في اللغة الفارسية، ويوسف أبـو الحجـاج ودولت صادق ومحمد رياض في الجغرافيا، وحليم تـادرس في اللغة الإنجليزية (وكان منتدبا من خارج الكلية). ومن بين أعضاء هيئة التدريس بآداب الإسكندرية درس تاريخ الشرق الأدنى القديم على رشـيد الناضـورى، والـنظم اليونانيـة وحضارة مصر في العصر البطلمي على محمد عواد حسين، ومن أعضاء هيئة التدريس بـآداب القـاهرة درس تـاريخ اليونان ومصر في عصر الرومان على عبد اللطيف أحمـد علي، وتاريخ مصر الفرعونية على أحمد فخـري، وتـاريخ أوروبا في العصور الوسطى على سعيد عاشور. وقد تـرك بعض هؤلاء أثرا ملحوظًا في تكوينه، ومر آخرون منهم في حياته مرورا عابرا دون أن يتأثر بهـم. وكـان هـم أحـد السكندريين بيع كتابه يحمله معه من الإسكندرية في حقيبـة كبيرة، يوزعه بنفسه على طالبي الشراء (وكان هذا غريبـا على جامعة عين شمس) أما الآخر، فكان يملي المحاضرات على الطلاب ببطء شديد، كلمة كلمة على طريقة مدرس اللغة العربيـة بالمدرسـة الابتدائيـة بعبـارات إنشـائية مليئـة بالمترادفات، فكان صاحبنا يجلس (على غير عادتـه) فـي

www.alkottob.com



الصف الأخير من قاعة المحاضرات ويستمع إلى ما يمليـه الأستاذ ثم يقوم بكتابـة الأفكـار الرئيسـية التـي جـاءت بالمحاضرة، ويهرع إلى المكتبة بعـد المحاضـرة ليراجـع الموضوع بأحد المراجع الإنجليزية مسترشدا بالنقـاط التـي جاءت بمحاضرة الأستاذ، ويصوغ لنفسه نصا آخر، وكـان من عادة الأستاذ المرور بين صفوف مقاعد الطـلاب أثنـاء إملائه للنص الهزيل بصوت جهوري، فلمح صاحبنا جالسـا في آخر القاعة لا يكتب، فاقترب منه وسأله: "لماذا لا تكتـب يا ولد؟" فرد عليه بقوله: "إنني أستوعب ما يرد بالمحاضـرة من معلومات أكتفي بتلخيصها". وتناول الرجل الكشكول ليجد أن ما كتبه الطالب حوالي عشرة سطور بعدما يزيـد علـى ساعة ونصف من الإملاء، فقذف الكشـكول فـي وجهـه، وطرده من الفصل، ولم يشأ صاحبنا أن يعود إلى حضـور محاضرات هذا الرجل مرة أخرى، فقد عرف الرجل بقسوته في معاملة الطلاب وتنكيله بمن يجرؤ على مناقشته. وكـان صاحبنا في الفرقة الرابعة علـى وشـك التخـرج، فكـان الاحتكاك بهذا الرجل فيه خطر شديد على مستقبله؛ لذا فضل

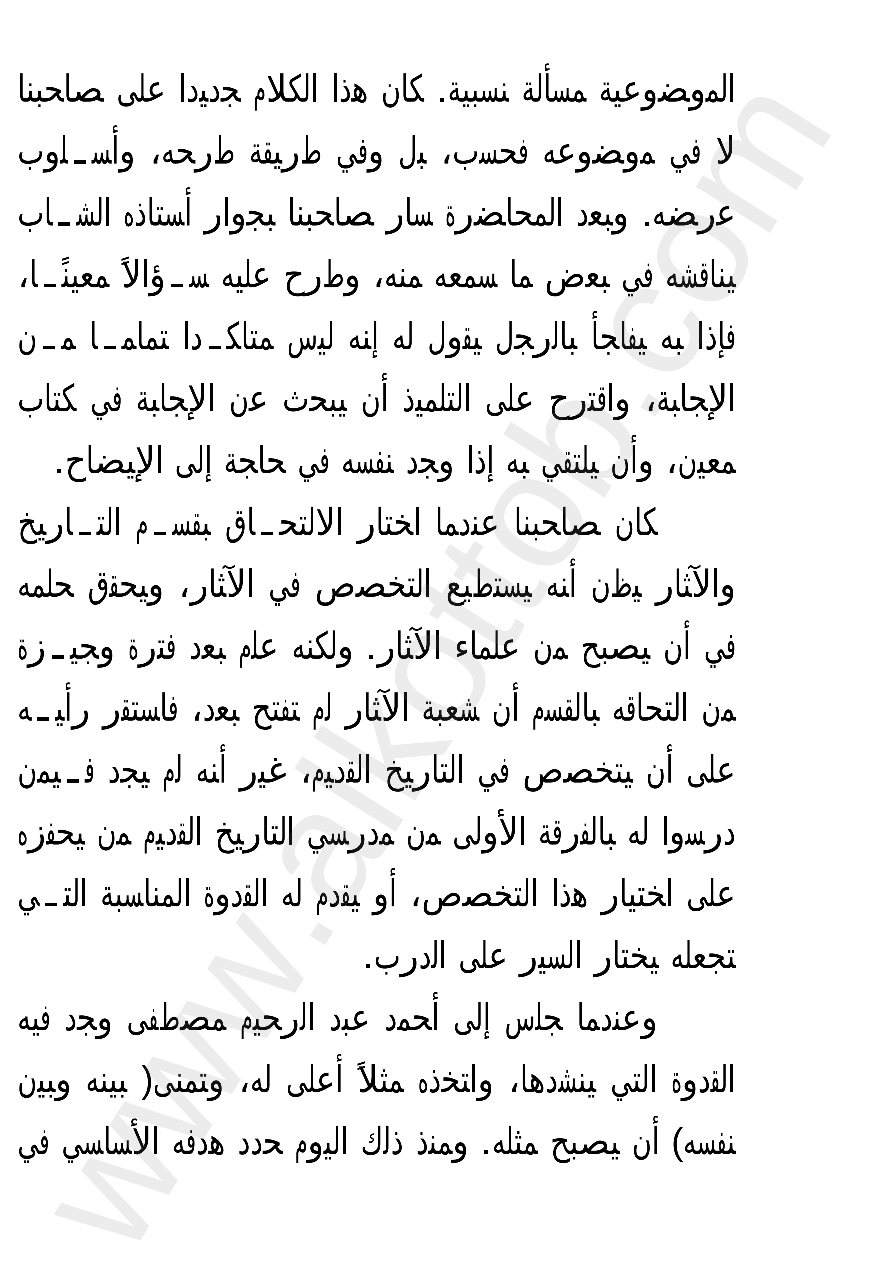
www.alkottob.com

الاختفاء من قاعة الدرس، فلم يكن يستفيد شيئًا من ذلك الأستاذ على كل حال.

وهناك آخر من آداب القاهرة كان له كتاب يفرضه على الطلاب (وهو أمر شائع في آداب القاهرة)، ويحفظ الكتاب عن ظهر قلب، ومحاضرته عبارة عن استظهار (تسميع) للكتاب الذي يحفظ نصه عن ظهر قلب، وكأنه من وحي السماء. استمع إليه صاحبنا مرتين فقط، ثم فضل أن يستثمر وقته في قراءات حول الموضوع بالمكتبة واكتشف مصادفة أن فصول الكتاب عبارة عن ترجمة لبعض فصول كامبردج في تاريخ ذلك العصر!!

مدرس شاب أثر تأثيرا بالغًا في صاحبنا هو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، ابن سوهاج، الذي كان عائدا لتوه من البعثة التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة لندن، درس عليه مناهج البحث بالفرقة الأولى، ولم يدرس عليه مرة أخرى سوى في الفرقة الثالثة، ولكنه ارتبط به منذ المحاضرة الأولى التي سمعها منه، فهذا المدرس الشاب كان يحث التلاميذ على التفكير، ونبذ المسلّمات ما لم يقم الدليل العقلي على صحتها، وأن الحقيقة التاريخية ليست كاملة، وأن

www.alkottob.com

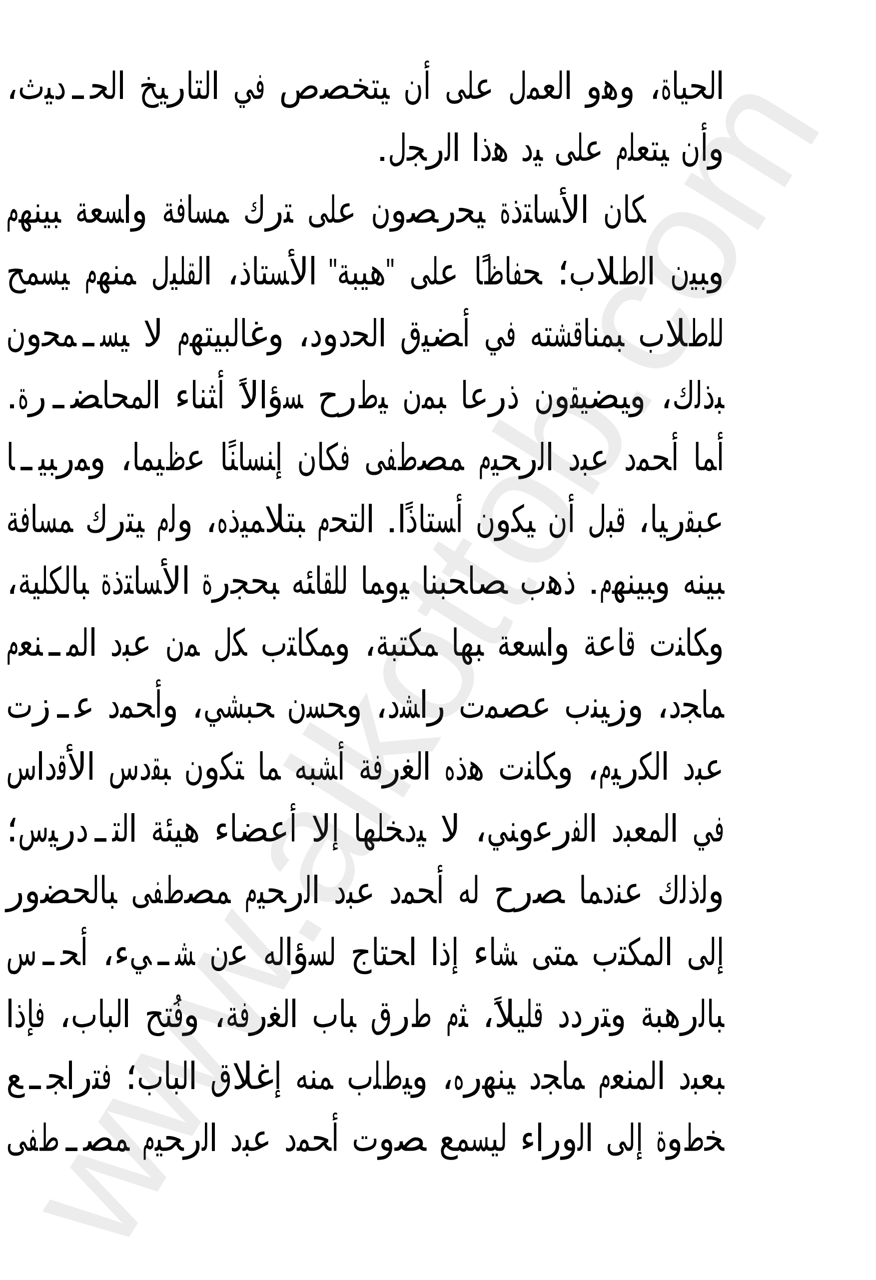


الموضوعية مسألة نسبية. كان هذا الكلام جديدا على صاحبنا لا في موضوعه فحسب، بل وفي طريقة طرحه، وأسـلوب عرضه. وبعد المحاضرة سار صاحبنا بجوار أستاذه الشـاب يناقشه في بعض ما سمعه منه، وطرح عليه سـؤالاً معينًـا، فإذا به يفاجأ بالرجل يقول له إنه ليس متاكـدا تمامـا مـن الإجابة، واقترح على التلميذ أن يبحث عن الإجابة في كتاب معين، وأن يلتقي به إذا وجد نفسه في حاجة إلى الإيضاح.

كان صاحبنا عندما اختار الالتحـاق بقسـم التـاريخ والآثار يظن أنه يستطيع التخصص في الآثار، ويحقق حلمه في أن يصبح من علماء الآثار. ولكنه علم بعد فترة وجيـزة من التحاقه بالقسم أن شعبة الآثار لم تفتح بعد، فاستقر رأيـه على أن يتخصص في التاريخ القديم، غير أنه لم يجد فـيمن درسوا له بالفرقة الأولى من مدرسي التاريخ القديم من يحفزه على اختيار هذا التخصص، أو يقدم له القدوة المناسبة التـي تجعله يختار السير على الدرب.

وعندما جلس إلى أحمد عبد الرحيم مصطفى وجد فيه القدوة التي ينشدها، واتخذه مثلاً أعلى له، وتمنى(بينه وبين نفسه) أن يصبح مثله. ومنذ ذلك اليوم حدد هدفه الأساسي في

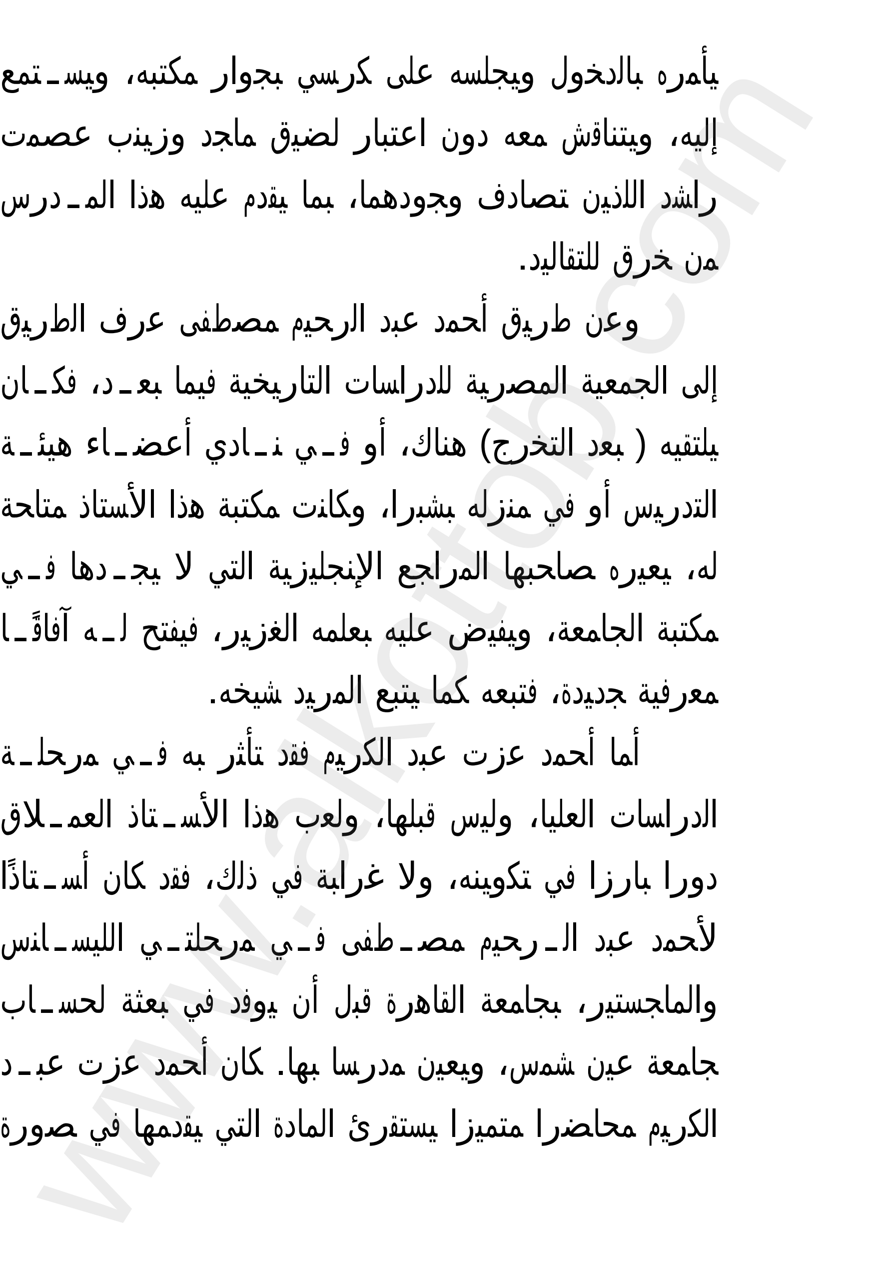
www.alkottob.com



الحياة، وهو العمل على أن يتخصص في التاريخ الحديث، وأن يتعلم على يد هذا الرجل.

كان الأساتذة يحرصون على ترك مسافة واسعة بينهم وبين الطلاب؛ حفاظًا على "هيبة" الأستاذ، القليل منهم يسمح للطلاب بمناقشته في أضيق الحدود، وغالبيتهم لا يسمحون بذلك، ويضيقون ذرعا بمن يطرح سؤالاً أثناء المحاضرة. أما أحمد عبد الرحيم مصطفى فكان إنسانًا عظيما، ومربيا عبقريا، قبل أن يكون أستاذًا. التحم بتلاميذه، ولم يترك مسافة بينه وبينهم. ذهب صاحبنا يوما للقائه بحجرة الأساتذة بالكلية، وكانت قاعة واسعة بها مكتبة، ومكاتب كل من عبد المنعم ماجد، وزينب عصمت راشد، وحسن حبشي، وأحمد عزت عبد الكريم، وكانت هذه الغرفة أشبه ما تكون بقدس الأقداس في المعبد الفرعوني، لا يدخلها إلا أعضاء هيئة التدريس؛ ولذلك عندما صرح له أحمد عبد الرحيم مصطفى بالحضور إلى المكتب متى شاء إذا احتاج لسؤاله عن شيء، أحس بالرهبة وتردد قليلاً، ثم طرق باب الغرفة، وفُتح الباب، فإذا بعبد المنعم ماجد ينهره، ويطلب منه إغلاق الباب؛ فتراجع خطوة إلى الوراء ليسمع صوت أحمد عبد الرحيم مصطفى

www.alkottob.com

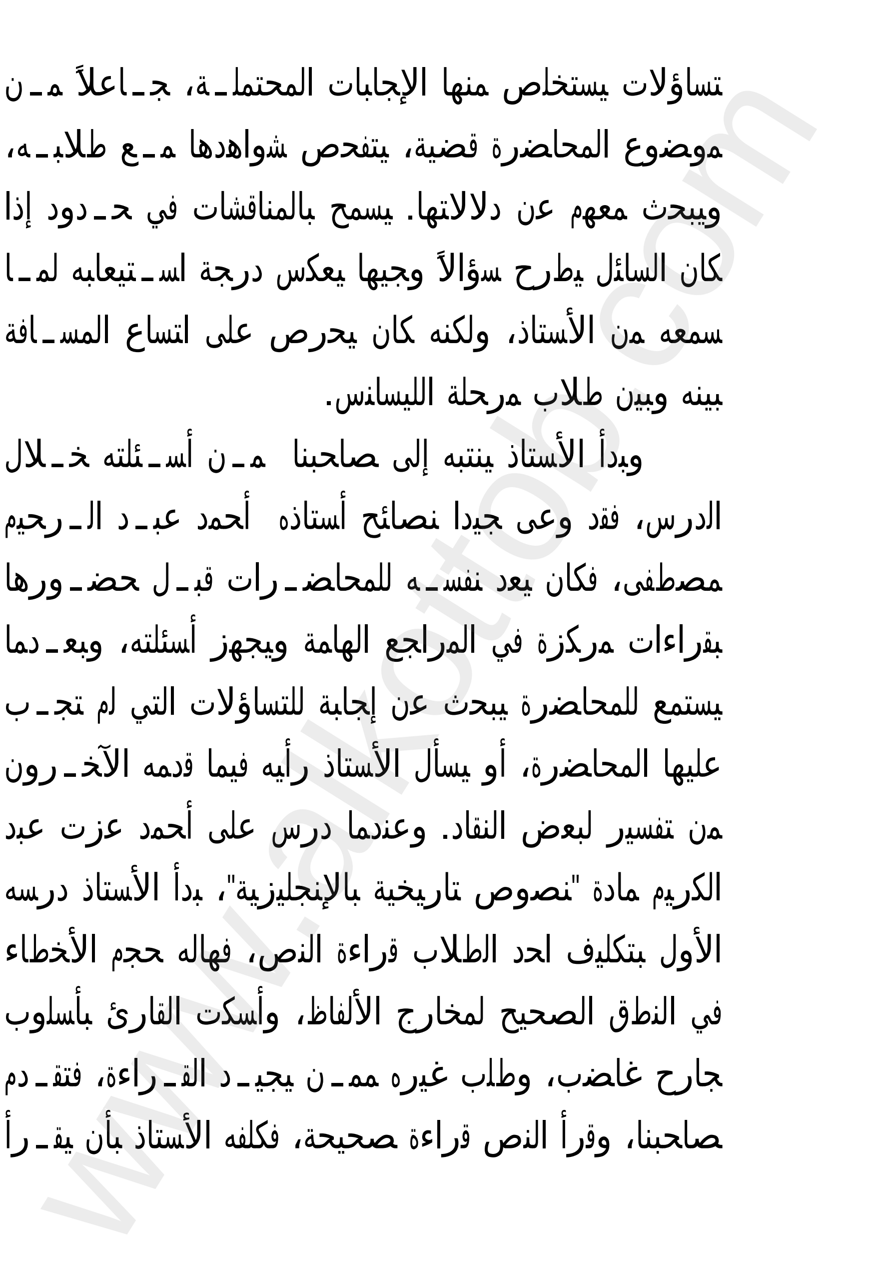


يأمره بالدخول ويجلسه على كرسي بجوار مكتبه، ويسـتمع إليه، ويتناقش معه دون اعتبار لضيق ماجد وزينب عصمت راشد اللذين تصادف وجودهما، بما يقدم عليه هذا المـدرس من خرق للتقاليد.

وعن طريق أحمد عبد الرحيم مصطفى عرف الطريق إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فيما بعـد، فكـان يلتقيه (بعد التخرج) هناك، أو فـي نـادي أعضـاء هيئـة التدريس أو في منزله بشبرا، وكانت مكتبة هذا الأستاذ متاحة له، يعيره صاحبها المراجع الإنجليزية التي لا يجـدها فـي مكتبة الجامعة، ويفيض عليه بعلمه الغزير، فيفتح لـه آفاقًـا معرفية جديدة، فتبعه كما يتبع المريد شيخه.

أما أحمد عزت عبد الكريم فقد تأثر به فـي مرحلـة الدراسات العليا، وليس قبلها، ولعب هذا الأسـتاذ العمـلاق دورا بارزا في تكوينه، ولا غرابة في ذلك، فقد كان أسـتاذًا لأحمد عبد الـرحيم مصـطفى فـي مرحلتـي الليسـانس والماجستير، بجامعة القاهرة قبل أن يوفد في بعثة لحسـاب جامعة عين شمس، ويعين مدرسا بها. كان أحمد عزت عبـد الكريم محاضرا متميزا يستقرئ المادة التي يقدمها في صورة

www.alkottob.com



تساؤلات يستخلص منها الإجابات المحتملـة، جـاعلاً مـن موضوع المحاضرة قضية، يتفحص شواهدها مـع طلابـه، ويبحث معهم عن دلالاتها. يسمح بالمناقشات في حـدود إذا كان السائل يطرح سؤالاً وجيها يعكس درجة اسـتيعابه لمـا سمعه من الأستاذ، ولكنه كان يحرص على اتساع المسـافة بينه وبين طلاب مرحلة الليسانس.

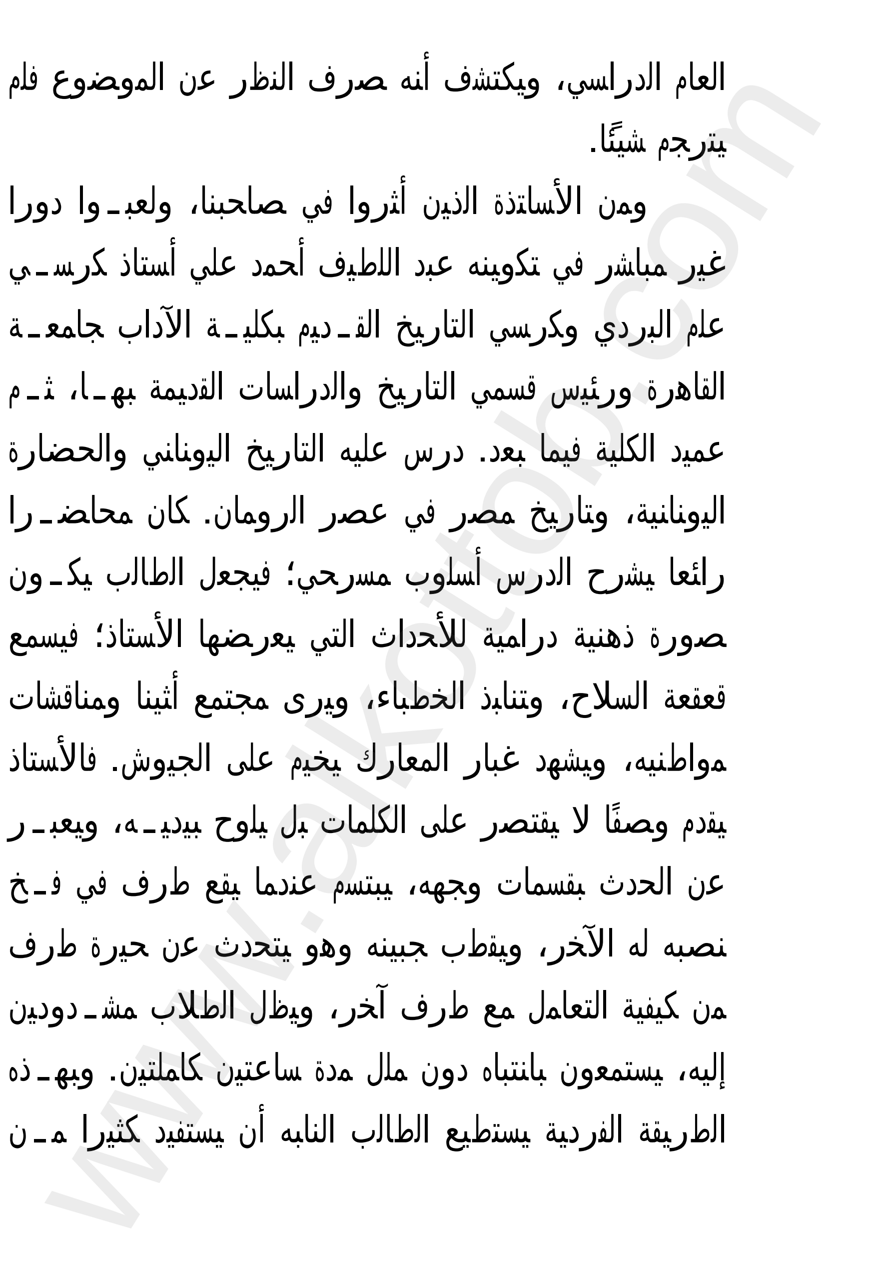
وبدأ الأستاذ ينتبه إلى صاحبنا مـن أسـئلته خـلال الدرس، فقد وعى جيدا نصائح أستاذه أحمد عبـد الـرحيم مصطفى، فكان يعد نفسـه للمحاضـرات قبـل حضـورها بقراءات مركزة في المراجع الهامة ويجهز أسئلته، وبعـدما يستمع للمحاضرة يبحث عن إجابة للتساؤلات التي لم تجـب عليها المحاضرة، أو يسأل الأستاذ رأيه فيما قدمه الآخـرون من تفسير لبعض النقاد. وعندما درس على أحمد عزت عبد الكريم مادة "نصوص تاريخية بالإنجليزية"، بدأ الأستاذ درسه الأول بتكليف احد الطلاب قراءة النص، فهاله حجم الأخطاء في النطق الصحيح لمخارج الألفاظ، وأسكت القارئ بأسلوب جارح غاضب، وطلب غيره ممـن يجيـد القـراءة، فتقـدم صاحبنا، وقرأ النص قراءة صحيحة، فكلفه الأستاذ بأن يقـرأ

www.alkottob.com

النص في كل محاضرة حتى نهاية الفصل الدراسي، فكـان يقرا النص ويتولى الأستاذ شرحه مـن حيـث المصـطلح والمضمون، وكان الفضل في تميز صاحبنا على أقرانه مـا لقيه من حسن التربية على يد مدرس الإنجليزيـة بمدرسـة طوخ الثانوية، كذلك حرصه على اتبـاع نصـائح أسـاتذته بالجامعة باستخدام المراجع الإنجليزية.

وبلغ من حرصه على تنمية مهارته اللغوية التفكير في ترجمة كتاب اشتراه من سور الأزبكية بقرشين عن إبراهـام لنكولن الرئيس الأمريكي الذي حرر العبيد، وواجه الحـرب الأهلية، وأطلع أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى على الكتاب فامتدحه وزكى ترجمته، ووعده بمراجعة الترجمة. ولما كان الكتب يقع في حوالي ٤٠٠ صفحة، فقد اقتسمه مـع زميلـه وصديقه الحميم عاصم الدسوقي، واتفقا على الانكباب عليـه في إجازة الصيف (١٩٦٠) ورغم انشغال صاحبنا بأعمـال شاقة يكتسب منها بعض الجنيهات لتعينه على التركيز علـى الدراسة في الفرقة الرابعة، إلا أنه استطاع أن يترجم حوالي مائة صفحة، وعاد من إجازة الصيف ليلتقي بزميله في بداية

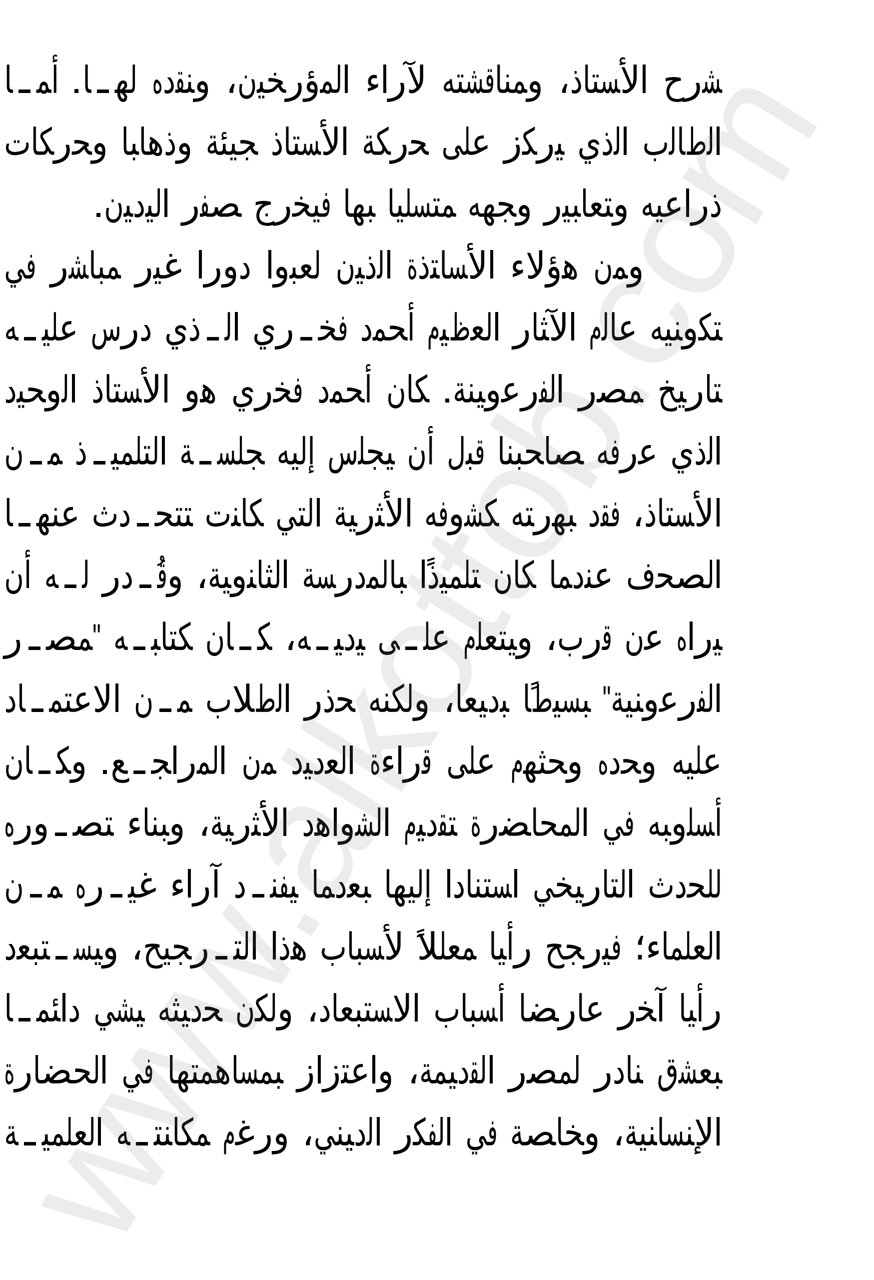
www.alkottob.com



العام الدراسي، ويكتشف أنه صرف النظر عن الموضوع فلم يترجم شيئًا.

ومن الأساتذة الذين أثروا في صاحبنا، ولعبـوا دورا غير مباشر في تكوينه عبد اللطيف أحمد علي أستاذ كرسـي علم البردي وكرسي التاريخ القـديم بكليـة الآداب جامعـة القاهرة ورئيس قسمي التاريخ والدراسات القديمة بهـا، ثـم عميد الكلية فيما بعد. درس عليه التاريخ اليوناني والحضارة اليونانية، وتاريخ مصر في عصر الرومان. كان محاضـرا رائعا يشرح الدرس أسلوب مسرحي؛ فيجعل الطالب يكـون صورة ذهنية درامية للأحداث التي يعرضها الأستاذ؛ فيسمع قعقعة السلاح، وتنابذ الخطباء، ويرى مجتمع أثينا ومناقشات مواطنيه، ويشهد غبار المعارك يخيم على الجيوش. فالأستاذ يقدم وصفًا لا يقتصر على الكلمات بل يلوح بيديـه، ويعبـر عن الحدث بقسمات وجهه، يبتسم عندما يقع طرف في فـخ نصبه له الآخر، ويقطب جبينه وهو يتحدث عن حيرة طرف من كيفية التعامل مع طرف آخر، ويظل الطلاب مشـدودين إليه، يستمعون بانتباه دون ملل مدة ساعتين كاملتين. وبهـذه الطريقة الفردية يستطيع الطالب النابه أن يستفيد كثيرا مـن

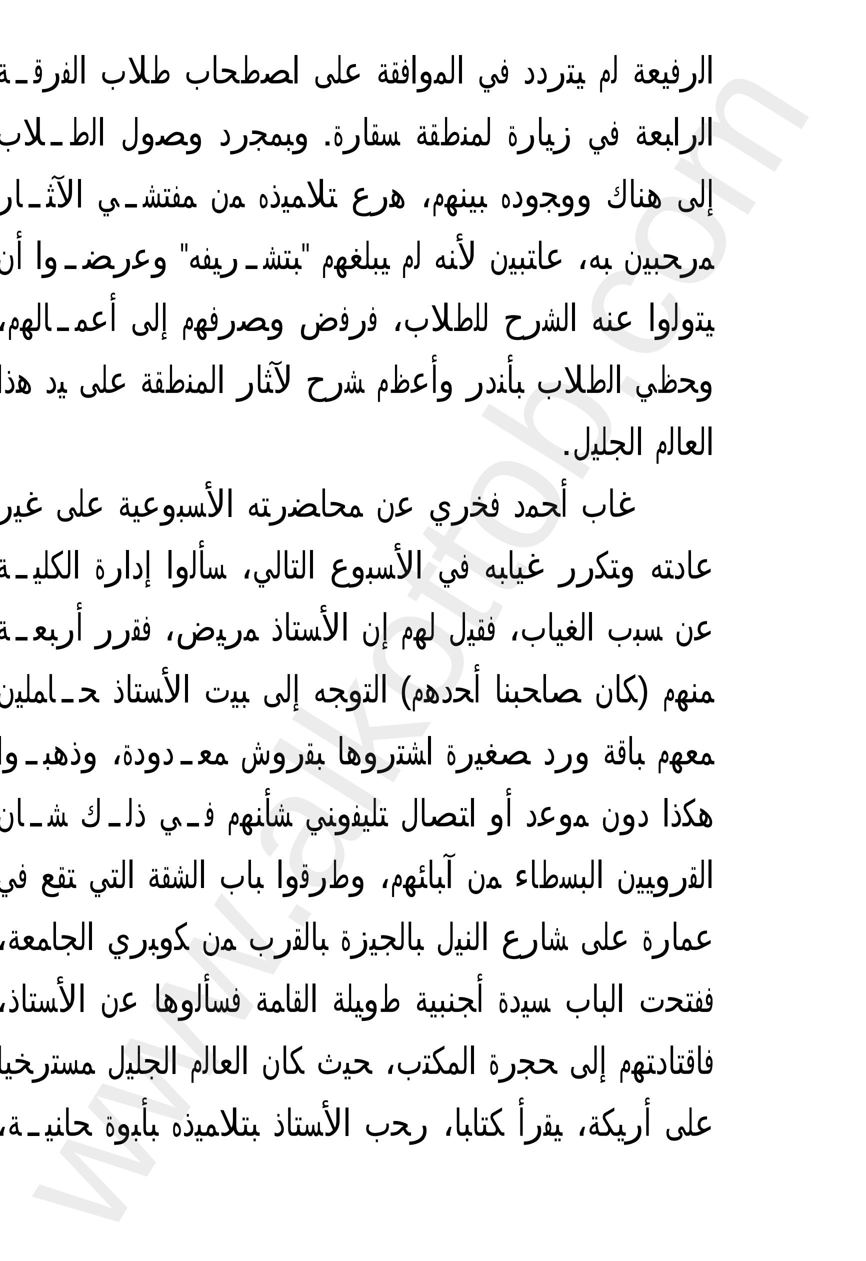
www.alkottob.com



شرح الأستاذ، ومناقشته لآراء المؤرخين، ونقده لهـا. أمـا الطالب الذي يركز على حركة الأستاذ جيئة وذهابا وحركات ذراعيه وتعابير وجهه متسليا بها فيخرج صفر اليدين.

ومن هؤلاء الأساتذة الذين لعبوا دورا غير مباشر في تكوينه عالم الآثار العظيم أحمد فخـري الـذي درس عليـه تاريخ مصر الفرعونية. كان أحمد فخري هو الأستاذ الوحيد الذي عرفه صاحبنا قبل أن يجلس إليه جلسـة التلميـذ مـن الأستاذ، فقد بهرته كشوفه الأثرية التي كانت تتحـدث عنهـا الصحف عندما كان تلميذًا بالمدرسة الثانوية، وقُـدر لـه أن يراه عن قرب، ويتعلم علـى يديـه، كـان كتابـه "مصـر الفرعونية" بسيطًا بديعا، ولكنه حذر الطلاب مـن الاعتمـاد عليه وحده وحثهم على قراءة العديد من المراجـع. وكـان أسلوبه في المحاضرة تقديم الشواهد الأثرية، وبناء تصـوره للحدث التاريخي استنادا إليها بعدما يفنـد آراء غيـره مـن العلماء؛ فيرجح رأيا معللاً لأسباب هذا التـرجيح، ويسـتبعد رأيا آخر عارضا أسباب الاستبعاد، ولكن حديثه يشي دائمـا بعشق نادر لمصر القديمة، واعتزاز بمساهمتها في الحضارة الإنسانية، وخاصة في الفكر الديني، ورغم مكانتـه العلميـة

www.alkottob.com



الرفيعة لم يتردد في الموافقة على اصطحاب طلاب الفرقـة الرابعة في زيارة لمنطقة سقارة. وبمجرد وصول الطـلاب إلى هناك ووجوده بينهم، هرع تلاميذه من مفتشـي الآثـار مرحبين به، عاتبين لأنه لم يبلغهم "بتشـريفه" وعرضـوا أن يتولوا عنه الشرح للطلاب، فرفض وصرفهم إلى أعمـالهم، وحظي الطلاب بأندر وأعظم شرح لآثار المنطقة على يد هذا العالم الجليل.

غاب أحمد فخري عن محاضرته الأسبوعية على غير عادته وتكرر غيابه في الأسبوع التالي، سألوا إدارة الكليـة عن سبب الغياب، فقيل لهم إن الأستاذ مريض، فقرر أربعـة منهم (كان صاحبنا أحدهم) التوجه إلى بيت الأستاذ حـاملين معهم باقة ورد صغيرة اشتروها بقروش معـدودة، وذهبـوا هكذا دون موعد أو اتصال تليفوني شأنهم فـي ذلـك شـان القرويين البسطاء من آبائهم، وطرقوا باب الشقة التي تقع في عمارة على شارع النيل بالجيزة بالقرب من كوبري الجامعة، ففتحت الباب سيدة أجنبية طويلة القامة فسألوها عن الأستاذ، فاقتادتهم إلى حجرة المكتب، حيث كان العالم الجليل مسترخيا على أريكة، يقرأ كتابا، رحب الأستاذ بتلاميذه بأبوة حانيـة،

www.alkottob.com

وقدم لهم زوجته الألمانية، وشكرهم علـى حرصـهم علـى زيارته وجاءت الزوجة بالشاي والكعك، وأفاض الأستاذ في حديث ممتع عن تجاربه في الحفائر الأثرية التي سببت لـه حساسية في الصدر تحولت إلى الربو الذي يلازمه البيت مـن حين لآخر، وامتد الحديث إلى نحو الساعتين، كلما اسـتأذن الطلاب في الانصراف استبقاهم، مؤكدا أنه شُفي تماما عندما رآهم، وعند انصرافهم اعتذر لهم عن عـدم قدرتـه علـى توديعهم، وصحبتهم زوجته إلى الباب مكررة الشكر.

خرج الطلاب الأربعة مبهورين بأبوة الرجل وإنسانيته ولم يستطيعوا إغفال المقارنة بينه وبـين أسـتاذهم إبـراهيم نصحي (بك) رئيس قسمهم، وأول عميد لكلية الآداب، كـان @إبراهيم نصحي يعامل الطلاب بتـأفف واشـمئناط، يبـدأ محاضرته في التاسعة صباحا بنظـرة يمسـح بهـا وجـوه الحضور ذات اليمين وذات اليسار، ثم يرسم علـى وجهـه علامات التقزز، ويقول: "الجامعة برطشت" ويبدأ بعد ذلـك الدرس. مراسم تتكرر في كل محاضـرة، وكأنهـا مقدمـة للعرض. والويل لمن يجرؤ على طرح سؤال على الأسـتاذ الذي يسرف في توبيخه، ويمسح الأرض بكرامته.

www.alkottob.com

كان "الاتحاد القومي" (التنظيم السياسي للثورة) يـنظم مظاهرات طلابية في بعض المناسبات، فيجمـع الفراشـون سيارات التاكسي سعة الخمسة راكب من شارع شبرا، وتقدم إدارة رعاية الطلاب ٢٥ قرشًا لكل خمسة من الطلاب بعـد ركوبهم التاكسي، على أن يتوجه الجميع إلى ميدان التحريـر حيث تبدأ المظاهرة. فكان الطلاب عـادة يـدفعون لسـائق التاكسي خمسة قروش بعد الخروج من الكلية ببضعة أمتار، ويقتسمون الباقي فيما بينهم أو يصرفونه في المقهـى. أمـا الكلية فكانت تعطل الدراسة فيها تماما وتغلق المكتبة أبوابهـا في مثل هذا اليوم.

حدثت واحدة من تلـك المظـاهرات السـاذجة يـوم محاضرة إبراهيم نصحي في خريف عـام ١٩٦٠، وخشـي الطلاب من مغبة غضب الأستاذ إذا جاء ولم يجد أحدا، فقـد يترتب على ذلك ترسيب الدفعة كلها فـي مادتيـه، وكانـت تُروى قصص عنه من هذا القبيل؛ لذلك حـرص الطـلاب وكان عددهم حوالي الأربعين، على الانتظار في فناء الكليـة عند المكان المخصـص لوقـوف سـيارة نصـحي (بـك) الشيفورليه الفارهة. وبعد بضع دقائق وصل الرجل، وأوقف

www.alkottob.com

السيارة في مكانها، ولاحظ تجمع الطـلاب هنـاك، وكـان صاحبنا يقف (مصادفة) أمام شباك الباب الأيمن الذي فتحـه الأستاذ أوتوماتيكيا (وكانت هذه بدعة جديدة لا يعرفها مـن برطشوا الجامعة بتسللهم إليهـا)، وقـال الأسـتاذ للطـلاب باشمئزاز: "مالكم عفين على العربية كده" (أي أنهم كالـذباب الذي يعف على الشيء)، فقال له صاحبنا إن الطلاب خرجوا في مظاهرة، وإنهم ينتظرونه هنا لأن قاعات الدرس مغلقـة، ليأمر بفتح إحداها لإلقاء درسه، فأغلق شباك السيارة، واتجه إلى باب الخروج دون أن يقول شيئًا لقطيع "الذباب" الذي كان بانتظاره!

قارن الطلاب الأربعة بين حفاوة احمد فخري بهم في بيته الذي قرعوا بابه دون استئذان، وكيف عـاملهم معاملـة إنسانية أبوية نبيلة، وبين من عاملهم دائما باشمئزاز واحتقار، وعدهم من فصيلة "الحشرات". ولا يرجع ذلك إلى موقفه من نظام ثورة يوليو الذي ألغى الرتب المدنية، وأزاحه من عمادة الكلية، وفتح أبواب الجامعة أمام من كانوا (في نظره) مـن أولاد "الرعاع"، بقدر ما يرجع إلى أصوله التركية، وترفعـه

www.alkottob.com

على "أبناء الفلاحين" فقد كان يعامل طلابه بازدراء- أيضا – عندما كان بجامعة القاهرة.

وفي سن السبعين، تغير إبراهيم نصحي تماما، فأصبح يمزح مع الطلاب، ويقبل بأن تناديه الطالبـات بـ ـ "جـدو إبراهيم" وبعد أن ظل يوصد بـاب الدراسـات العليـا فـي تخصصه ما يزيد على العشرين عاما، فتحه على مصراعيه أمام كل من هب ودب، وسبحان مغير الأحوال.

انتهى العام الدراسي الرابع، وانتهت بانتهائه بالنسـبة لصاحبنا سنوات التوتر والشقاء (أو هكذا ظـن). وأُعلنـت نتيجة الليسانس فلم يتجاوز عدد من حصلوا على تقدير جيـد خمسة طلاب، كان ترتيبه الثالث بينهم وعلى الدفعـة كلهـا. وحصل نحو الأربعين طالبا على تقـدير "مقبـول" وتـوزع الباقون بين من رسب في مادتين وله حق دخول دور ينـاير ١٩٦٢، ومن بقي للإعادة لحصوله على تقدير "ضعيف".

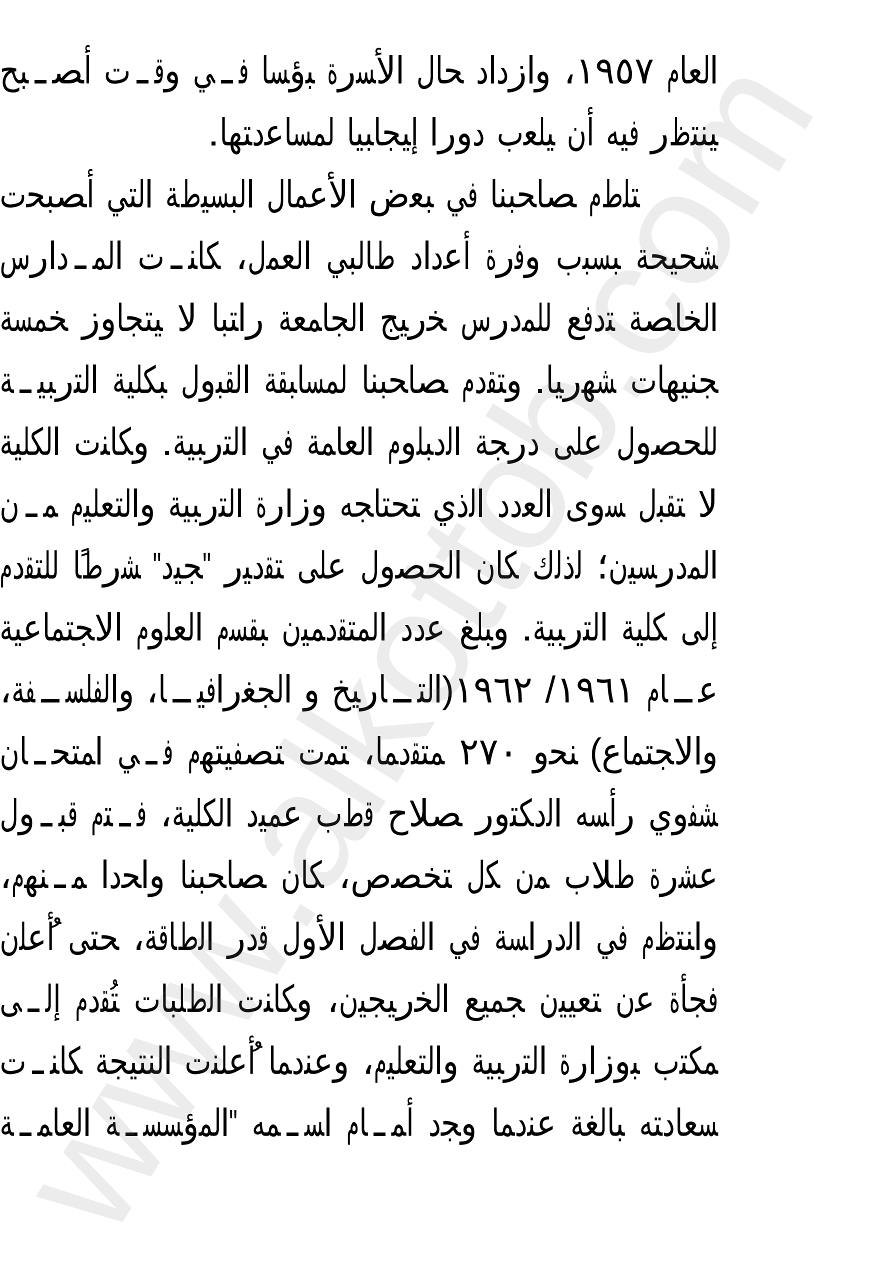
استاء صاحبنا من هذه النتيجة، وخاصة أنه بذل جهدا مضاعفًا في إعداد مواده واستيعابها، وعنـدما اطلـع علـى النتيجة اتضح أنه حصل على جيد جدا في ثلاث مواد، وجيد في باقي المواد، ومقبول في مادتي إبراهيم نصحي (تـاريخ

www.alkottob.com

البطالمة، وتاريخ الرومان) وعجب لـذلك؛ فقـد بـذل فـي المادتين جهدا كبيرا، واستخدم عددا من المراجع المهمة فـي إعداد مادته واستوعبه جيدا، ولكن تبين له أن أحدا لم يحصل في المادتين عما يزيد على "مقبول"، وأن نسبة النجـاح فـي المادتين لم تتجاوز ٥٠%، وأن عشرة طلاب علـى الأقـل نجحوا في إحدى المادتين بالتعويض (حسب قواعد الرأفـة) وأن الرسوب تركز في المادتين، وفي بعض المواد الأخرى. أما صاحبنا فقد حصل على عشر درجات فقط (من عشـرين درجة) في تاريخ البطالمة، و ١١ درجة في تاريخ الرومان. وألقى نظرة على كشف النتيجة ليجـد أن الـدرجات التـي وضعها الأستاذ لمن رأى في إجابتهم ما يبرر نجـاحهم، لـم تزد عن ١٠ أو ١١ درجة.

على كل، كان ما استطاع تحقيقه يفوق توقعاته، فلـم يكن يضمن استمراره في الدراسة، ويتحسب لما قد يعترض طريقه من عقبات، فإذا به يصل إلى نهاية المرحلة الجامعية الأولى، ويصبح خريجا حاملاً درجة الليسانس فـي الآداب. ولكن المئات غيره من الخريجين كانوا يعانون البطالة منـذ

www.alkottob.com



العام ١٩٥٧، وازداد حال الأسرة بؤسا في وقت أصبح ينتظر فيه أن يلعب دورا إيجابيا لمساعدتها.

تلاطم صاحبنا في بعض الأعمال البسيطة التي أصبحت شحيحة بسبب وفرة أعداد طالبي العمل، كانت المدارس الخاصة تدفع للمدرس خريج الجامعة راتبا لا يتجاوز خمسة جنيهات شهريا. وتقدم صاحبنا لمسابقة القبول بكلية التربية للحصول على درجة الدبلوم العامة في التربية. وكانت الكلية لا تقبل سوى العدد الذي تحتاجه وزارة التربية والتعليم من المدرسين؛ لذلك كان الحصول على تقدير "جيد" شرطًا للتقدم إلى كلية التربية. وبلغ عدد المتقدمين بقسم العلوم الاجتماعية عام ١٩٦١/ ١٩٦٢(التاريخ و الجغرافيا، والفلسفة، والاجتماع) نحو ٢٧٠ متقدما، تمت تصفيتهم في امتحان شفوي رأسه الدكتور صلاح قطب عميد الكلية، فتم قبول عشرة طلاب من كل تخصص، كان صاحبنا واحدا منهم، وانتظم في الدراسة في الفصل الأول قدر الطاقة، حتى أُعلن فجأة عن تعيين جميع الخريجين، وكانت الطلبات تُقدم إلى مكتب بوزارة التربية والتعليم، وعندما أُعلنت النتيجة كانت سعادته بالغة عندما وجد أمام اسمه "المؤسسة العامة

www.alkottob.com

للصناعات الكيماوية" وعندما استلم خطاب التعيين اتضح أن مكان المؤسسة بشارع قصر النيل بالقـاهرة، فتوجـه إليهـا لاستلام العمل. وبعد فترة انتظار حوالي الساعة، تسلم خطابا لاستلام العمل فورا بالشركة المالية والصـناعية المصـرية بكفر الزيات.

وإذا كان هذا التعيين قد فتح صفحة جديدة في حياتـه، وبعث عنده وأسرته الأمل، فقد زوده العمـل فـي شـركة صناعية من الشركات التي تم تأميمها في يوليو عـام ١٩٦١ بتجارب وخبرات جديدة، كان لها أثرها في تكوينه، بل وفي تحديد حقل دراسته العليا (التي بدأها عام ١٩٦٢/ ١٩٦٣).

www.alkottob.com

مراجع الحسابات

الشركة المالية والصناعية المصرية كانت شركة مساهمة يملك قسطًا كبيرا من أسهمها بعض كبار الرأسماليين من أمثال أمين يحيى (الذي كان رئيسا لمجلس الإدارة قبل التأميم) والبدراوي وسراج الدين، وغيرهم. وكان مديرها العام الدكتور محمد شفيق حنطور يحمل درجة الدكتوراه في الزراعة، اقترب من السبعين، أصبح رئيس مجلس الإدارة بعد التأميم، وتخصصت الشركة في إنتاج حامض الكبريتيك بمختلف درجاته، وإنتاج سماد السوبر فوسفات. وكانت تستورد الكبريت الخام من الخارج، أما الفوسفات فيأتي من المناجم التابعة لها بمنطقة "السباعية" غرب أسيوط، ورغم وجود المصانع بكفر الزيات، كان المركز الرئيسي للشركة بالإسكندرية، وكانت مكاتب الإدارة بكفر الزيات تضم قسم الحسابات وقسم المراجعة، وقسم المخازن والتوريدات وقسم المشتريات. أما عدد العمال فبلغ ١٥٠٠ عامل، استفاد نحو ١٢٥٠ عاملاً منهم بالقانون الذي جعل الحد الأدنى للأجر اليومي للعامل خمسة وعشرين قرشًا، فارتفعت أجورهم من

www.alkottob.com

ثمانية قروش إلى ٢٥ قرشًـا، وشـملتهم مظلـة التأمينـات الاجتماعية، أما الإداريون فانقسـموا إلـى قسـمين: فئـة الموظفين ذوي الرواتب الشهرية، وكانت فئة متميـزة يبـدأ الراتب الشهري لصاحب المؤهل المتوسـط بسـتين جنيهـا شهريا (أي خمسة أضعاف مرتب زميله بالحكومة) ولم يكن بالشركة من بين الموظفين حملة المؤهل العالي سوى أربعة من المهندسين أما الإداريون فكانوا مـن حملـة دبلومـات التجارة والصنايع، وكانت هناك شريحة أخرى من الموظفين تُعامل بالأجر اليومي، فكانت بداية تعيين حملـة المـؤهلات المتوسطة من هذه الفئة جنيهين يوميا عن كل يوم عمل، فلا يحتسب الأجر عن أيـام الراحـة الأسـبوعية والعطـلات الرسمية.

هبط على الشركة، نتيجة القانون الجمهوري بتعيـين الخريجين، أربعة موظفين جدد دفعة واحدة تسلموا العمل في فبراير ١٩٦٢، منهم ثلاثـة مـن خريجـي الآداب فلسـفة (١٩٥٧)، وجغرافيا (١٩٥٧)، وتـاريخ (١٩٦١)، وخـريج حقوق (١٩٥٨)، كان صاحبنا أحدث الخـريجين المعينـين بالشركة، وعده زملاءه الثلاثة من المحظوظين؛ فقـد تقلـب

www.alkottob.com

ثلاثتهم بين مختلف الأعمال، فكان خريج الفلسفة يعمل كاتبا باليومية بشركة مياه غازية من مارس إلى أكتـوبر ويعـاني البطالة من نوفمبر حتى فبراير. وحصل خريج الجغرافيا بعد بطالة دامت عامين على إحدى وظائف المؤهلات المتوسطة عن طريق "ديوان الموظفين" فكان كاتبا بمصلحة الآثار، أما خريج الحقوق، فقد أنهى فترة التدريب بمكتب أحد المحامين لم يتقاضَ عنها أجرا، وسجل اسمه في جـدول المحـامين، وكان أحسن الأربعة حالاً، لم يعان الفاقة مثلهم؛ لأن والدتـه الثرية كانت تنفق عليه ببذخ لكونه وحيدها.

لم يتضمن القرار الصادر من المؤسسـة للشـركة أي إشارة إلى الراتب الذي يتقاضاه كل هؤلاء "الدخلاء" الأربعة (هكذا كان ينُظر إليهم)، فلم يكن هناك كادر محدد للشركة أو غيرها من الشركات، وإنما كان تحديد الراتب متروكًا لتقدير رئيس مجلس الإدارة الذي قرر أن يكون الراتب ٢١ جنيهـا شهريا، وكان هذا مبلغا محترما؛ لأن من عينـوا بالحكومـة حصلوا على خمسة عشر جنيها، ولكنه كـان يعـادل ثلـث الراتب الذي كان يحصل عليه من يعين بمؤهل متوسط قبـل التأميم.

www.alkottob.com

بقيت مشكلة أخرى هي تحديد وظائف أولئك "الدخلاء" فلا علاقة بين مؤهلاتهم ومجال العمل بالشركة الذي يتطلب الهندسة والعلوم والتجارة، فتم اختيار حجرة كانت مخصصة لمراقب الشحن والتفريغ، وضعت فيها أربع طاولات وأربعة كراسي، كانوا يجلسون فيها معا من الثامنة حتى الثالثة بعـد الظهر دون عمل، يتندرون على ما يصل إلى أسماعهم مـن أحاديث العمال بشأنهم: "دول بتوع الحكومة بعتاهم يراقبـوا البوظان اللي في الشركة" أو "دول تبـع المباحـث جـابهم حنطور لجل يلجم العمال".. إلى غير ذلك من تخمينات، ولا يدري أولئك العمال التعساء أن هؤلاء "الأفنديـة" لا يقلـون عنهم من حيث قلة الحيلة، وأن التحاقهم بالعمل بالشركة جاء بعد طول معاناة.

بعد مرور أسبوعين تحددت وظيفة خـريج الحقـوق فأصبح محققًا بإدارة شئون العاملين، وبعـد أسـبوع آخـر تحددت مواقع خريجي الآداب، فأصبح الفيلسوف موظفًا بقلم الأجور بنفس الإدارة، والجغرافي مسـاعدا للخواجـة ينـي (اليوناني الجنسية) المتخصص في استيراد الكبريت، وأصبح

www.alkottob.com

صاحبنا مراجعا بالإدارة المالية، وهي الوظيفة التي شـغلها ٦٢ شهرا حتى استقال من الشركة في أبريل عام ، ١٩٦٧.

كان قسم المراجعة مختصا بمراجعة المستندات المالية قبل الصرف، ومراجعة سجلات الأجور، ومستندات المخازن والمشتريات، وكلها أمور لا علاقة لها بالتـاريخ، ولكـن لا علاقة لها – أيضا – بأي تخصص آخر، فيما عدا المراجعة الحسابية، ولم تكن تشكل صعوبة كبيرة مـع وجـود الآلـة الحاسبة (وكانت يدوية). امتنع الفيلسوف عن العمـل لمـدة أسبوع طالبا أن يكون رئيس القسم، وانضم إليـه المحـامي الذي طلب أن يكون رئيسا للشئون القانونية، أما الجغرافـي فارتاح إلى العمل مع الخواجة يني الذي لم يتجـاوز إعـداد المحررات العربية التي تُرسل للمؤسسة وغيرها من الجهات الرقابية بشأن ما تستورده الشركة من مسـتلزمات الإنتـاج، وكانت تلك المحررات محدودة. أما صاحبنا فكان حريصـا على أن يثبت أقدامه في عمله الجديد، وأن يمارسه بطريقـة سليمة؛ ولذلك عكف على دراسة كل الإجـراءات الإداريـة والمالية التي عليه أن يتولى مراجعتها، ولم يمض شهر واحد

www.alkottob.com

حتى كان قد ألم بكل أصول الصنعة التي لا تتطلب ممن يقوم بها سوى حسن البديهة.

كان قسم المراجعة يضم رئيسا (دبلوم تجارة) من الفئة المتميزة من الموظفين، يعمل معه اثنان أحدهما شاب (دبلوم تجارة) والآخر لاعب كرة معتزل (ابتدائية قديمة) وهما من عمال اليومية، فكان صاحبنا الموظف الثاني بالقسم من حيث الترتيب الإداري، ولكنه جاء في الترتيب الثالث من حيث الأجر الشهري؛ فقد كان اللاعب المعتزل يحصل على ما يزيد قليلاً عن ضعف أجره. وكان الزملاء الثلاثة على مستوى راقٍ في تعاملهم معه، وخاصة أن رئيس القسم كان مرشحا لعضوية مجلس الإدارة عن الموظفين متحالفًا مع عامل نقابي ضد رئيس المخازن، وعامل آخر كانا مرشحا رئيس مجلس الإدارة، فكان رئيس القسم – بذلك – ينتمي للمعارضة، وشديد الإعجاب بعبد الناصر.

كان بالشركة مطعم يقدم وجبة غذاء مدعمة مكونة من اللحم أو الدجاج والأرز والسلطة وثمرة فاكهة مقابل اشتراك شهري قدره (٧٥ قرشًا) فاشترك صاحبنا وذهب إلى المطعم لأول مرة ليلاحظ وجود مكان خاص للموظفين في طرف

www.alkottob.com

قاعة المطعم بعيدا عن العمال رغـم أن الوجبـة واحـدة، فاختار أن يتجه بالصينية الخاصة به إلى مكان العمال وجلس وسطهم، فلاحظ توقفهم عن الحـديث والتـزامهم الصـمت وتبادلهم النظرات، فقدم لهم نفسه، وقال لهم إن جـده كـان عاملاً، وأبوه لا يزال عاملاً، وإنه يحس "بـالونس" بيـنهم، فلماذا يتهيبون منه؟ فردوا بالاعتذار والترحيـب لأنهـم لـم يتعودوا أن يجلس بينهم موظف (في) فلا يحدث ذلـك عادة إلا إذا كانت الإدارة تدبر لهم أمرا. قال لهم صاحبنا إن الشركة الآن ملك الشعب فهم من أصـحابها، وإن الإدارة لا تستطيع أن تفعل بهم ما كانت تفعله في الماضي، وشيئًا فشيئًا ذاب الجليد بينه وبينهم، وبدأ يتعرف على ما كان يدور فـي الشركة من خلالهم. قص عليه أحدهم ما عاناه العمـال مـن ضعف الأجور وغياب الرعاية الصحية وإجـراءات الأمـن الصناعي، فالكثير منهم يعـاني مـن الربـو، ويتعرضـون للحروق المميتة عندما ينفجر أنبوب في وحدة إنتاج حـامض الكبريتيك القديمة، وأنهم يريدون تحسين ظـروف العمـل. وعندما سألهم عن دور نقابة العمال في ذلك كله، قالوا له إن النقابة الموجودة من صنع أصحاب الشـركة قبـل التـأميم

www.alkottob.com

بالاتفاق مع الشئون الاجتماعية والداخلية، وأسر إليه أحـدهم أنهم بدءوا يجمعون التوقيعات لإسقاط مجلس النقابة القـديم، ودعاه لحضور اجتماع بهذا الخصوص في إحدى المقـاهي التي تقع على أطراف البلدة.

حضر صاحبنا الاجتماع، كان الحضور خمسـة مـن العمال الفنيين (الأسطوات) واثنين من رؤسـاء الورديـات (حملة دبلوم الصنايع). أما رواد المقهى فكانوا من الفلاحـين الذين يأتون إلى كفر الزيات لقضاء مصالحهم، وينتظـرون وسيلة مواصلات تحملهم إلى قراهم. عرض الحضور نـص عريضة المطالبة بإسقاط مجلس إدارة النقابة، فأعمل صاحبنا قلمه في النص يصلح من صياغته، وارتاحوا للنص الجديـد، وطالبوه أن يساعدهم في صياغة العرائض التي سـيقدمونها للسلطات المعنية، فرحب بذلك، ولكنه اعترض على الطـابع السري للاجتماعات، واقترح عليهم أن يتخذوا من مقر النقابة مركزا لنشاطهم؛ لأن مجلس الإدارة لا يملك المقر، فهو ملك لجميع الأعضاء، ويمكن اللجوء للسلطات إذا منعهم مجلـس النقابة من ذلك.

www.alkottob.com

أعجبتهم الفكرة، وعقِد اجتماع أوسع بساحة النقابة التي كانت تحتل شقة واسعة تمثل الدور الأرضي بإحدى بنايـات وسط المدينة، بها فناء يتسع لحوالي ثلاثين مقعدا، وحضـر صاحبنا الاجتماع، وبهره ذلك القدر من الوعي الذي لمسـه عند المتحدثين من العمال البسطاء، وتم نسخ عشرات الصور لنص العريضة، كتب عشرا منها بخطه. وتم جمع التوقيعات عليها خلال نوبات العمل (الورادي)، ثم عقد اجتماع آخر تم فيها فرز العرائض (وكانت من صورتين)، فحرر صـاحبنا خطابا موجها لارئيس جمال عبد الناصـر، وآخـر موجهـا لوزير العمل، ووضعت كل صورة في مظروف وتم تسجيلها للجهة الموجهة إليها. ولم يحدث – حتى ذلـك الحـين – أي احتكاك بين المجلس القديم وبين من تزعموا هـذه الحركـة والعمال الذين شاركوا فيها.

ولكن رئيس مجلس إدارة الشركة الذي كانت له عيونه بين منظمي الدعوة لإسقاط مجلس إدارة النقابة(وكان أحـد رؤساء الورديات)، أصدر قرارا بإلغاء اشتراك الموظفين في المطعم بحجة أن الدعم للعمال وحدهم؛ وبذلك لم يعد مبـرر لوجود صاحبنا في المطعم. وبعد صدور ذلك القرار بأسبوع

www.alkottob.com

تلقى اتصالاً من ضابط المباحث العامة بمركز كفر الزيـات يدعوه للالتقاء به في نادي الموظفين الذي يقع علـى فـرع رشيد أمام المركز مساء "للتعرف عليه" فالتقاه هنـاك ليجـد معه رئيس الوردية الذي كان حاضرا اجتماع المقهـى مـع زميل آخر له، وقال الضابط إنه نُقل حديثًا إلى كفر الزيات، وإنه يريد التعرف إلى الموظفين الشباب، وإن ذلك الشخص اقترح عليه التعرف عليه ؛لأنه يحب إقامة روابط الصـداقة مع المثقفين. وباسم التعارف وجه حزمة من الأسـئلة إلـى صاحبنا الذي ضاق ذرعا بها وسأله عن مغزى كـل تلـك الأسئلة، وهل هي للتعارف أم أسئلة تحري وتحقيق؟ فضحك وتعلل "بحكم" المهنة. وفي نهاية اللقاء قال الضابط: أرجو أن نظل أصدقاء، وألا يحدث ما يشوب هذه الصداقة، وصـمت برهة ثم قال: "يا ريت تبعد عن الجماعة إياهم.. أنت مش قد البهدلة".

وبعد أيام معدودة قال زميله الجغرافي الذي يعمل مـع يني (وكان يشاركه السكن) إنه علم من الخواجـة ينـي أن شفيق بك حنطور (رئيس مجلس الإدارة) سينقله إلى المناجم بالسباعية عندما يرى آخرة "الهوجة" التي شارك فيها. وقـال

www.alkottob.com

إن الخواجة يني مستعد لترتيب مقابلة مع "البك" ليعتذر لـه، عندئذ يصرف النظر عن نقله إلى المناجم.

كان صاحبنا قد بادر مساء نفس اليوم الذي التقى فيـه ضابط المباحث العامة، بادر بزيارة الأسطى عبد النبي (أحد قادة حركة جمع التوقيعات) في بيته ليخبره باختصار بما دار بينه وبين الضابط، ويحذره من رئيس الوردية عميل الإدارة والمباحث، وفي اليوم التالي كان العمال جميعا قـد علمـوا بحقيقة رئيس الوردية، وعاملوه معاملة المنبـوذ، وعزلـوه تماما عن كل ما اتصل بنشاطهم؛ ولذلك فهم صاحبنا الرسالة التي حملها زميله من يني على أنها تصعيد للتهديـد، بعـدما أحس رئيس مجلس الإدارة بعدم جدوى تهديد ضابط المباحث العامة، بعدما قاطع العمال جاسوسه واحتقروه.

ولكن لم تمر بضعة أيام حتى وصل مسئول كبير مـن وزارة العمل التقى بالعمال وزعمائهم بمقر نقابتهم، واسـتمع إلى مبررات طلبهم إسقاط مجلس الإدارة القديم، وبعد أسبوع واحد صدر قرار حل مجلس النقابة، وتعيين لجنـة إداريـة لإدارة أعمال النقابة لحين تحديد موعـد ونظـام انتخابـات التشكيل النقابي على مستوى الجمهوريـة. وكـان أعضـاء

www.alkottob.com

اللجنة الإدارية من بين التسعة الذين وردت أسـماؤهم فـي العرائض التي وقع العمال عليها. وجاءت بعـدها انتخابـات عضو مجلس الإدارة عن العمال والمـوظفين، ففـاز فيهـا الأسطى عبد النبي عن العمال وفاز محمـد سـلام (رئـيس المراجعة) عن الموظفين.

وهكذا، وجد صاحبنا نفسه في زمرة المغضوب عليهم من الإدارة، علم من بعض العمال أن ثلاثة أونـاش شـوكة صغيرة اشترتها الشركة ذهبت إلى عزبة "البك". وبعدها بأيام عرضت عليه أوراق العملية لمراجعتها: محضـر الشـراء بالممارسة من أحد تجار وكالة البلح، محضر الاستلام، وإذن إضافة المخزن للأوناش كعهدة، والفاتورة بالقيمة. والأوراق على هذا النحو سليمة وكاملة، ولكنه لم يكتفِ بها بل راجـع أذون الصرف الخاصة بالمخازن ليكتشف أنها صرفت فـي نفس يوم الإضافة لحساب "عملية دمنهور"، ولم يكن هنـاك عملية بهذا الاسم، فأعد صاحبنا مذكرة وافيـة بالموضـوع طالبا التأكد من جهة الصرف؛ لأنه يرجح أن عملية الشـراء كانت وهمية مما يعرض أموال الشـركة للضـياع. وأقنـع

www.alkottob.com

رئيسه (عضو مجلس الإدارة المنتخب) برفع الأمر إلى رئيس الشركة.

وفي اليوم التالي استدعاه رئيس الشركة وسأله: "أنت اللي كتبت المذكرة دي؟" فرد بالإيجاب، فقال الرجل: "أنت قدامك مستندات سليمة.. إيه دخلك في خطة التشغيل؟" فرد عليه قائلاً: "ماليش دخل إزاي.. دانا صاحب مصلحة" فتعجب الرئيس وسأله: "مصلحتك إيه بقى إن شاء ا ؟" فقال: "الشركة ملك الشعب، وأنا واحد من الشعب، ومن حقي أن أحافظ على مصلحة الشعب". هنا ثار الرئيس قائلاً: "يا بني أنتم بتصدقوا الكلام الفارغ اللي بيقوله عبد الناصر؟ دا عاوز بس يضحك على الناس. امشي شوف شغلك وخليك في حالك".

عاد صاحبنا إلى المكتب ليجد وجه رئيسه محتقنًا، كان من الواضح أنه لقي الكثير من التأنيب، وأبلغه أن مراجعة فواتير المشتريات أصبحت من اختصاص زميل آخر. فغلى الدم في عروقه، وسارع بكتابة شكوى إلى جمال عبد الناصر ذكر فيها الموضوع باختصار، وركز على ما قاله رئيس مجلس الإدارة عن عبد الناصر.

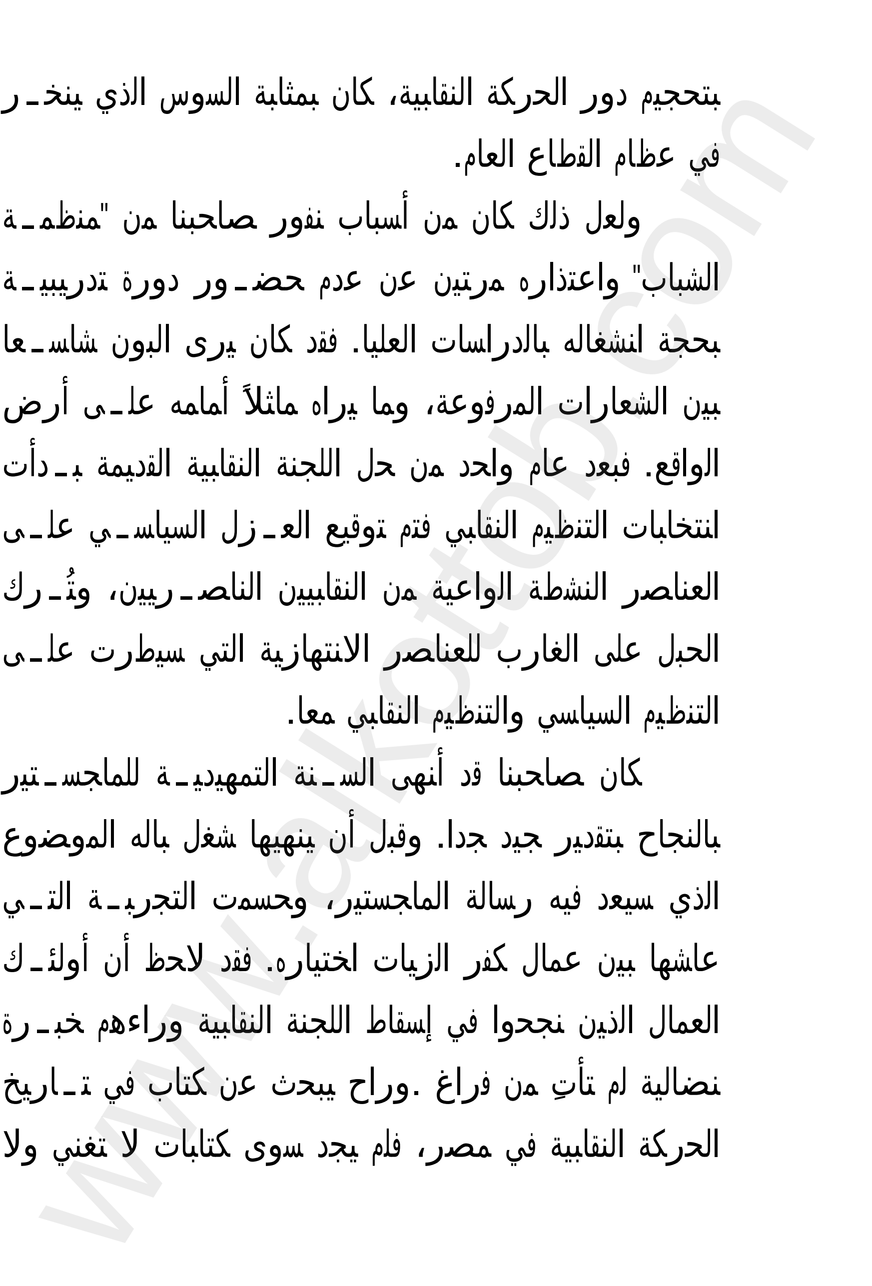
www.alkottob.com

وبعد حوالي ثلاثة أسابيع استدعاه رئيس مجلس الإدارة، ورفع في يده المذكرة التي أرسلها للرئيس عبد الناصر بعينها، وسأله: "خطك ده؟" فرد بالإيجاب. قال: "عرفت أن عبد الناصر بيضحك على المغفلين اللي زيك؟! إحنا ردينا بأن الشكوى كيدية لأنك موظف مهمل.. وعلى فكرة مخصوم منك خمسة أيام وعندك حرمان من العلاوة الدورية.. ابقى خلي عبد الناصر ينفعك".

ما كان يجهله صاحبنا أن محمد شفيق حنطور(رئيس مجلس الإدارة) كان من أخوال شمس بدران، وأنه كان "مسنودا". وكان ذلك النموذج المؤسف بارزا في القطاع العام، فتحولت معظم شركاته إلى "عزب" لرؤسائها.

رأى صاحبنا رأي العين الرشى المادية والعينية التي تقدم لمفتشي مؤسسة الصناعات الكيماوية، ومفتشي أجهزة الرقابة الأخرى، ومأمور وضباط مركز كفر الزيات، وكيف كانت تتم تغطية ذلك كله بمستندات صورية أو تحت بند "الإكراميات". ورغم التوسعات التي شهدتها الشركة على يد القطاع العام، وتأسيس مصنع آخر بأسيوط إلا أن الفساد الإداري على مستوى المؤسسة، وغياب الرقابة الشعبية

www.alkottob.com



بتحجيم دور الحركة النقابية، كان بمثابة السوس الذي ينخـر في عظام القطاع العام.

ولعل ذلك كان من أسباب نفور صاحبنا من "منظمـة الشباب" واعتذاره مرتين عن عدم حضـور دورة تدريبيـة بحجة انشغاله بالدراسات العليا. فقد كان يرى البون شاسـعا بين الشعارات المرفوعة، وما يراه ماثلاً أمامه علـى أرض الواقع. فبعد عام واحد من حل اللجنة النقابية القديمة بـدأت انتخابات التنظيم النقابي فتم توقيع العـزل السياسـي علـى العناصر النشطة الواعية من النقابيين الناصـريين، وتُـرك الحبل على الغارب للعناصر الانتهازية التي سيطرت علـى التنظيم السياسي والتنظيم النقابي معا.

كان صاحبنا قد أنهى السـنة التمهيديـة للماجسـتير بالنجاح بتقدير جيد جدا. وقبل أن ينهيها شغل باله الموضوع الذي سيعد فيه رسالة الماجستير، وحسمت التجربـة التـي عاشها بين عمال كفر الزيات اختياره. فقد لاحظ أن أولئـك العمال الذين نجحوا في إسقاط اللجنة النقابية وراءهم خبـرة نضالية لم تأتِ من فراغ .وراح يبحث عن كتاب في تـاريخ الحركة النقابية في مصر، فلم يجد سوى كتابات لا تغني ولا

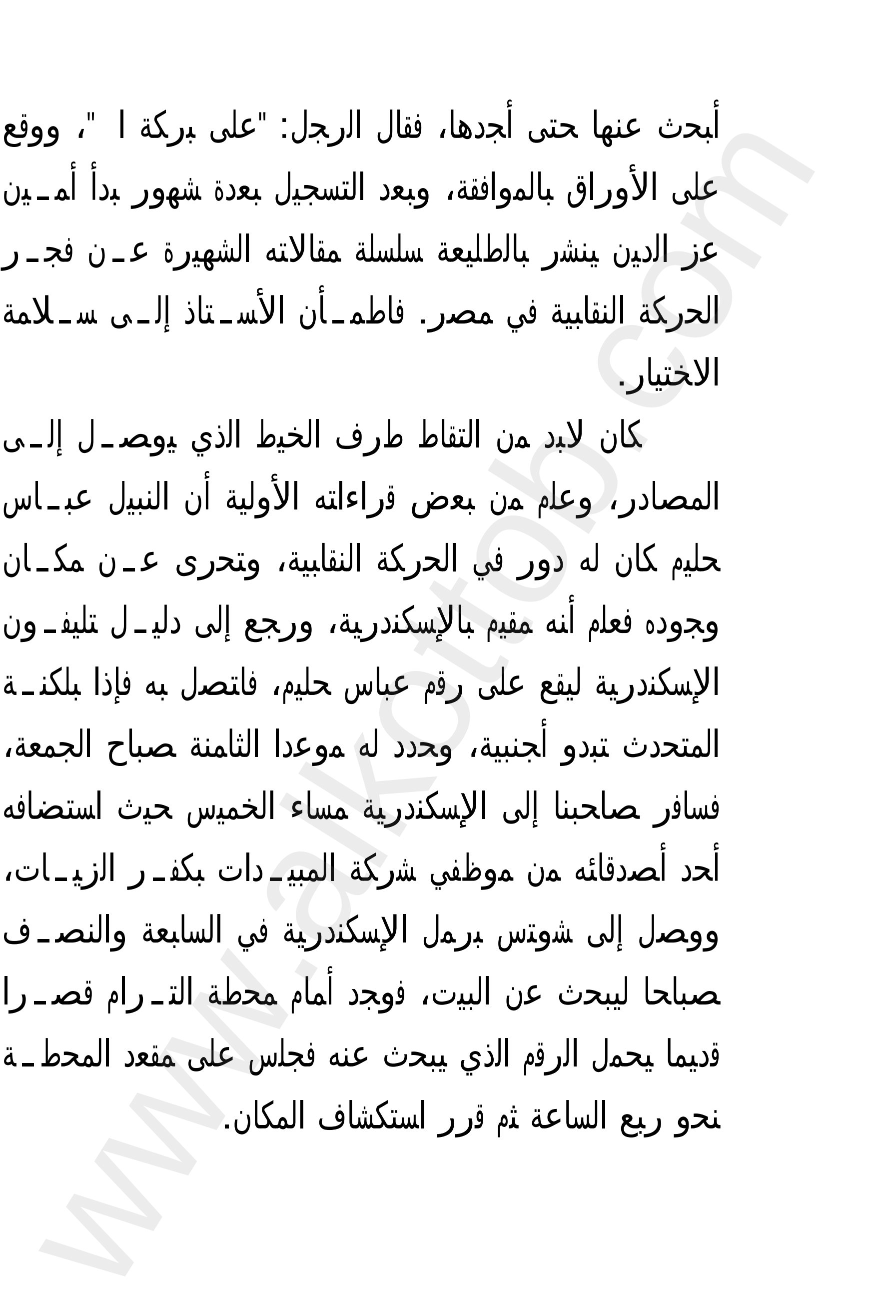
www.alkottob.com

تسمن، ووجد عشرات الكتب الإنجليزية عن الحركة العمالية في أوروبا عامة وبريطانيا خاصة، فعقد العزم على دراسـة الحركة العمالية منذ نشأتها حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

استشار أستاذه أحمد عبد الـرحيم مصـطفى فرحـب بالموضوع ولكنه اعتذر عن عدم الإشراف (رغم أنه كان قد أصبح أستاذًا مساعدا)، وفضل أن يعرض صاحبنا الموضوع على أحمد عزت عبد الكريم، فإذا قبله ورأى إسناد الإشراف إليه كان بها، وإذا تولى هو نفسه الإشراف، فإنه يتوقع مـن أحمد عبد الرحيم مصطفى كل عون ممكن.

عرض صاحبنا الموضوع على أحمـد عـزت عبـد الكريم في سمناره العتيد في أكتـوبر ١٩٦٣ فطلـب منـه الحضور إلى منزله بمنشية البكري في العاشرة من صـباح الجمعة، فذهب في الوقت المحدد، وسأله الأستاذ عن دوافـع اختياره لهذا الموضوع بالذات، فشرح له كيف كانت تجربته بكفر الزيات وراء الاختيار. وسأله الأستاذ مرة أخرى سؤالاً مباشرا عما إذا كان هناك اتجاه سياسي معين وراء الاختيار، فنفى الطالب ذلك، وأكد أن دوافعه علمية صـرفة. وعنـدما سأله عن مصادر الدراسة الوثائقية، قـال للأسـتاذ: سـوف

www.alkottob.com



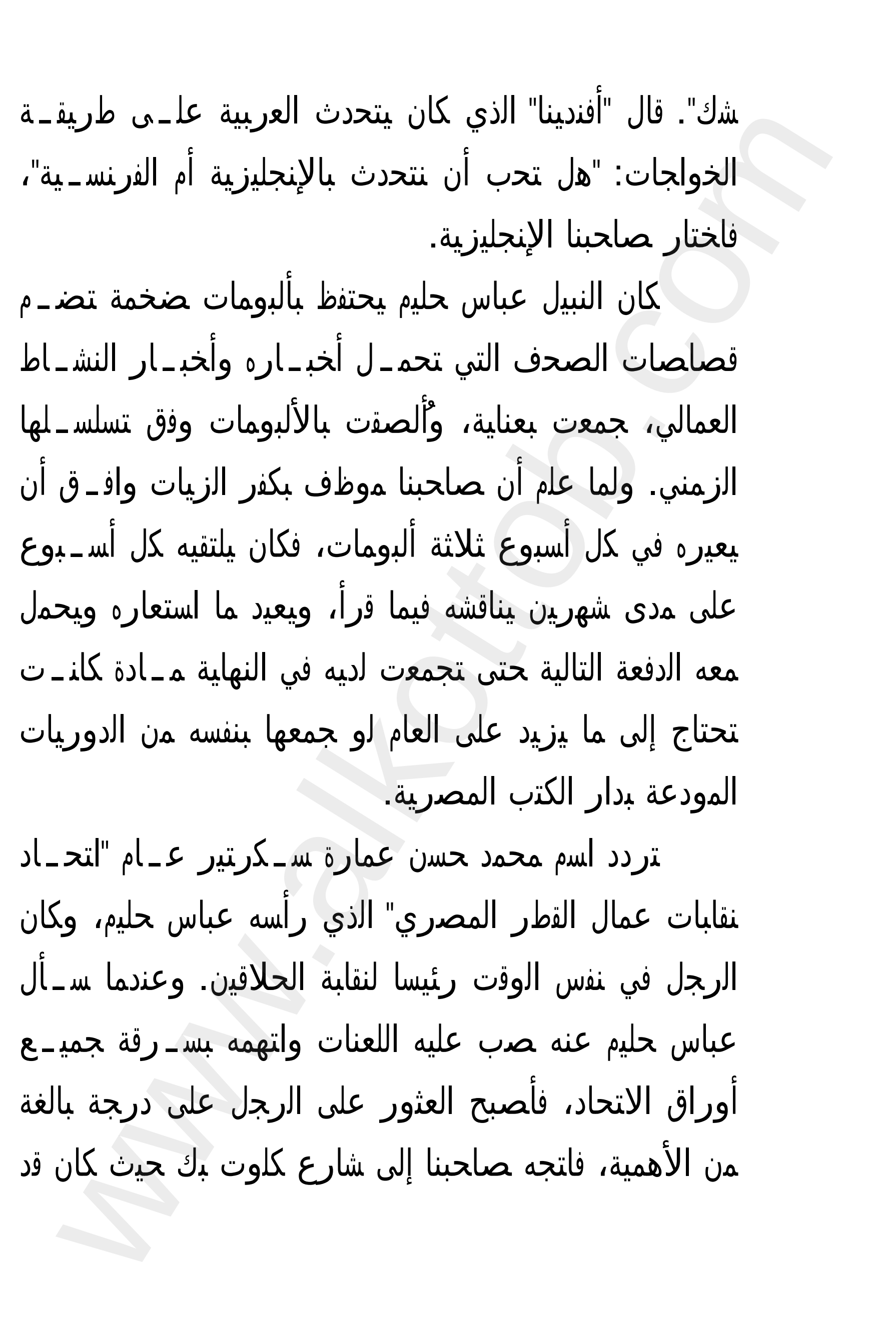
أبحث عنها حتى أجدها، فقال الرجل: "على بركة ا "، ووقع على الأوراق بالموافقة، وبعد التسجيل بعدة شهور بدأ أمـين عز الدين ينشر بالطليعة سلسلة مقالاته الشهيرة عـن فجـر الحركة النقابية في مصر. فاطمـأن الأسـتاذ إلـى سـلامة الاختيار.

كان لابد من التقاط طرف الخيط الذي يوصـل إلـى المصادر، وعلم من بعض قراءاته الأولية أن النبيل عبـاس حليم كان له دور في الحركة النقابية، وتحرى عـن مكـان وجوده فعلم أنه مقيم بالإسكندرية، ورجع إلى دليـل تليفـون الإسكندرية ليقع على رقم عباس حليم، فاتصل به فإذا بلكنـة المتحدث تبدو أجنبية، وحدد له موعدا الثامنة صباح الجمعة، فسافر صاحبنا إلى الإسكندرية مساء الخميس حيث استضافه أحد أصدقائه من موظفي شركة المبيـدات بكفـر الزيـات، ووصل إلى شوتس برمل الإسكندرية في السابعة والنصـف صباحا ليبحث عن البيت، فوجد أمام محطة التـرام قصـرا قديما يحمل الرقم الذي يبحث عنه فجلس على مقعد المحطـة نحو ربع الساعة ثم قرر استكشاف المكان.

www.alkottob.com

كان القصر قديما كالحا، والحديقة جرداء إلا من بعض الأشجار المعمرة، وبوابة القصر مفتوحة على مصراعيها لا يحرسها أحد. تلفت صاحبنا ذات اليمين وذات الشمال وهـو يتقدم عبر البوابة في اتجاه القصر، فوجد كلبا ضخما يرقـد تحت إحدى الأشجار، هده الكبر، ورفع رأسه ليرمق الزائـر الغريب بنظرة ثم أغمض عينيه من جديـد، وكأنـه رأى أن المسألة لا تستحق النباح. فمضى صاحبنا في طريقه باتجـاه القصر، فإذا برجل عجوز يطل من نافذة زجاجيـة بالـدور الأول يناديه: "عباس أفندي؟" فرد بالإيجاب، فقـال الرجـل: تفضل، فصعد الدرج حتى باب السلاملك لتفـتح البـاب لـه خادمة عجوز وردت على تحية الصباح، الرد المحبب لديـه "يسعد صباحك"، قادته إلى المكتب حيث كان "أفندينا" النبيـل عباس حليم يقف أمام المكتب. وبعد تبادل التحية، قال لـه: "قبل أن نتكلم سويا أريد أن أريك أولاً ما فعله (المعرصـين) بالعمال ".ووضع أمامه عدد "المصور" الذي غطـى إعـدام البقري وخميس وحكم بالسجن على عدد مـن عمـال كفـر الدوار في الشهور الأولى للثورة. وسـأله رأيـه فـي هـذا المشهد، فأجاب "إنها نقطة سوداء في تاريخ النظام ما في ذلك

www.alkottob.com

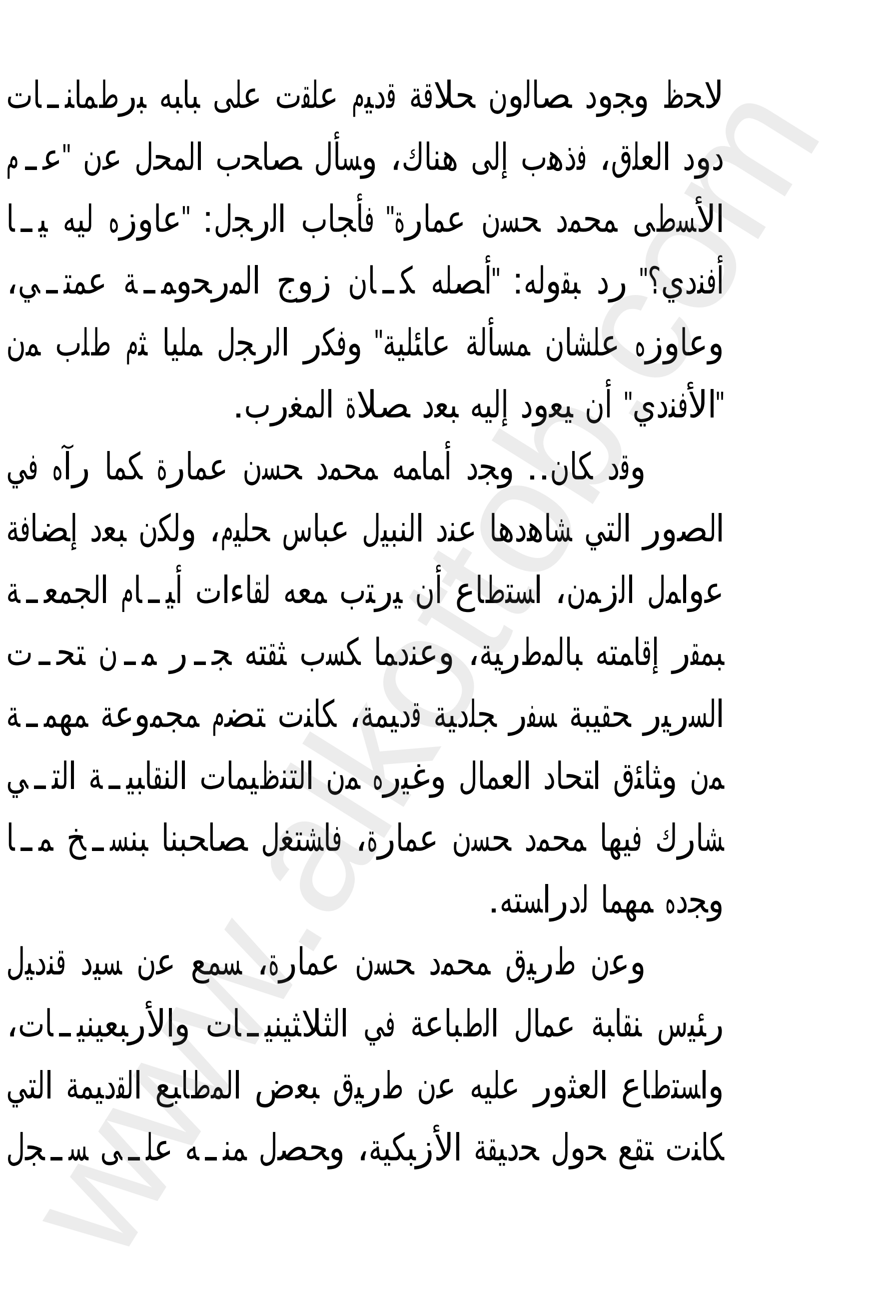


شك". قال "أفندينا" الذي كان يتحدث العربية على طريقة الخواجات: "هل تحب أن نتحدث بالإنجليزية أم الفرنسية"، فاختار صاحبنا الإنجليزية.

كان النبيل عباس حليم يحتفظ بألبومات ضخمة تضم قصاصات الصحف التي تحمل أخباره وأخبار النشاط العمالي، جمعت بعناية، وأُلصقت بالألبومات وفق تسلسلها الزمني. ولما علم أن صاحبنا موظف بكفر الزيات وافق أن يعيره في كل أسبوع ثلاثة ألبومات، فكان يلتقيه كل أسبوع على مدى شهرين يناقشه فيما قرأ، ويعيد ما استعاره ويحمل معه الدفعة التالية حتى تجمعت لديه في النهاية مادة كانت تحتاج إلى ما يزيد على العام لو جمعها بنفسه من الدوريات المودعة بدار الكتب المصرية.

تردد اسم محمد حسن عمارة سكرتير عام "اتحاد نقابات عمال القطر المصري" الذي رأسه عباس حليم، وكان الرجل في نفس الوقت رئيسا لنقابة الحلاقين. وعندما سأل عباس حليم عنه صب عليه اللعنات واتهمه بسرقة جميع أوراق الاتحاد، فأصبح العثور على الرجل على درجة بالغة من الأهمية، فاتجه صاحبنا إلى شارع كلوت بك حيث كان قد

www.alkottob.com



لاحظ وجود صالون حلاقة قديم علقت على بابه برطمانـات دود العلق، فذهب إلى هناك، وسأل صاحب المحل عن "عـم الأسطى محمد حسن عمارة" فأجاب الرجل: "عاوزه ليه يـا أفندي؟" رد بقوله: "أصله كـان زوج المرحومـة عمتـي، وعاوزه علشان مسألة عائلية" وفكر الرجل مليا ثم طلب من "الأفندي" أن يعود إليه بعد صلاة المغرب.

وقد كان.. وجد أمامه محمد حسن عمارة كما رآه في الصور التي شاهدها عند النبيل عباس حليم، ولكن بعد إضافة عوامل الزمن، استطاع أن يرتب معه لقاءات أيـام الجمعـة بمقر إقامته بالمطرية، وعندما كسب ثقته جـر مـن تحـت السرير حقيبة سفر جلدية قديمة، كانت تضم مجموعة مهمـة من وثائق اتحاد العمال وغيره من التنظيمات النقابيـة التـي شارك فيها محمد حسن عمارة، فاشتغل صاحبنا بنسـخ مـا وجده مهما لدراسته.

وعن طريق محمد حسن عمارة، سمع عن سيد قنديل رئيس نقابة عمال الطباعة في الثلاثينيـات والأربعينيـات، واستطاع العثور عليه عن طريق بعض المطابع القديمة التي كانت تقع حول حديقة الأزبكية، وحصل منـه علـى سـجل

www.alkottob.com

محاضر "حزب العمال الاشتراكي". كما اسـتطاع الاتصـال بالنقابيين الماركسيين: محمد يوسـف المـدرك، ومحمـود العسكري، وأحمد طه عن طريـق زميلـه وصـديقه سـعد صمويل الفيشاوي. وحصل منهم ومن غيرهم علـى بعـض الأوراق المهمة، والدوريات العمالية المجهولـة، واسـتعان بخطيبته في تجميع بعض ما احتاجـه البحـث مـن مـادة الدوريات من دار الكتب المصرية. وبذلك اكتملت المادة التي أعد منها رسالته التي نوقشت في نوفمبر. ١٩٦٦.

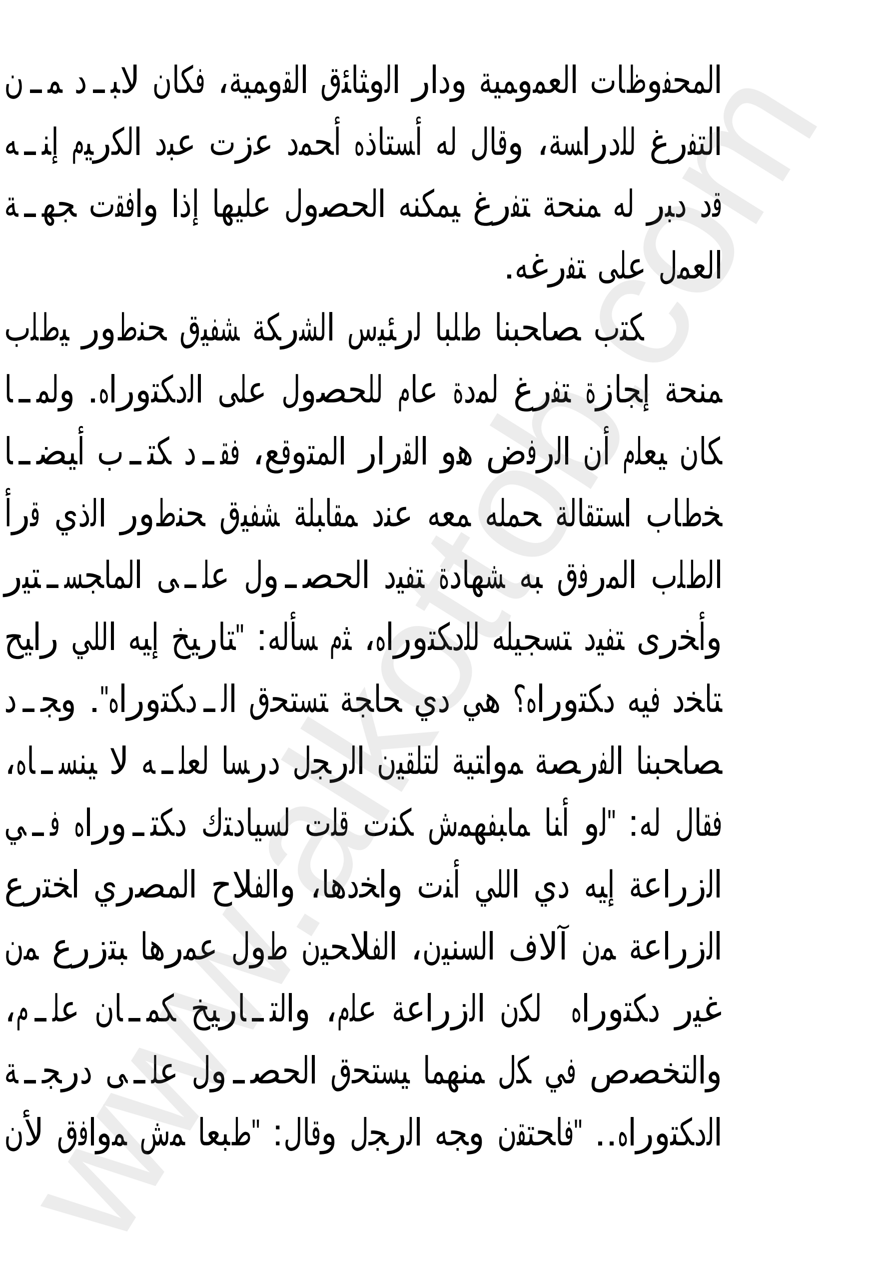
وفي خط موازٍ للدراسات العليا، سار مشـروع زواج صاحبنا من زميلته في الدراسات العليا سعاد الدميري التـي خفق قلبه بحبها وهو طالب في الفرقة الثانية وظل يحبها (من بعيد) ليقينه أن من كان في مثل ظروفه لا أمل له في التفكير في ذلك. وفي الشهور التي أعقبت التخرج وأثناء تردده على أحد سماسرة التشغيل بالمدارس الخاصة، طلب منه الرجـل مساعدته في العثور على خريجـة تعمـل مدرسـة مـواد اجتماعية؛ حتى يجد له مكانًا في مدرسة خاصة. فذهب إلـى الكلية حيث كان لها أختان بقسم اللغة الإنجليزيـة فوجـدها معهما مصادفة. وصحبها ووالدها في اليـوم التـالي إلـى

www.alkottob.com

السمسار. وعندما علم أنها عينت بأحد البنوك بالقاهرة كتـب لها وقابلها (في ٢٣ مايو ١٩٦٣) وصارحها بحبـه واتفـق معها على الزواج وباركت أسرته هذه الخطة، فعقد القـرآن في فبراير ١٩٦٤، وتم الزواج بعد ذلك بأربعة شهور. ولما لم يكن للبنك فرع بكفر الزيات، نُقلت إلـى فـرع طنطـا، وأقامت معه بكفر الزيات حتى صيف ١٩٦٦ عنـدما نُقلـت إلى القاهرة تمهيدا لولادة نجلـه حـاتم (٢٤/ ١٠/ ١٩٦٦) واستطاع صاحبنا أن يعثر على شقة بحدائق شبرا قرب بيت صهره، ونقل مقر إقامته إلى هناك، وظـل يسـافر يوميـا بالقطار إلى كفر الزيات حتى استقال من خدمة الشركة فـي أبريل، ١٩٦٧.

وللاستقالة قصة تستحق أن تُروى، فقد حصل صاحبنا على الماجستير بتقدير ممتاز، وزكى الدكتور محمـد أنـيس (عضو اللجنة) نشر الرسالة عند الأسـتاذ محمـود العـالم، رئيس هيئة الكتاب عندئذ، واستُقبلت الرسالة استقبالاً حسـنًا. وسجل موضوعا لرسالة الدكتوراه "الملكيات الزراعية الكبيرة وأثرها في المجتمع المصـري (١٨٣٧ – ١٩١٤)" وهـو موضوع يقتضي العمـل علـى الوثـائق المودعـة بـدار

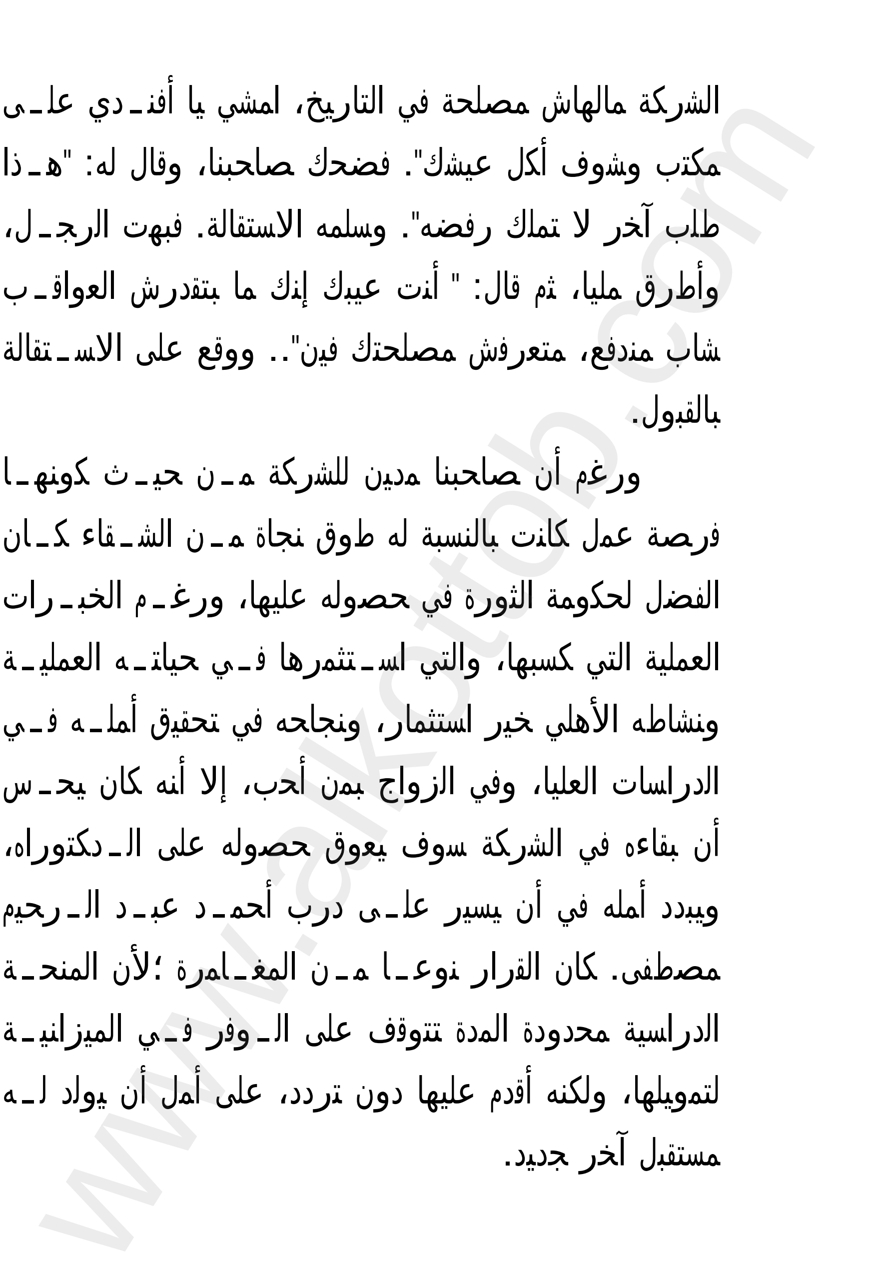
www.alkottob.com



المحفوظات العمومية ودار الوثائق القومية، فكان لابـد مـن التفرغ للدراسة، وقال له أستاذه أحمد عزت عبد الكريم إنـه قد دبر له منحة تفرغ يمكنه الحصول عليها إذا وافقت جهـة العمل على تفرغه.

كتب صاحبنا طلبا لرئيس الشركة شفيق حنطور يطلب منحة إجازة تفرغ لمدة عام للحصول على الدكتوراه. ولمـا كان يعلم أن الرفض هو القرار المتوقع، فقـد كتـب أيضـا خطاب استقالة حمله معه عند مقابلة شفيق حنطور الذي قرأ الطلب المرفق به شهادة تفيد الحصـول علـى الماجسـتير وأخرى تفيد تسجيله للدكتوراه، ثم سأله: "تاريخ إيه اللي رايح تاخد فيه دكتوراه؟ هي دي حاجة تستحق الـدكتوراه". وجـد صاحبنا الفرصة مواتية لتلقين الرجل درسا لعلـه لا ينسـاه، فقال له: "لو أنا مابفهمش كنت قلت لسيادتك دكتـوراه فـي الزراعة إيه دي اللي أنت واخدها، والفلاح المصري اخترع الزراعة من آلاف السنين، الفلاحين طول عمرها بتزرع من غير دكتوراه لكن الزراعة علم، والتـاريخ كمـان علـم، والتخصص في كل منهما يستحق الحصـول علـى درجـة الدكتوراه.. "فاحتقن وجه الرجل وقال: "طبعا مش موافق لأن

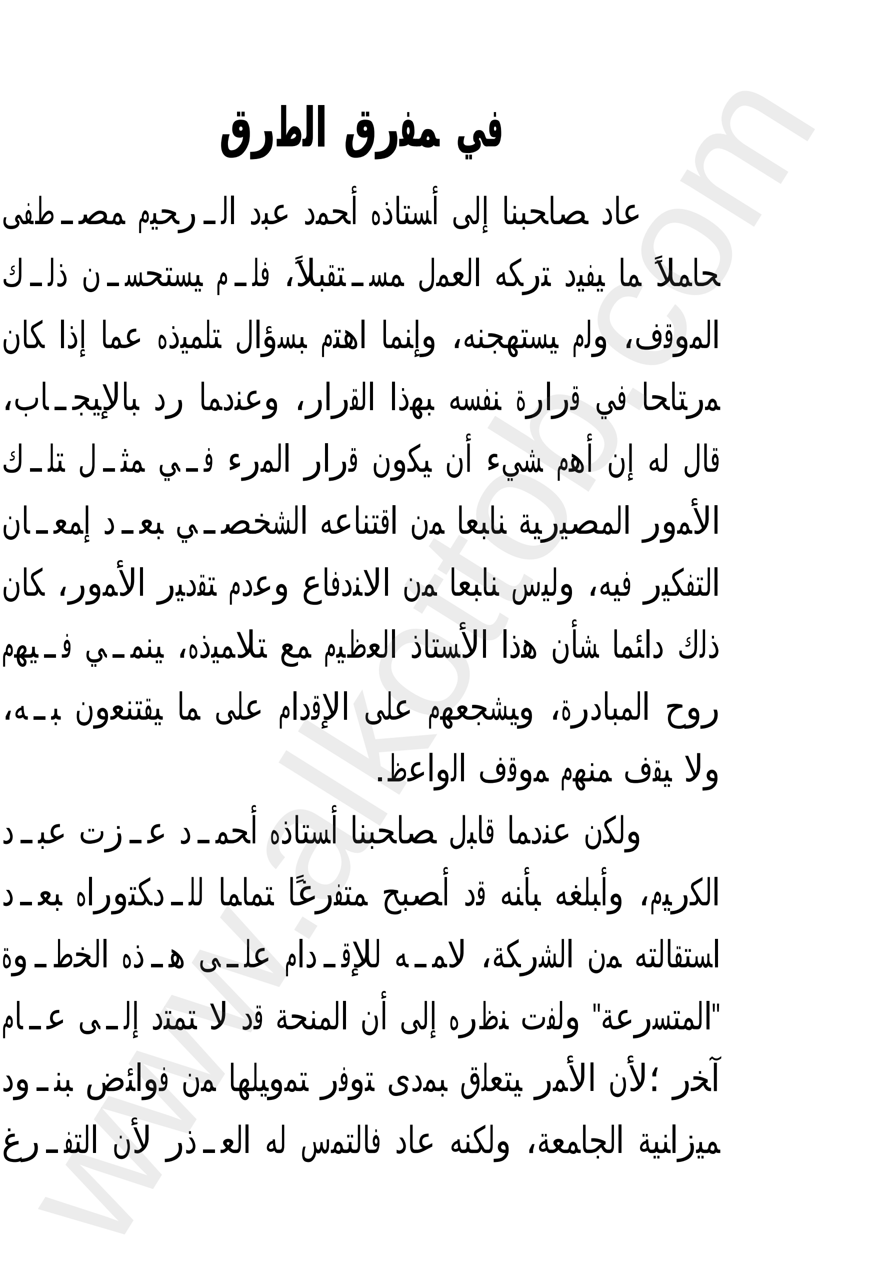
www.alkottob.com



الشركة مالهاش مصلحة في التاريخ، امشي يا أفندي على مكتب وشوف أكل عيشك". فضحك صاحبنا، وقال له: "هذا طلب آخر لا تملك رفضه". وسلمه الاستقالة. فبهت الرجل، وأطرق مليا، ثم قال: " أنت عيبك إنك ما بتقدرش العواقب شاب مندفع، متعرفش مصلحتك فين".. ووقع على الاستقالة بالقبول.

ورغم أن صاحبنا مدين للشركة من حيث كونها فرصة عمل كانت بالنسبة له طوق نجاة من الشقاء كان الفضل لحكومة الثورة في حصوله عليها، ورغم الخبرات العملية التي كسبها، والتي استثمرها في حياته العملية ونشاطه الأهلي خير استثمار، ونجاحه في تحقيق أمله في الدراسات العليا، وفي الزواج بمن أحب، إلا أنه كان يحس أن بقاءه في الشركة سوف يعوق حصوله على الدكتوراه، ويبدد أمله في أن يسير على درب أحمد عبد الرحيم مصطفى. كان القرار نوعا من المغامرة ؛لأن المنحة الدراسية محدودة المدة تتوقف على الوفر في الميزانية لتمويلها، ولكنه أقدم عليها دون تردد، على أمل أن يولد له مستقبل آخر جديد.

www.alkottob.com

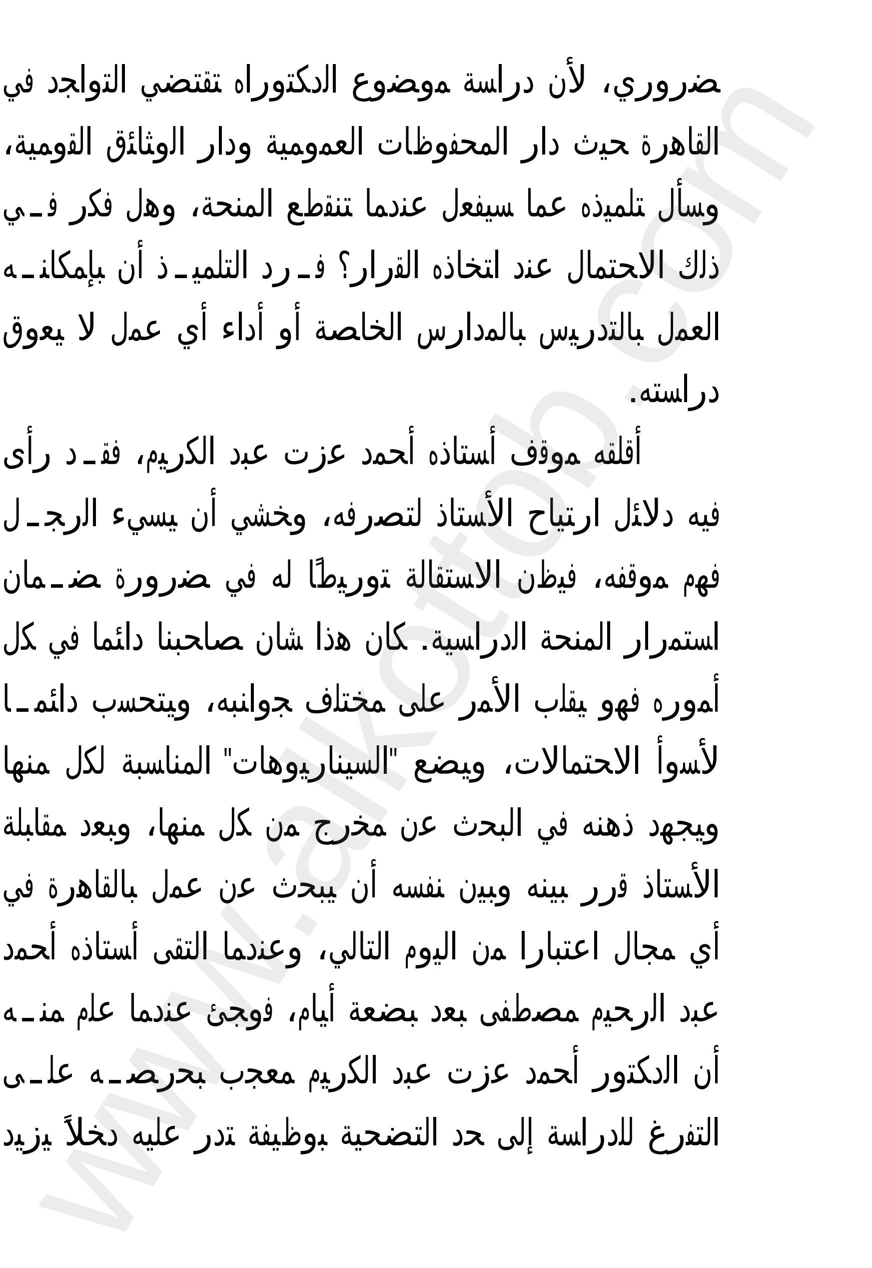


في مفرق الطرق

عاد صاحبنا إلى أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى حاملاً ما يفيد تركه العمل مستقبلاً، فلم يستحسن ذلك الموقف، ولم يستهجنه، وإنما اهتم بسؤال تلميذه عما إذا كان مرتاحا في قرارة نفسه بهذا القرار، وعندما رد بالإيجاب، قال له إن أهم شيء أن يكون قرار المرء في مثل تلك الأمور المصيرية نابعا من اقتناعه الشخصي بعد إمعان التفكير فيه، وليس نابعا من الاندفاع وعدم تقدير الأمور، كان ذلك دائما شأن هذا الأستاذ العظيم مع تلاميذه، ينمي فيهم روح المبادرة، ويشجعهم على الإقدام على ما يقتنعون به، ولا يقف منهم موقف الواعظ.

ولكن عندما قابل صاحبنا أستاذه أحمد عزت عبد الكريم، وأبلغه بأنه قد أصبح متفرغًا تماما للدكتوراه بعد استقالته من الشركة، لامه للإقدام على هذه الخطوة "المتسرعة" ولفت نظره إلى أن المنحة قد لا تمتد إلى عام آخر ؛لأن الأمر يتعلق بمدى توفر تمويلها من فوائض بنود ميزانية الجامعة، ولكنه عاد فالتمس له العذر لأن التفرغ

www.alkottob.com



ضروري، لأن دراسة موضوع الدكتوراه تقتضي التواجد في القاهرة حيث دار المحفوظات العمومية ودار الوثائق القومية، وسأل تلميذه عما سيفعل عندما تنقطع المنحة، وهل فكر فـي ذلك الاحتمال عند اتخاذه القرار؟ فـرد التلميـذ أن بإمكانـه العمل بالتدريس بالمدارس الخاصة أو أداء أي عمل لا يعوق دراسته.

أقلقه موقف أستاذه أحمد عزت عبد الكريم، فقـد رأى فيه دلائل ارتياح الأستاذ لتصرفه، وخشي أن يسيء الرجـل فهم موقفه، فيظن الاستقالة توريطًا له في ضرورة ضـمان استمرار المنحة الدراسية. كان هذا شان صاحبنا دائما في كل أموره فهو يقلب الأمر على مختلف جوانبه، ويتحسب دائمـا لأسوأ الاحتمالات، ويضع "السيناريوهات" المناسبة لكل منها ويجهد ذهنه في البحث عن مخرج من كل منها، وبعد مقابلة الأستاذ قرر بينه وبين نفسه أن يبحث عن عمل بالقاهرة في أي مجال اعتبارا من اليوم التالي، وعندما التقى أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى بعد بضعة أيام، فوجئ عندما علم منـه أن الدكتور أحمد عزت عبد الكريم معجب بحرصـه علـى التفرغ للدراسة إلى حد التضحية بوظيفة تدر عليه دخلاً يزيد

www.alkottob.com

على المنحة بمقدار النصف تقريبا، رغم أنـه متـزوج وأب لطفل لازال في الشهور الأولى مـن عمـره، وأن الأسـتاذ الجليل قدر للطالب عدم ارتكانه التام إلى المنحة الدراسية.

كان أحمد عزت عبد الكريم يتعامل مع طلابه بأسلوب جيل الآباء في ذلك الزمان، فهم لا يكشفون حقيقة مشاعرهم تجاه الأبناء؛ حتى لا تفسدهم عبـارات الإطـراء والمـديح. ويذكر صاحبنا أثناء إعداده الماجستير، وتقديمه الفصول التي يكتبها للأستاذ لمراجعتها وينتظر قلقًا لسماع رأيه وتوجيهاته، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى وهو في الطريق إلى لقاء أسـتاذه لمعرفة رأيه فيما كتب، كان يتلقى بعض الملاحظات الشكلية منه، فإذا سأله عن تقديره لما كتب، رد الأستاذ بقوله: "نصف العمى.. أهو والسلام. على قد حالك". فيفزع صاحبنا ويسأل الأستاذ عن موطن التقصير وكيفية علاجه، فيقول له" أكمـل للآخر وبعدين نشوف شغلك ينفع ولا لأ".

يشعر صاحبنا بالإحباط، ويضرب أخماسا في أسداس حتى يلتقي بأستاذه احمد عبد الرحيم مصطفى فيفاجأ بقولـه: "عمك (يقصد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم) مبسوط منـك خالص، ومعجب بمنهجك وأسلوبك في معالجة الموضـوع،

www.alkottob.com

وبيقول الواد ده حيطلع مؤرخ متميز". وعندما يـروي لـه التلميذ ما سمعه من الأستاذ الجليل، يرد أحمد عبـد الـرحيم مصطفى بقوله: "كان دايما يقول لي كده واكتر.. هو بيخاف لو عبر عن ارتياحه لشغل الطالب أن يركبه الغرور. ويرى أن هذا الأسلوب يحفز الطالب على بذل أقصى طاقته لتقـديم أفضل ما عنده".

حصل صاحبنا على المنحة، وأعـاد ترتيـب أمـوره والتزاماته العائلية بما يتوافق مع الوضع الجديد، مـع عـدم المساس بما كان يساعد به والده، والاقتصاد في أمور معاش أسرته الصغيرة، وحدث ما كان يتوقعه، فتوقفت المنحة بعـد ثلاثة شهور لنفاد البند، فأعاد أستاذه تمويلها (وكان قد أصبح مديرا للمجامعة). وتصادف في الشهر الثالث مـن تفرغـه للدراسة أن نُشر إعلان بالصحف عن شغل وظيفـة معيـد تاريخ حديث بكلية الآداب جامعة القاهرة، نُص فيـه علـى تفضيل من يحمل درجة الماجستير في التخصص، فسـارع صاحبنا بتقديم أوراقه إلى كلية الآداب، بعد أن سأل الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الرأي، فنصحه بالتقدم ظنًا منـه أنها إحدى مفاجآت الدكتور محمد أنـيس (أسـتاذ التـاريخ

www.alkottob.com

الحديث بآداب القاهرة) وكان عضوا بلجنة مناقشـة رسـالة الماجستير وأبدى إعجابه بالطالب إلى حد استهلال مناقشـته للطالب بالقول "لقد قُدر لهذه القاعة أن تشهد مولـد مـؤرخ جديد من المدرسة الاجتماعية". فاعتبر أحمد عبـد الـرحيم مصطفى أن الإعلان عن الدرجة في هذا التوقيـت لابـد أن يكون مقصودا، واستطرد قائلاً "ده أسلوب محمد أنـيس، لا يكشف لأحد عما عقد العزم عليه". وهكذا تقدم صاحبنا إلـى الكلية بأوراقه معتمدا على وجهة نظر أسـتاذه أحمـد عبـد الرحيم مصطفى، وعندما التقى أستاذه أحمد عزت عبد الكريم في سمناره الشهير (يوم الخميس من كل أسبوع)، وذلك بعد ثلاثة أيام من التقدم للوظيفة، زف إليه النبـأ، ففـوجئ بـه يغضب ويلومه لتقديمه الأوراق دون الرجوع إليه.

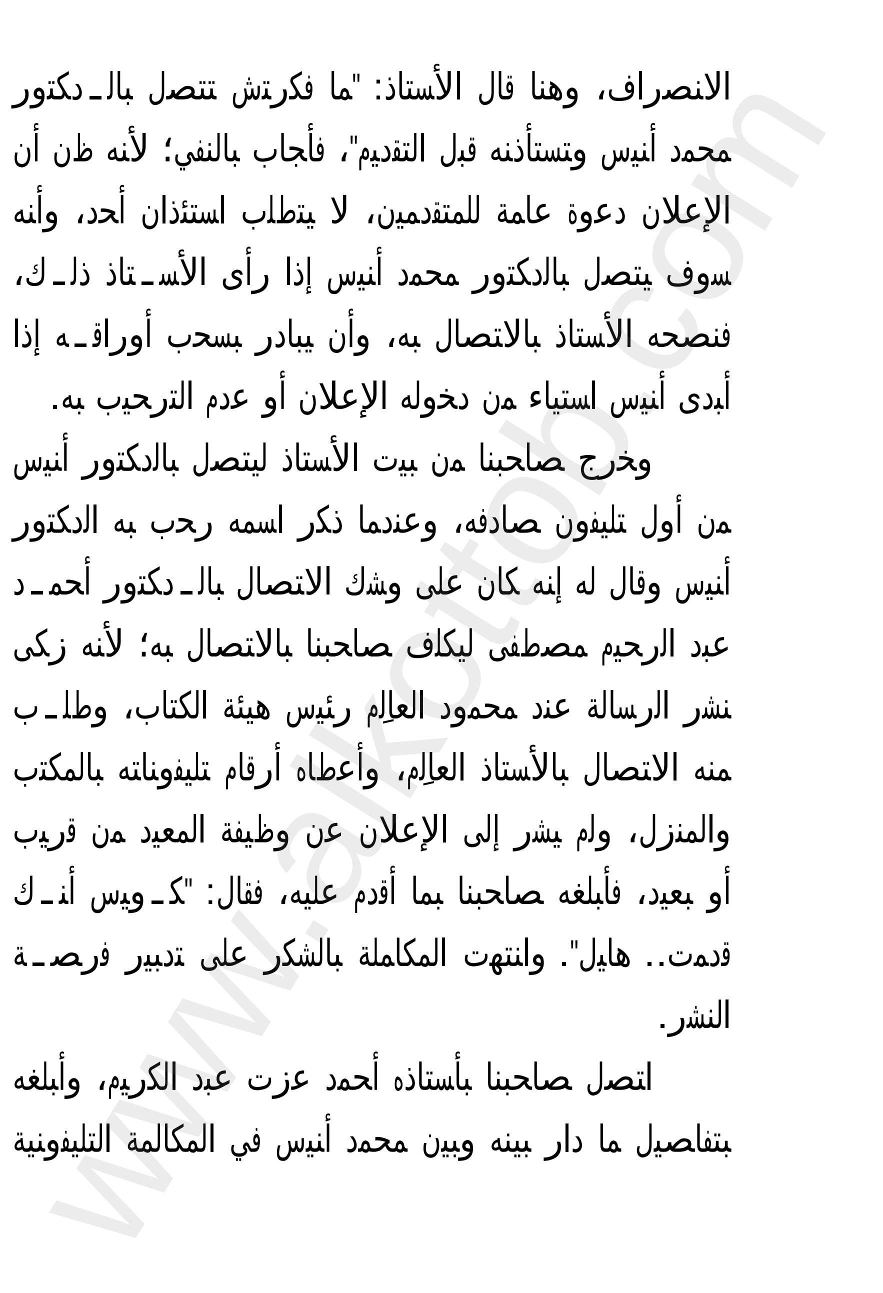
ولم يشأ أن يقول له صاحبنا إنه استشار أحمـد عبـد الرحيم مصطفى، الذي كان حاضرا، ولم يعلق علـى كـلام الأستاذ، الذي أطرق مليا، ثم قال للطالب بلهجة حازمة "لازم أشوفك بكرة الساعة العاشرة صباحا".

وفي العاشرة من صباح الجمعة كان يجلس إلى الأستاذ الجليل في منزله بمنشية البكري، الذي بادره بالقول: "أنـت

www.alkottob.com

فاكر الحكاية إيه؟ هي وكالة من غير بـواب؟ إزاي تخـش إعلان مش بتاعك؟" فرد صاحبنا "يا أفنـدم دا إعـلان عـن وظيفة خالية منشور في الصحف يعني مفتوح لأي مـواطن مصري، ولما كنت مواطنًا مصريا، رأيت من حقي أن أتقدم طالما كانت الشروط تنطبق علي!". وأطرق مليا ثم اسـتطرد قائلاً: "أنا فاهم تماما أن الجامعة يحكمها قانون يحدد طريقـة فرز وتقييم المتقدمين، ولابد أن يكون هو واحدا بين مجموعة من المتقدمين، قد يكون بينهم من يفضله، ولكنه لا يجد مبررا يمنعه من التقدم للوظيفة". هنا قال الأستاذ: "الإعلان ده نازل لواحد معين، ودخولك معاه يسبب لنا الحرج، ومفـيش حـل غير إنك تروح بكره تسحب ورقك" بهت صـاحبنا، ونفـر عرقه الصعيدي(كما يفعل دائما عندما يحس أن ثمة شـبهة مساس بكرامته) وقال للأستاذ: "يا أفندم أنا مواطن لي نفـس حقوق من نزل الإعلان خصيصا له.. والصالح العام يقتضي أن تُعطى الفرصة للأفضل، فإذا كان يفضلني فهذا حقه، أمـا إذا كنت أفضله فلن أتنازل عن حقي.. ولا أرى في ذلك مـا يسبب الحرج لسيادتكم". تنهد الأستاذ وسادت فتـرة صـمت مطبق، فهم الطالب منها أنها دعوة للانصراف، فاستأذن في

www.alkottob.com

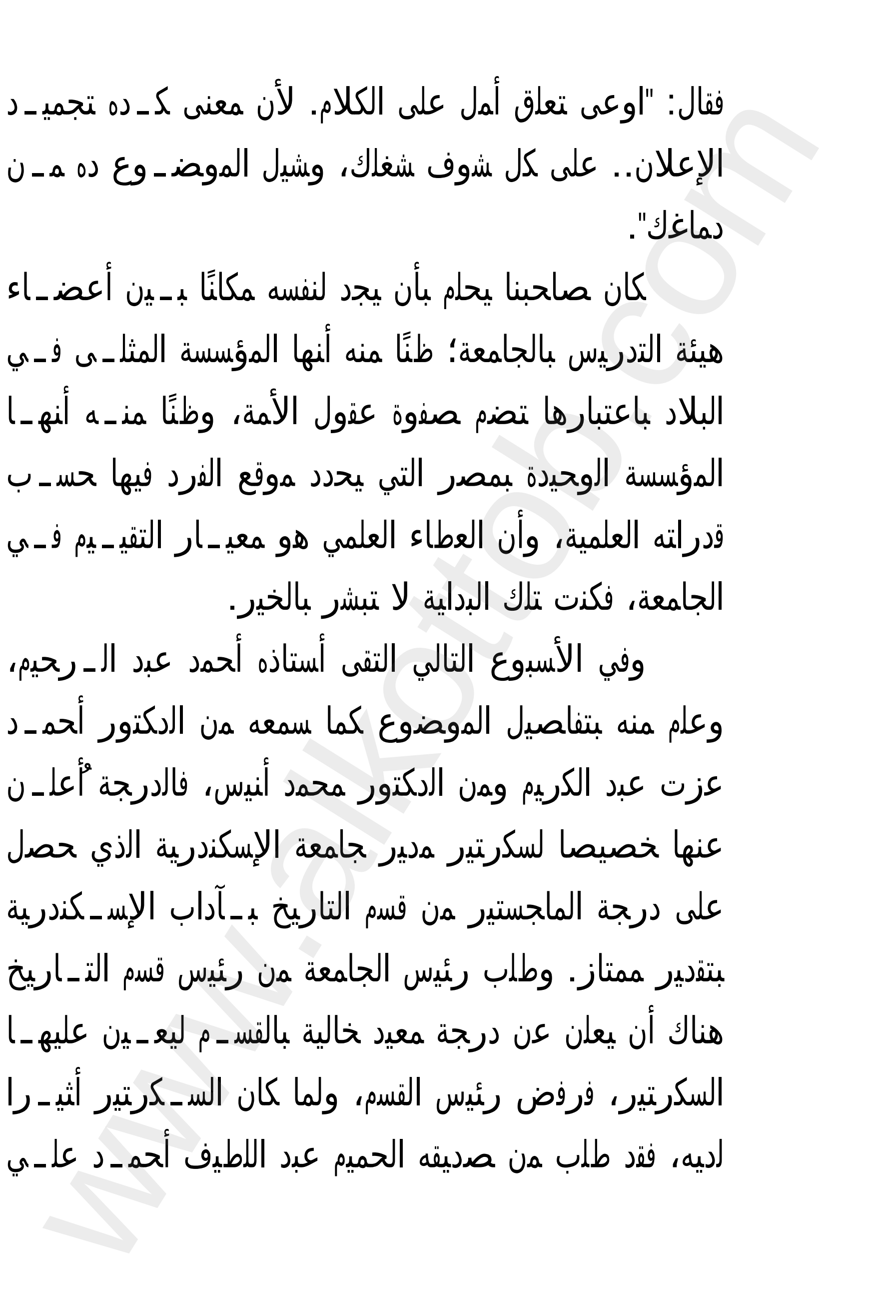


الانصراف، وهنا قال الأستاذ: "ما فكرتش تتصل بالـدكتور محمد أنيس وتستأذنه قبل التقديم"، فأجاب بالنفي؛ لأنه ظن أن الإعلان دعوة عامة للمتقدمين، لا يتطلب استئذان أحد، وأنه سوف يتصل بالدكتور محمد أنيس إذا رأى الأسـتاذ ذلـك، فنصحه الأستاذ بالاتصال به، وأن يبادر بسحب أوراقـه إذا أبدى أنيس استياء من دخوله الإعلان أو عدم الترحيب به.

وخرج صاحبنا من بيت الأستاذ ليتصل بالدكتور أنيس من أول تليفون صادفه، وعندما ذكر اسمه رحب به الدكتور أنيس وقال له إنه كان على وشك الاتصال بالـدكتور أحمـد عبد الرحيم مصطفى ليكلف صاحبنا بالاتصال به؛ لأنه زكى نشر الرسالة عند محمود العالِم رئيس هيئة الكتاب، وطلـب منه الاتصال بالأستاذ العالِم، وأعطاه أرقام تليفوناته بالمكتب والمنزل، ولم يشر إلى الإعلان عن وظيفة المعيد من قريب أو بعيد، فأبلغه صاحبنا بما أقدم عليه، فقال: "كـويس أنـك قدمت.. هايل". وانتهت المكالمة بالشكر على تدبير فرصـة النشر.

اتصل صاحبنا بأستاذه أحمد عزت عبد الكريم، وأبلغه بتفاصيل ما دار بينه وبين محمد أنيس في المكالمة التليفونية

www.alkottob.com



فقال: "اوعى تعلق أمل على الكلام. لأن معنى كده تجميد الإعلان.. على كل شوف شغلك، وشيل الموضوع ده من دماغك".

كان صاحبنا يحلم بأن يجد لنفسه مكانًا بين أعضاء هيئة التدريس بالجامعة؛ ظنًا منه أنها المؤسسة المثلى في البلاد باعتبارها تضم صفوة عقول الأمة، وظنًا منه أنها المؤسسة الوحيدة بمصر التي يحدد موقع الفرد فيها حسب قدراته العلمية، وأن العطاء العلمي هو معيار التقييم في الجامعة، فكنت تلك البداية لا تبشر بالخير.

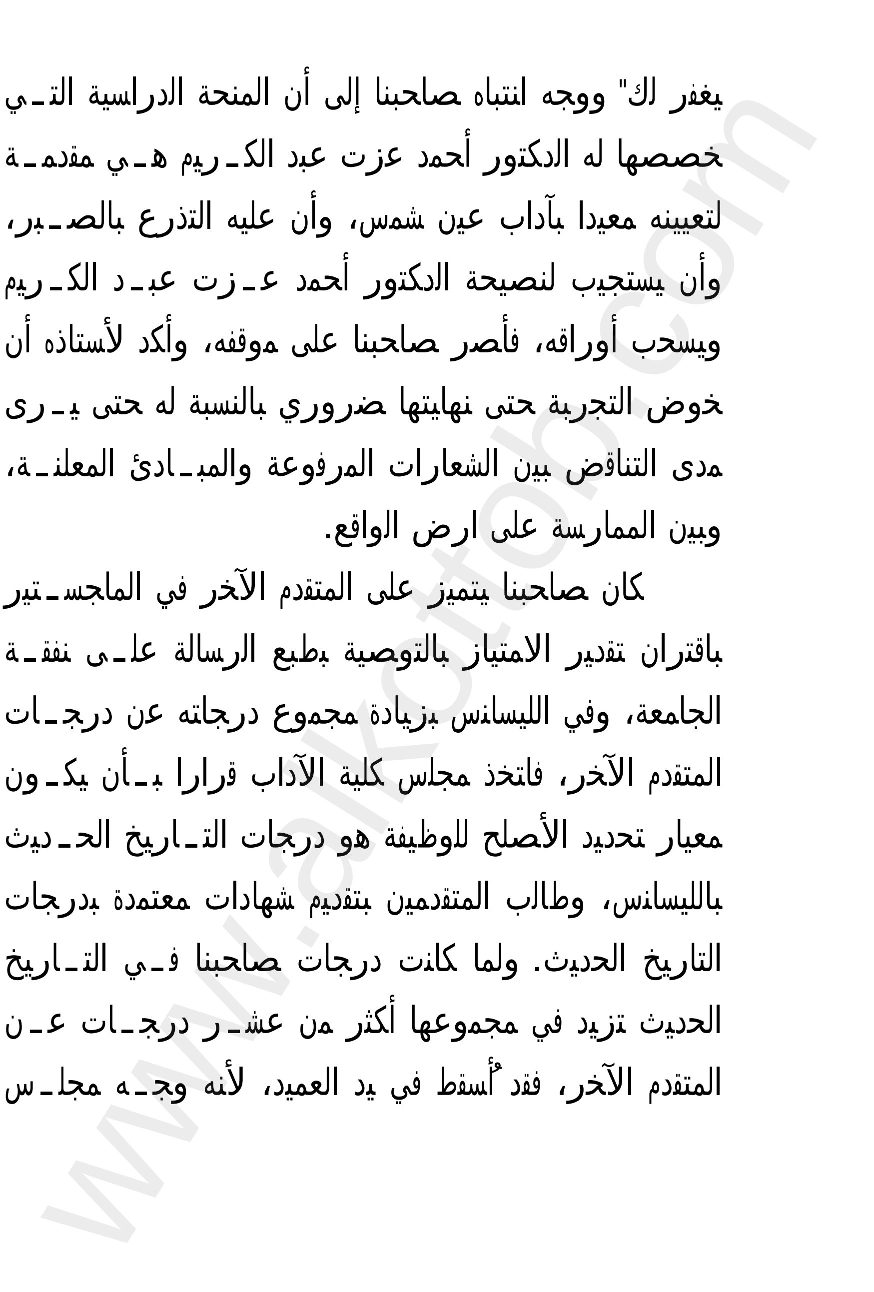
وفي الأسبوع التالي التقى أستاذه أحمد عبد الرحيم، وعلم منه بتفاصيل الموضوع كما سمعه من الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ومن الدكتور محمد أنيس، فالدرجة أُعلن عنها خصيصا لسكرتير مدير جامعة الإسكندرية الذي حصل على درجة الماجستير من قسم التاريخ بآداب الإسكندرية بتقدير ممتاز. وطلب رئيس الجامعة من رئيس قسم التاريخ هناك أن يعلن عن درجة معيد خالية بالقسم ليعين عليها السكرتير، فرفض رئيس القسم، ولما كان السكرتير أثيرا لديه، فقد طلب من صديقه الحميم عبد اللطيف أحمد علي

www.alkottob.com

(عميد آداب القاهرة) أن يؤدي له خدمة بتعيين السكرتير معيدا بآداب القاهرة، ثم يتم نقله بعد ذلك بدرجته إلى آداب الإسكندرية، وهو إجراء يدخل في سلطة مدير الجامعة، ولا يملك رئيس قسم التاريخ بآداب الإسكندرية الاعتراض على النقل، ولما كان عبد اللطيف أحمد علي رئيسا لقسم التاريخ (في نفس الوقت) فقد اتخذ قرار الإعلان دون الرجوع إلى الدكتور محمد أنيس أستاذ التاريخ الحديث، ومن هنا جاء ترحيب أنيس بتقدم صاحبنا إلى الدرجة؛ لأنه يتميز في درجات الليسانس عن الشخص الذي نُشر الإعلان من أجله وبذلك يحبط مساعي العميد، فيضطر إلى تجميد الإعلان وينتهي الموضوع عند هذا الحد.

عجب صاحبنا للطريقة التي تُدار بها أمور التعيين في سلك أعضاء هيئة التدريس، وشعر بخيبة الأمل والمرارة؛ لأنه رأى في هذه الواقعة لونًا من الفساد أخطر مما رآه في الشركة التابعة للقطاع العام التي استقال منها. وزاده هذا الموضوع إصرارا على التمسك بموقفه. وعندما أبلغ أستاذه أحمد عبد الرحيم بذلك قال له:"كيفك.. بس لو اضطروا يعينوك حيحطوك في دماغهم، وعبد اللطيف أحمد علي لن

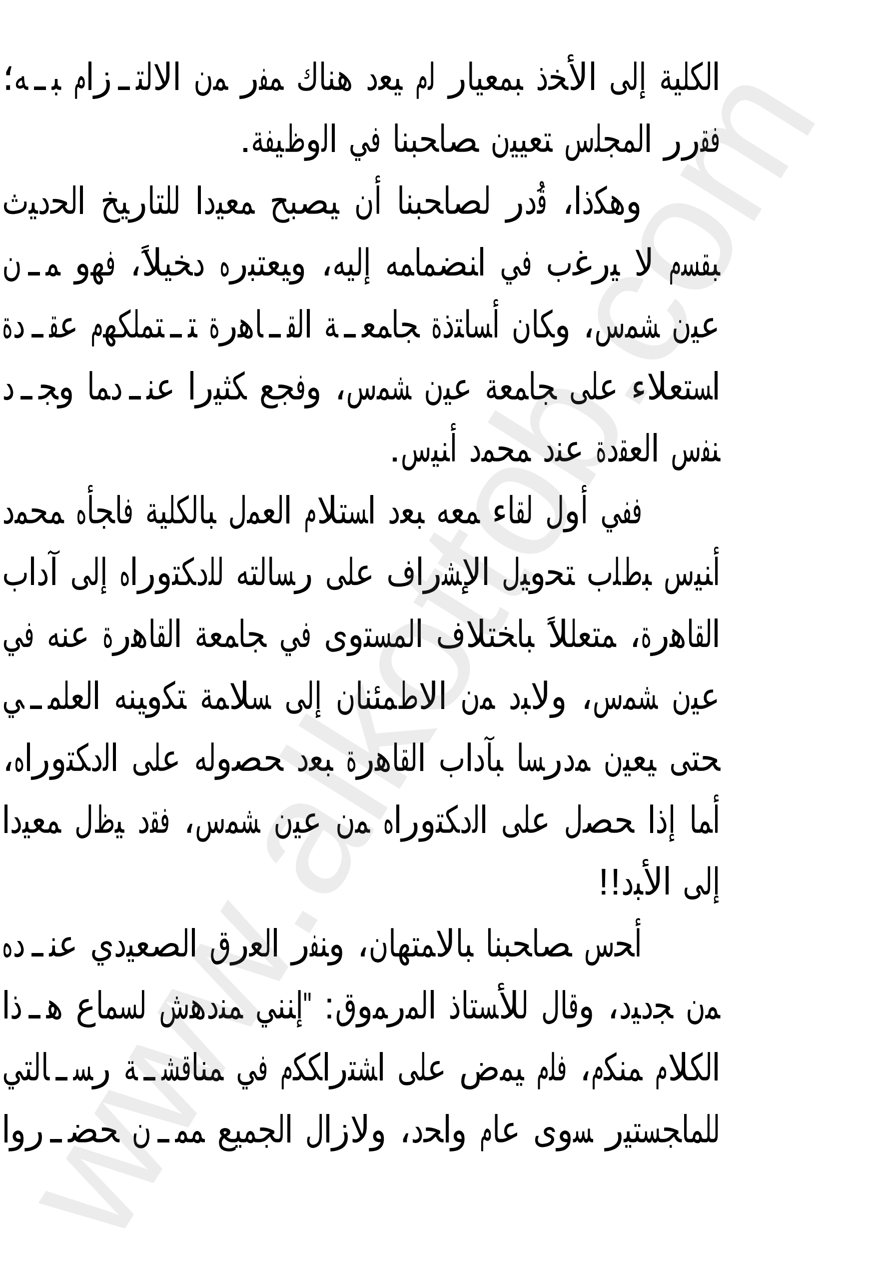
www.alkottob.com



يغفر لك" ووجه انتباه صاحبنا إلى أن المنحة الدراسية التـي خصصها له الدكتور أحمد عزت عبد الكـريم هـي مقدمـة لتعيينه معيدا بآداب عين شمس، وأن عليه التذرع بالصـبر، وأن يستجيب لنصيحة الدكتور أحمد عـزت عبـد الكـريم ويسحب أوراقه، فأصر صاحبنا على موقفه، وأكد لأستاذه أن خوض التجربة حتى نهايتها ضروري بالنسبة له حتى يـرى مدى التناقض بين الشعارات المرفوعة والمبـادئ المعلنـة، وبين الممارسة على ارض الواقع.

كان صاحبنا يتميز على المتقدم الآخر في الماجسـتير باقتران تقدير الامتياز بالتوصية بطبع الرسالة علـى نفقـة الجامعة، وفي الليسانس بزيادة مجموع درجاته عن درجـات المتقدم الآخر، فاتخذ مجلس كلية الآداب قرارا بـأن يكـون معيار تحديد الأصلح للوظيفة هو درجات التـاريخ الحـديث بالليسانس، وطالب المتقدمين بتقديم شهادات معتمدة بدرجات التاريخ الحديث. ولما كانت درجات صاحبنا فـي التـاريخ الحديث تزيد في مجموعها أكثر من عشـر درجـات عـن المتقدم الآخر، فقد أُسقط في يد العميد، لأنه وجـه مجلـس

www.alkottob.com



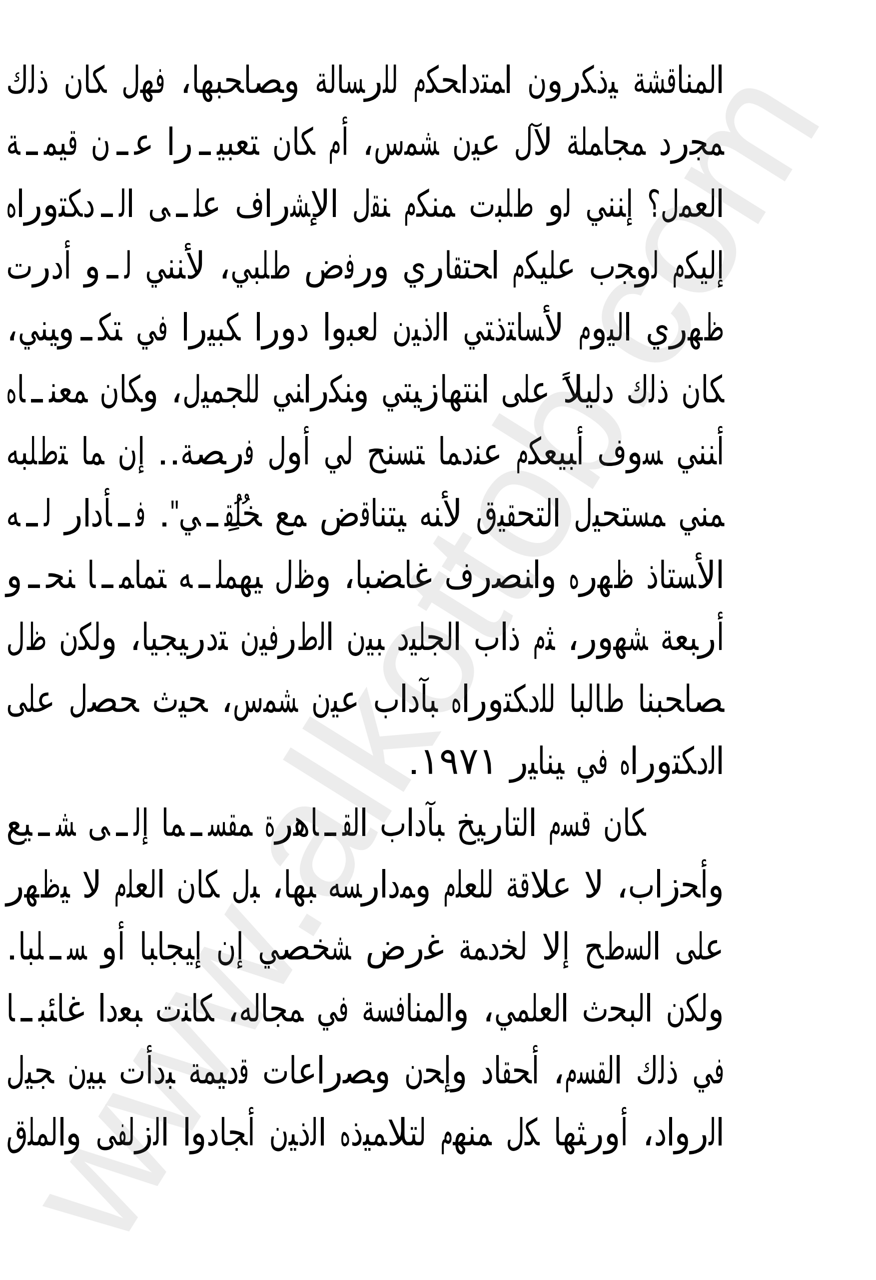
الكلية إلى الأخذ بمعيار لم يعد هناك مفر من الالتـزام بـه؛ فقرر المجلس تعيين صاحبنا في الوظيفة.

وهكذا، قُدر لصاحبنا أن يصبح معيدا للتاريخ الحديث بقسم لا يرغب في انضمامه إليه، ويعتبره دخيلاً، فهو مـن عين شمس، وكان أساتذة جامعـة القـاهرة تـتملكهم عقـدة استعلاء على جامعة عين شمس، وفجع كثيرا عنـدما وجـد نفس العقدة عند محمد أنيس.

ففي أول لقاء معه بعد استلام العمل بالكلية فاجأه محمد أنيس بطلب تحويل الإشراف على رسالته للدكتوراه إلى آداب القاهرة، متعللاً باختلاف المستوى في جامعة القاهرة عنه في عين شمس، ولابد من الاطمئنان إلى سلامة تكوينه العلمـي حتى يعين مدرسا بآداب القاهرة بعد حصوله على الدكتوراه، أما إذا حصل على الدكتوراه من عين شمس، فقد يظل معيدا إلى الأبد!!

أحس صاحبنا بالامتهان، ونفر العرق الصعيدي عنـده من جديد، وقال للأستاذ المرموق: "إنني مندهش لسماع هـذا الكلام منكم، فلم يمض على اشتراككم في مناقشـة رسـالتي للماجستير سوى عام واحد، ولازال الجميع ممـن حضـروا

www.alkottob.com



المناقشة يذكرون امتداحكم للرسالة وصاحبها، فهل كان ذلك مجرد مجاملة لآل عين شمس، أم كان تعبيرا عن قيمة العمل؟ إنني لو طلبت منكم نقل الإشراف على الدكتوراه إليكم لوجب عليكم احتقاري ورفض طلبي، لأنني لو أدرت ظهري اليوم لأساتذتي الذين لعبوا دورا كبيرا في تكويني، كان ذلك دليلاً على انتهازيتي ونكراني للجميل، وكان معناه أنني سوف أبيعكم عندما تسنح لي أول فرصة.. إن ما تطلبه مني مستحيل التحقيق لأنه يتناقض مع خُلُقِي". فأدار له الأستاذ ظهره وانصرف غاضبا، وظل يهمله تماما نحو أربعة شهور، ثم ذاب الجليد بين الطرفين تدريجيا، ولكن ظل صاحبنا طالبا للدكتوراه بآداب عين شمس، حيث حصل على الدكتوراه في يناير ١٩٧١.

كان قسم التاريخ بآداب القاهرة مقسما إلى شيع وأحزاب، لا علاقة للعلم ومدارسه بها، بل كان العلم لا يظهر على السطح إلا لخدمة غرض شخصي إن إيجابا أو سلبا. ولكن البحث العلمي، والمنافسة في مجاله، كانت بعدا غائبا في ذلك القسم، أحقاد وإحن وصراعات قديمة بدأت بين جيل الرواد، أورثها كل منهم لتلاميذه الذين أجادوا الزلفى والملق

www.alkottob.com

حتى يستطيعوا الحياة في ذلك المناخ غير الصحي، فالويـل كل الويل لمن يكتشف أستاذه أن له صلة بمعسكر خصـمه، كما يحدث في الخصومات السياسية، كان كل طرف يقـرب إليه من ينقل أخبار الطرف الآخر، وأجاد بعض هؤلاء لعبة "العميل المزدوج" حتى يضمن مساندة الجميع له بحسبانه من أتباعهم، فإذا كُشفت لعبته كان في ذلك نهايته.

ساعد على إشاعة تلك السلبيات بين طلبة الدراسـات العليا بالقسم، أنه كاد يخلو من المعيدين، فلم يكن به (حـين تسال صاحبنا) سوى أربعة معيدين، واحد في كل فرع مـن فروع التخصص الأربعة: قديم، وإسلامي، ووسيط، وحديث. وكان صاحبنا الخامس بين المعيدين والثـاني بـين معيـدي التاريخ الحديث. وظل الحال على هذا المنوال حتى أواخـر عقد السبعينيات عندما حصل كل المعيدين علـى الـدكتوراه (فيما عدا معيد تاريخ حديث استقال لمرور خمـس سـنوات دون حصوله على الماجستير) ولم يعد هناك سـوى معيـد واحد. ولم يفتح رئيس القسم عندئذ الباب لتعيين معيدين جدد، بل واربه قليلاً لتعيين بنت أحد أساتذة القسم التـي حصـلت على الليسانس من الكويت أثناء وجود أبيها بالإعارة هنـاك،

www.alkottob.com

ثم عينت بضعة شهور بآداب المنيا، لتُنقل إلى آداب القاهرة، أما المعيدة الأخرى التي تم تعيينها فكانت ابنة أحد أصـدقاء رئيس القسم. فلم تكن تربية الكوادر من اهتمام ذلك القسـم، والكثير من أقسام الكلية الأخرى، بحجة الحاجة إلى التـدقيق في الاختيار، ونادرا ما كان ذلك الاختيار يصيب أصـحاب الكفاءة، فإذا أصاب بعضهم كانت الزلفى للأستاذ الباب الذي يوصله إلى نيل حقه.

وهكذا ظل التطلع إلى التعيين يراود طلاب الدراسات العليا (وهو تطلع مشروع ما في ذلك شك)، ولكـن السـعي لتحقيقه جعل الكثيرين يتخذون مواقعهم في أحد المعسـكرات التي وجدت بالقسم، مع محاولـة اسـتدرار عطـف أحـد المعسكرات الأخرى خفية. جو خانق غريب واجهه صاحبنا، ذلك الدخيل الذي هبط على القسم دون استئذان. حاول فـي البداية أن يقيم علاقة طبيعية مع الجميع، فلم يلـق اسـتجابة سوى من الدكتور سعيد عاشور الذي درس عليه في مرحلة الليسانس بآداب عين شمس، أما عبد اللطيف أحمد علي الذي درس عليه أيضا وتأثر – علميا – به تأثرا كبيـرا فكـان لا يطيق رؤية ذلك المعيد الذي أفسد عليه فرصة تقديم خدمـة

www.alkottob.com

لصديقه حسن بغدادي مدير جامعة الإسكندرية، حاول – ذات مرة – إهانته أمام الملأ بعد إحدى المحاضرات بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، فناداه: "أنت يا.. أنت" فلم يرد عليه وتجاهله، فكرر النداء "أنت يا عبـاس.. إزاي تكـون بتشتغل عندي وما بتجيش الكليـة؟!" فـرد عليـه بصـوت جهوري: "أنا مش شغال عند سيادتك أنا معيد بجامعة القاهرة ورئيسي المسئول عن متابعة عملي هو أستاذ التخصص" فرد العميد: "لكن عليك واجبات لقسم لازم تعلمها، تعالى قـابلني بكره الساعة عشرة".

كان صاحبنا حريصا على ملازمة الدكتور أنيس يـوم وجوده بالكلية، وكان لا يحضر سوى يوم الخمـيس لإلقـاء محاضرته على طلبة الليسانس، حيث كان مشـغولاً بمهـام موقعه في الاتحـاد الاشـتراكي بأمانـة الـدعوة والفكـر، وبالتدريس بمعهد الدراسات الاشتراكية، وحيثما وجد أنـيس بالكلية أحاط به الأصدقاء والمريدون: صـحافيون، بعـض أساتذة الجامعة، وغيرهم، فكانت حجـرة التـاريخ الحـديث تزدحم بهم يوم الخميس، وتصبح قاعا صفصـفًا بقيـة أيـام الأسبوع. وكان صاحبنا يحضر منذ التاسـعة صـباحا؛ لأن

www.alkottob.com

الأستاذ يلقي محاضرته في الثامنة وينهيها في التاسعة(بـدلاً من العاشرة)، ثم يقضي الوقت حتى الواحدة أو الثانية بعـد الظهر في أحاديث تتناول الشأن العام، يطـرح فيهـا علـى زواره تحليله للمواقف السياسـية، ويردهـا إلـى أصـولها التاريخية بأسلوب منهجي أخاذ. وكانت مواظبة صاحبنا على حضور تلك الجلسة (رغم تجاهل أنيس لـه لمـدة ثلاثـة أو أربعة شهور على الأقل)، ومشاركته في المناقشات، وطـرح رأيه فيما يتم النقاش حوله، سببا في إذابـة الجليـد وجسـر الفجوة التي حرص الدكتور أنيس على وجودها خلال فتـرة التجاهل، وتحولت العلاقة إلى ود وصداقة كانت تصل إلـى مستوى علاقته بأستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى.

وفي مجالس أنيس تعرف صاحبنا على أحمـد عبـاس صالح، وسعد زهران، وإبراهيم صـقر، وحسـام عيسـى، وحلمي شعراوي، وجلال السيد، وعرف عن طريقه كامـل زهيري، ومحمود العالِم، وغيرهم. فكـان لهـذه الجلسـات دورها الأساسي في تكوينه الفكري والمنهجي. كمـا أتـاح محمد أنيس له فرصة الكتابة بمجلة "الكاتب" (وكان عضـوا بمجلس تحريرها)، كما أشركه في "قسم الأبحاث" الذي أقامته

www.alkottob.com

جريدة الجمهورية ردا على إقامة جريـدة الأهـرام لمركـز الدراسات السياسية والاستراتيجية(وكان التنافس على أشـده عندئذ بين دار التحرير والأهرام) فكان أنيس مشـرفًا علـى القسم، يعمل معه جلال السيد، وفتحي عبد الفتاح، وأميمة أبو النصر(من محـرري الجمهوريـة) إلـى جانـب بعـض المتخصصين من الخارج يذكر منهم جمال نوير، وآخـرون من المتخصصين في الاقتصاد والتخطيط والعلوم السياسـية، انتقاهم الدكتور أنيس من بين تلاميذه بالمعهـد الاشـتراكي، إضافة إلى صاحبنا الذي انضم للقسم كخبير بشـئون العمـل والعمال والنقابات، واتجه جل نشاط القسم إلى معالجة قضايا التنمية بمختلف أبعادها: الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والثقافية، والبحث في أسس تهيئة المنـاخ لنجـاح التجربـة الاشتراكية. وكانت البحوث تُنشر على صفحة كاملـة مـن "الجمهورية" بعدد الخميس (الأسبوعي)، ولكن بعد أن تخرج من تحت يد الرقيب، ويذكر صاحبنا أنه قـدم دراسـة عـن أوضاع العمال في القطاع العام لينشر على صفحة كاملة فحولها الرقيب إلى ربع صفحة، لا يستطيع القارئ – مهمـا بلغ من الذكاء – أن يفهم منها شيئا، فقد حذفت فقرات كاملة

www.alkottob.com

متتالية، هناك وهناك، ثم أعيد صف ما بقي من فقرات وراء بعضها البعض، دون أن تُعاد صياغتها، وترك أنـيس قسـم الأبحاث بعد خلاف مع فتحي غانم (رئيس التحرير عندئـذ) وأصبح فتحي عبد الفتاح مشرفًا على القسم، فاشترك صاحبنا معه في المجموعة التي تدرس أوضاع القطـاع العـام فـي صياغة ما بقي من حلقات الدراسة، وجاء النشر مهينًا لكـل من يحرص على سمعته، بعدما أطاح مقص الرقيب أو قلـم رئيس التحرير بمعظم الفقرات التي تكشف السلبيات المترتبة على أسلوب إدارة القطاع العام؛ فآثر ترك القسم.

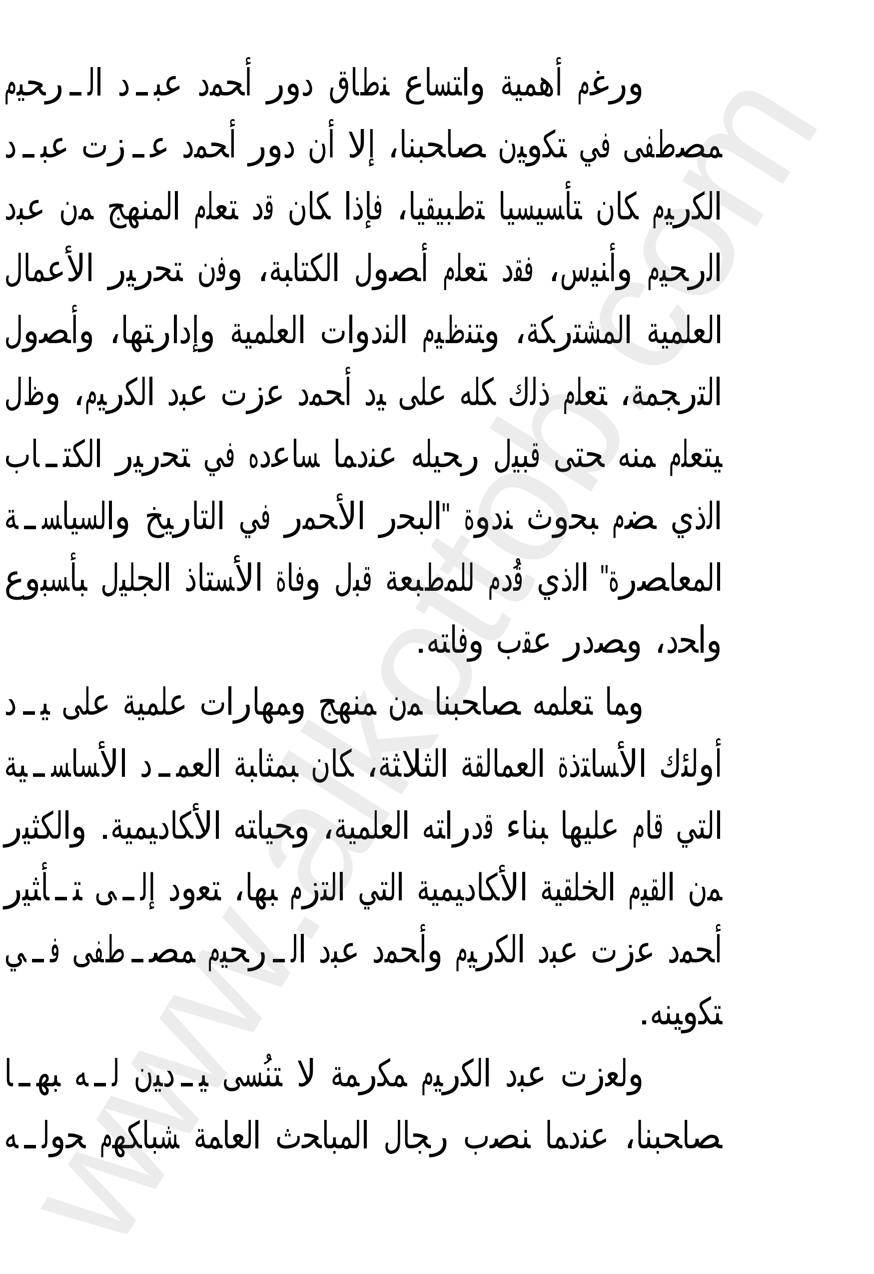
كذلك أشرك الدكتور أنيس صاحبنا معه فـي "مركـز تاريخ مصر المعاصر" التابع لدار الكتب والوثائق المصـرية منذ تأسيسه على يديه حتى قبيل تنحيه عن الإشراف عليـه، فعمل صاحبنا معه مشرفًا على الباحثين إلى جانـب بعـض أعضاء هيئة التدريس، وشهدت فترة العمل بـالمركز فتـور العلاقة ثم توترهـا لأسـباب تتعلـق بشخصـية صـاحبنا، وحساسيته الشديدة لما يرى فيه اسـتغلالاً ماسـا بكرامتـه، ورغم أنه واجه الأستاذ القدير بموقفه صراحة، وجها لوجـه دون أن يشرك في ذلك طرفًا ثالثًا، لم يقبل الأسـتاذ بـذلك

www.alkottob.com

وبالغ في موقفه، فكان يصف صاحبنا – كلما سمع اسـمه – بأنه كان "عميلاً للمباحث" دس عليه دسا.

ورغم ذلك يبقى فضل محمد أنيس على صاحبنا عميما فقد تعلم منه الكثير، رغم أنه لم يكن تلميذًا مباشرا له، وكان له فضل إتاحة الفرصة أمامه لنشر رسالته للماجستير التـي استُقبلت استقبالاً حسنًا من الوسط الثقافي، وحظيـت بثلاثـة عروض في مصر وعرض بسوريا وآخر بالمغرب، في أهم الدوريات الثقافية والسياسية، فإذا أضفنا إلى ذلـك فرصـة النشر في "الكاتب"، وفي "الجمهورية" أيام قسـم الأبحـاث، أدركنا أن الذيوع النسبي لاسم صاحبنا في الوسـط الثقـافي الوطني على نحو لم يتحقق لمن برز من أقرانه إلا بعد عـدة سنوات، يعود الفضل فيه لمحمد أنـيس دون أدنـى شـك. ويحرص صاحبنا في كل مناسبة عامة أو خاصة على تأكيد أنه مدين في تكوينه العلمي لثلاثة من أعظم أساتذة التـاريخ الحديث في مصر والوطن العربي هم: أحمـد عـزت عبـد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، ومحمد أحمـد أنـيس. وسيظل هذا موقفه إلى أن يلقاهم جميعا في رحاب ا ، عندما تفرغ كأس الأجل.

www.alkottob.com

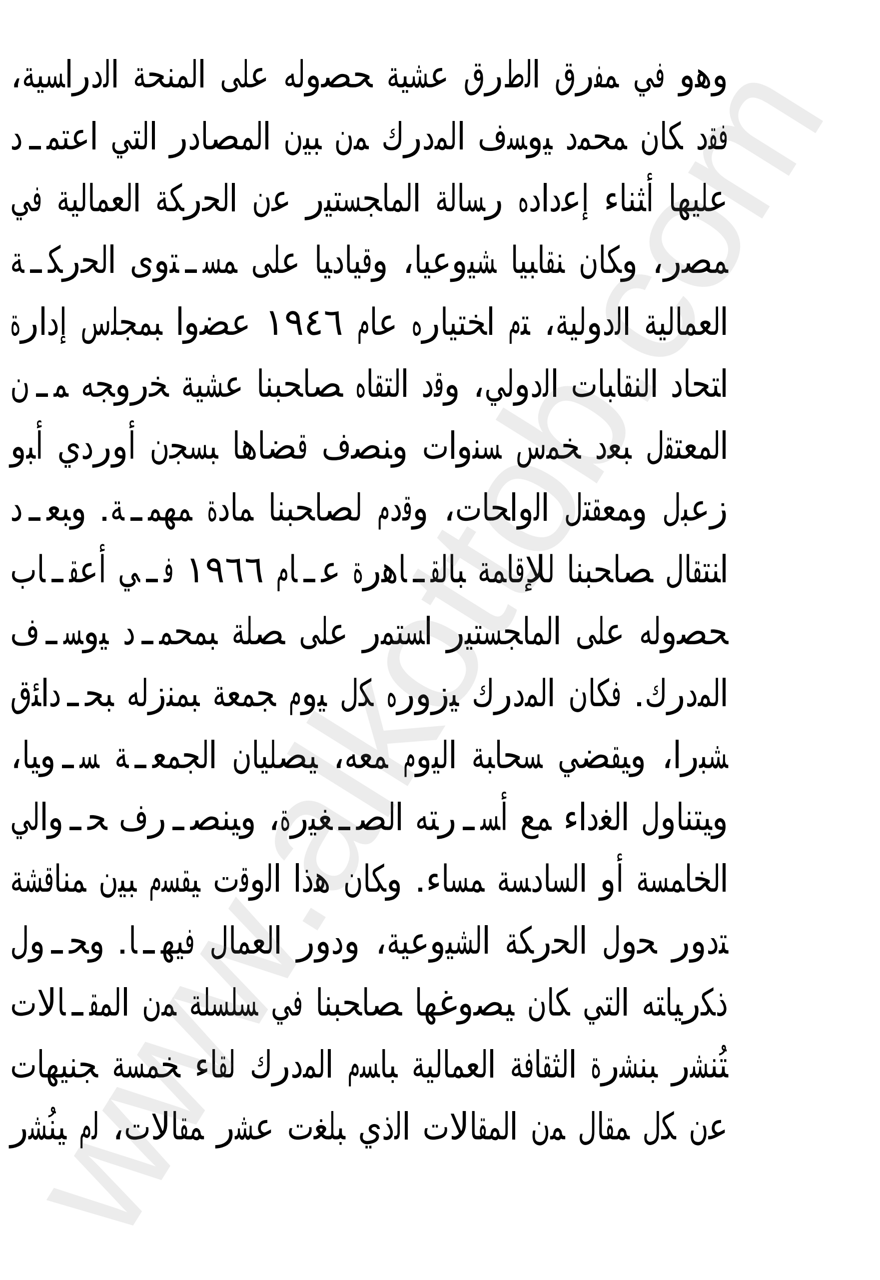


ورغم أهمية واتساع نطاق دور أحمد عبـد الـرحيم مصطفى في تكوين صاحبنا، إلا أن دور أحمد عـزت عبـد الكريم كان تأسيسيا تطبيقيا، فإذا كان قد تعلم المنهج من عبد الرحيم وأنيس، فقد تعلم أصول الكتابة، وفن تحرير الأعمال العلمية المشتركة، وتنظيم الندوات العلمية وإدارتها، وأصول الترجمة، تعلم ذلك كله على يد أحمد عزت عبد الكريم، وظل يتعلم منه حتى قبيل رحيله عندما ساعده في تحرير الكتـاب الذي ضم بحوث ندوة "البحر الأحمر في التاريخ والسياسـة المعاصرة" الذي قُدم للمطبعة قبل وفاة الأستاذ الجليل بأسبوع واحد، وصدر عقب وفاته.

وما تعلمه صاحبنا من منهج ومهارات علمية على يـد أولئك الأساتذة العمالقة الثلاثة، كان بمثابة العمـد الأساسـية التي قام عليها بناء قدراته العلمية، وحياته الأكاديمية. والكثير من القيم الخلقية الأكاديمية التي التزم بها، تعود إلـى تـأثير أحمد عزت عبد الكريم وأحمد عبد الـرحيم مصـطفى فـي تكوينه.

ولعزت عبد الكريم مكرمة لا تنُسى يـدين لـه بهـا صاحبنا، عندما نصب رجال المباحث العامة شباكهم حولـه

www.alkottob.com



وهو في مفرق الطرق عشية حصوله على المنحة الدراسية، فقد كان محمد يوسف المدرك من بين المصادر التي اعتمـد عليها أثناء إعداده رسالة الماجستير عن الحركة العمالية في مصر، وكان نقابيا شيوعيا، وقياديا على مسـتوى الحركـة العمالية الدولية، تم اختياره عام ١٩٤٦ عضوا بمجلس إدارة اتحاد النقابات الدولي، وقد التقاه صاحبنا عشية خروجه مـن المعتقل بعد خمس سنوات ونصف قضاها بسجن أوردي أبو زعبل ومعتقل الواحات، وقدم لصاحبنا مادة مهمـة. وبعـد انتقال صاحبنا للإقامة بالقـاهرة عـام ١٩٦٦ فـي أعقـاب حصوله على الماجستير استمر على صلة بمحمـد يوسـف المدرك. فكان المدرك يزوره كل يوم جمعة بمنزله بحـدائق شبرا، ويقضي سحابة اليوم معه، يصليان الجمعـة سـويا، ويتناول الغداء مع أسـرته الصـغيرة، وينصـرف حـوالي الخامسة أو السادسة مساء. وكان هذا الوقت يقسم بين مناقشة تدور حول الحركة الشيوعية، ودور العمال فيهـا. وحـول ذكرياته التي كان يصوغها صاحبنا في سلسلة من المقـالات تُنشر بنشرة الثقافة العمالية باسم المدرك لقاء خمسة جنيهات عن كل مقال من المقالات الذي بلغت عشر مقالات، لم يُنشر

www.alkottob.com

منها إلا حوالي خمسة، حصل المدرك نظيرهـا علـى ٢٥ جنيها في وقت لم يكن يملك فيه قوت يومه، وكـان لعاصـم الدسوقي (صديق عمره) فضل المساعدة على نشر المقالات، التي ربما جاء توقف نشرة الثقافة العمالية عن نشرها لأسباب تتصل بما تعرض له صاحبنا.

كان المدرك تحت رقابة المباحث العامة الذي رصدت تردده على بيت صاحبنا. وتلقى الأخير استدعاء من المباحث لمقابلة النقيب أحمد إدريس في السادسة مـن مسـاء اليـوم التالي، فذهب إلى هناك ليلتقي ذلك الضابط الصغير المغرور الذي "لطعه" ساعتين قبل أن يستقبله ليبدأ معه ما كان شـبيها بالتحقيق بحضور كاتب يسجل كل كلمة، وبعد نحو السـاعة من الأسئلة الغريبة عن تاريخ حياتـه وعلاقاتـه وأقاربـه وأصدقائه، سأله أحمد إدريس عن اسم لم يرد في إجاباته هو محمد يوسف المدرك. ورد عليه صاحبنا بقوله: "ياه.. كـل الهيصة دي عشان المدرك.. ده حطام إنسان.. ولو كان فـي بلد ثانية لنال ما يستحق من تكريم.. يتعمـل لـه تمثـال". فأصاب السعار أحمد إدريس، وطلب من الكاتب تسجيل كـل تلك الكلمات، وانتهى التحقيق حوالي التاسعة مساء طالبا منه

www.alkottob.com

ألا يذكر هذا اللقاء لأحد. وأن يبقيـه سـرا حرصـا علـى مصلحته.

وبعد أسبوعين تلقى استدعاء آخر لمقابلـة الضـابط حسن المصيلحي (رئيس قسم مكافحة الشيوعية) في السادسة من مساء اليوم التالي،ولم يستبقه المصيلحي سـوى نصـف ساعة قابله بعدها، ودار معه حديث حـول المـدرك بـدأه المصيلحي بقراءة العبارات السابقة التي ذكرها صاحبنا فـي التحقيق الذي أجراه أحمد إدريس معه.

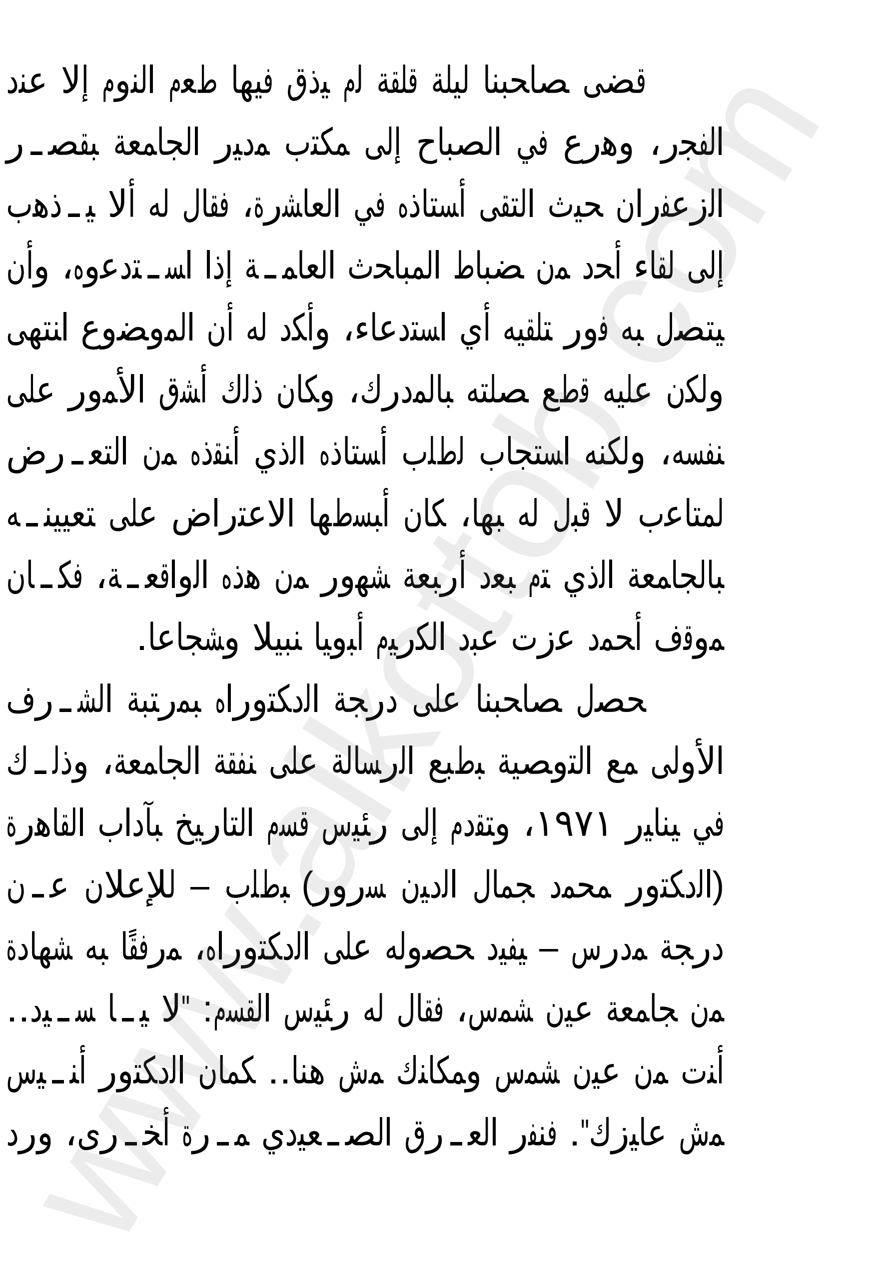
واتجه صاحبنا في تبرير استمرار صـلته بالمـدرك بالعطف على رجل في حاجة للمساعدة، مؤكـدا أن الوقـت الطويل الذي يمضيه في بيته يتحدث فيه عن ذكرياته، واحتج على طريقة الاستدعاء التي تجعله موضـع الشـبهات عنـد جيرانه، وعرض على المصيلحي أن يبقـى عنـدهم حتـى يتأكدوا من سلامة موقفه، فضحك المصيلحي قائلاً: "دا احنـا ضيافتنا صعبة، ربنا يكفيك شرها"، وبعد أن تصفح نسخة من رسالة الماجستير المنسوخة على الآلة الكاتبـة (ولـم يكـن الكتاب قد ظهر بعد) وأبدى بعض الملاحظات حول ما وقعت عليه عينه من معلومات، واحتفظ بالنسخة لديه، وطلب مـن

www.alkottob.com

صاحبنا أن يتصل به تليفونيا (وأعطاه الرقم) بعد أسـبوعين؛ ليحدد له موعدا يتناقش معه فيه حول مـا جـاء برسـالته. وانتهى اللقاء حوالي الساعة الثامنة والنصف مساء.

ولما كان صاحبنا قد ذكر للمصـيلحي أن موضـوع الماجستير من اختيار الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، فقـد حرص على إبلاغ ذلك لأستاذه حتى يكون على علـم بمـا ذكره بهذا الخصوص، فاتصل به تليفونيا فور خروجه مـن المباحث العامة بلاظوغلي، وطلب مقابلة عاجلة معه، فسأله عن المكان الذي يتحدث منه، فقال له: "لاظوغلي" فطلب منه الحضور على الفور، ووصل إلى منشـية البكـري حـوالي العاشرة مساء، ووجد الأستاذ الجليل في انتظاره في شـرفة منزله. وأطلعه على جليـة الأمـر، فاستحسـن مـا ذكـره للمصيلحي من نسبة اختيار الموضوع إليه، ونصـح تلميـذه بقطع علاقته بالمدرك، وطلب منه أن تتولى زوجته الاتصال بالأستاذ تليفونيا إذا تعرض للاعتقال في أي وقت مساء اليوم نفسه أو بعده، وطلب منه الحضور إلـى مكتبـه بالجامعـة العاشرة صباحا.

www.alkottob.com



قضى صاحبنا ليلة قلقة لم يذق فيها طعم النوم إلا عند الفجر، وهرع في الصباح إلى مكتب مدير الجامعة بقصر الزعفران حيث التقى أستاذه في العاشرة، فقال له ألا يذهب إلى لقاء أحد من ضباط المباحث العامة إذا استدعوه، وأن يتصل به فور تلقيه أي استدعاء، وأكد له أن الموضوع انتهى ولكن عليه قطع صلته بالمدرك، وكان ذلك أشق الأمور على نفسه، ولكنه استجاب لطلب أستاذه الذي أنقذه من التعرض لمتاعب لا قبل له بها، كان أبسطها الاعتراض على تعيينه بالجامعة الذي تم بعد أربعة شهور من هذه الواقعة، فكان موقف أحمد عزت عبد الكريم أبويا نبيلا وشجاعا.

حصل صاحبنا على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة على نفقة الجامعة، وذلك في يناير ١٩٧١، وتقدم إلى رئيس قسم التاريخ بآداب القاهرة (الدكتور محمد جمال الدين سرور) بطلب – للإعلان عن درجة مدرس – يفيد حصوله على الدكتوراه، مرفقًا به شهادة من جامعة عين شمس، فقال له رئيس القسم: "لا يا سيد.. أنت من عين شمس ومكانك مش هنا.. كمان الدكتور أنيس مش عايزك". فنفر العرق الصعيدي مرة أخرى، ورد

www.alkottob.com

صاحبنا على رئيس القسم بقوله: "يا دكتور أنا مش شغال في طابونة، تقولي مش عاوزينك خد حسابك وروح.. ولا أنـا خدام عندك ولا عند الدكتور أنيس أنا أعمـل فـي مؤسسـة يحكمها قانون، وقد قدمت لك طلبا مكتوبا فرد علـي كتابـة بالرفض إن شئت، وسوف أحصل على حقي شئتم أم أبيتم".

فقال الرجل: "يا بني أنا ماليش ذنب، لا القسم عـاوزك، ولا أستاذ التخصص عاوزك وأنصحك ترجع للدكتور عزت عبد الكريم".

كان الدكتور محمد أنيس قد أُعير لجامعة قسـطنطينة بالجزائر عندما دعته ظروف خاصة إلى الابتعاد عن مصر مدة عام. وقيل إنه قبل سفره طلب من يحيى هويدي (عميـد الكلية) ورئيس القسم (محمد جمال الـدين سـرور) ألا يـتم الإعلان عن وظيفة مدرس عنـد حصـول صـاحبنا علـى الدكتوراه إلا بعد عودته من الإعارة، ولم يكن القانون يسمح عندئذ بالترقية من وظيفة إلى أخرى بغير طريق الإعـلان؛ بقصد إتاحة الفرصة أمام الجامعة للحصـول علـى أفضـل وأكفأ العناصر. ولكن هذه الآلية أسيء استخدامها لإذلال من يحرص على كرامتـه ويـأبى التزلـف للأسـاتذة، فـتُمط

www.alkottob.com

الإجراءات لتستغرق شهورا بالنسبة لوظيفة مدرس، أو يـتم الإمعان في إذلال المعيد الذي يعلن له عن وظيفـة مـدرس بتحريض بعض حملة الدكتوراه لمنافسته في الإعلان، وقـد يعين آخر من الخارج، ويهدر حق المعيد في التعيين، ويزداد استخدام الإعلان أداة لإذلال من يستحق الترقية لوظيفة أستاذ مساعد أو أستاذ، وقد تُستخدم معايير التقييم المزدوجة لتعيين متقدم من الخارج لأسباب لا يدخل العلم طرقًا فيها. وإذا كان قانون تنظيم الجامعات الحالي قد حاول حل تلك المعضـلة، فقضى بتكليف أوائل الخريجين معيدين بأقسامهم وفق شروط معينة، ونص على ترقية عضو هيئة التدريس في حالة إجازة لجنة الترقيات لأعماله، بطريقة آلية دون الحاجة إلى إعلان، فإن هذا (الإصلاح) حول الجامعة إلى مصـلحة حكوميـة، وملأها بالموظفين الذين يحملون درجات الأستاذية، دون أن تكون لهم مقوماتها وخصائصها.

ذهب صاحبنا إلى الدكتور أحمد عزت عبـد الكـريم ليجده على علم بالتفاصيل عن طريق يحيى هويدي(عميـد الكلية) ومحمد جمال الدين سرور (رئيس القسم).

www.alkottob.com

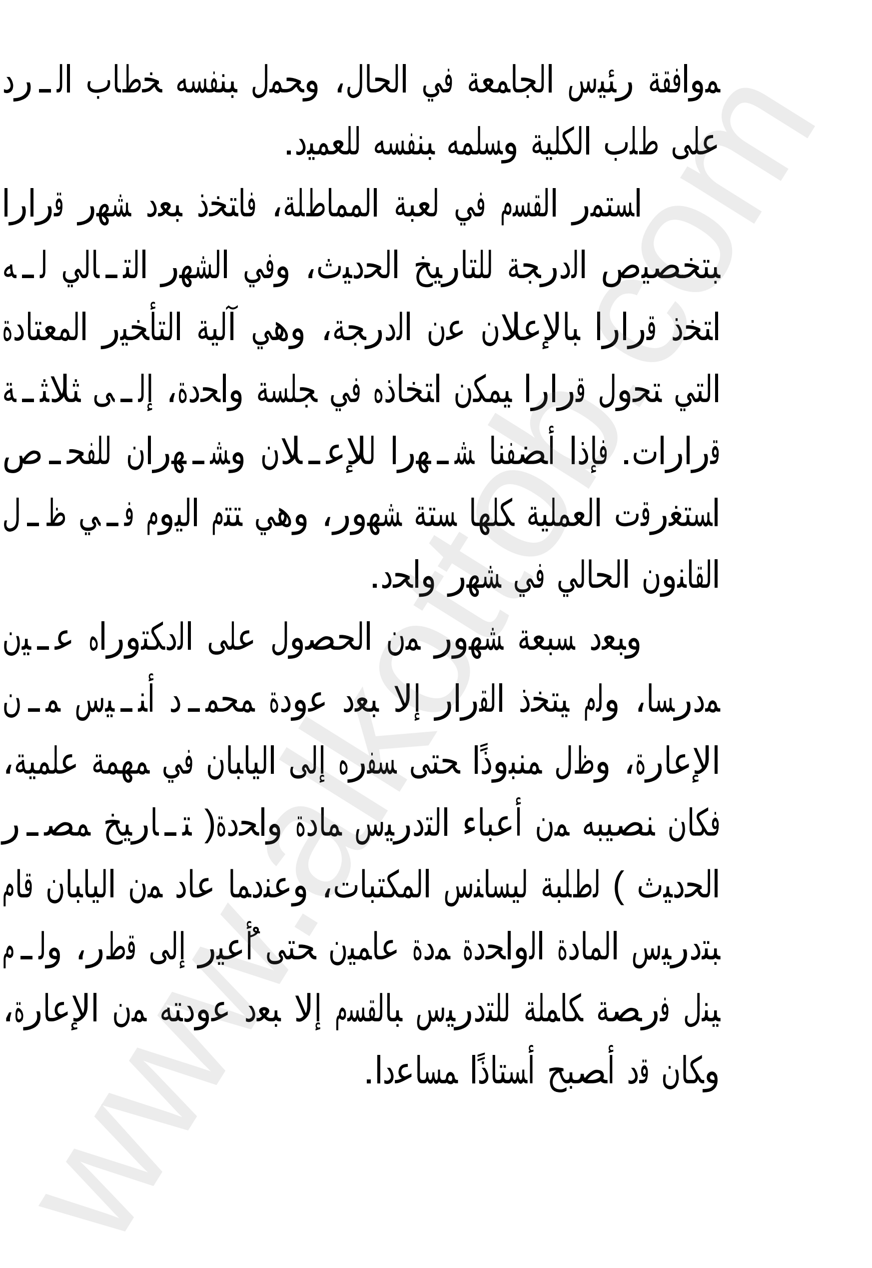
ونصحه الأستاذ بصرف النظر عن المطالبة بـالتعيين بآداب القاهرة والانتظار إلى أبريل (بعد ثلاثة شهور) ليـتم الإعلان عن درجة مدرس بآداب عين شـمس يتقـدم لهـا، ويعود بعد ذلك إلى بيته العلمي بعـد الاغتـراب؛ فـرفض صاحبنا التنازل عن حقه الذي كفله له القانون، وعندما سأله الأستاذ عن السبب، "هل لأن جامعة القاهرة لها قبة وجامعـة عين شمس مالهاش؟" أجاب صاحبنا "إن ذلك يعنـي عنـده الإهانة والانكسار، وهو لا يقبل بهما". فعاد الأستاذ الجليـل النبيل يلفت نظره إلى أن إصراره على التعيين سيؤدي فـي النهاية إلى تعيينه، ولكن الإجراءات ستتأخر شهورا طـوالاً، فإذا عين مدرسا سيبقى كذلك إلى الأبد، لأنهم لن يعلنوا لـه عن وظيفة أستاذ مساعد عندما يستحق الترقية. فقال صاحبنا لأستاذه: "سوف أتبع حكمة جحا عندما قبل مهمة تعليم الحمار الكلام" ضحك الرجل، وقال له(للمرة الأولى فـي حياتـه): "يعجبني فيك الاعتداد بالنفس، والتمسك بحقك، حاول معـاهم فإذا لم توفق، مكانك محفوظ بآداب عين شمس".

عاد صاحبنا لمقابلة رئيس قسم التاريخ بآداب القـاهرة وأبلغه أنه أقنع الدكتور عزت بوجهة نظره؛ ولذلك يطلب ردا

www.alkottob.com

مكتوبا على طلبه السابق، فوعده الرجل خيرا. وبعد أسـبوع عقدت الجلسة الشهرية لمجلس القسم واتخذت قرارها "بإنشاء" درجة مدرس، وأبلغه رئيس القسم شفهيا بـالقرار. وعنـدما ذهب إلى إدارة شئون أعضاء هيئة التدريس للاستعلام عمـا تم أحالوه إلى مدير الميزانية (محمود غباشي) الذي أفهمه أن القرار يقصد به تعطيل تعيينه لمدة عامين ؛لأن إنشاء الدرجة يقتضي موافقة الجهاز المركـزي للتنظـيم والإدارة، وهـي إجراءات تستغرق عاما، ولا يتم إنشاء الدرجة إلا في ميزانية السنة التالية لها. أما القرار المناسب فهو "تدبير" درجة، لأن هناك ٣٠٠ درجة مدرس بكل جامعة بقرار من جمال عبـد الناصر منذ مؤتمر المبعوثين الذي عقـد بالإسـكندرية فـي منتصف الستينات ليتم الإعلان عن الدرجة فورا عند عـودة المبعوث أو حصول أحد المعيدين بالداخل على الـدكتوراه. وبعدما استعلم مدير الميزانية من بعض المصادر الخاصة به عن سبب موقف القسم والكلية من هذا المعيد، وتأكد مـن أن المسألة مجرد الرغبة في إذلاله تعاطف معه وأعـد مـذكرة لرئيس الجامعة مستخدما كلمة "تدبير" درجة، وحصل علـى

www.alkottob.com



موافقة رئيس الجامعة في الحال، وحمل بنفسه خطاب الـرد على طاب الكلية وسلمه بنفسه للعميد.

استمر القسم في لعبة المماطلة، فاتخذ بعد شهر قرارا بتخصيص الدرجة للتاريخ الحديث، وفي الشهر التـالي لـه اتخذ قرارا بالإعلان عن الدرجة، وهي آلية التأخير المعتادة التي تحول قرارا يمكن اتخاذه في جلسة واحدة، إلـى ثلاثـة قرارات. فإذا أضفنا شـهرا للإعـلان وشـهران للفحـص استغرقت العملية كلها ستة شهور، وهي تتم اليوم فـي ظـل القانون الحالي في شهر واحد.

وبعد سبعة شهور من الحصول على الدكتوراه عـين مدرسا، ولم يتخذ القرار إلا بعد عودة محمـد أنـيس مـن الإعارة، وظل منبوذًا حتى سفره إلى اليابان في مهمة علمية، فكان نصيبه من أعباء التدريس مادة واحدة(تـاريخ مصـر الحديث) لطلبة ليسانس المكتبات، وعندما عاد من اليابان قام بتدريس المادة الواحدة مدة عامين حتى أُعير إلى قطر، ولـم ينل فرصة كاملة للتدريس بالقسم إلا بعد عودته من الإعارة، وكان قد أصبح أستاذًا مساعدا.

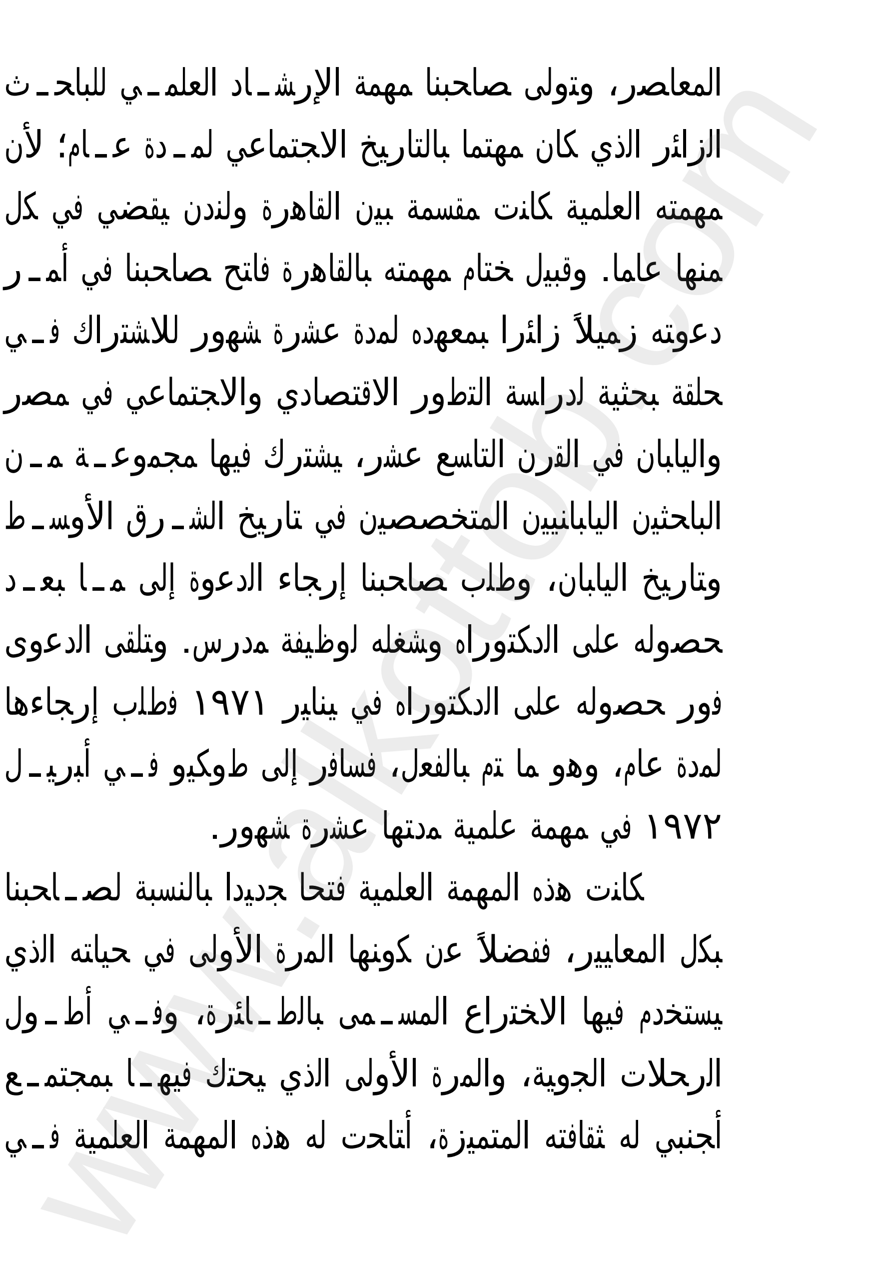
www.alkottob.com

في بلاد الشمس

بعد مرور شهر واحد على حصوله على الماجستير تعرف صاحبنا على باحث ياباني كان يقضي عامين بمصر لجمع المادة العلمية والكتب والاتصال بالأساتذة، وكان نشاطه العلمي بالقاهرة تحت إشراف الدكتور محمد أنيس، وعلم من أنيس عن رسالة الماجستير، وحرص على لقاء صاحبنا، ورتب اللقاء سيد سالم – أحد تلاميذ أنيس – في بيته بالسيدة زينب، حيث دار حديث بالإنجليزية بين الطرفين على مدى ساعتين، أما الباحث الياباني فهو إيتاجاكي يوزو الذي كان يعمل – عندئذ – بمعهد لغات وثقافات آسيا وأفريقيا التابع لجامعة طوكيو للغات الأجنبية، وقد انتهت مهمته العلمية بعد هذا اللقاء بثلاثة شهور مارس (١٩٦٧).

وفي أبريل (١٩٦٩)، جاء باحث آخر إلى القاهرة في مهمة علمية مدتها عامين هو هاياشي تاكيشي، وينتمي إلى "معهد اقتصاديات البلاد النامية" بطوكيو، وكانت لديه معلومات سابقة عن صاحبنا من زميله إيتاجاكي ولم يطل بحثه عنه، فقد التقاه بصحبة محمد أنيس بمركز تاريخ مصر

www.alkottob.com



المعاصر، وتولى صاحبنا مهمة الإرشـاد العلمـي للباحـث الزائر الذي كان مهتما بالتاريخ الاجتماعي لمـدة عـام؛ لأن مهمته العلمية كانت مقسمة بين القاهرة ولندن يقضي في كل منها عاما. وقبيل ختام مهمته بالقاهرة فاتح صاحبنا في أمـر دعوته زميلاً زائرا بمعهده لمدة عشرة شهور للاشتراك فـي حلقة بحثية لدراسة التطور الاقتصادي والاجتماعي في مصر واليابان في القرن التاسع عشر، يشترك فيها مجموعـة مـن الباحثين اليابانيين المتخصصين في تاريخ الشـرق الأوسـط وتاريخ اليابان، وطلب صاحبنا إرجاء الدعوة إلى مـا بعـد حصوله على الدكتوراه وشغله لوظيفة مدرس. وتلقى الدعوى فور حصوله على الدكتوراه في يناير ١٩٧١ فطلب إرجاءها لمدة عام، وهو ما تم بالفعل، فسافر إلى طوكيو فـي أبريـل ١٩٧٢ في مهمة علمية مدتها عشرة شهور.

كانت هذه المهمة العلمية فتحا جديدا بالنسبة لصـاحبنا بكل المعايير، ففضلاً عن كونها المرة الأولى في حياته الذي يستخدم فيها الاختراع المسـمى بالطـائرة، وفـي أطـول الرحلات الجوية، والمرة الأولى الذي يحتك فيهـا بمجتمـع أجنبي له ثقافته المتميزة، أتاحت له هذه المهمة العلمية فـي

www.alkottob.com

"معهد اقتصاديات البلاد النامية" فرصة الاحتكاك بمجموعة من الباحثين الذين استضافهم المعهد ذلك العام، جاءوا من أمريكا، وبريطانيا، والبرازيل، وتايلاند، والهند، ولم يكن النقاش الذي يدور في هذا المناخ العلمي المتميز يتناول الوظائف وأعمال الامتحانات، ونوادر الصراعات بين أجنحة الأقسام كما كانت عليه حال آداب القاهرة حين تركها، بل كان الحوار بين أولئك الباحثين وبعضهم البعض يدور حول القضايا المنهجية، والتنمية بمختلف أبعادها في العالم الثالث في ظروف الحرب الباردة. ولما كان معظمهم من المتخصصين في الاقتصاد والعلوم السياسية والاجتماع، وكان صاحبنا المؤرخ الوحيد بينهم، فقد كان النقاش الدائم مع الزملاء في السمنارات ووقت تناول الغداء أو الشاي يفتح أمامه آفاقًا واسعة جديدة، دعمها بالتوسع في القراءة حول المنهج، والتنمية وقضاياها، وأحوال بلاد العالم الثالث من منظور مقارن.

ولم يكن كل ما عرفه صاحبنا في تلك البيئة العلمية الجديدة (بالنسبة له) جديدا على الحياة الأكاديمية العالمية بقدر ما كان جديدا بالنسبة له، فتكوينه المنهجي في القاهرة كان

www.alkottob.com

قاصرا، مقيدا بحدود الوسط العلمي الذي تربى فيه، يقف عند ما وصل إليه الفكر العالمي في هذا المجال عند نهاية الحرب العالمية الثانية ومطلع الخمسينات، فتح له الفكر الماركسـي عندما تعرف عليه في مصر آفاقًا جديدة أفادته في دراسـته للدكتوراه، ولكنه تعرف على هذا الفكر بعمق فـي طوكيـو، كما تعرف على الفكر النقدي الماركسي كما قدمـه مـورس دوب، وحرص على نقـل كتابـه "دراسـات فـي تطـور الرأسمالية" إلى اللغة العربية (نُشر بالقاهرة ١٩٧٩). وتعرف على فكر كل من فيتفوجل حول تطور المجتمعات النهريـة، وروستو حول "مراحل التطور الاقتصادي" التي عارض بها الماركسية، كما تعرف على فكر ماكس فيبر، ولم يكن تعرفه على تلك الأفكار مجردا، بل كان مقترنًا بقـراءة دراسـات اهتمت بتطبيق بعض هذه الأفكار، وأخرى عنيـت بنقـدها، فحظي صاحبنا بقدر كبير من المعرفة، كان له أعمق الأثـر في تكوينه العلمي، وعلى إنتاجه العلمي في العقدين التاليين.

ولا عجب أن يجيب صاحبنا على سؤال طرحه عليـه زميل له بالقسم بعد عودته من اليابان عما كان يفعله هنـاك بقوله: "كنت أبذل الجهد لمحو أميتـي المنهجيـة"، فضـحك

www.alkottob.com

الزميل من أعماق قلبه وقال: "كويس أنك اعترفت بأميتـك" وضحك ضحكة بلهاء. ولكن شتان ما بين السائل والمسئول.

أما الحلقة البحثية التي دعي من أجلهـا إلـى طوكيـو للمشاركة فيها بماله من خبرة (محـدودة) بتـاريخ مصـر الاجتماعي، فكان إيتاجاكي يوزو وزميله ميكي واطارو(وهما من جامعة طوكيو) وراء تنظيمها، واشترك فيها أعضاء هيئة تدريس وباحثون من مختلف الجامعات ومراكـز الأبحـاث اليابانية عددهم نحو العشرين عضوا وباحثًا.

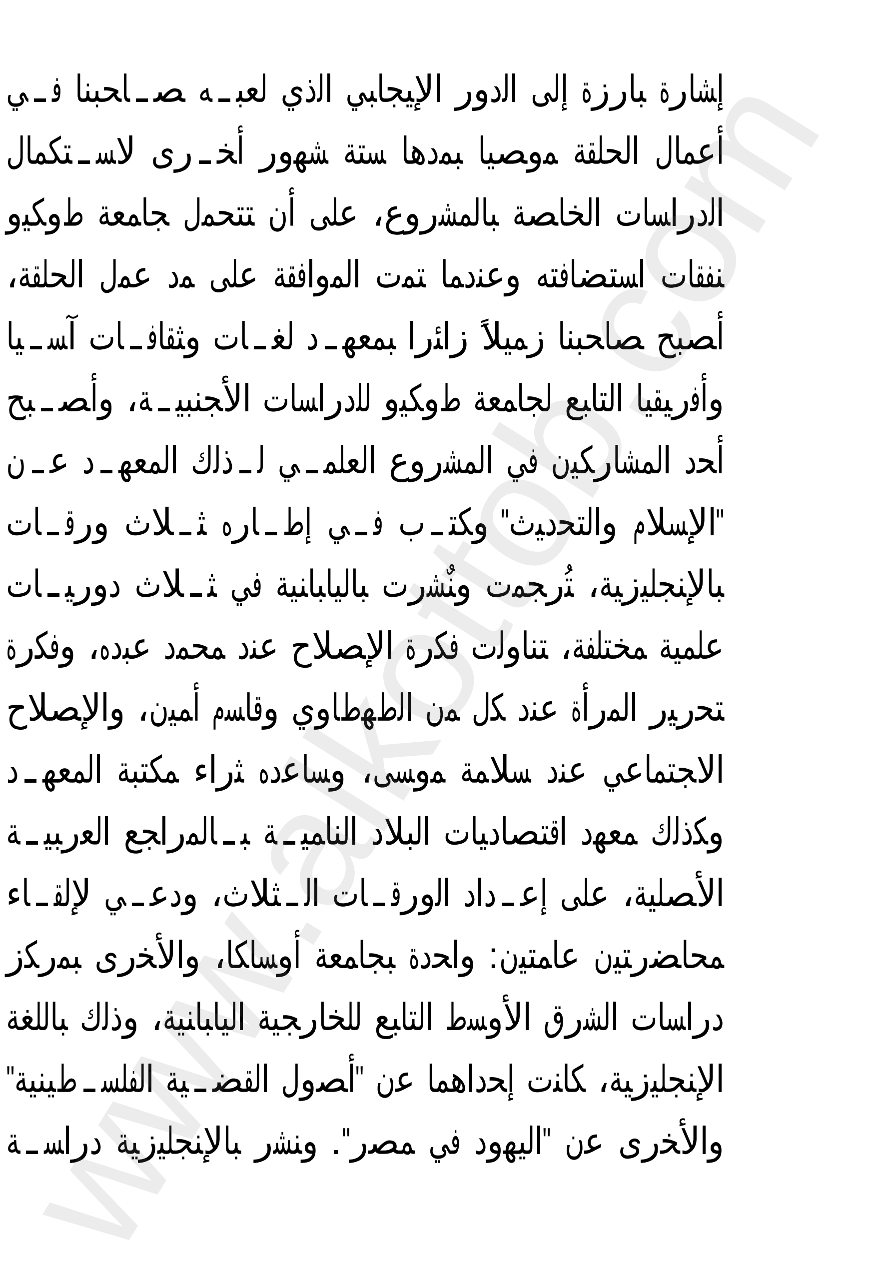
وكانت استضافة "معهد اقتصاديات البلاد النامية" للحلقة وتبنيه لها تعود إلى توفر الموارد المالية الكافية لتحمل نفقات الخبير الأجنبي(صاحبنا) ونفقات سفر من يأتون من خـارج طوكيو للمشاركة في أعمال الحلقة، وكذلك مكافآت ثلاثة من كبار الأساتذة اليابانيين المتخصصين في التطـورات الـذي شهدتها اليابان في عصر مايجي (١٨٦٨ – ١٩١٢). ولعب هاياشي تاكيشي دور المنسق والمقرر للحلقة بحكم كونه مـن كبار الباحثين بالمعهد المضيف. ولما كان موضوع الحلقـة على مـدى الشـهور العشـرة هـو التطـور الاقتصـادي والاجتماعي في مصر واليابان في القرن التاسع عشر مـن

www.alkottob.com

منظور مقارن، فقد حرص صاحبنا في الأسبوع الأول مـن مهمته العلمية أن يكثف قراءاته حول تاريخ اليابان في تلـك الفترة، مستعينًا ببعض الكتب المنشورة بالإنجليزية لتكـوين قاعدة معرفية أولية تساعده على فهم ما يطرح علـى مائـدة البحث في الاجتماع الأول. وانطلاقًا من تلك القاعدة المعرفية المتواضعة تشعبت قراءاته وتعمقت في تاريخ اليابـان فـي القرن التاسع عشر، وتأصلت، حتى أثمرت أول دراسة علمية باللغة العربية كانت موضوع كتابه "المجتمع اليابـاني فـي عصر مايجي ١٨٦٨ – ١٩١٢) الذي نُشر بالقاهرة، ١٩٨٠.

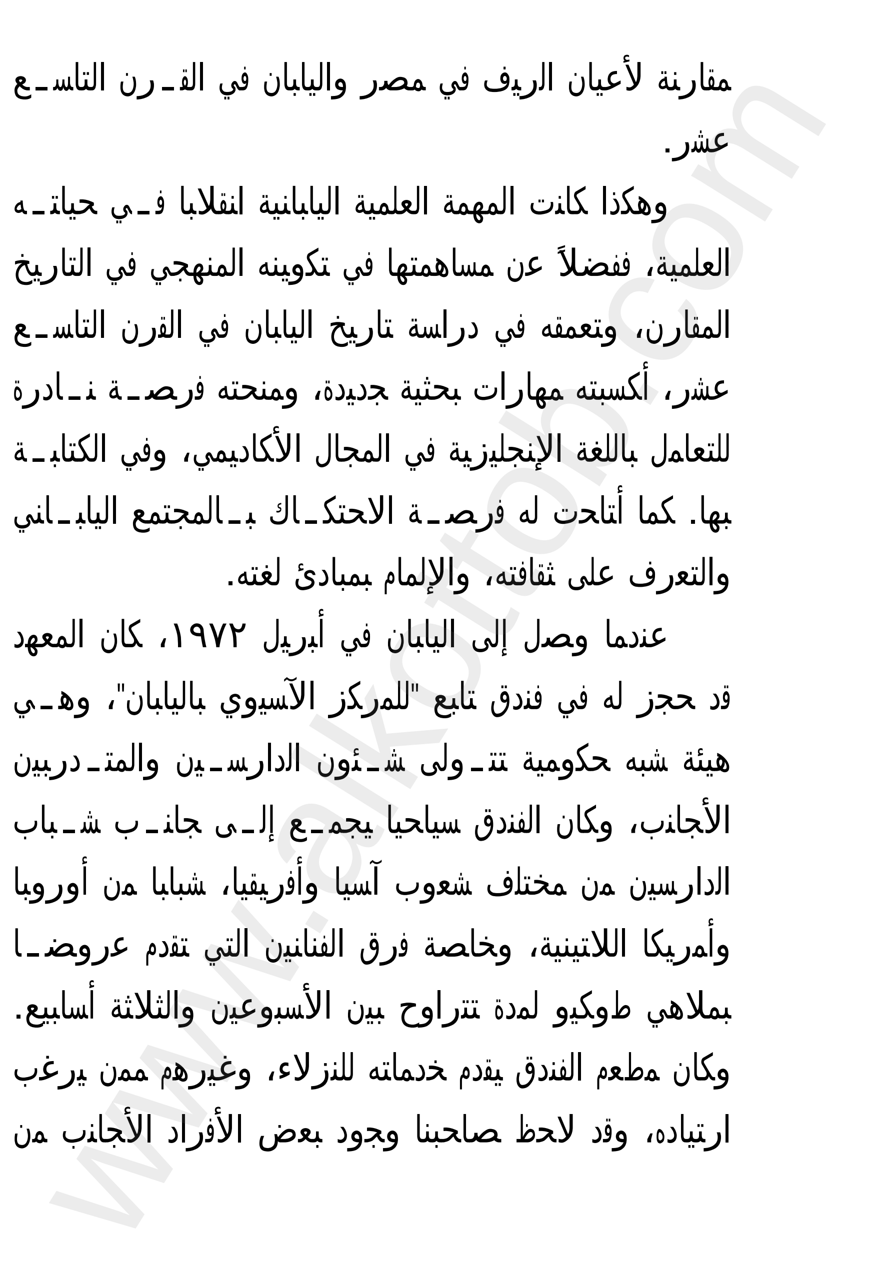
كان نصيب اليابان كبيرا في تكوين صاحبنا، وخاصـة أن المهمة العلمية امتدت ستة شهور أخـرى عنـدما أحـس منظمو الحلقة البحثية بأهمية النتائج التي حققتها في الشـهور العشرة، فقد نشر صاحبنا ثلاث ورقات بحثية بالإنجليزية في سلسلة أعمال الباحثين الزائرين التي تصـدر عـن المعهـد وبمجلة "الاقتصاديات النامية" التي يصدرها المعهد. كما نشر كل عضو من أعضاء الحلقة بحثًا أو بحثين باليابانيـة. كمـا نُشر التقرير الأول من أعمال الحلقة وما توصلت إليـه مـن نتائج في سلسلة تقارير المعهد (باللغة اليابانيـة) متضـمنًا

www.alkottob.com



إشارة بارزة إلى الدور الإيجابي الذي لعبـه صـاحبنا فـي أعمال الحلقة موصيا بمدها ستة شهور أخـرى لاسـتكمال الدراسات الخاصة بالمشروع، على أن تتحمل جامعة طوكيو نفقات استضافته وعندما تمت الموافقة على مد عمل الحلقة، أصبح صاحبنا زميلاً زائرا بمعهـد لغـات وثقافـات آسـيا وأفريقيا التابع لجامعة طوكيو للدراسات الأجنبيـة، وأصـبح أحد المشاركين في المشروع العلمـي لـذلك المعهـد عـن "الإسلام والتحديث" وكتـب فـي إطـاره ثـلاث ورقـات بالإنجليزية، تُرجمت ونُشرت باليابانية في ثـلاث دوريـات علمية مختلفة، تناولت فكرة الإصلاح عند محمد عبده، وفكرة تحرير المرأة عند كل من الطهطاوي وقاسم أمين، والإصلاح الاجتماعي عند سلامة موسى، وساعده ثراء مكتبة المعهـد وكذلك معهد اقتصاديات البلاد الناميـة بـالمراجع العربيـة الأصلية، على إعـداد الورقـات الـثلاث، ودعـي لإلقـاء محاضرتين عامتين: واحدة بجامعة أوساكا، والأخرى بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع للخارجية اليابانية، وذلك باللغة الإنجليزية، كانت إحداهما عن "أصول القضـية الفلسـطينية" والأخرى عن "اليهود في مصر". ونشر بالإنجليزية دراسـة

www.alkottob.com



مقارنة لأعيان الريف في مصر واليابان في القرن التاسع عشر.

وهكذا كانت المهمة العلمية اليابانية انقلابا في حياته العلمية، ففضلاً عن مساهمتها في تكوينه المنهجي في التاريخ المقارن، وتعمقه في دراسة تاريخ اليابان في القرن التاسع عشر، أكسبته مهارات بحثية جديدة، ومنحته فرصة نادرة للتعامل باللغة الإنجليزية في المجال الأكاديمي، وفي الكتابة بها. كما أتاحت له فرصة الاحتكاك بالمجتمع الياباني والتعرف على ثقافته، والإلمام بمبادئ لغته.

عندما وصل إلى اليابان في أبريل ١٩٧٢، كان المعهد قد حجز له في فندق تابع "للمركز الآسيوي باليابان"، وهي هيئة شبه حكومية تتولى شئون الدارسين والمتدربين الأجانب، وكان الفندق سياحيا يجمع إلى جانب شباب الدارسين من مختلف شعوب آسيا وأفريقيا، شبابا من أوروبا وأمريكا اللاتينية، وخاصة فرق الفنانين التي تقدم عروضا بملاهي طوكيو لمدة تتراوح بين الأسبوعين والثلاثة أسابيع. وكان مطعم الفندق يقدم خدماته للنزلاء، وغيرهم ممن يرغب ارتياده، وقد لاحظ صاحبنا وجود بعض الأفراد الأجانب من

www.alkottob.com

غير نزلاء الفندق يحضرون العشـاء باسـتمرار رغـم أن الأصناف المعروضـة لا تتغيـر ولا تتبـدل، ولا يتجـاوز الاختيار بين أربعة أطباق لا خامس لها. وكان هناك شخص يحرص على التعرف عليه، قدم له نفسه باسم دافيد ولسـون (أو جونسون) زعم أنه رجل أعمال أمريكي، وسأل صاحبنا عن سبب وجوده، فأفرغ ما في جعبته أمامـه (بحكـم قلـة الخبرة). وبعد حوالي ثلاثة أو أربعة لقاءات بدأ دافيد يسـأله عن علاقته بالسفارة المصرية، وعما إذا كان له أصدقاء بين العاملين فيها، فاشتم صاحبنا رائحة التجسـس فـي حـديث صاحبنا وفي نوع الأسئلة التي يطرحها عليه، فبادره بالسؤال عن علاقته بالسفارة الإسرائيلية، وحمل طبقـه بـين يديـه وغادر المائدة ليجلس إلى مائدة أخرى، ولم يرَ بعد ذلك هـذا الدافيد حتى غادر الفندق بعد أسبوعين.

سئم صاحبنا الإقامة في الفندق بعد شهر واحد، ففضـلاً عن افتقاده الخصوصية، كان يمثل بيئة أجنبية تمامـا داخـل اليابان، وكان معنى ذلك أنه لن تُتاح له فرصـة الاحتكـاك بالناس والتعرف على ثقافتهم عن قرب؛ ولذلك حـزم أمـره على الانتقال للسكنى مع أسرة يابانية، وعندما أبلغ سكرتارية

www.alkottob.com

المعهد بذلك، علم منهم أن اليابانيين ليس من عادتهم قبـول إقامة أجنبي عندهم، كما أن البيت الياباني محدود المسـاحة، لا تتوفر فيه التسهيلات والخدمات التي يجدها بالفندق، ولكنه لم يفقد الأمل، وطلب منهم نشر إعـلان صـغير بصـحيفة "أساهي" – كبرى الجرائد الصباحية اليابانية – علـى نفقتـه الخاصة يضم ما يخدم الهدف من نشره (أستاذ أجنبي يتحدث الإنجليزية يرغب في الإقامة مع أسـرة يابانيـة – اتصـل بتليفون كذا)، ونُشر الإعلان صباح اليوم التـالي، وتكلـف ثمانين دولارا (٢٠ ألف ين) ولدهشة سـكرتارية المعهـد، اتصلت إحدى العائلات في العاشرة صباحا تبدي اسـتعدادها لقبول إقامة هذا الأستاذ عندها بشرط مقابلته أولاً ثـم اتخـاذ القرار بعد المقابلة، وتحدد الموعد في الثالثة من بعد ظهـر اليوم التالي.

ذهب صاحبنا صحبة أحد أفراد السكرتارية في الموعد المحدد ليجد البيت كبير الحجم يصل إلى ثلاثة أضعاف حجم البيت الياباني المتوسط، مكون من طابقين (على شكل فيلا)، وصاحبته أستاذة اقتصاد منزلي متخصصة في الطهي، لديها مدرسة صغيرة ملحقة بالبيت لتعليم الطهي للبنات المقـبلات

www.alkottob.com

على الزواج، ولها سلسلة كتب منشورة (باليابانية طبعا) عن صنوف الطهي في العالم، كما كان لها برنـامج تليفزيـوني بإحدى القنوات الخاصة، يقيم معها بالبيت ولـدان أحـدهما مهندس متزوج، والآخر طالب هندسة على وشك التخـرج. وفي حديقة المنزل كانت هناك فيلا صغيرة مكونة مـن دور أرضي للمعيشة وحجرتي نوم وهو مخصص لسكنى ابنتهـا الوحيدة المتزوجة من مهندس كهرباء.

وقد ارتاحت الأستاذة أوكاماتسو كيوكو – ربة الأسرة – لصاحبنا لأنه مصري (واليابـانيون يعرفـون عـن مصـر تاريخها القديم وجمال عبد الناصر)، ولأنه أسـتاذ جـامعي (والأستاذ عند اليابانيين نصف إله). وعلم منها أن الحجـرة التي سيقيم فيها هي حجرة زوجها الراحل (الذي مات قبـل خمس سنوات) وأن الهدف من قبول إقامته مع الأسرة، أنهـا تفكر في زيارة الأسرة لأوروبا فـي الصـيف القـادم، وأن وجوده بينهم سوف يساعدهم على الحديث بالإنجليزية يوميـا بعض الوقت في مناسبات تنـاول الطعـام وغيرهـا مـن المناسبات المتاحة، وهكذا تم الاتفاق على قيمـة الإيجـار، وأسعار وجبة الإفطار، ووجبة العشاء (في حالة تناولها مـع

www.alkottob.com

الأسرة). وانتقل صاحبنا للإقامة مع عائلة أوكاماتسو اعتبارا من اليوم التالي لهذه المقابلة. وكانت الإقامة مع هذه العائلـة نافذة واسعة أطل منها علـى الحيـاة الاجتماعيـة والثقافـة اليابانية، وفرصة نادرة لمشاركة الأسرة نمط حياتها لما يزيد على العام.

فمن خلال عائلة أوكاماتسو تعرف على بعض العائلات الأخرى، وربطته بها علاقة صداقة امتدت سـنوات، وزاره بعضهم عندما جاءوا لمصر لأسباب تتصل بأعمالهم. وعـن طريق عائلة أوكاماتسو تعرف على العادات والتقاليد اليابانية، وعلى المتاحف المختلفة، والفنون الشـعبية فـي احتفـالات المعابد الموسمية (التي تشبه الموالد عندنا). وأتيحت له زيارة بعض المعابد في جبل فوجي، كان أول أجنبـي يسـمح لـه بدخولها، وشارك في المناسـبات العائليـة التـي لا يسـمح – عادة – لغير أفراد الأسرة وأقاربهم بحضورها.

كانت أم السيدة أوكاماتسو تقيم مع الأسرة، ولا تظهـر إلا على مائدة الإفطار، وهي سيدة تجاوزت الثمانين، كانـت تنحني لتحية الضيف الأجنبي، وتتناول الإفطار مع الأسـرة، وتحدثه عن بعض ذكرياتها عن عصر مايجي مـن خـلال

www.alkottob.com

ترجمة الأسرة، ثم تعود إلى حجرتها، فلا يراها إلا صـباح اليوم التالي، ويبدو أنها كانت تكتفي بوجبة الغداء، ثـم تنـام قبل الغروب. وذات صباح اجتمعت الأسـرة حـول مائـدة الإفطار ومعهم صاحبنا، وكان مقعد "الجدة" خاليـا، فسـأل صاحبنا: "أين الجدة؟" "فردت أوكاماتسو بابتسـامة باهتـة: "الجدة ماتت هذا المسـاء"، فسـقطت المعلقـة مـن يـده، واغرورقت عيناه بالدموع. فاضطرب الجميع وقال له الابن المهندس وزوجته إنهم كانوا يدركون ذلك تماما لأنها سترحل لأنها امرأة عجوز، وعبروا عن أسفهم لما سببوه له من حزن لا مبرر له (من وجهة نظر الابن الأصغر طالب الهندسـة) لأنه ليس من أفراد العائلة.

قال صاحبنا للأستاذة أوكاماتسو إنه لـن يـذهب إلـى المعهد، وإنه سيبقى معهم للاشتراك في تشييع جنازة الجـدة، فأدهشه رفضهم الحاد؛ لأنه لا يجب أن يحضر هذه المناسبة. وشرح له الابن الأكبر الأسباب، فليست هناك جنازة اليـوم، بل ستظل الجدة في فراشها حتى صباح اليوم التالي، وسوف يستدعى أفراد الأسرة من مختلف المدن لقضاء الليل حـول سريرها وهي مسجاة فوقه يتذكرون لها مواقفها معهم، وهـم

www.alkottob.com

يشربون "الساكي" (نبيذ الأرز) ثم تنُقل إلـى المعبـد حيـث تُحرق الجثة.

وكلها إجراءات قاصرة على أفراد الأسرة والأقارب لا يحضرها أي من الأصدقاء حتى اليابانيين مـنهم. فعـرض عليهم أن ينتقل إلى فندق ليفسح مكانا للأقارب، لكنهم رفضوا تماما ؛لأن كل قريب عليه أن يتدبر أموره. ورجوه أن ينسى الموضوع برمته وأن يمارس حياته اليومية كالمعتاد.

وعندما ذهب إلى المعهد، قص ذلك كله على زملائـه اليابانيين، فاستغرقوا في الضحك من موقفه، وقال أحدهم إن هذه الواقعة لو كتبها مؤلف ياباني في سيناريو فيلم كوميـدي للقيت نجاحا كبيرا. وقالوا له إن الطريقة الوحيدة للعزاء هي شراء ظرف "الميمايكن" (وتعني نقود المواساة) يضـع فيـه مبلغًا بسيطًا من أوراق النقد يجب أن لا يكون المبلغ أربعـة أو يقبل القسمة على أربعة؛ لأن علاقة الأربعـة بالتراكيـب الصينية تعني الفناء، فإذا قدم أحد نقود المواساة علـى هـذا النحو كان ذلك تعبيرا عن شماتته بالميت ورغبته في فنـاء روحه، فلا يعاد خلقها من جديد.

www.alkottob.com

اشترى صاحبنا الظرف ووضع بداخله ثلاثة آلاف ين (١٢ دولارا بسعر التحويل في تلك الأيام) وذهب في الثالثة من مساء اليوم التالي إلى مكان العزاء أمام منزل نجل المتوفاة، فوجد باقة ورد مستديرة كبيرة خلف منضدة صغيرة عليها صور المتوفاة وعلى جانبيها طبقان بأحدهما بعض ثمار الفاكهة وبالآخر بعض الزهور، ووقف متلقي العزاء بجوار المنضدة التي وضع عليها سجل للتوقيعات، واصطف مقدمو العزاء في طابور طويل وجد صاحبنا لنفسه مكانًا فيه، حتى إذا جاء دوره، قلد الآخرين فانحنى أمام صورة المتوفاة واضعا كفيه تحت ذقنه، ثم وقع في سجل العزاء ووضع ظرف نقود المواساة في العلبة التي وضعت بجوار السجل لهذا الغرض، (وكان أحد أفراد السكرتارية بالمعهد قد تطوع بكتابة اسم صاحبنا على الظرف بالحروف اليابانية).

ومشاركته في مراسم العزاء ربطت بينه وبين نجل المتوفاة "كانامورى" شقيق أوكاماتسو بروابط الصداقة لما يقرب من العشرين عاما، كان ضابطًا مهندسا بالجيش الياباني خلال الحرب العالمية الثانية، خدم بالصين ويجيد اللغة الصينية، ويفهم اللغة الكورية، وبعد استسلام اليابان تم

www.alkottob.com

حل الجيش، فأصبح بلا عمل، وذاقت أسرته الأمرين، وتقلب في عدة أعمال حتى "التقط فرصته" (علـى حـد تعبيـره)، فاستفاد من صداقته لأحد الرأسماليين الكبار الذي أسس عددا من الشركات الصغرى بأسماء أصدقائه؛ حتى يتهـرب مـن الضرائب التصاعدية، كانت إحداها باسم كانـاموري الـذي استطاع أن يشتريها منه بعد أربع سنوات؛ وبـذلك أصـبح منتجا لبعض قطع الإلكترونيات التي يـزود بهـا المصـانع الكبرى، شأنه في ذلك شأن غيره من صغار المنتجـين، لأن الصناعات اليابانية الإلكترونية وشركات صناعة السـيارات تعتمد على الصناعات الصغيرة في سد حاجتهـا مـن آلاف القطع التي تدخل في مكونات تلك الصناعات.

كان كاناموري مهتما بالثقافات الشرقية عامة وخاصـة الثقافة الإسلامية، وكان يتناقش مع صاحبنا كثيرا حول هـذا الموضوع، وحرص على أن يـزور ماليزيـا وإندونيسـيا وباكستان في شهر رمضان، وأن يخالط المسـلمين هنـاك، وعجب لوجود اختلاف كبير في طقوس الصيام، وما ارتـبط به من تقاليد هنا وهناك، ولمح وجود تشـابه بـين بعـض الممارسات الإسلامية، وما اعتاده البوذيون؛ لذلك كان لقـاؤه

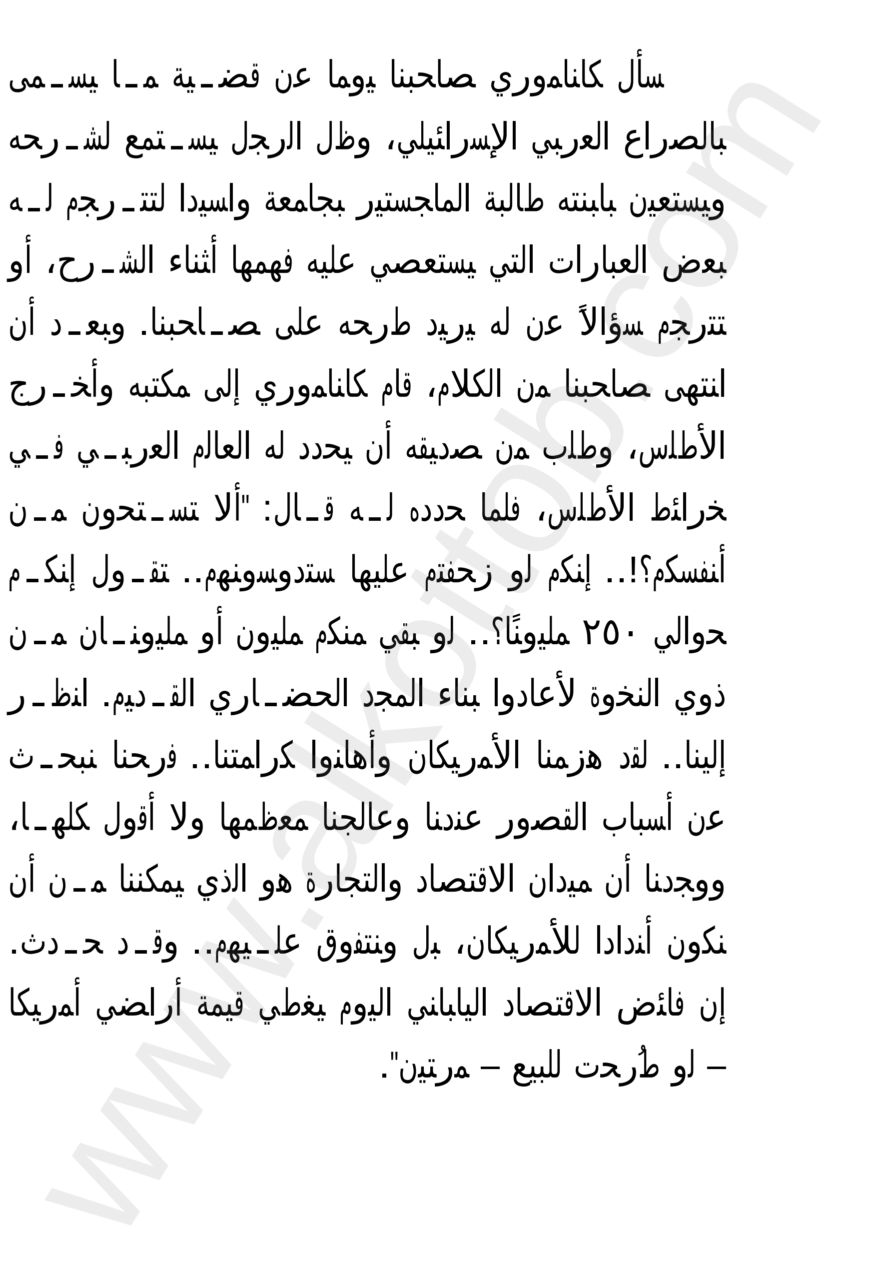
www.alkottob.com

مع صاحبنا حافلاً بالنقاش حول الإسـلام، وذلـك الـتلاحم الملحوظ بين حضارات وثقافات آسيا.

وعندما دعي صاحبنا زميلاً زائرا بمعهـد اقتصـاديات الدول النامية مرة أخرى عام ١٩٧٧ لمدة شـهرين لتقـديم دراسة أعدها بتكليف من المعهد، نُشـرت ضـمن سلسـلة الزملاء الزائرين (بالإنجليزية)، كان موضـوعها "قـوانين العمل والملكية والتجارة في دول الخليج العربية وأثرها فـي الأوضاع الاجتماعية". وكانت الزيارة – هذه المرة – لعشرة أسابيع، أقام في بيت كانـاموري؛ لأن السـيدة أوكاماتسـو أصيبت بنزيف في المخ تم إنقاذها منه، ولكنها كانـت تمـر بمرحلة النقاهة وكان بيتها مغلقًا لحين شفائها.

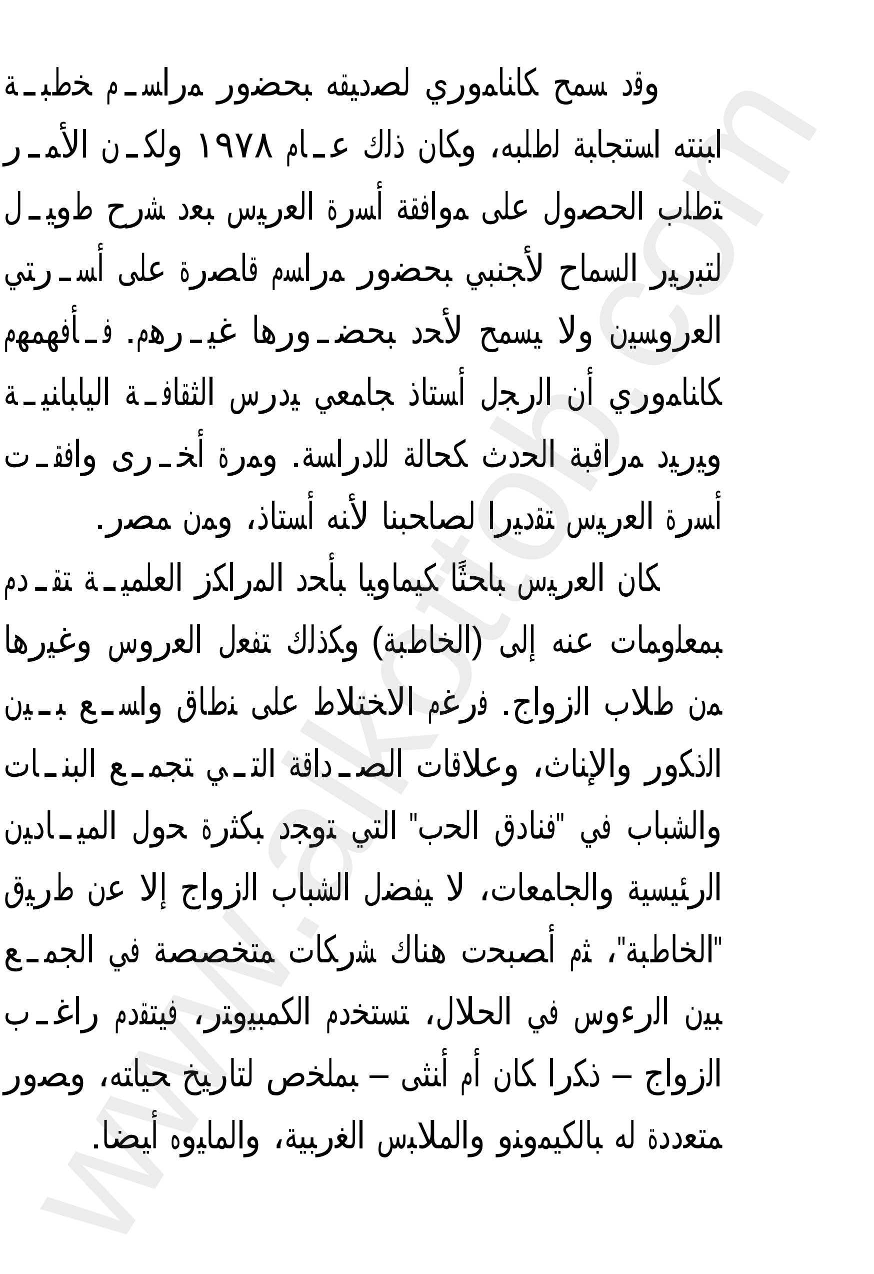
وتكررت إقامته ببيت كاناموري عنـدما دعـي عـام ١٩٨٧ أستاذًا زائرا لجامعة طوكيو لمدة شـهرين، واسـتفاد كثيرا من هذا الرجل الذي يمثل الجيل الذي تفتح وعيه فـي فترة ما بين الحربين وشـارك فـي صـنع الإمبراطوريـة اليابانية، وشاهد سقوطها، وساهم مع غيره من مواطنيه فـي إعادة بناء اليابان من جديد بعد الحرب.

www.alkottob.com



سأل كانامورى صاحبنا يوما عن قضية ما يسمى بالصراع العربي الإسرائيلي، وظل الرجل يستمع لشرحه ويستعين بابنته طالبة الماجستير بجامعة واسيدا لتترجم له بعض العبارات التي يستعصي عليه فهمها أثناء الشرح، أو تترجم سؤالاً عن له يريد طرحه على صاحبنا. وبعد أن انتهى صاحبنا من الكلام، قام كانامورى إلى مكتبه وأخرج الأطلس، وطلب من صديقه أن يحدد له العالم العربي في خرائط الأطلس، فلما حدده له قال: "ألا تستحون من أنفسكم؟!.. إنكم لو زحفتم عليها ستدوسونهم.. تقول إنكم حوالي ٢٥٠ مليونًا؟.. لو بقي منكم مليون أو مليونان من ذوي النخوة لأعادوا بناء المجد الحضاري القديم. انظر إلينا.. لقد هزمنا الأمريكان وأهانوا كرامتنا.. فرحنا نبحث عن أسباب القصور عندنا وعالجنا معظمها ولا أقول كلها، ووجدنا أن ميدان الاقتصاد والتجارة هو الذي يمكننا من أن نكون أندادا للأمريكان، بل ونتفوق عليهم.. وقد حدث. إن فائض الاقتصاد الياباني اليوم يغطي قيمة أراضي أمريكا – لو طُرحت للبيع – مرتين".

www.alkottob.com



وقد سمح كانامورى لصديقه بحضور مراسـم خطبـة ابنته استجابة لطلبه، وكان ذلك عـام ١٩٧٨ ولكـن الأمـر تطلب الحصول على موافقة أسرة العريس بعد شرح طويـل لتبرير السماح لأجنبي بحضور مراسم قاصرة على أسـرتي العروسين ولا يسمح لأحد بحضـورها غيـرهم. فـأفهمهم كانامورى أن الرجل أستاذ جامعي يدرس الثقافـة اليابانيـة ويريد مراقبة الحدث كحالة للدراسة. ومرة أخـرى وافقـت أسرة العريس تقديرا لصاحبنا لأنه أستاذ، ومن مصر.

كان العريس باحثًا كيماويا بأحد المراكز العلميـة تقـدم بمعلومات عنه إلى (الخاطبة) وكذلك تفعل العروس وغيرها من طلاب الزواج. فرغم الاختلاط على نطاق واسـع بـين الذكور والإناث، وعلاقات الصـداقة التـي تجمـع البنـات والشباب في "فنادق الحب" التي توجد بكثرة حول الميـادين الرئيسية والجامعات، لا يفضل الشباب الزواج إلا عن طريق "الخاطبة"، ثم أصبحت هناك شركات متخصصة في الجمـع بين الرءوس في الحلال، تستخدم الكمبيوتر، فيتقدم راغـب الزواج – ذكرا كان أم أنثى – بملخص لتاريخ حياته، وصور متعددة له بالكيمونو والملابس الغربية، والمايوه أيضا.

www.alkottob.com

وتقوم الخاطبة أو الشركة المختصـة بترشـيح اثنـين أو ثلاثة للمتقدم أو المتقدمة فإذا وقع القبول على أحدهم، تمت الاتصالات، ورتب لقاء في مقهى أو نادي يحضره كل طرف وأمه. فإذا حدث توافق بدأت عجلة المراسـم التقليديـة فـي الدوران.

وهذا ما تم بالنسبة لكيكو بنت كاناموري، فبعـد اللقـاء غير الرسمي تحدد موعد طلب يد ابنتـه رسـميا. جلسـت العائلتان في مواجهة بعضهما البعض على أرضـية حجـرة المعيشة (كما يجلس المسلمون فـي وضـع التشـهد أثنـاء الصلاة)، الأب في مواجهة الأب وخلف كل منهما بخطـوة واحدة زوجته (الأم) وبجوارها العريس إلـى يمينهـا، أمـا العروس فجلست متأخرة عن أمها بنصف خطوة إلى يمينها. ووضع والد العريس صندوقًا خشبيا صغيرا أمامـه، ظنـه صاحبنا علبة حلوى، أما والد العروس فلم يكن أمامه شيء، كانت هناك علبة أصغر حجما أمام أم العروس. بـدأ والـد العريس الحديث مستعرضا نسبه من أيـام مـايجي (القـرن التاسع عشر)، ثم تحدث عن نفسه وزوجتـه وأولاده، وأهـم الأحداث التي مرت على العائلة خيرا كانـت أم شـرا، ثـم

www.alkottob.com

تحدث عن ابنه وأهم خصاله وعيوبـه، وتدرجـه الـوظيفي ودخله. ويرد والد العروس بنفس النظام في ترتيب عـرض تاريخي للأسرة حتى يصل إلى الحديث عن ابنتـه، ويـدعو أمها للحديث، فتحني هامتها وتتكلم وهي مطأطـأة الـرأس تنظر إلى الأرض. وتعود الكلمة إلى والد العريس، فيطلب يد البنت لابنه وينحني رافعا العلبة التي أمامـه إلـى مسـتوى الرأس ثم يسلمها للأب الذي يفتحها وينظر إلى مـا بـداخلها (وهو سمكة واحدة من نوع معين من السمك المجفف المبروم طول السمكة حوالي عشرين سنتيمترا)، وينحني ثم يسـتدير جانبا فيقدم العلبة للأم التي تنحني وتتسلمها، ثم تتناول العلبة الأخرى التي أمامها وتقدمها للأب الذي يعود إلـى جلسـته الأولى ويسلمها إلى والد العريس، الذي يفتح العلبة وينظـر إلى ما بداخلها (وهو سمكة سبيط مجففة)، ويتبادل الـرجلان كلمة الشكر، ثم يتناول الجميع شراب "الساكي" الذي يحمـل معنى الصفاء والود والمشاركة.

كان الجميع قد ارتدوا الكيمونو (الزي الياباني التقليدي)، وكان صاحبنا يجلس في ركن قصي من حجرة المعيشة بنفس نظام جلوس الأسرتين يرقب المشـهد الغريـب، والمغـزى

www.alkottob.com

الجنسي الواضح في الهديتين المتبادلتين الذي فُسر لـه بعـد الحفل بأنه يعني أن ذكرنا يطلب أنثاكم، فيتسلم سمكة السبيط التي ترمز للأنثى، وتعني قبول الطلب.

وحضر صاحبنا مناسبة زفاف مرتين كان أصحابها من باحثي المعهد والجامعة، والحفل يقام عادة ظهرا في إحـدى القاعات، ولا يزيد عدد الحضور عن ستين فردا على الأكثر، ويختار العريس أحد أساتذته ليتولى المراسم، فيلقي كلمة عن مناقب العريس شبيهة بكلمات التأبين عنـدنا، وتتقـدم بعـده صديقة العروس(التي تُحدد مسبقًا) فتتحـدث عـن مناقـب العروس، ثم تُعطى الكلمة للعريس، فيـروي كيـف عـرف عروسه. وكانت إحدى الزيجتين عن حب، فـذكر العـريس كيف عرف العروس وعاشرها لمدة عامين دون أن يجمعهما سقف واحد، ولما كان المعهد سيوفده في مهمة علميـة إلـى الهند اكتشف أنه لا يستطيع الاستغناء عنها لم يجد مفرا مـن الزواج بها.

ثم يطلب أصدقاء العريس الكلمة كل يتحدث في حـدود ثلاث دقائق، ويغني الحضـور أغـاني شـعبية ذات صـلة بالمناسبة ويتناول الجميع الطعام ويشربون الساكي ثم ينفض

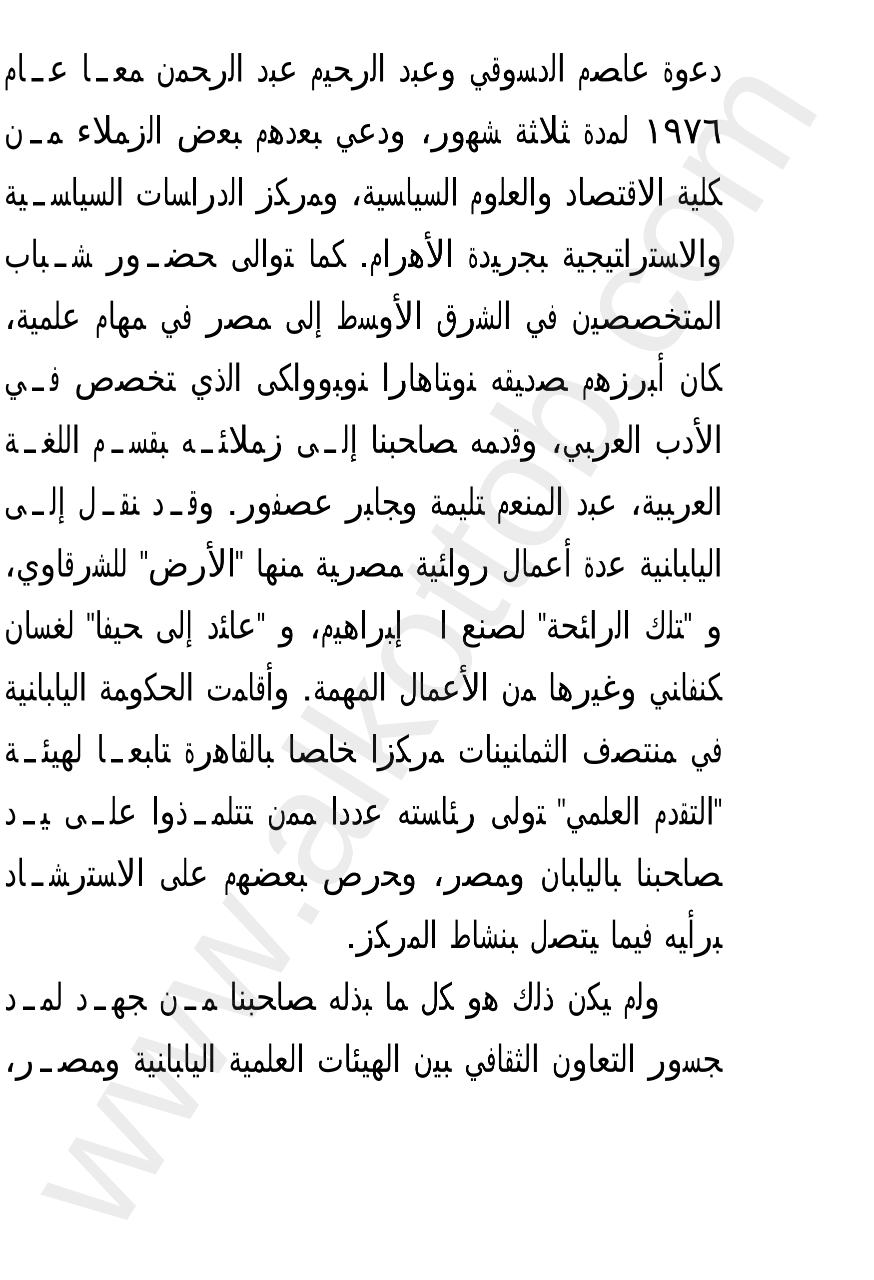
www.alkottob.com

الحفل بعد ساعتين لينصرف كل إلى حال سبيله، ويقدم لكـل مدعو وردة حمراء المفروض أن يقدمها لفتاة يرغـب فـي إقامة علاقة معها تمهيدا للـزواج، أو تقـدمها الفتـاة مـن المدعوات لنفس الغرض.

حصل صاحبنا على الورد الحمراء في أول حفل زفاف حضره، وحملها معه حتى ركب القطار (مترو الأنفاق) فـي طريق العودة إلى مقر إقامته، وكانت هناك طفلة في حـوالي الثالثة من عمرها فقدم لها الوردة (دون أن يدري مغزى ذلك في التقاليد اليابانية) فإذا بكل ركاب العربة يضحكون، أما أم الطفلة فكادت تفطس من الضحك، وعندما عاد صاحبنا إلـى الأسرة التي يقيم لديها شرح لهم ما حـدث فـانفجروا فـي الضحك وشرحوا له مغزى إهداء وردة الزفـاف، والمطـب الذي وقع فيه.

كانت المهمة العلمية اليابانية – إذًا – متعددة المنافع من النواحي العلمية والاجتماعية، وقد فتحت الباب أمام تعـاون علمي دام حتى مطلع التسعينيات بين صاحبنا وبـين معهـد اقتصاديات الدول النامية وجامعة طوكيو، ورشـح صـاحبنا للجهتين بعض المتميزين من زملائه لزيارة المعهدين، فتمت

www.alkottob.com



دعوة عاصم الدسوقي وعبد الرحيم عبد الرحمن معـا عـام ١٩٧٦ لمدة ثلاثة شهور، ودعي بعدهم بعض الزملاء مـن كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ومركز الدراسات السياسـية والاستراتيجية بجريدة الأهرام. كما توالى حضـور شـباب المتخصصين في الشرق الأوسط إلى مصر في مهام علمية، كان أبرزهم صديقه نوتاهارا نوبوواكى الذي تخصص فـي الأدب العربي، وقدمه صاحبنا إلـى زملائـه بقسـم اللغـة العربية، عبد المنعم تليمة وجابر عصفور. وقـد نقـل إلـى اليابانية عدة أعمال روائية مصرية منها "الأرض" للشرقاوي، و "تلك الرائحة" لصنع ا إبراهيم، و "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني وغيرها من الأعمال المهمة. وأقامت الحكومة اليابانية في منتصف الثمانينات مركزا خاصا بالقاهرة تابعـا لهيئـة "التقدم العلمي" تولى رئاسته عددا ممن تتلمـذوا علـى يـد صاحبنا باليابان ومصر، وحرص بعضهم على الاسترشـاد برأيه فيما يتصل بنشاط المركز.

ولم يكن ذلك هو كل ما بذله صاحبنا مـن جهـد لمـد جسور التعاون الثقافي بين الهيئات العلمية اليابانية ومصـر،

www.alkottob.com

بل لعب دورا متواضعا في افتتاح قسم اللغة اليابانية وآدابهـا بكلية الآداب جامعة القاهرة، ولذلك قصة تُروى.

فقد اعتاد صاحبنا أن يبدأ يومه بمعهد اقتصاديات الدول النامية بقراءة الصحف اليابانية التـي تصـدر بالإنجليزيـة؛ للتعرف على ما جد من أمور المنطقة التي جاء منها، ويطلع على أمور اليابان والعالم. ولفت نظـره ذات صـباح خبـر صغير نُشر على الصفحة الأولى بجريـدة "جابـان تـايمز Japan Times" يفيد أن "مؤسسة اليابان" (وهـي مؤسسـة معنية بالتبادل الثقافي والتعريف بالثقافة اليابانية تتبـع وزارة الخارجية) قد تلقت طلبا من جامعة تل أبيب لإقامة قسم للغة اليابانية بها بتمويل كامل من المؤسسة. وذكرت الجريـدة أن الطلب موضع الدراسة، وأشارت إلى أن هناك قسـما للغـة اليابانية والثقافة اليابانية موجود بالجامعة العبرية بالفعل، وأنه إذا افتتح القسم الجديد يصبح الثاني من نوعه.

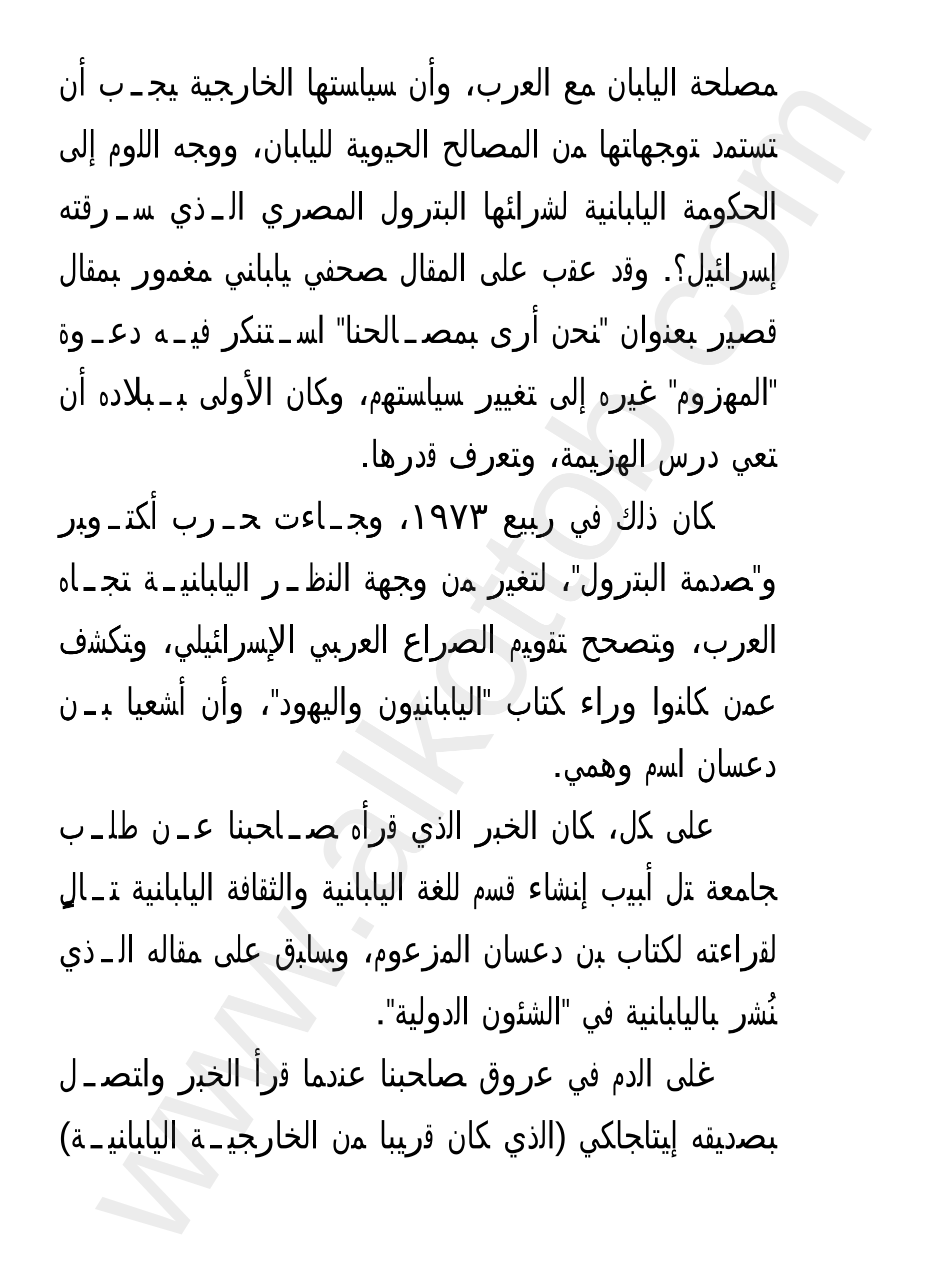
كانت الدعاية الإسرائيلية المعادية للعرب تستثمر هزيمة ١٩٦٧، وتأثيرها السلبي على النظرة إلى العرب في اليابان، خير استثمار فكلفت (سرا) ثلاثة من أساتذة الأدب العبـري باليابان بإعداد كتاب نُشر باليابانية والإنجليزية معا بعنـوان

www.alkottob.com

"اليابانيون واليهود، ونُسب إلى مؤلف وهمي يدعى أشعيا بن دعسان، وكان صاحبنا قد قرأ النسخة الإنجليزية عندما رآها بإحدى المكتبات. وقد جاء على لسان مؤلفها الوهمي الذي زعم أنه يعيش في مدينة كوبي منذ ثلاثين عاما قضاها في تأمل التشابه الكبير بين اليابانيين واليهود من حيث القدرات الحضارية الفائقة والبراعة في الأمور الاقتصادية، وبعد أن يشرح ما أصاب اليهود من "اضطهاد" بعد الشتات حتى استطاعوا أن يعيدوا دولتهم إلى الوجود في فصلين متتاليين، يختتم الكتاب بأن القدر شاء بأن تكون كل من البلدين في ركن بعيد في آسيا، وأن رسالتهما نشر الحضارة في ربوع آسيا المتخلفة؛ ومن ثم لابد من تعاونهم معا على أداء رسالة خُلق الشعبان المتميزان من أجلها.

وكان مما يثير ضيق صاحبنا أن الطبعة اليابانية باعت ما يزيد على مائة ألف نسخة من الكتاب في ثلاثة شهور. وكتب عندئذ مقالاً بعنوان "مصلحة اليابان مع من؟" ترجمة صديقه إيتاجاكي إلى اليابانية ونُشر بأكبر مجلة في الشئون السياسية اليابانية تدعى "كوكساي مونداي" (الشئون الدولية)، انتهى فيه إلى دحض دعاوى بن عسان، وبين بالأرقام أن

www.alkottob.com



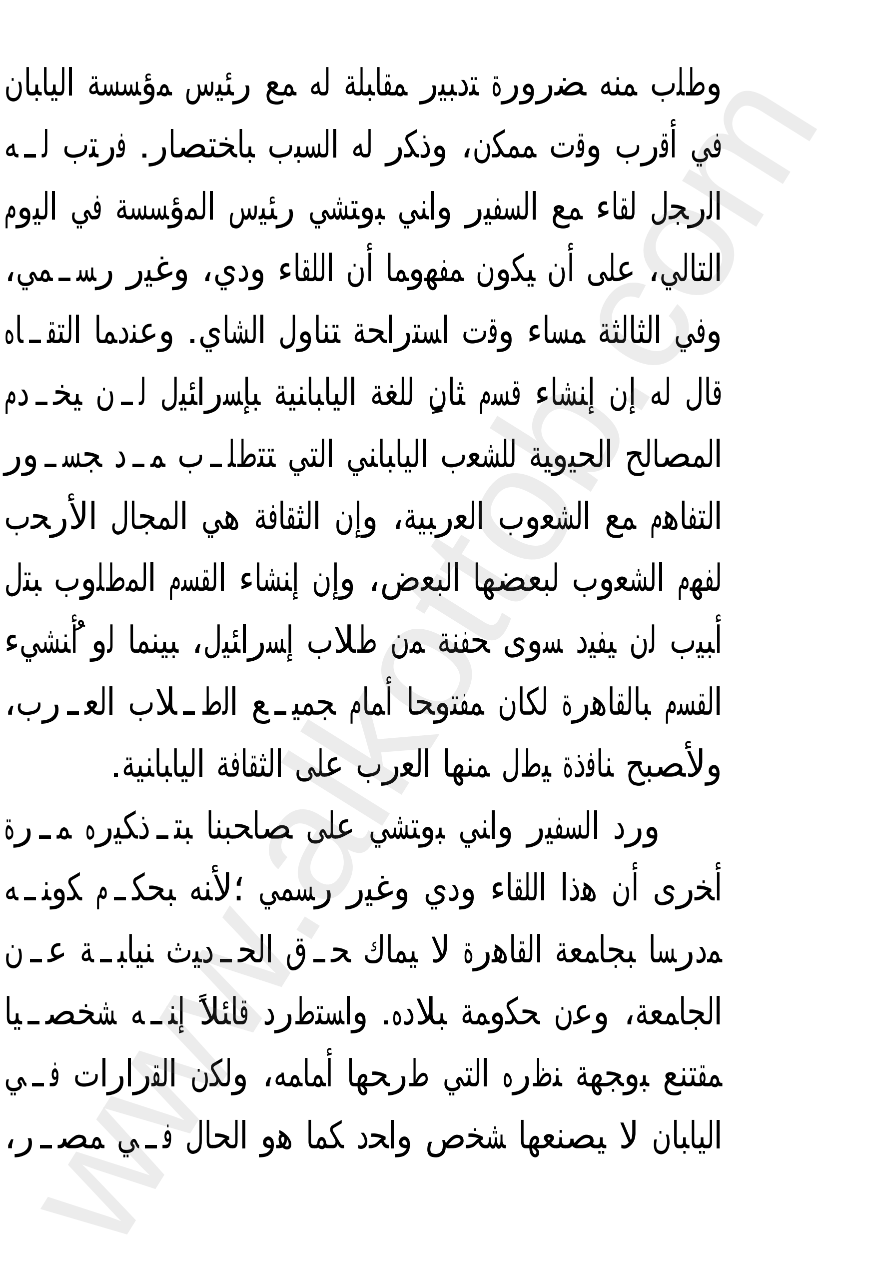
مصلحة اليابان مع العرب، وأن سياستها الخارجية يجـب أن تستمد توجهاتها من المصالح الحيوية لليابان، ووجه اللوم إلى الحكومة اليابانية لشرائها البترول المصري الـذي سـرقته إسرائيل؟. وقد عقب على المقال صحفي ياباني مغمور بمقال قصير بعنوان "نحن أرى بمصـالحنا" اسـتنكر فيـه دعـوة "المهزوم" غيره إلى تغيير سياستهم، وكان الأولى بـبلاده أن تعي درس الهزيمة، وتعرف قدرها.

كان ذلك في ربيع ١٩٧٣، وجـاءت حـرب أكتـوبر و"صدمة البترول"، لتغير من وجهة النظـر اليابانيـة تجـاه العرب، وتصحح تقويم الصراع العربي الإسرائيلي، وتكشف عمن كانوا وراء كتاب "اليابانيون واليهود"، وأن أشعيا بـن دعسان اسم وهمي.

على كل، كان الخبر الذي قرأه صـاحبنا عـن طـلاب جامعة تل أبيب إنشاء قسم للغة اليابانية والثقافة اليابانية تـالٍ لقراءته لكتاب بن دعسان المزعوم، وسابق على مقاله الـذي نُشر باليابانية في "الشئون الدولية".

غلى الدم في عروق صاحبنا عندما قرأ الخبر واتصـل بصديقه إيتاجاكي (الذي كان قريبا من الخارجيـة اليابانيـة)

www.alkottob.com



وطلب منه ضرورة تدبير مقابلة له مع رئيس مؤسسة اليابان في أقرب وقت ممكن، وذكر له السبب باختصار. فرتب لـه الرجل لقاء مع السفير واني بوتشي رئيس المؤسسة في اليوم التالي، على أن يكون مفهوما أن اللقاء ودي، وغير رسـمي، وفي الثالثة مساء وقت استراحة تناول الشاي. وعندما التقـاه قال له إن إنشاء قسم ثانٍ للغة اليابانية بإسرائيل لـن يخـدم المصالح الحيوية للشعب الياباني التي تتطلـب مـد جسـور التفاهم مع الشعوب العربية، وإن الثقافة هي المجال الأرحب لفهم الشعوب لبعضها البعض، وإن إنشاء القسم المطلوب بتل أبيب لن يفيد سوى حفنة من طلاب إسرائيل، بينما لو أُنشيء القسم بالقاهرة لكان مفتوحا أمام جميـع الطـلاب العـرب، ولأصبح نافذة يطل منها العرب على الثقافة اليابانية.

ورد السفير واني بوتشي على صاحبنا بتـذكيره مـرة أخرى أن هذا اللقاء ودي وغير رسمي ؛لأنه بحكـم كونـه مدرسا بجامعة القاهرة لا يملك حـق الحـديث نيابـة عـن الجامعة، وعن حكومة بلاده. واستطرد قائلاً إنـه شخصـيا مقتنع بوجهة نظره التي طرحها أمامه، ولكن القرارات فـي اليابان لا يصنعها شخص واحد كما هو الحال فـي مصـر،

www.alkottob.com

ولكن تصنعها مؤسسة، وكل ما يستطيع أن يفعله تأخير الرد على الطلب الإسرائيلي مدة شهر، فإذا وصله طلب مماثل من الحكومة المصرية، تم النظر في الطلبين معا وتـرجيح مـا ترى فيه المؤسسة مصلحة اليابان. وذكره بأنـه إذا تسـرب خبر هذا اللقاء، فسيعلن أنه لم يره ولم يسـمع شـيئًا عـن الموضوع، وأنه لا يستطيع أصلاً أن يقابل شخصا غيـر ذي صفة رسمية، فطمأنه صاحبنا إلى أن "السر في بير"، ووعده بأن يعمل على وصول طلب جامعة القاهرة قبل نهاية الشهر، وكان الزمن المحدد للمقابلة ربع سـاعة فاسـتغرق نصـف ساعة.

كان واني بوتشي صديقًا شخصـيا لإيتاجـاكي، عمـل مستشارا بالسفارة اليابانية بالقاهرة، وكان قبل توليه رئاسـة "مؤسسة اليابان" سفيرا في ليبيا؛ ولذلك كان على معرفة طيبة بمصر والمنطقة، وأهم من ذلك كان يعلم بطء إيقـاع صـنع القرار في مصر ولذلك قال لصاحبنا وهو يودعه "ا معـك" (قالها بالعربية).

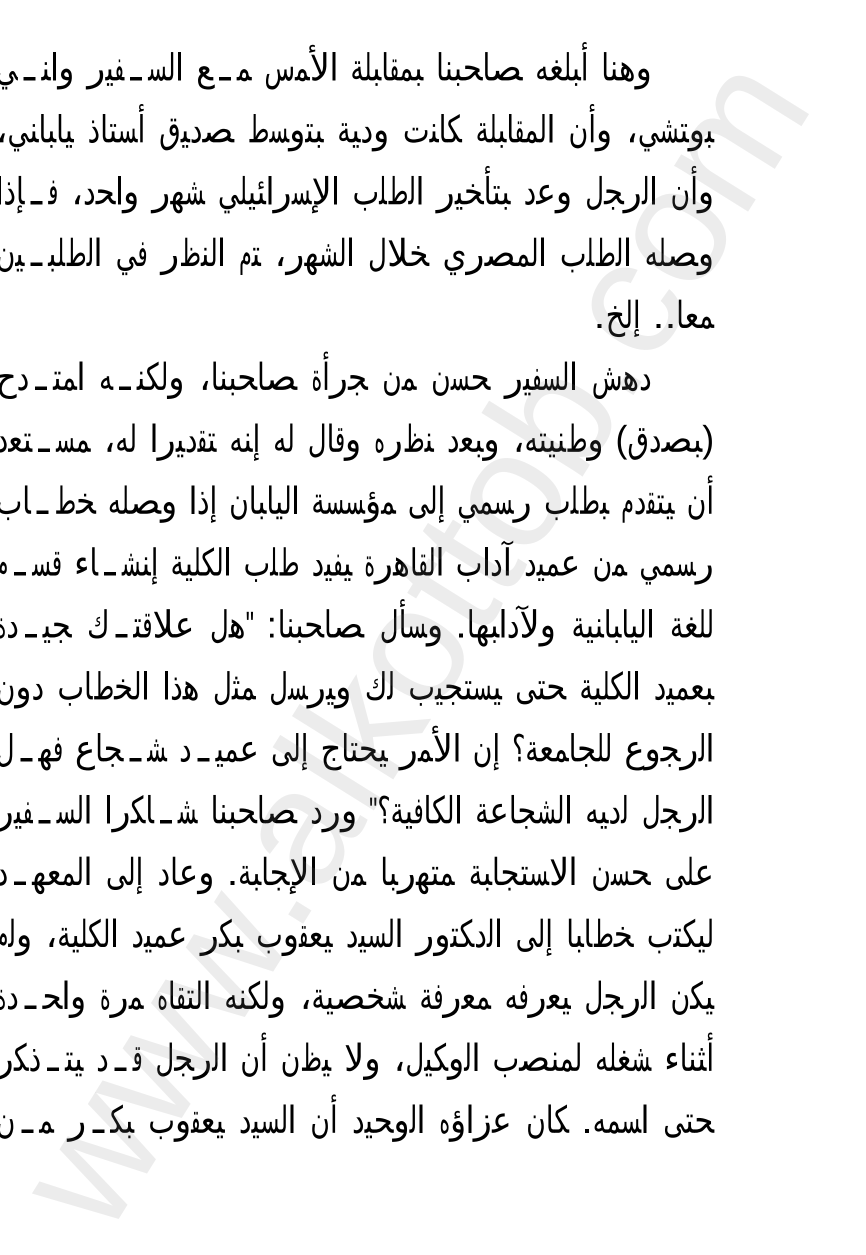
وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، توجـه صـاحبنا للسفارة المصرية (لأول مرة) طالبا مقابلة السفير، وحـاول

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الموظفون معرفة سبب اللقاء فرفض، وطلب منهم إبلاغه أن المذكور يريد لقاءه لمسألة تتعلق بالمصالح العليا للبلاد، وبعد نحو ربع ساعة قاده السكرتير الثاني (وكان يدعى أبو الغيط، وهو غير أحمد أبو الغيط وزير الخارجية) إلى مكتب السفير. كان السفير مصريا نبيلاً يدعى حسن ولا يذكر صاحبنا اسمه بعد تلك السنين، وكانت حرمه من عائلة "لاما" التي كان لهـا باع طويل في صناعة السينما المصرية، وكان الرجل واسع الأفق، استمع له باهتمام وهو يعرض أمامه فكرة تقدمه نيابة عن الحكومة المصرية بالطلب إلى "مؤسسة اليابـان". فـرد الرجل بأنه يدرك تماما أهمية إنشاء هذا القسم في مصر وفي جامعة القاهرة، ولكنه لا يملك التقدم بأي طلب إلا إذا كـان ذلك بناء على توجيه وتعليمات الخارجية؛ تنفيذًا لطلب الجهة المعنية، وهي هنا وزارة التعليم العالي، وذكره بأنه لا شـك يعرف أن وزارة التعليم العالي لا تتقدم للخارجية بطلـب إلا بناء على قرار الجامعة، وإن قرار الجامعة يستغرق شهرين على الأقل، وإن الوقت الذي قد يستغرقه وصول الطلب إلى السفارة قد يصل إلى شهرين أيضا.

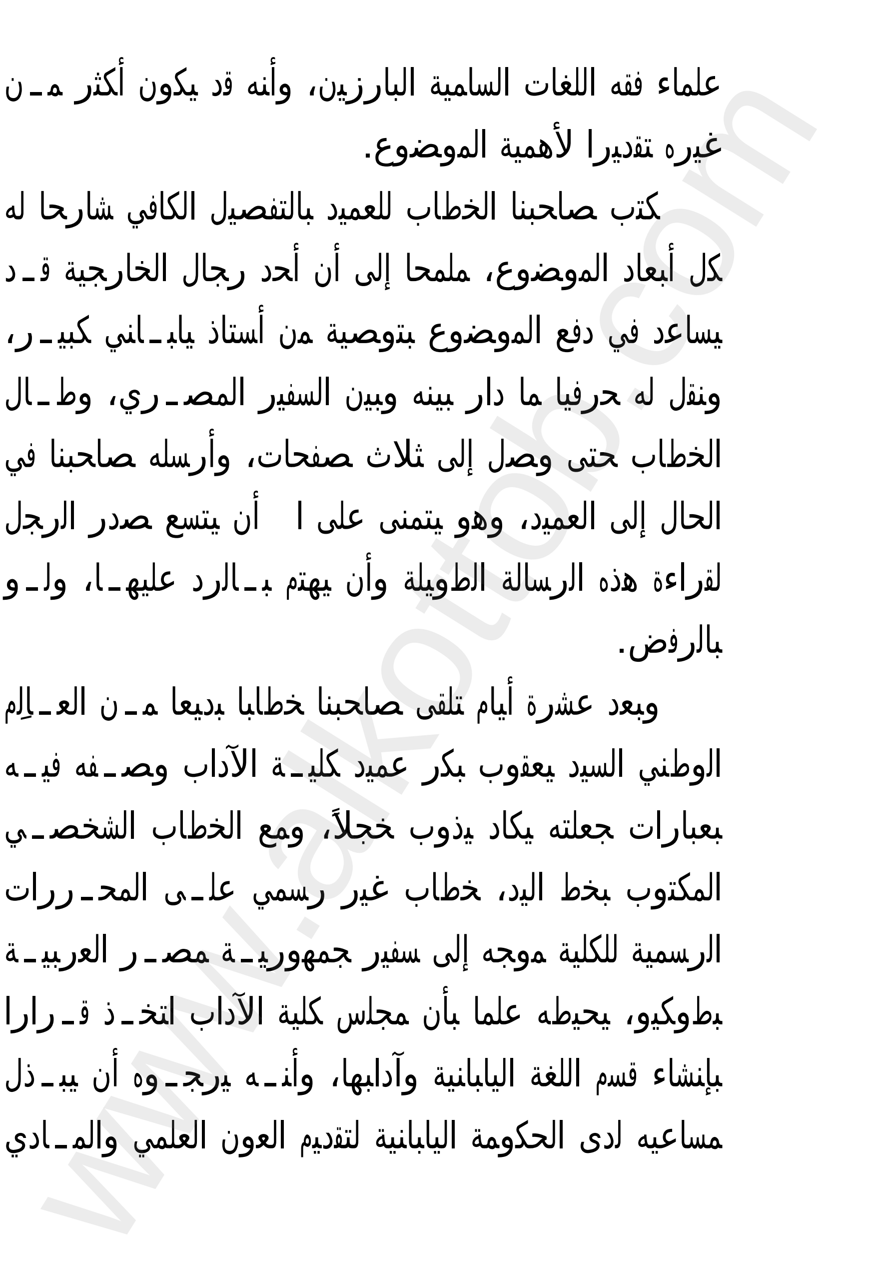
www.alkottob.com



وهنا أبلغه صاحبنا بمقابلة الأمس مـع السـفير وانـي بوتشي، وأن المقابلة كانت ودية بتوسط صديق أستاذ ياباني، وأن الرجل وعد بتأخير الطاب الإسرائيلي شهر واحد، فـإذا وصله الطاب المصري خلال الشهر، تم النظر في الطلبـين معا.. إلخ.

دهش السفير حسن من جرأة صاحبنا، ولكنـه امتـدح (بصدق) وطنيته، وبعد نظره وقال له إنه تقديرا له، مسـتعد أن يتقدم بطاب رسمي إلى مؤسسة اليابان إذا وصله خطـاب رسمي من عميد آداب القاهرة يفيد طاب الكلية إنشـاء قسـم للغة اليابانية ولآدابها. وسأل صاحبنا: "هل علاقتـك جيـدة بعميد الكلية حتى يستجيب لك ويرسل مثل هذا الخطاب دون الرجوع للجامعة؟ إن الأمر يحتاج إلى عميـد شـجاع فهـل الرجل لديه الشجاعة الكافية؟" ورد صاحبنا شـاكرا السـفير على حسن الاستجابة متهربا من الإجابة. وعاد إلى المعهـد ليكتب خطابا إلى الدكتور السيد يعقوب بكر عميد الكلية، ولم يكن الرجل يعرفه معرفة شخصية، ولكنه التقاه مرة واحـدة أثناء شغله لمنصب الوكيل، ولا يظن أن الرجل قـد يتـذكر حتى اسمه. كان عزاؤه الوحيد أن السيد يعقوب بكـر مـن

www.alkottob.com



علماء فقه اللغات السامية البارزين، وأنه قد يكون أكثر من غيره تقديرا لأهمية الموضوع.

كتب صاحبنا الخطاب للعميد بالتفصيل الكافي شارحا له كل أبعاد الموضوع، ملمحا إلى أن أحد رجال الخارجية قد يساعد في دفع الموضوع بتوصية من أستاذ ياباني كبير، ونقل له حرفيا ما دار بينه وبين السفير المصري، وطال الخطاب حتى وصل إلى ثلاث صفحات، وأرسله صاحبنا في الحال إلى العميد، وهو يتمنى على ا   أن يتسع صدر الرجل لقراءة هذه الرسالة الطويلة وأن يهتم بالرد عليها، ولو بالرفض.

وبعد عشرة أيام تلقى صاحبنا خطابا بديعا من العالم الوطني السيد يعقوب بكر عميد كلية الآداب وصفه فيه بعبارات جعلته يكاد يذوب خجلاً، ومع الخطاب الشخصي المكتوب بخط اليد، خطاب غير رسمي على المحررات الرسمية للكلية موجه إلى سفير جمهورية مصر العربية بطوكيو، يحيطه علما بأن مجلس كلية الآداب اتخذ قرارا بإنشاء قسم اللغة اليابانية وآدابها، وأنه يرجوه أن يبذل مساعيه لدى الحكومة اليابانية لتقديم العون العلمي والمادي

www.alkottob.com

اللازم لإنشاء القسم، وكان الخطاب ممهـورا بخـاتم كليـة الآداب الرسمي.

لا يدري صاحبنا كيف وصل بالخطاب إلى العميد، فقد أعمته دموع الفرح وهو ينتقل من مواصلة إلى أخرى حتـى وصل إلى السفارة. وقابله السفير على الفور، واسـتلم منـه الرسالة، وطلب تحديد موعد لمقابلة رئيس مؤسسـة اليابـان (السفير واني بوتشي) فتحدد الموعد بعـد يـومين، وذهـب الرجل حاملاً طلبا رسميا بموافقة جامعة القاهرة على إنشـاء قسم للغة اليابانية وآدابها، ولم يفته الإشارة إلـى أن وجـود القسم بجامعة القاهرة يجعله في خدمة طـلاب جميـع بـلاد الجامعة العربية.

وبعد شهر تقريبا اتخذت مؤسسة اليابان قرارا بإنشـاء قسم للغة اليابانية وآدابها بكلية الآداب جامعة القـاهرة (مـن حيث المبدأ) على أن يسبق ذلك دراسة حرة للغة اليابانيـة؛ للتأكد من مدى الإقبال على دراسة هذه اللغة، ومن جـدوى إنشاء القسم.

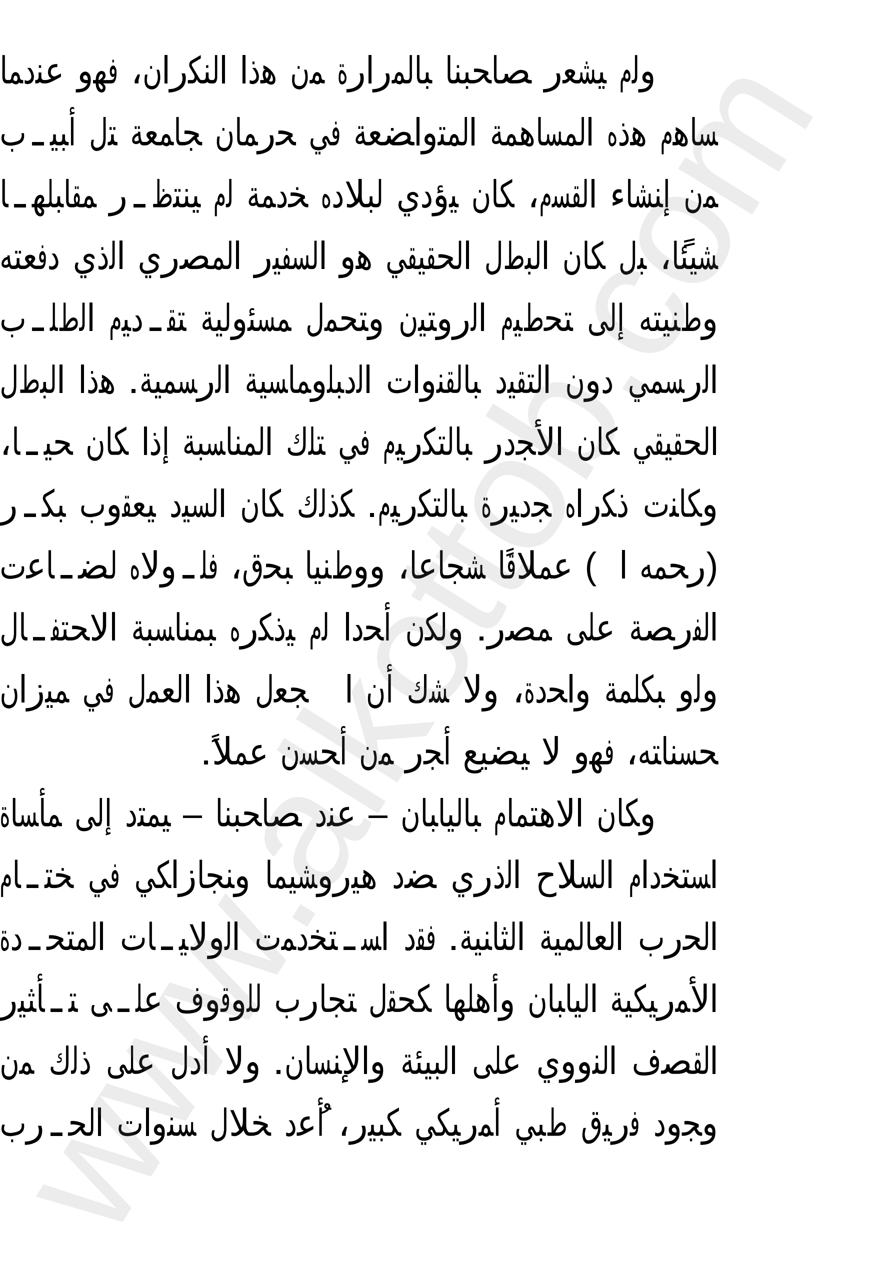
وبدأت الدراسة الحرة في العام الدراسي ١٩٧٣/ ١٩٧٤ فأُرسل أحد المتخصصين فـي دراسـة الشـرق الأوسـط

www.alkottob.com

(كورودا) للتدريس لمعرفته باللغة العربيـة، وحـاول هـذا الرجل أن يؤخر تأسيس القسم رسميا عاما آخر يتيح له البقاء بالقاهرة عاما آخر، ولكن صـاحبنا اسـتطاع – بمسـاعدة إيتاجاكي وهاناوا (المستشار الثقافي الياباني بالقـاهرة) – أن يقنع "مؤسسة اليابان" بضرورة التحرك لفتح القسم، واقتـرح أن تقدم المؤسسة أربعة مدرسين منهم ثلاثة من المتخصصين في الشرق الأوسط تاريخًا ولغة وثقافة يتـيح لهـم عملهـم بالقاهرة تعميق دراساتهم التخصصية، وواحـدا فقـط مـن اللغويين لتدريس الكتابة الصينية (الكانجي). وتبنـى هانـاوا هذه الأفكار في المذكرة التي رفعها للخارجية اليابانية، فجاء عرض "مؤسسة اليابان" المقدم للكلية في هذا الإطار ودارت العجلة، وفُتح القسم في العام الدراسي ١٩٧٤.

وعندما تم الاحتفال بمرور ربع قرن على إنشاء القسـم دعي كل من هب ودب للمشاركة في الاحتفال، ولـم توجـه الدعوة لصاحبنا. ولم يأتِ طلب أستاذ ياباني جامعي جاء من بلاده لحضور الاحتفال، عندما سأل عميد الكلية عن صاحبنا، والتمس مساعدته في الاتصال به، فعاد الرجل دون أن يتمكن من لقاء صاحبنا.

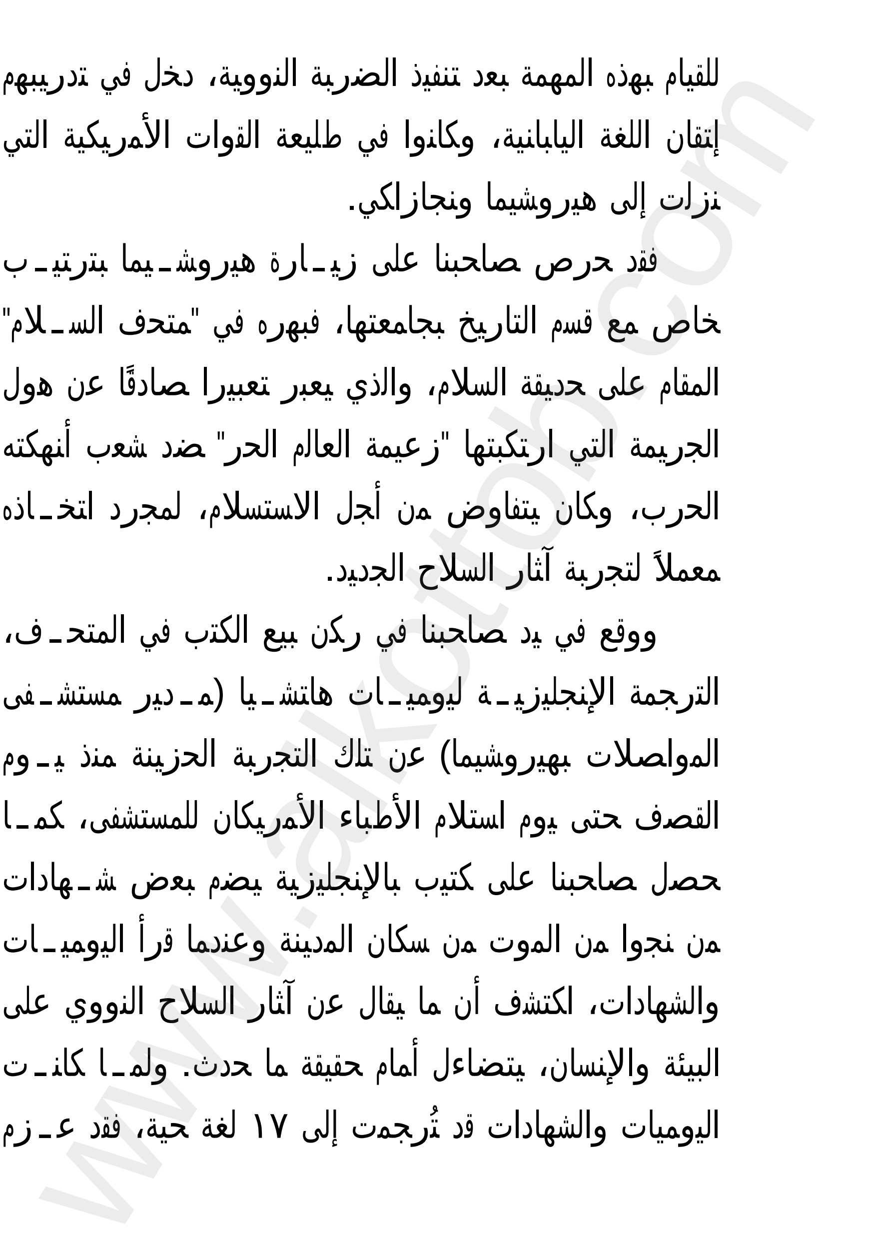
www.alkottob.com



ولم يشعر صاحبنا بالمرارة من هذا النكران، فهو عندما ساهم هذه المساهمة المتواضعة في حرمان جامعة تل أبيـب من إنشاء القسم، كان يؤدي لبلاده خدمة لم ينتظـر مقابلهـا شيئًا، بل كان البطل الحقيقي هو السفير المصري الذي دفعته وطنيته إلى تحطيم الروتين وتحمل مسئولية تقـديم الطلـب الرسمي دون التقيد بالقنوات الدبلوماسية الرسمية. هذا البطل الحقيقي كان الأجدر بالتكريم في تلك المناسبة إذا كان حيـا، وكانت ذكراه جديرة بالتكريم. كذلك كان السيد يعقوب بكـر (رحمه ا) عملاقًا شجاعا، ووطنيا بحق، فلـولاه لضـاعت الفرصة على مصر. ولكن أحدا لم يذكره بمناسبة الاحتفـال ولو بكلمة واحدة، ولا شك أن ا جعل هذا العمل في ميزان حسناته، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وكان الاهتمام باليابان – عند صاحبنا – يمتد إلى مأساة استخدام السلاح الذري ضد هيروشيما ونجازاكي في ختـام الحرب العالمية الثانية. فقد اسـتخدمت الولايـات المتحـدة الأمريكية اليابان وأهلها كحقل تجارب للوقوف علـى تـأثير القصف النووي على البيئة والإنسان. ولا أدل على ذلك من وجود فريق طبي أمريكي كبير، أُعد خلال سنوات الحـرب

www.alkottob.com



للقيام بهذه المهمة بعد تنفيذ الضربة النووية، دخل في تدريبهم إتقان اللغة اليابانية، وكانوا في طليعة القوات الأمريكية التي نزلت إلى هيروشيما ونجازاكي.

فقد حرص صاحبنا على زيـارة هيروشـيما بترتيـب خاص مع قسم التاريخ بجامعتها، فبهره في "متحف السـلام" المقام على حديقة السلام، والذي يعبر تعبيرا صادقًا عن هول الجريمة التي ارتكبتها "زعيمة العالم الحر" ضد شعب أنهكته الحرب، وكان يتفاوض من أجل الاستسلام، لمجرد اتخـاذه معملاً لتجربة آثار السلاح الجديد.

ووقع في يد صاحبنا في ركن بيع الكتب في المتحـف، الترجمة الإنجليزيـة ليوميـات هاتشـيا (مـدير مستشـفى المواصلات بهيروشيما) عن تلك التجربة الحزينة منذ يـوم القصف حتى يوم استلام الأطباء الأمريكان للمستشفى، كمـا حصل صاحبنا على كتيب بالإنجليزية يضم بعض شـهادات من نجوا من الموت من سكان المدينة وعندما قرأ اليوميـات والشهادات، اكتشف أن ما يقال عن آثار السلاح النووي على البيئة والإنسان، يتضاءل أمام حقيقة ما حدث. ولمـا كانـت اليوميات والشهادات قد تُرجمت إلى ١٧ لغة حية، فقد عـزم

www.alkottob.com

صاحبنا أن يجعل العربية اللغة الثامنة عشر التي تُنقل إليها، ليقينه أن القارئ العربي لابد أن يقف على حجم الجرم الذي ارتكبته أمريكا في حق الإنسانية، وليساهم في كشف الستار عن زيف الدعاوى التي يروجها البعض عنها في الوطن العربي.

وحرصا على صدور الترجمة بصورة دقيقة ووافية، كرر صاحبنا زيارته لهيروشيما، وراح يتتبع المواقع التي ورد ذكرها باليوميات، وزار أحد المراكز الطبية التي تأوي الجيل الثاني من ضحايا الإشعاع الذري. وانتهى من ترجمة الكتاب (اليوميات والشهادات) عام ١٩٧٥، تم طبعها على نفقته الخاصة (١٥٠٠ نسخة).

واختار أن يهديها: "إلى أصدقاء أمريكا.. عظة وعبرة" ولكن صاحب المطبعة نصحه بحذف الإهداء؛ حتى لا تعترض الرقابة على صدوره. وبعد إتمام الطباعة تعاقد مع توزيع الأهرام على توزيعه. وحرص صلاح الغمراوي مدير توزيع الأهرام أن يلفت نظره إلى أن الوقت غير مناسب لصدور مثل هذا الكتاب. فأصر على موقفه.

www.alkottob.com

وبعد أسبوعين فوجئ صهر صاحبنا بعربة توزيع الأهرام تصل إلى منزله حاملة النسخ كلها(فيما عدا ٢٥ نسخة). وظل الكتاب يشغل غرفة من شقة صهره حتى عاد من قطر عام ١٩٧٨، وراح يطوف على المكتبات يعرض عليها توزيع الكتاب، فاكتشف أن هناك تعليمات شفهية من المباحث العامة بعدم طرح الكتاب للبيع. وأخيرا دله صديقه عبد الرحيم عبد الرحيم على مكتبة الخانجي التي قبلت الكتاب لتصديره إلى "دول جبهة الرفض" (العراق – سوريا – ليبيا – الجزائر). وكانت القواعد المعمول بها تقتضي إرسال نسخة (أو عدد محدد من النسخ) إلى البلد المعني للحصول على موافقة الرقابة. ومن عجب أن الرقابة في البلاد الأربعة رفضت السماح بدخول الكتاب، فطلب محمد الخانجي (صاحب المكتبة) من صاحبنا أن يسحب الكتاب معتذرا عن عدم استطاعته طرحها في السوق.

وهكذا وجد صاحبنا نفسه من "ضحايا" هيروشيما، واكتشف زيف تشدق النظم العربية "التقدمية" بشعارات معاداة الإمبريالية، ومدى ارتباط أجهزتها الأمنية بالولايات المتحدة الأمريكية. ولكن صاحبنا ظل يتذرع بأمل العثور على موزع

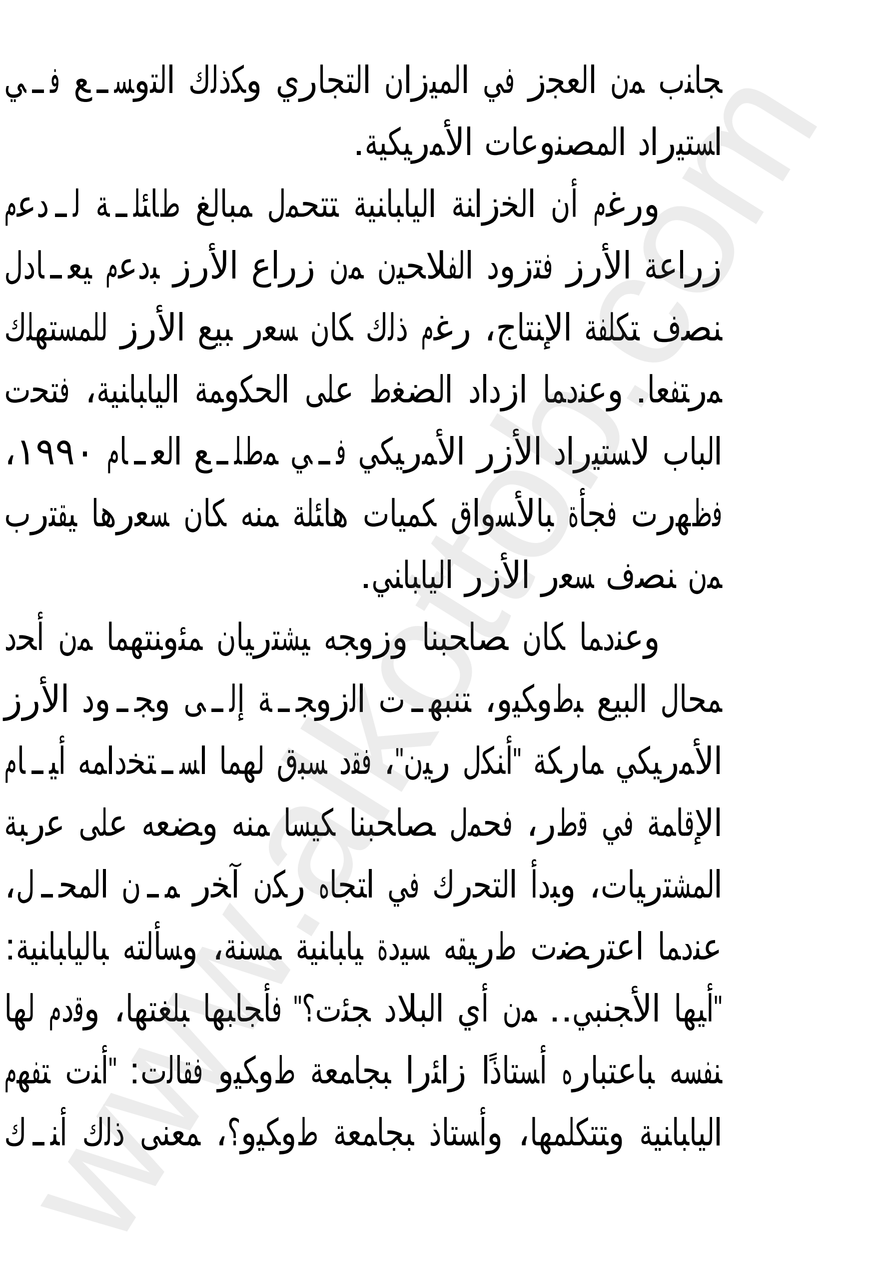
www.alkottob.com

يقبل الكتاب، فسلمه لدار الثقافة الجديـدة، وقـال لصـاحبها (محمد الجندي) إنه يريد أن يصل الكتاب إلـى النـاس، ولا تهمه المادة، وانتهت صلته بالكتاب الذي كان يعرض علـى استحياء في ركن الدار بمعرض الكتاب، ولكنه حـزين لأن الرسالة التي قصدها من وراء هذا الجهد لم تصل لأصحابها.

ولعل أهم ما بهر صاحبنا في اليابـان، ذلـك الـتلاحم الوطني الغريب بين أبناء الشعب علـى اخـتلاف مـواقعهم الاجتماعية، دفاعا عن المصالح اليابانية، وذلك التضامن التام في اتخاذ المواقف الحاسمة والالتزام الكامل بالمقاومة السلمية (الموجعة) للضغوط الأمريكية على بلادهم.

ففي العام الأخير الذي قضاه صـاحبنا أسـتاذًا زائـرا بجامعة طوكيو (١٩٨٩ – ١٩٩٠)، كانت اليابان تتعـرض لضغوط شديدة من جانب الولايات المتحدة لإصـلاح الميـل الشديد في الميزان التجاري بين البلدين لصالح اليابان، الذي خلاف عجزا كبيرا جعل أمريكا مدينة لليابان بعدد هائل مـن مليارات الدولارات. وألحت أمريكا على الحكومـة اليابانيـة للتوقف عن إنتاج الأرز اكتفاء باستيراده من أمريكـا لسـد

www.alkottob.com

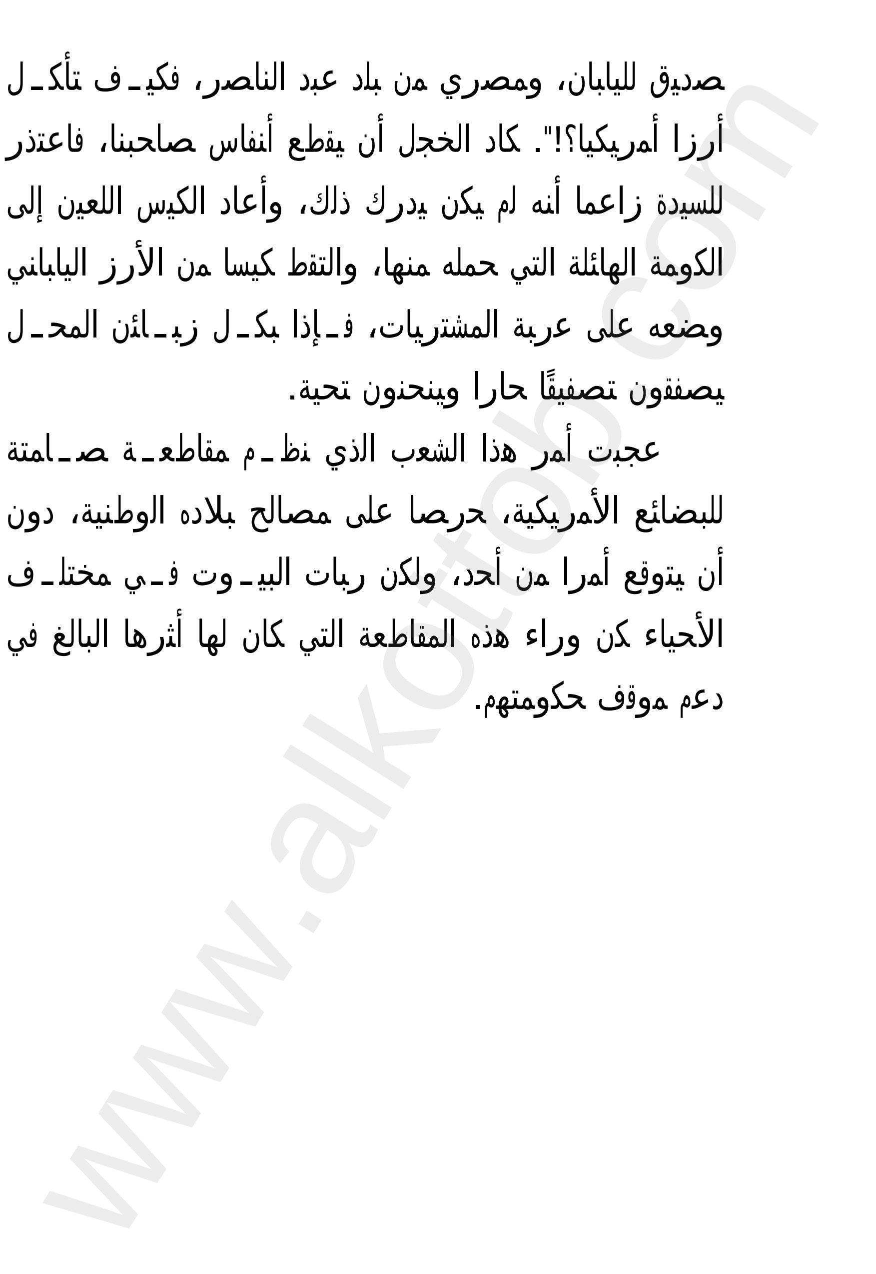


جانب من العجز في الميزان التجاري وكذلك التوسـع فـي استيراد المصنوعات الأمريكية.

ورغم أن الخزانة اليابانية تتحمل مبالغ طائلـة لـدعم زراعة الأرز فتزود الفلاحين من زراع الأرز بدعم يعـادل نصف تكلفة الإنتاج، رغم ذلك كان سعر بيع الأرز للمستهلك مرتفعا. وعندما ازداد الضغط على الحكومة اليابانية، فتحت الباب لاستيراد الأزر الأمريكي فـي مطلـع العـام ١٩٩٠، فظهرت فجأة بالأسواق كميات هائلة منه كان سعرها يقترب من نصف سعر الأزر الياباني.

وعندما كان صاحبنا وزوجه يشتريان مئونتهما من أحد محال البيع بطوكيو، تنبهـت الزوجـة إلـى وجـود الأرز الأمريكي ماركة "أنكل رين"، فقد سبق لهما اسـتخدامه أيـام الإقامة في قطر، فحمل صاحبنا كيسا منه وضعه على عربة المشتريات، وبدأ التحرك في اتجاه ركن آخر مـن المحـل، عندما اعترضت طريقه سيدة يابانية مسنة، وسألته باليابانية: "أيها الأجنبي.. من أي البلاد جئت؟" فأجابها بلغتها، وقدم لها نفسه باعتباره أستاذًا زائرا بجامعة طوكيو فقالت: "أنت تفهم اليابانية وتتكلمها، وأستاذ بجامعة طوكيو؟، معنى ذلك أنـك

www.alkottob.com



صديق لليابان، ومصري من بلد عبد الناصر، فكيـف تأكـل أرزا أمريكيا؟!". كاد الخجل أن يقطع أنفاس صاحبنا، فاعتذر للسيدة زاعما أنه لم يكن يدرك ذلك، وأعاد الكيس اللعين إلى الكومة الهائلة التي حمله منها، والتقط كيسا من الأرز الياباني وضعه على عربة المشتريات، فـإذا بكـل زبـائن المحـل يصفقون تصفيقًا حارا وينحنون تحية.

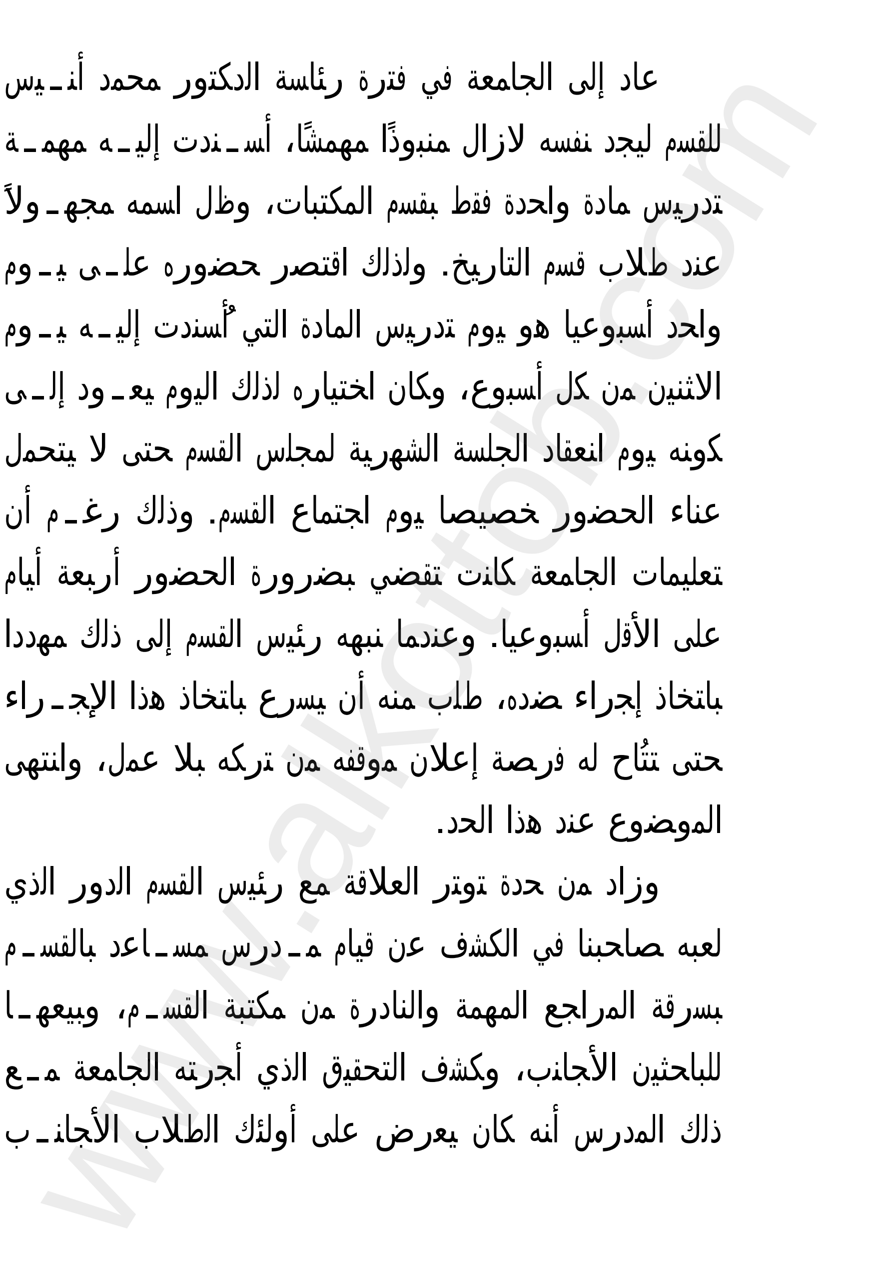
عجبت أمر هذا الشعب الذي نظـم مقاطعـة صـامتة للبضائع الأمريكية، حرصا على مصالح بلاده الوطنية، دون أن يتوقع أمرا من أحد، ولكن ربات البيـوت فـي مختلـف الأحياء كن وراء هذه المقاطعة التي كان لها أثرها البالغ في دعم موقف حكومتهم.

www.alkottob.com

بين القاهرة والدوحة

فضل صاحبنا أن تكون عودته من طوكيو إلى القـاهرة عبر لندن، ليتوقف هناك أسبوعين يطلع فيهما - لأول مرة – على الوثائق البريطانية بدار المحفوظات العامة هناك، ولكنه تبين له أن الاطلاع موقوف حتى منتصف أكتوبر لإضـافة الوثائق التي رفع عنها حظر الاطلاع وخرجت عـن نطـاق السرية إلى فهارس الوثائق التي تُتـاح للاطـلاع. فقضـى أسبوعا واحدا، صرفه في زيارة المتاحف والاطـلاع علـى مكتبة المتحف البريطاني وجامعة لنـدن، ثـم عـاد مسـاء ٥ أكتوبر ١٩٧٣ لتتغير أحوال المنطقة، ويهتز العالم كلـه بعد أقل من ٢٤ ساعة من عودته إلى أرض الـوطن بقيـام حرب السادس من أكتوبر، العاشر من رمضان، يوم العيـد الكبير عند اليهود "عيد الغفران" (يوم كيبور). وتمنى لو كان في اليابان عندئذ لاستطاع أن يخدم بلاده في هـذا الظـرف التاريخي بدلاً من وقوفه موقف المتـابع والمتفـرج وهـو بالقاهرة مكتوف اليدين.

www.alkottob.com



عاد إلى الجامعة في فترة رئاسة الدكتور محمد أنيس للقسم ليجد نفسه لازال منبوذًا مهمشًا، أسندت إليه مهمة تدريس مادة واحدة فقط بقسم المكتبات، وظل اسمه مجهولاً عند طلاب قسم التاريخ. ولذلك اقتصر حضوره على يوم واحد أسبوعيا هو يوم تدريس المادة التي أُسندت إليه يوم الاثنين من كل أسبوع، وكان اختياره لذلك اليوم يعود إلى كونه يوم انعقاد الجلسة الشهرية لمجلس القسم حتى لا يتحمل عناء الحضور خصيصا يوم اجتماع القسم. وذلك رغم أن تعليمات الجامعة كانت تقضي بضرورة الحضور أربعة أيام على الأقل أسبوعيا. وعندما نبهه رئيس القسم إلى ذلك مهددا باتخاذ إجراء ضده، طلب منه أن يسرع باتخاذ هذا الإجراء حتى تتُاح له فرصة إعلان موقفه من تركه بلا عمل، وانتهى الموضوع عند هذا الحد.

وزاد من حدة توتر العلاقة مع رئيس القسم الدور الذي لعبه صاحبنا في الكشف عن قيام مدرس مساعد بالقسم بسرقة المراجع المهمة والنادرة من مكتبة القسم، وبيعها للباحثين الأجانب، وكشف التحقيق الذي أجرته الجامعة مع ذلك المدرس أنه كان يعرض على أولئك الطلاب الأجانب

www.alkottob.com

تقديم خدمات جنسية، وانتهى الأمر بصدور قرار من مجلس التأديب بفصله من الجامعة. وكان صاحبنا عنـدما اكتشـف الموضوع قد لجأ إلى رئيس القسم طالبا اتخاذ إجراء فأهانه، واتهمه بأنه إنما ينفذ "تكليفًا" من "المباحث" باعتباره "عمـيلاً" لها؛ لأن المشكو في حقه "تقدمي". فلم يجد صاحبنا مفرا من اللجوء إلى العميد (السيد يعقوب بكر) ودارت عجلة التحقيق الذي انتهى بفصل المدرس المساعد.

وسافر الدكتور محمد أنيس بعد هذا الأحداث بشهور إلى العراق معارا لجامعة بغداد، ثم انتقل منها إلى اليمن للتدريس بجامعة صنعاء، ثم إلى أبو ظبي مستشارا لمركز الدراسـات التاريخية هناك. وتخلل ذلك فترة عام ونصف العام قضـاها بالقاهرة أستاذًا غير متفرغ بقسم التاريخ عندما كان صـاحبنا رئيسا للقسم. وانتقل أنيس إلى رحاب ا عام ١٩٨٦ دون أن تُتاح لصاحبنا فرصة إقناع الرجل بسلامة موقفه.

ولعل أحدا لم يحزن على الرحيل المبكر لهذا الأسـتاذ الكبير مثلما حزن هو، فألقى محاضرة بنادي أعضاء هيئـة التدريس بالجامعة بين فيها فضله على الدراسات التاريخيـة في مصر وعلى صاحب المحاضرة وأبناء جيله. كما كان في

www.alkottob.com

مقدمة المتحدثين في الحفل التأبيني الذي أقامته كلية الإعـلام تكريما لذكراه وذكرى خليل صابات، مبرزاً دور الفقيد فـي تكوين بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الإعلام، منوها بما له من فضل عليه، وتم تكوين مجموعة من تلاميذه لإعـداد كتاب ينُشر على شرف الفقيد إحياء لذكراه، وأُسند التحريـر إلى محمد جمال الدين المسدي، فلم يكن الاختيار موفقًا؛ لأنه لم ينجز ما أُسند إليه، رغم إصراره على القيام به.

بـدأ العـام الدراسـي التـالي للعـودة مـن اليابـان (١٩٧٥/١٩٧٤)، وصاحبنا لازال منبوذًا مهمشًا، ولكنه كان مشغولاً بأمر أخيه صلاح الذي كان معيدا بالمعهد الصناعي بالمنيا ثم نُقل إلى المعهد الفني بشبرا، وعندما أوشـك علـى الانتهاء من إعداد رسالته للماجستير في الهندسة الميكانيكيـة هاجر المشرف إلى كندا، وتعنت رئيس القسم بهندسة عـين شمس معه، ورفض نقل الإشراف إلى مشرف آخر، وطالبه بإعداد موضوع جديد، ولما كانت مدة الخمس سنوات التـي لابد أن يحصل المعيد على الماجستير قبلها قد أوشكت علـى الانتهاء. كان لابد من البحث عن مخرج حتى لا يفقد وظيفته الأكاديمية ويتحول إلى وظيفة فنية. ونجح في الحصول على

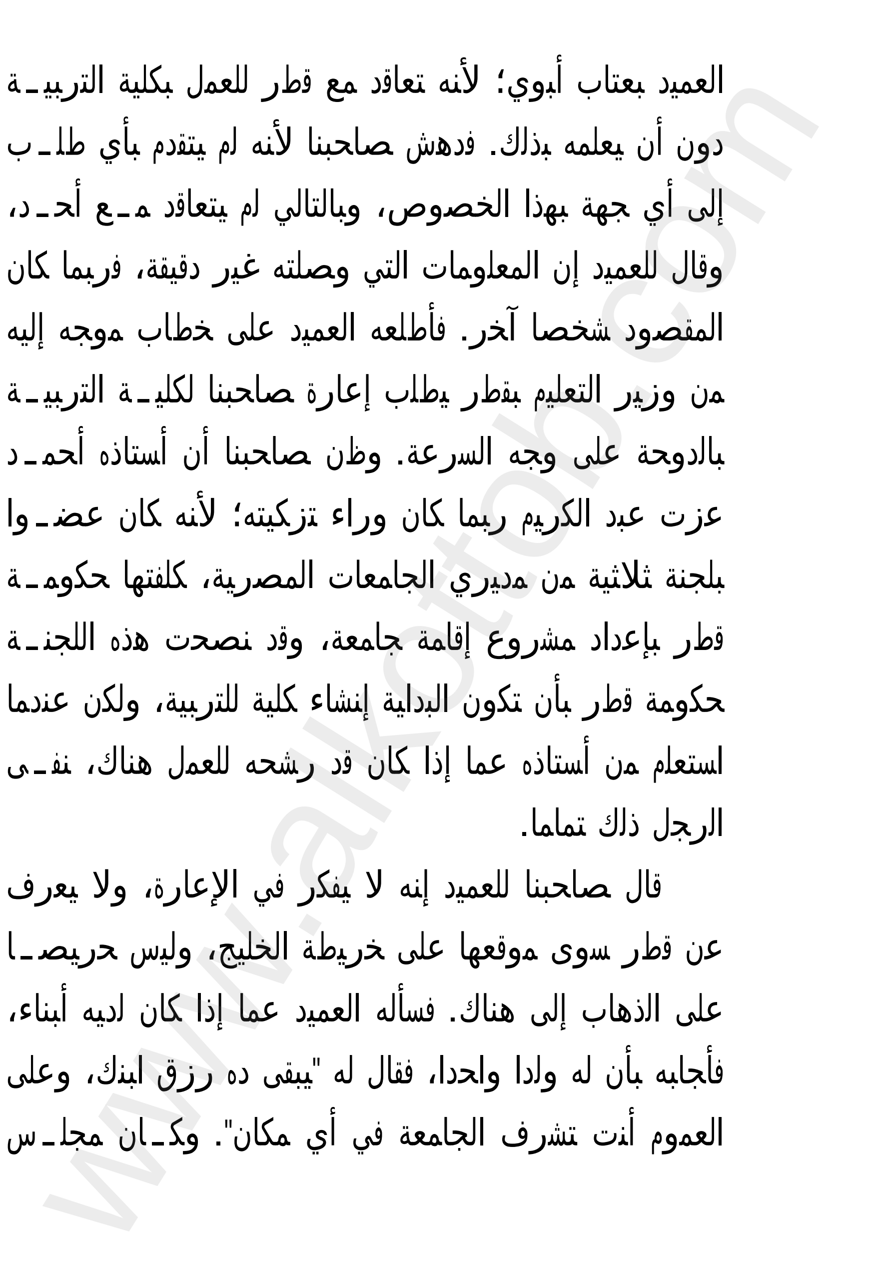
www.alkottob.com

قبول جامعة ليستر ببريطانيا للدراسة على نفقتـه الخاصـة، على أمل أن يأتي ا بالفرج عندما يذهب إلى هناك؛ فيجـد عملاً يساعده على تغطية نفقات الدراسة. وتقدم بطلب إلـى وكيل وزارة التعليم العالي لشئون المعاهد للحصـول علـى إجازة بدون مرتب للدراسة بالخارج.

طلب وكيل الوزارة ما يثبت وجود مصدر للإنفاق على الطالب أثناء وجوده بالخارج، وضـرورة أن يكـون لأحـد أقارب الدرجة الأولى حساب بالعملة الصـعبة، ولمـا كـان صاحبنا – بعد عودته من اليابان – من أصحاب الحسـابات بالعملة الصعبة، فكان لديه حسابا به ألف ومائتا دولار بالتمام والكمال، فقد زود أخاه بسند من البنك يفيد ذلـك، غيـر أن وكيل الوزارة لم يقتنع وطلب أن يكون للقريب مصدر دائـم بالعملة الصعبة، كأن يكون معارا بالخارج، وأُسقط فـي يـد صاحبنا وأخيه، ثم اتضح أن الموافقة يمكن أن تتم لو تم دفع خمسمائة جنيه لسعادة وكيل الوزارة، وهو ما لم يكن متوفرا لديهما.

وسط الانشغال بهذه "المعضلة" تلقى صاحبنا اسـتدعاء من عميد الكلية (السيد يعقوب بكر) فذهب لمقابلته، وبـادره

www.alkottob.com



العميد بعتاب أبوي؛ لأنه تعاقد مع قطر للعمل بكلية التربيـة دون أن يعلمه بذلك. فدهش صاحبنا لأنه لم يتقدم بأي طلـب إلى أي جهة بهذا الخصوص، وبالتالي لم يتعاقد مـع أحـد، وقال للعميد إن المعلومات التي وصلته غير دقيقة، فربما كان المقصود شخصا آخر. فأطلعه العميد على خطاب موجه إليه من وزير التعليم بقطر يطلب إعارة صاحبنا لكليـة التربيـة بالدوحة على وجه السرعة. وظن صاحبنا أن أستاذه أحمـد عزت عبد الكريم ربما كان وراء تزكيته؛ لأنه كان عضـوا بلجنة ثلاثية من مديري الجامعات المصرية، كلفتها حكومـة قطر بإعداد مشروع إقامة جامعة، وقد نصحت هذه اللجنـة حكومة قطر بأن تكون البداية إنشاء كلية للتربية، ولكن عندما استعلم من أستاذه عما إذا كان قد رشحه للعمل هناك، نفـى الرجل ذلك تماما.

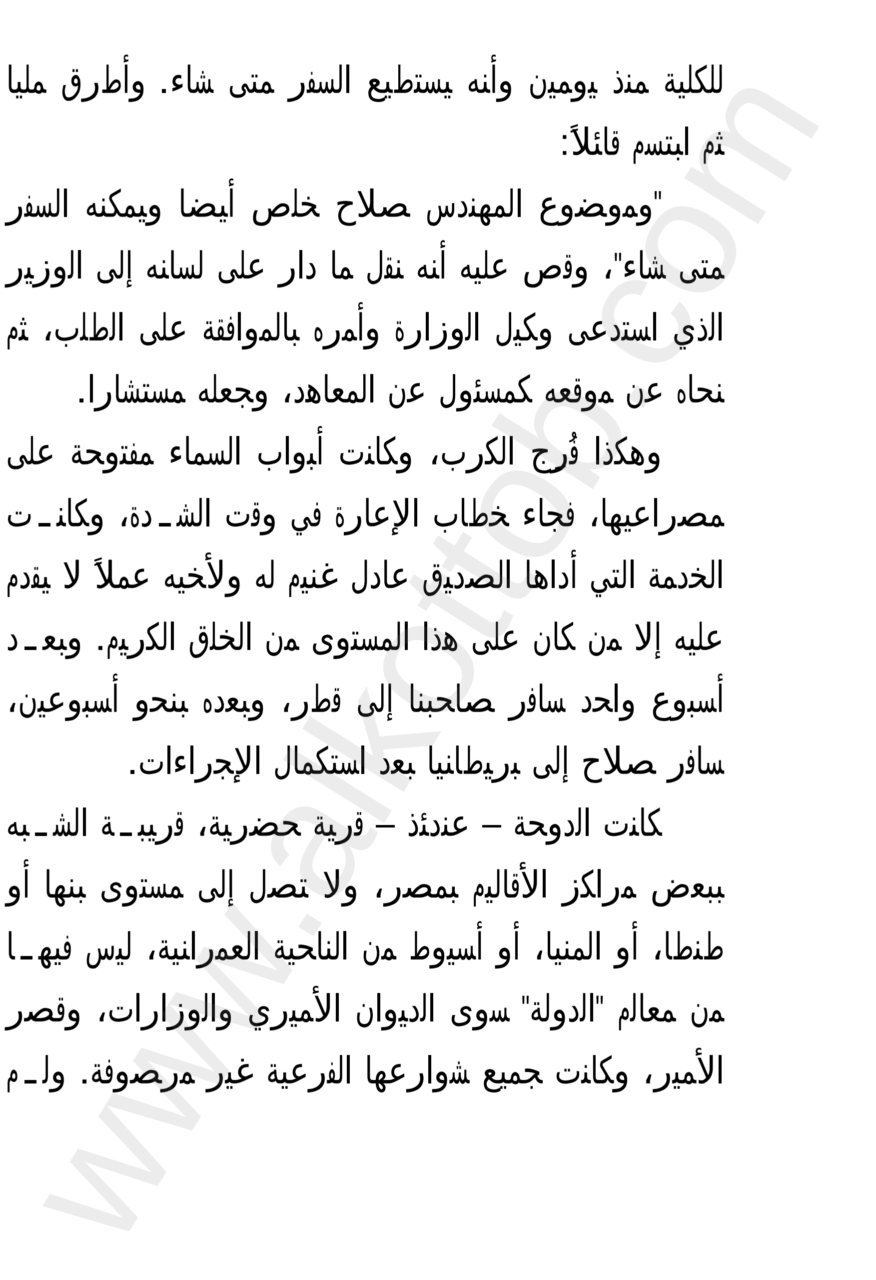
قال صاحبنا للعميد إنه لا يفكر في الإعارة، ولا يعرف عن قطر سوى موقعها على خريطة الخليج، وليس حريصـا على الذهاب إلى هناك. فسأله العميد عما إذا كان لديه أبناء، فأجابه بأن له ولدا واحدا، فقال له "يبقى ده رزق ابنك، وعلى العموم أنت تشرف الجامعة في أي مكان". وكـان مجلـس

www.alkottob.com

الكلية سوف يعقد في اليوم نفسه، فحمل العميد الخطاب معـه وحصل على موافقة رئيس القسم (أحمد السيد دراج) وعرض الموضوع على المجلس وتمت الموافقة عليه. بقي الحصـول على موافقة الأمن على الإعارة (وكانـت أساسـية)، وقـد تستغرق ما يزيد على الشهر (كما حدث عند سفره لليابـان)، ولما كانت الإعارة قد سعت إليه في وقت دقيق حرج بالنسبة لتحديد مستقبل أخيه، فقد اعتبرها صاحبنا حلاً إلهيا لمشـكلة وقف أمامها عاجزا محبطًا، وتذكر صديقه عادل غنيم الـذي كان مديرا لمكتب مدير جامعة عين شمس، ثم أصبح مـديرا لمكتب وزير التعليم العالي (إسماعيل غانم)، فتوجه إليه حتى يساعده في الحصول على موافقة الأمن فـي أقصـر وقـت ممكن. وحكى لصديقه سبب الحاجة إلى العجلة، فـروى لـه قصة أخيه مع وكيل الوزارة لشئون المعاهد العليا.

استمع عادل غنيم إلى القصة كلها، دون أن يبدي رأيا، وعندما استأذن صاحبنا للانصراف، وعده أن يبذل جهدا لدفع إجراءات الأمن، وطلب منه العودة بعد أسبوع. وعندما ذهب إليه في الموعد أبلغه صديقه أن موافقة الأمن سلُمت بالفعـل

www.alkottob.com



للكلية منذ يومين وأنه يستطيع السفر متى شاء. وأطرق مليا ثم ابتسم قائلاً:

"وموضوع المهندس صلاح خاص أيضا ويمكنه السفر متى شاء"، وقص عليه أنه نقل ما دار على لسانه إلى الوزير الذي استدعى وكيل الوزارة وأمره بالموافقة على الطلب، ثم نحاه عن موقعه كمسئول عن المعاهد، وجعله مستشارا.

وهكذا فُرج الكرب، وكانت أبواب السماء مفتوحة على مصراعيها، فجاء خطاب الإعارة في وقت الشـدة، وكانـت الخدمة التي أداها الصديق عادل غنيم له ولأخيه عملاً لا يقدم عليه إلا من كان على هذا المستوى من الخلق الكريم. وبعـد أسبوع واحد سافر صاحبنا إلى قطر، وبعده بنحو أسبوعين، سافر صلاح إلى بريطانيا بعد استكمال الإجراءات.

كانت الدوحة – عندئذ – قرية حضرية، قريبـة الشـبه ببعض مراكز الأقاليم بمصر، ولا تصل إلى مستوى بنها أو طنطا، أو المنيا، أو أسيوط من الناحية العمرانية، ليس فيهـا من معالم "الدولة" سوى الديوان الأميري والوزارات، وقصر الأمير، وكانت جميع شوارعها الفرعية غير مرصوفة. ولـم

www.alkottob.com

يكن بها من الفنادق سوى فندق الخليج (خمسة نجوم) وفندق الواحة (ثلاثة نجوم)، وفندق الدوحة (نجمتان).

أما "كلية التربية للمعلمين والمعلمات"، فكانت تقع في مواجهة حي شعبي يسكنه غالبية من الفلسطينيين يسمى "فريق غزة" يقع على بعد ١٢ كيلومترا من مدينة الدوحة على طريق الشمال، وتتكون الكلية من مبنى مدرستين إعداديتين (في الأصل) إحداهما للبنين والأخرى للبنات تقع على بعد كيلو مترين من المبنى الأول على طريق فرعي يؤدي إلى كلية البنات وينتهي عندها.

وكانت الإدارة ومكاتب الأساتذة بكلية البنين ومكاتب عضوات هيئة التدريس بكلية البنات، ولكن كان أعضاء هيئة التدريس من الذكور يقومون بالتدريس بكلية البنات، ولهم فيها غرفة استراحة، ولم يكن هناك مرحاض خاص بالرجال. وقد تغير هذا الوضع تدريجيا، فأصبحت هناك مكاتب للأساتذة بكلية البنات، وخُصص لهم مرحاض لاستخدامهم.

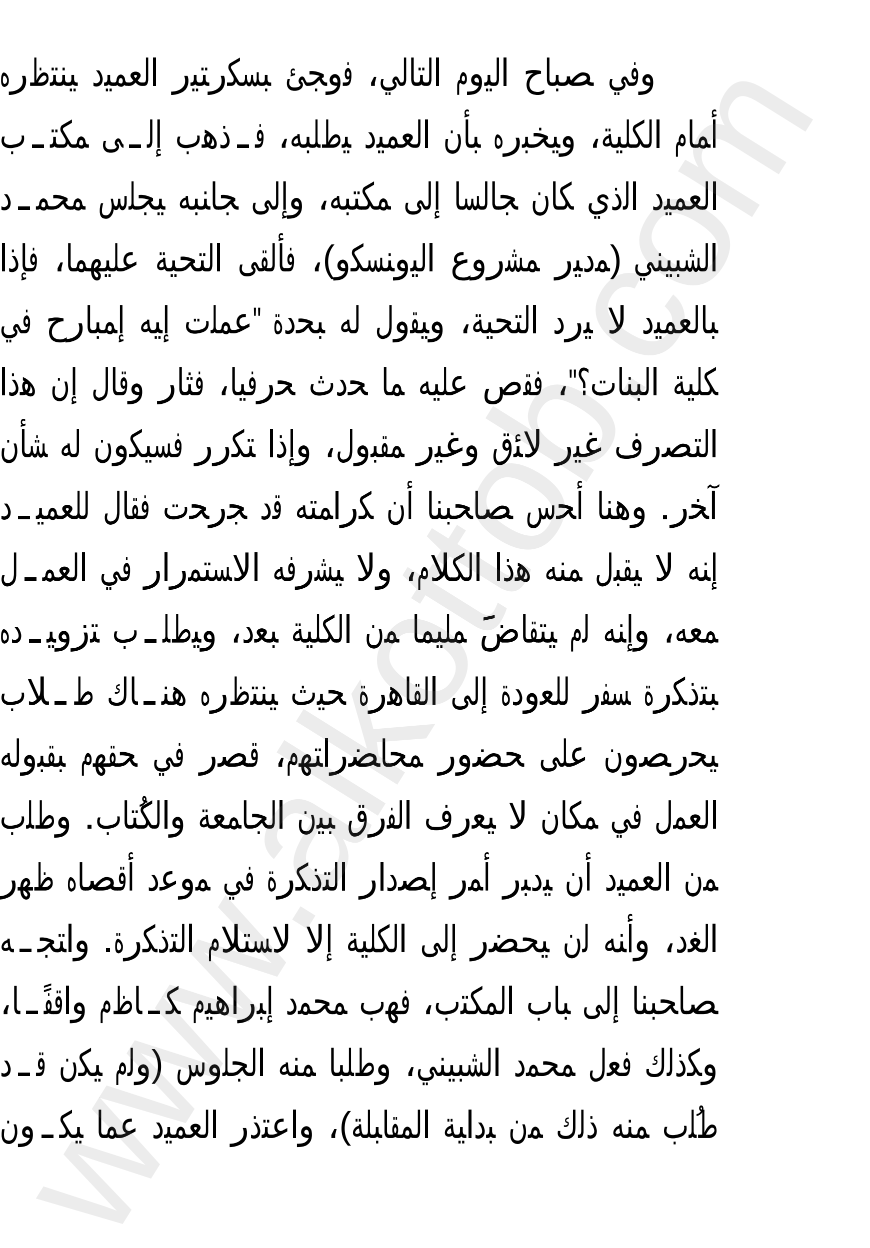
التقى صاحبنا عميد الكلية الدكتور محمد إبراهيم كاظم (الذي أصبح مديرا للجامعة فيما بعد). وعلم منه أن الذي

www.alkottob.com

رشحه له هو صلاح العقاد (أستاذ التـاريخ الحـديث بكليـة البنات) عندما اتصل به تليفونيا لهذا الغرض يسأله أن يدلـه على عضو هيئة تدريس لا توجد عوائق قانونية تحـول دون موافقة جامعته على إعارته، ولم تمض ٤٨ ساعة على هـذا اللقاء حتى اصطدم بالعميد، ولذلك قصة تُروى.

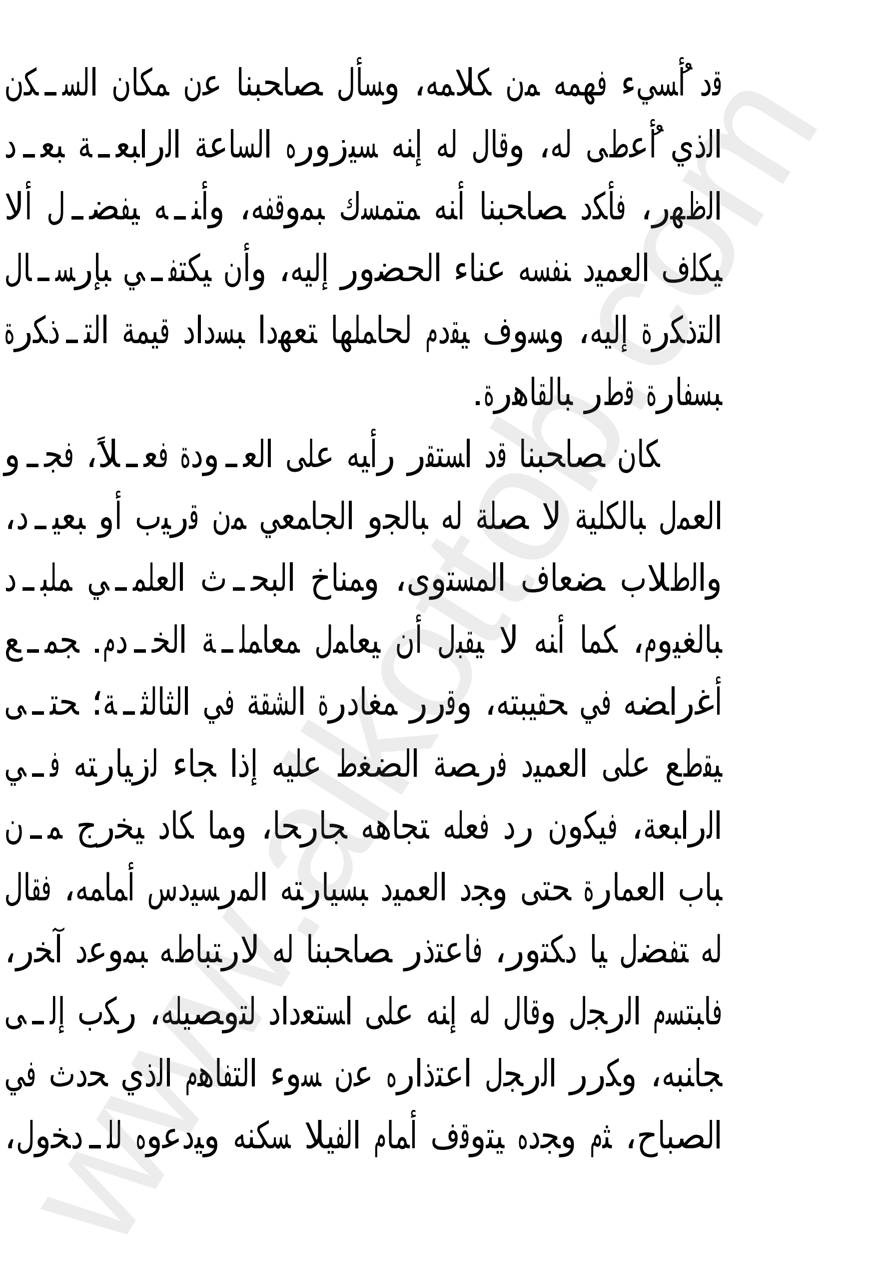
ذهب صاحبنا لإلقاء محاضرته الأولى على الطالبـات مرتديا بدلة كاملة ورباط عنق (تنفيذًا للتعليمات) رغم حرارة الجو في نوفمبر. وكان عدد الطالبات حوالي ٢٤ طالبة قـدم لهن نفسه، ثم بدأ إلقاء درسه الأول، فإذا بالطالبات يتهامسن ويضحكن وهن ينظرن إليه، فظن صاحبنا أن ثمة عيبا فـي هندامه، فولى وجه شطر السبورة وتأكد مـن أن الأمـر لا علاقة له بهندامه، فقال للطالبات: "هل هذا صف طالبات قسم العلوم الاجتماعية؟ " فأجبن بالإيجاب، فقال صاحبنا: "ظننـت أني دخلت حمام السيدات بطريق الخطأ، ما هذه الوقاحة؟ إن قاعة الدرس لها قداسة قاعة الصلاة، ومثل هـذا التصـرف يجعلني أنظر إلى أصحابه نظرة احتقار". ساد السكون التـام حتى انتهى الدرس. وانتقل بعد ذلك إلى كلية البنـين لإلقـاء درسين آخرين وانتهى اليوم.

www.alkottob.com



وفي صباح اليوم التالي، فوجئ بسكرتير العميد ينتظره أمام الكلية، ويخبره بأن العميد يطلبه، فـذهب إلـى مكتـب العميد الذي كان جالسا إلى مكتبه، وإلى جانبه يجلس محمـد الشبيني (مدير مشروع اليونسكو)، فألقى التحية عليهما، فإذا بالعميد لا يرد التحية، ويقول له بحدة "عملت إيه إمبارح في كلية البنات؟"، فقص عليه ما حدث حرفيا، فثار وقال إن هذا التصرف غير لائق وغير مقبول، وإذا تكرر فسيكون له شأن آخر. وهنا أحس صاحبنا أن كرامته قد جرحت فقال للعميـد إنه لا يقبل منه هذا الكلام، ولا يشرفه الاستمرار في العمـل معه، وإنه لم يتقاضَ مليما من الكلية بعد، ويطلـب تزويـده بتذكرة سفر للعودة إلى القاهرة حيث ينتظره هنـاك طـلاب يحرصون على حضور محاضراتهم، قصر في حقهم بقبوله العمل في مكان لا يعرف الفرق بين الجامعة والكُتاب. وطلب من العميد أن يدبر أمر إصدار التذكرة في موعد أقصاه ظهر الغد، وأنه لن يحضر إلى الكلية إلا لاستلام التذكرة. واتجـه صاحبنا إلى باب المكتب، فهب محمد إبراهيم كـاظم واقفًـا، وكذلك فعل محمد الشبيني، وطلبا منه الجلوس (ولم يكن قـد طُلب منه ذلك من بداية المقابلة)، واعتذر العميد عما يكـون

www.alkottob.com



قد أُسيء فهمه من كلامه، وسأل صاحبنا عن مكان السـكن الذي أُعطى له، وقال له إنه سيزوره الساعة الرابعـة بعـد الظهر، فأكد صاحبنا أنه متمسك بموقفه، وأنـه يفضـل ألا يكلف العميد نفسه عناء الحضور إليه، وأن يكتفـي بإرسـال التذكرة إليه، وسوف يقدم لحاملها تعهدا بسداد قيمة التـذكرة بسفارة قطر بالقاهرة.

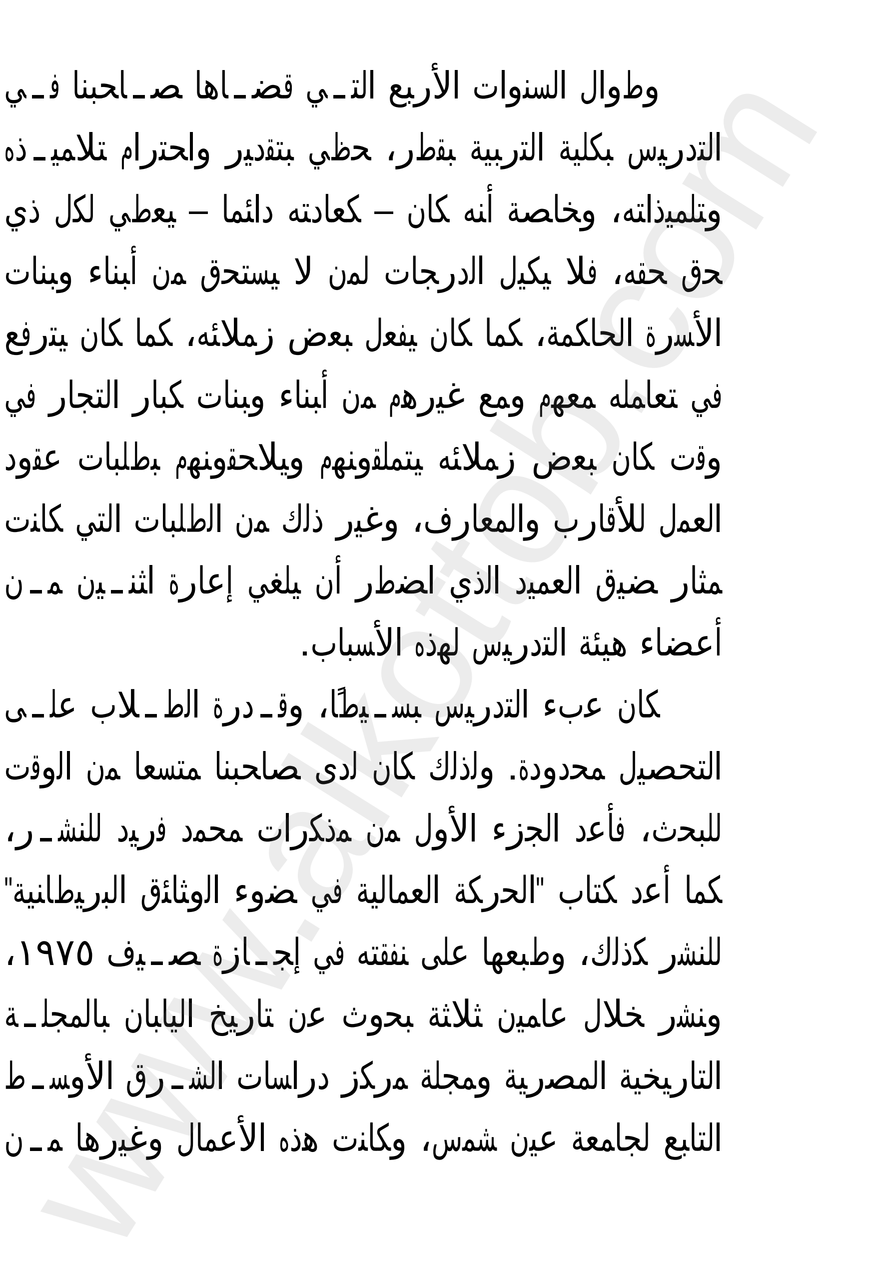
كان صاحبنا قد استقر رأيه على العـودة فعـلاً، فجـو العمل بالكلية لا صلة له بالجو الجامعي من قريب أو بعيـد، والطلاب ضعاف المستوى، ومناخ البحـث العلمـي ملبـد بالغيوم، كما أنه لا يقبل أن يعامل معاملـة الخـدم. جمـع أغراضه في حقيبته، وقرر مغادرة الشقة في الثالثـة؛ حتـى يقطع على العميد فرصة الضغط عليه إذا جاء لزيارته فـي الرابعة، فيكون رد فعله تجاهه جارحا، وما كاد يخرج مـن باب العمارة حتى وجد العميد بسيارته المرسيدس أمامه، فقال له تفضل يا دكتور، فاعتذر صاحبنا له لارتباطه بموعد آخر، فابتسم الرجل وقال له إنه على استعداد لتوصيله، ركب إلـى جانبه، وكرر الرجل اعتذاره عن سوء التفاهم الذي حدث في الصباح، ثم وجده يتوقف أمام الفيلا سكنه ويدعوه للـدخول،

www.alkottob.com

وقدمه لزوجته أستاذ علم النفس الدكتور صفاء. ودعاه لتناول العشاء مع الأسرة في الخامسة بعد ساعتين من حديث ودي، شرح له فيه ظروف قطر، والوضع الحساس لمجرد وجـود كلية جامعية للبنات، وخاصة موقف وزير التعليم الشيخ جاسم بن حمد آل ثانٍ (شقيق الأمير الشيخ خليفة) الذي لم يقبل أن يتولى الرجال التدريس للبنات إلا بصعوبة بالغـة، وأن مـن الحكمة أن تُراعى هذه الظروف الاجتماعية، ونضـعها فـي الاعتبار. ولعبت الدكتور صفاء دورا في تطييـب خـاطره، وأعاده العميد إلى مقر سكنه مؤكدا له أنه يسعده أن يتعـاون مع رجل مثله.

وفي صباح اليوم التالي كان موعد محاضـرة البنـات، فاستهلها صاحبنا بأن موقفه لن يتغير مع أي محاولة للإخلال بنظام الدراسة، وأنه ليس حريصا علـى التـدريس لمـن لا يستحقون أن يبذل جهدا معهم. فوقفت إحدى الطالبات لـتعلن له أن طالبات الصف يعتذرن له، وأن من قدم الشكوى ثلاث من الطالبات الفلسطينيات، أبلغن رئيسة القسم كـوثر عبـد الرسول فطلبت منهم إعداد شكوى مكتوبة وسلمتها للعميـد. كانت تلك الطالبة مريم بنت خليفة بن حمد (كريمة الأمير).

www.alkottob.com


www.alkottob.com

وطوال السنوات الأربع التـي قضـاها صـاحبنا فـي التدريس بكلية التربية بقطر، حظي بتقدير واحترام تلاميـذه وتلميذاته، وخاصة أنه كان – كعادته دائما – يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يكيل الدرجات لمن لا يستحق من أبناء وبنات الأسرة الحاكمة، كما كان يفعل بعض زملائه، كما كان يترفع في تعامله معهم ومع غيرهم من أبناء وبنات كبار التجار في وقت كان بعض زملائه يتملقونهم ويلاحقونهم بطلبات عقود العمل للأقارب والمعارف، وغير ذلك من الطلبات التي كانت مثار ضيق العميد الذي اضطر أن يلغي إعارة اثنـين مـن أعضاء هيئة التدريس لهذه الأسباب.

كان عبء التدريس بسـيطًا، وقـدرة الطـلاب علـى التحصيل محدودة. ولذلك كان لدى صاحبنا متسعا من الوقت للبحث، فأعد الجزء الأول من مذكرات محمد فريد للنشـر، كما أعد كتاب "الحركة العمالية في ضوء الوثائق البريطانية" للنشر كذلك، وطبعها على نفقته في إجـازة صـيف ١٩٧٥، ونشر خلال عامين ثلاثة بحوث عن تاريخ اليابان بالمجلـة التاريخية المصرية ومجلة مركز دراسات الشـرق الأوسـط التابع لجامعة عين شمس، وكانت هذه الأعمال وغيرها مـن

www.alkottob.com

بين ما تقدم به من أعمال للترقية لوظيفة أستاذ مساعد بآداب القاهرة عام ١٩٧٦.

وفي صيف ١٩٧٦ ذهب بأسرته الصغيرة إلـى لنـدن حيث قضى إجازة الصيف فـي الاطـلاع علـى الوثـائق البريطانية (لأول مرة) على نفقته الخاصـة وصـور منهـا مجموعة بالميكروفيلم والميكروفيش كانت أساسا للمزيد مـن البحوث التي أعدها في السنوات التالية، إضافة إلى ترجمتـه موريس دوب "دراسات في تطور الرأسمالية" وكتاب "يوميات هيروشيما" لهاتشيا. وبذلك حوَّل فترة الإعارة إلى ما يشـبه "الإجازة الدراسية"، فأنتج خلالها من الأعمال التـي نُشـرت بالعربية والإنجليزية ما أتاح له التقدم إلى الترقيـة لدرجـة أستاذ مساعد، ثم لدرجة أستاذ بمجموعـة مـن الدراسـات والأبحاث المبتكرة، بفضل استثماره الجيد لفتـرة الإعـارة. فنشر آخر ما أعده من أبحاث أثناء تلك السنوات عام ١٩٨٠ بعد عودته من الإعارة بعامين، وحصل على درجة الأستاذية – بجدارة – في ديسمبر ١٩٨١.

وعندما عاد من الإعارة عام ١٩٧٨ كانت حـال قسـم التاريخ بآداب القاهرة تدعو إلى الرثاء؛ فقـد خـرج معظـم

www.alkottob.com

أساتذة القسم في إعارات إلى الكويت والسـعودية واسـتقال بعضهم من خدمة الجامعة حتى يستطيع التغلب على قواعـد الإعارة والبقاء إلى ما شاء ا في تلـك الـبلاد، واضـطر هؤلاء أن يعينوا على عجل بعض من لم يكتمـل تكـوينهم العلمي بعد مثلما فعل أستاذ العصور الوسطى للتغلب علـى مشكلة نسبة الإعارة، فكلف مدرسا بمساعدة المعيـد علـى صياغة ما لديه من مادة خـلال شـهر، ونـاقش الرسـالة، وحصل على الدكتوراه، وهو لا يعرف المبـادئ المنهجيـة للبحث العلمي، وتدرج في السلك الأكاديمي حتى وصل إلـى الأستاذية دون أن يحسن مستواه العلمي، ودون أن يقدم عملاً مبتكرا، بل كانت كل أعماله إعادة إنتاج لموضوعات قُتلـت بحثًا. وهكذا جنى الأساتذة على القسم بعدم اهتمامهم بتربيـة الكوادر لدعم تخصصاتهم، وعندما تركوا القسم وسعوا فـي مناكب الجامعات الخليجية أصبح القسم قاعا صفصفًا، فكـان لا وجه للمقارنة بينه وبين قسم التاريخ بجامعة عين شـمس أو نظيره بجامعة الإسكندرية.

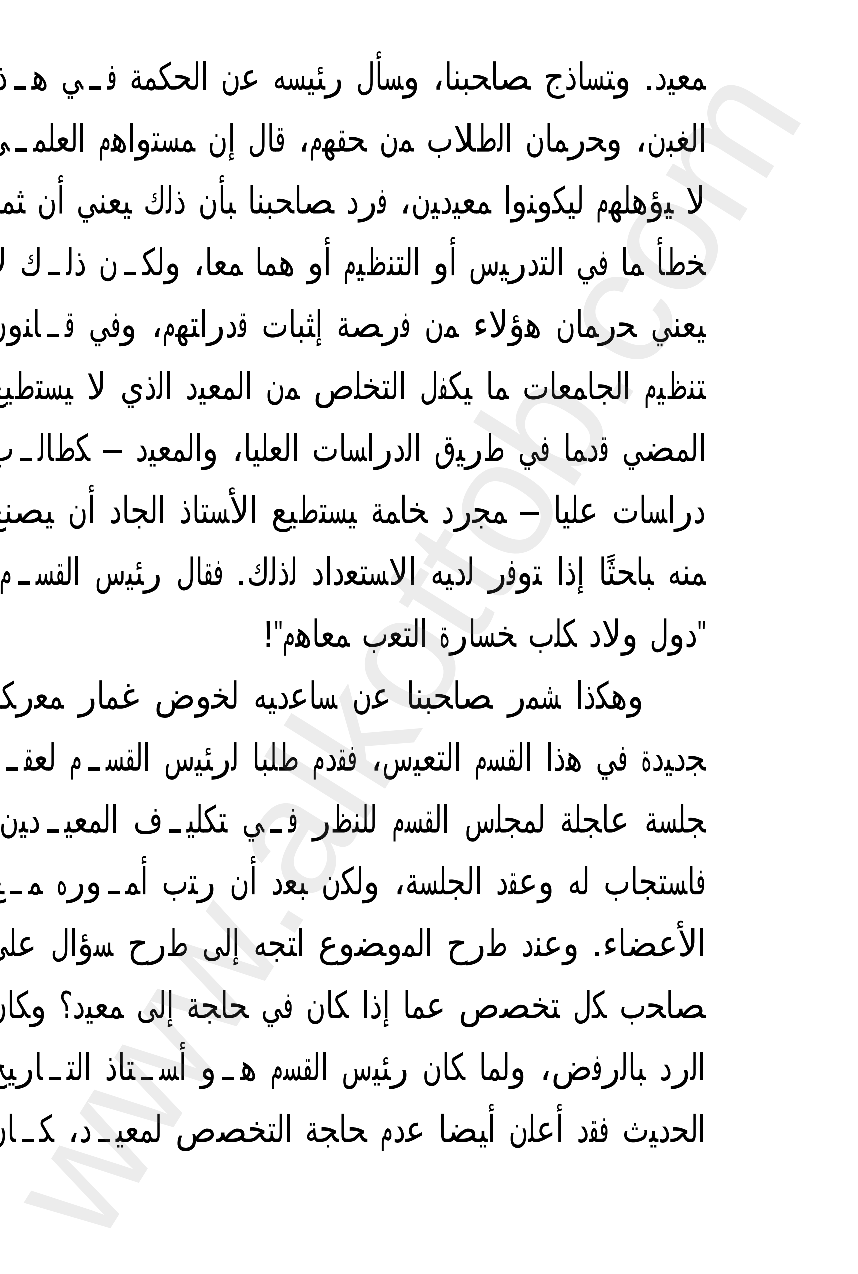
ولم يكن بالقسم – عند عودته – سـوى أسـتاذ واحـد للتاريخ الحديث يتولى رئاسة القسم (السـيد رجـب حـراز)

www.alkottob.com

وأستاذ مساعد للعصور الوسطى نُقل من معهـد الدراسـات الأفريقية لإتاحة فرصة الإعارة لزميل آخر(محمـد محمـد أمين) وأستاذ تاريخ إسلامي (محمد أمين صـالح) وأسـتاذ مساعد تاريخ قديم (السيد الناصري)، ولم يكـن بـه سـوى معيدتين.

مارس صاحبنا صلاحياته كأستاذ مساعد كاملة من حيث التدريس لمرحلة الليسانس وللدراسات العليا، وتولى رئاسـة لجنة امتحان الفرقة الرابعة عـام ١٩٧٩/ ١٩٨٠، ولجنـة رصد الدرجات، وعند إعلان النتيجة ثار رئيس القسم لوجود ثلاثة أوائل حصلوا على تقدير جيد جدا، ولام صاحبنا علـى إظهاره النتيجة على هذا النحو، وعدم إبلاغه قبل إعلانهـا، وعندما استفسر منه عما كان يمكن عمله، طالما أن الطلاب استحقوا هذه التقديرات بجهدهم، كشف رئيس القسم المستور فقال إن رئيس لجان الرصد في السـنوات السـابقة (أسـتاذ مساعد العصور الوسطى الذي أُعير للسعودية) كـان ينبهـه دائما في حالة وجود طلاب يستحقون النجاح بتقدير جيد جدا، فيتم إنقاص درجات أعمال السنة بالقدر الـذي يحـول دون حصول أولئك الطلاب على تقدير يؤهلهم للتعيين في وظيفة

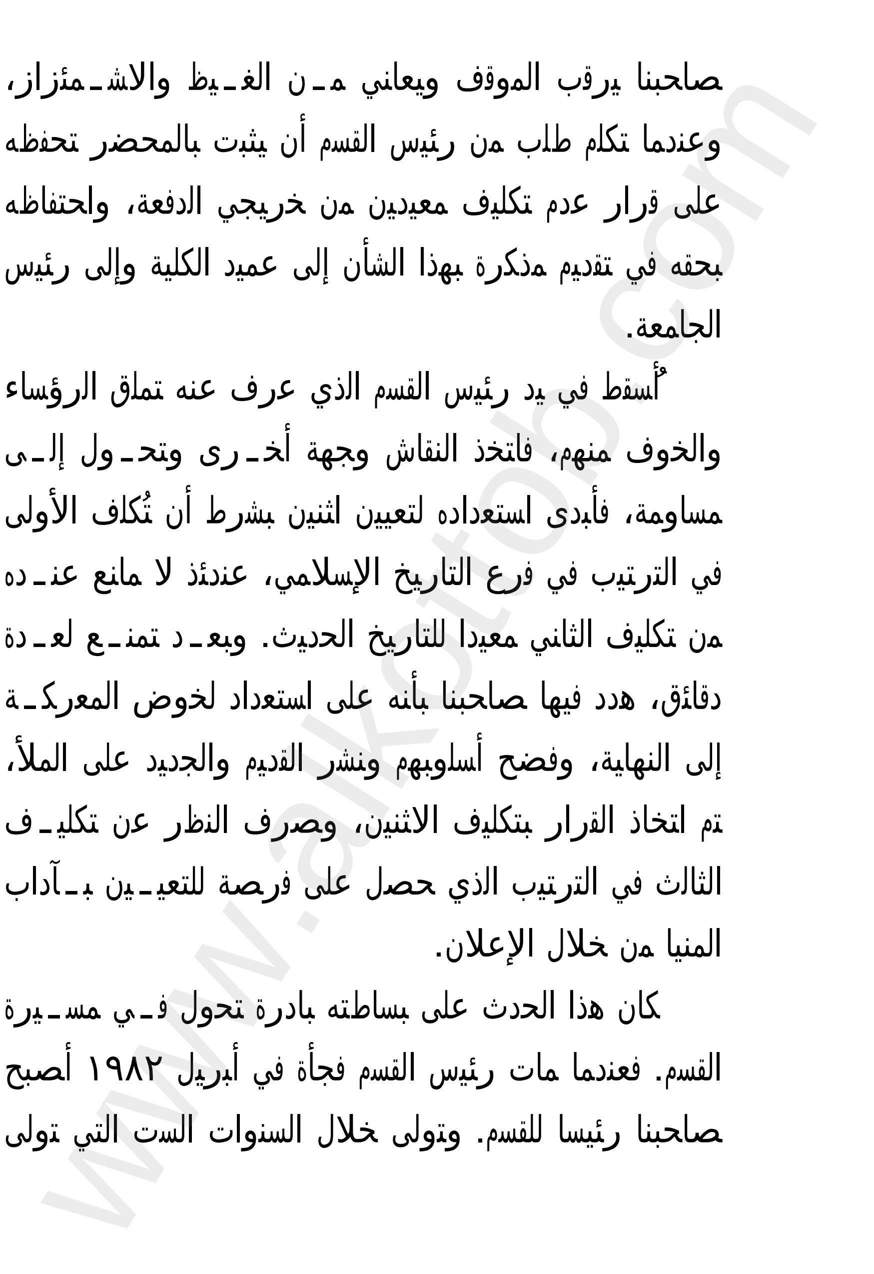
www.alkottob.com



معيد. وتساذج صاحبنا، وسأل رئيسه عن الحكمة في هذا الغبن، وحرمان الطلاب من حقهم، قال إن مستواهم العلمي لا يؤهلهم ليكونوا معيدين، فرد صاحبنا بأن ذلك يعني أن ثمة خطأ ما في التدريس أو التنظيم أو هما معا، ولكن ذلك لا يعني حرمان هؤلاء من فرصة إثبات قدراتهم، وفي قانون تنظيم الجامعات ما يكفل التخاص من المعيد الذي لا يستطيع المضي قدما في طريق الدراسات العليا، والمعيد – كطالب دراسات عليا – مجرد خامة يستطيع الأستاذ الجاد أن يصنع منه باحثًا إذا توفر لديه الاستعداد لذلك. فقال رئيس القسم: "دول ولاد كلاب خسارة التعب معاهم"!

وهكذا شمر صاحبنا عن ساعديه لخوض غمار معركة جديدة في هذا القسم التعيس، فقدم طلبا لرئيس القسم لعقد جلسة عاجلة لمجلس القسم للنظر في تكليف المعيدين، فاستجاب له وعقد الجلسة، ولكن بعد أن رتب أموره مع الأعضاء. وعند طرح الموضوع اتجه إلى طرح سؤال على صاحب كل تخصص عما إذا كان في حاجة إلى معيد؟ وكان الرد بالرفض، ولما كان رئيس القسم هو أستاذ التاريخ الحديث فقد أعلن أيضا عدم حاجة التخصص لمعيد، كان

www.alkottob.com



صاحبنا يرقب الموقف ويعاني مـن الغـيظ والاشـمئزاز، وعندما تكلم طالب من رئيس القسم أن يثبت بالمحضر تحفظه على قرار عدم تكليف معيدين من خريجي الدفعة، واحتفاظه بحقه في تقديم مذكرة بهذا الشأن إلى عميد الكلية وإلى رئيس الجامعة.

أُسقط في يد رئيس القسم الذي عرف عنه تملق الرؤساء والخوف منهم، فاتخذ النقاش وجهة أخـرى وتحـول إلـى مساومة، فأبدى استعداده لتعيين اثنين بشرط أن تُكاف الأولى في الترتيب في فرع التاريخ الإسلامي، عندئذ لا مانع عنـده من تكليف الثاني معيدا للتاريخ الحديث. وبعـد تمنـع لعـدة دقائق، هدد فيها صاحبنا بأنه على استعداد لخوض المعركـة إلى النهاية، وفضح أسلوبهم ونشر القديم والجديد على الملأ، تم اتخاذ القرار بتكليف الاثنين، وصرف النظر عن تكليـف الثالث في الترتيب الذي حصل على فرصة للتعيـين بـآداب المنيا من خلال الإعلان.

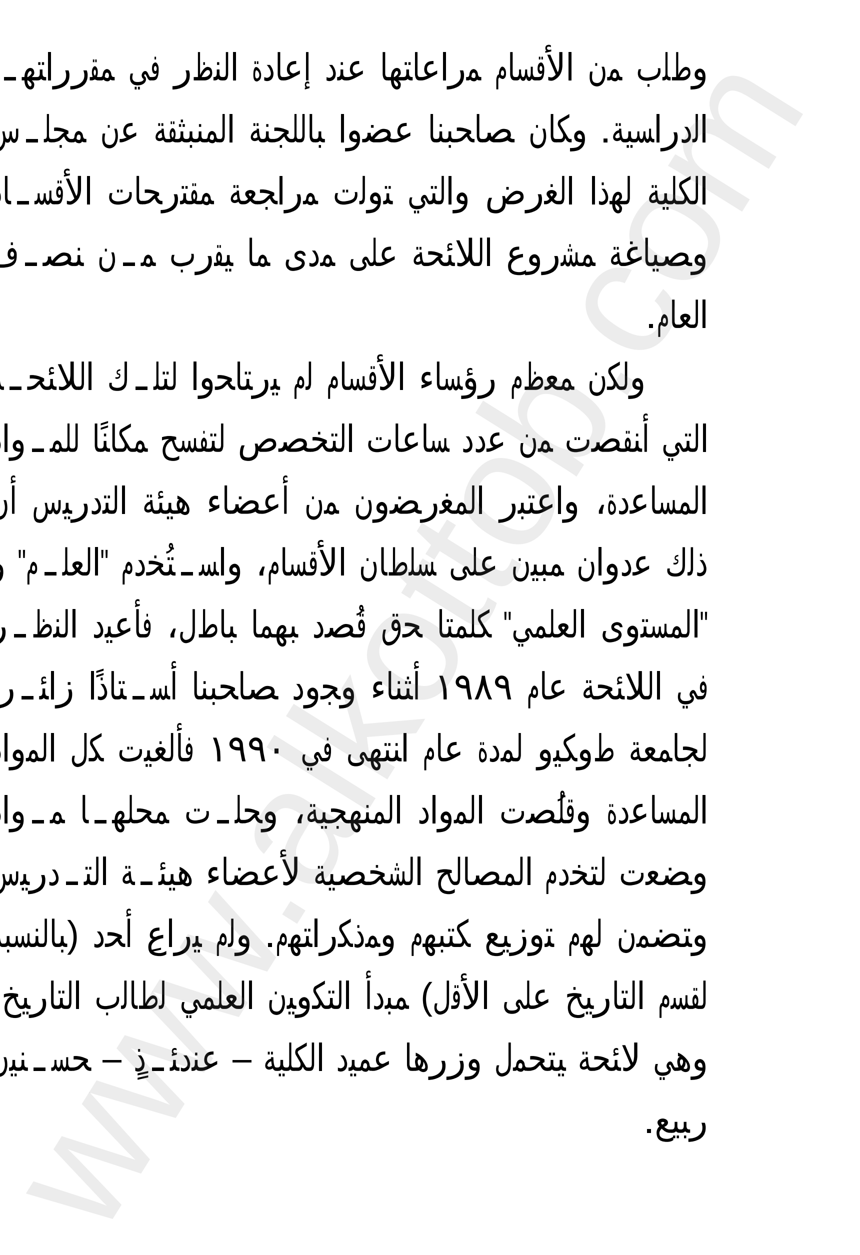
كان هذا الحدث على بساطته بادرة تحول فـي مسـيرة القسم. فعندما مات رئيس القسم فجأة في أبريل ١٩٨٢ أصبح صاحبنا رئيسا للقسم. وتولى خلال السنوات الست التي تولى

www.alkottob.com

فيها هذا المنصب العلمي إعادة بناء القسم بالكامل بفضل تعاون محمد محمود الجوهري (عميد الكلية) معه، وتوفير كل ما طلبه من درجات، فتم تعيين خمسة مدرسين من حملة الدكتوراه بطريق الإعلان، وثلاثة عشر معيدا منهم اثنين بطريق الإعلان، وتم نقل أستاذ تاريخ إسلامي من آداب المنيا، وأستاذ مساعد تاريخ إسلامي من فرع الجامعة بالخرطوم. ودعم التاريخ القديم بعضو بعثة عاد من بريطانيا عام ١٩٨٠، وتغلب صاحبنا على تعسف أستاذ التاريخ القديم، فسمح لمن عينهم معيدين بالتسجيل للدراسات العليا بآداب عين شمس.

وتصادف أثناء رئاسته للقسم أن قرر مجلس الكلية تطوير لائحة الدراسة، فوضع برنامجا جديدا لقسم التاريخ اهتم بإعداد الطالب إعدادا عصريا، فتم التركيز على العلوم الإنسانية اللازمة لتكوين طالب التاريخ: الاقتصاد، والاجتماع، وفلسفة التاريخ، وأعطى المنهج اهتماما خاصا، كما تم تحديد المقررات التاريخية بما يحقق التكامل والتواصل بمختلف فروع التخصص. وكان هذا البرنامج يتسق تماما مع المبادئ العامة التي أقرها مجلس الكلية،

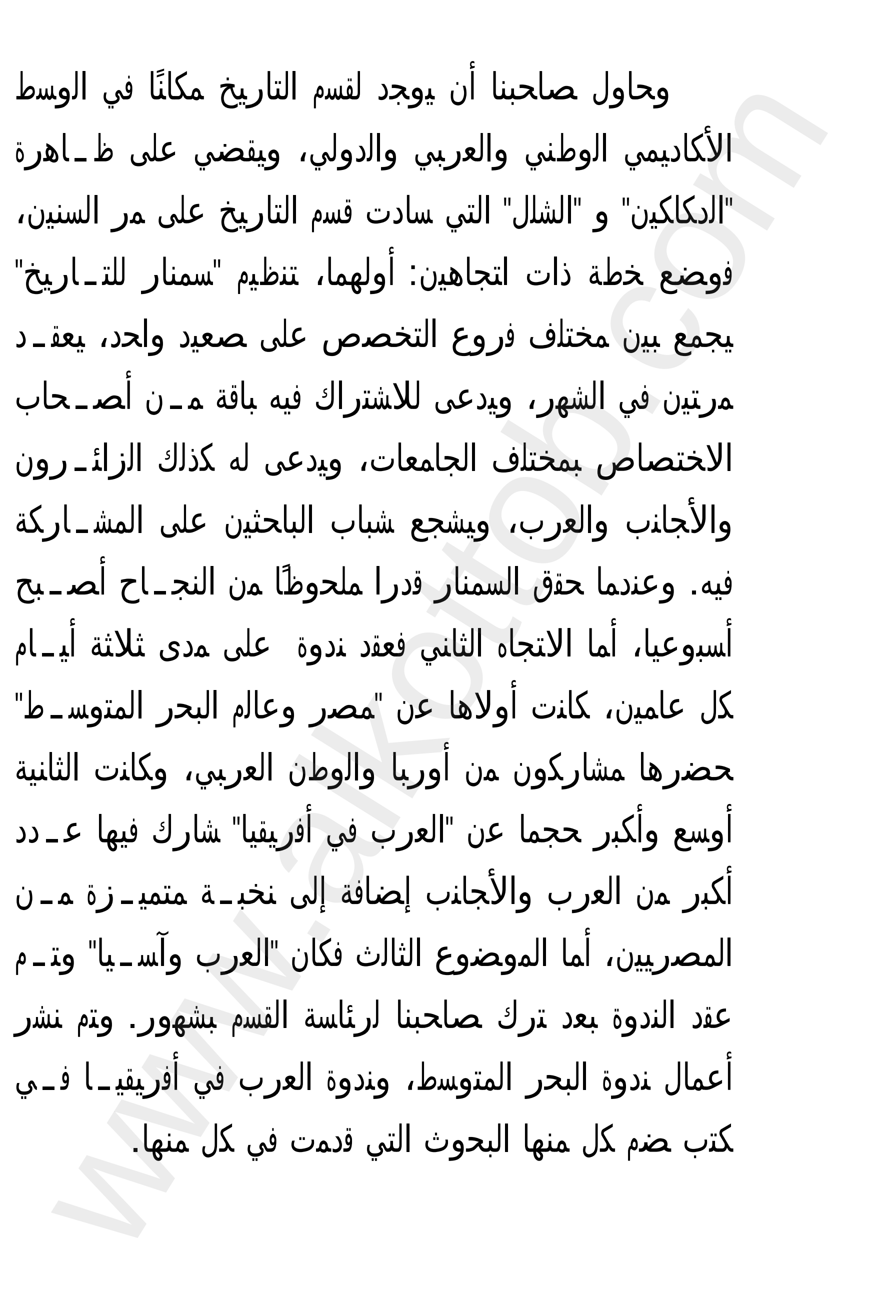
www.alkottob.com



وطلاب من الأقسام مراعاتها عند إعادة النظر في مقرراتهـا الدراسية. وكان صاحبنا عضوا باللجنة المنبثقة عن مجلـس الكلية لهذا الغرض والتي تولت مراجعة مقترحات الأقسـام وصياغة مشروع اللائحة على مدى ما يقرب مـن نصـف العام.

ولكن معظم رؤساء الأقسام لم يرتاحوا لتلـك اللائحـة التي أنقصت من عدد ساعات التخصص لتفسح مكانًا للمـواد المساعدة، واعتبر المغرضون من أعضاء هيئة التدريس أن ذلك عدوان مبين على سلطان الأقسام، واسـتُخدم "العلـم" و "المستوى العلمي" كلمتا حق قُصد بهما باطل، فأعيد النظـر في اللائحة عام ١٩٨٩ أثناء وجود صاحبنا أسـتاذًا زائـرا لجامعة طوكيو لمدة عام انتهى في ١٩٩٠ فألغيت كل المواد المساعدة وقلُصت المواد المنهجية، وحلـت محلهـا مـواد وضعت لتخدم المصالح الشخصية لأعضاء هيئـة التـدريس وتضمن لهم توزيع كتبهم ومذكراتهم. ولم يراعِ أحد (بالنسبة لقسم التاريخ على الأقل) مبدأ التكوين العلمي لطالب التاريخ. وهي لائحة يتحمل وزرها عميد الكلية – عندئـذٍ – حسـنين ربيع.

www.alkottob.com



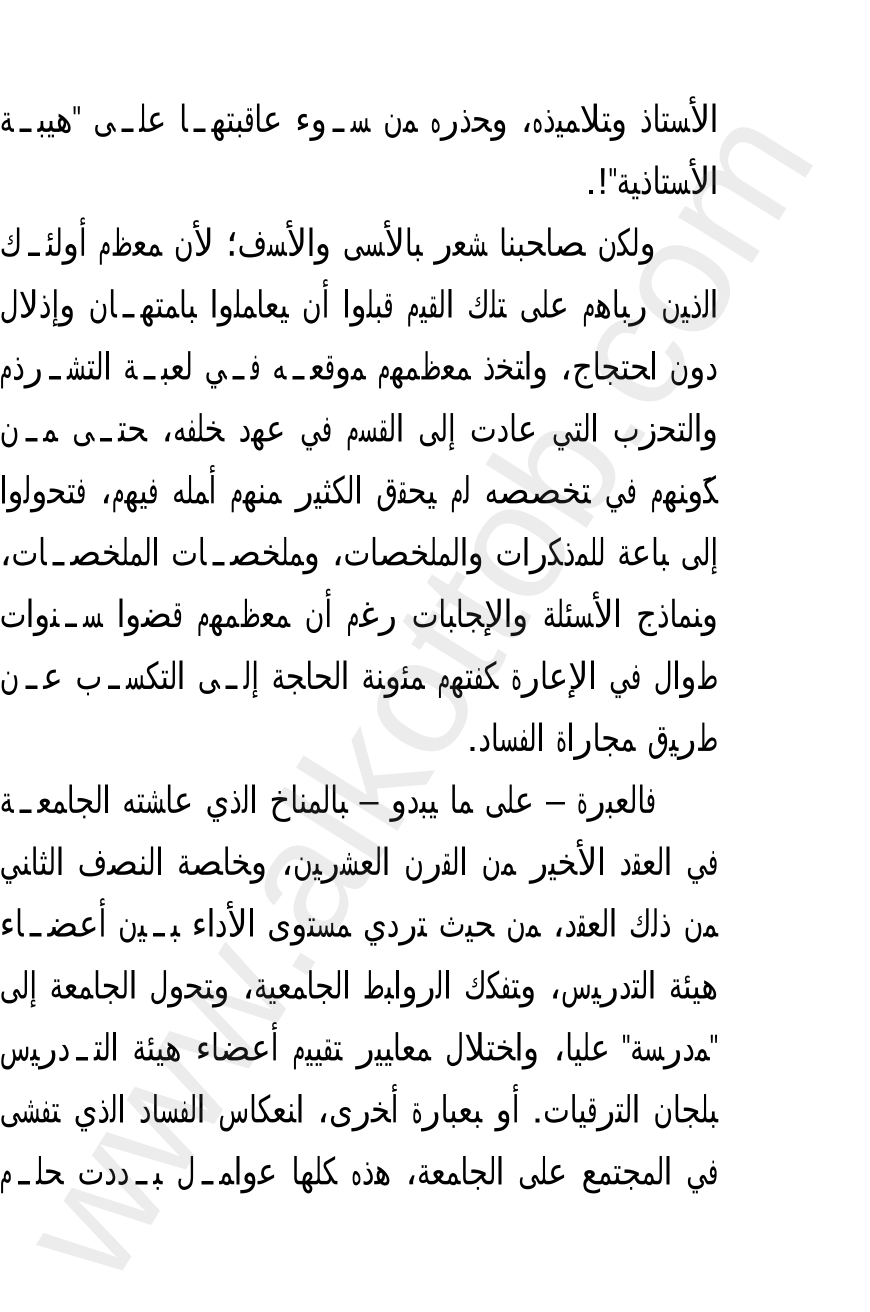
وحاول صاحبنا أن يوجد لقسم التاريخ مكانًا في الوسط الأكاديمي الوطني والعربي والدولي، ويقضي على ظاهرة "الدكاكين" و "الشلل" التي سادت قسم التاريخ على مر السنين، فوضع خطة ذات اتجاهين: أولهما، تنظيم "سمنار للتاريخ" يجمع بين مختلف فروع التخصص على صعيد واحد، يعقد مرتين في الشهر، ويدعى للاشتراك فيه باقة من أصحاب الاختصاص بمختلف الجامعات، ويدعى له كذلك الزائرون والأجانب والعرب، ويشجع شباب الباحثين على المشاركة فيه. وعندما حقق السمنار قدرا ملحوظًا من النجاح أصبح أسبوعيا، أما الاتجاه الثاني فعقد ندوة على مدى ثلاثة أيام كل عامين، كانت أولاها عن "مصر وعالم البحر المتوسط" حضرها مشاركون من أوربا والوطن العربي، وكانت الثانية أوسع وأكبر حجما عن "العرب في أفريقيا" شارك فيها عدد أكبر من العرب والأجانب إضافة إلى نخبة متميزة من المصريين، أما الموضوع الثالث فكان "العرب وآسيا" وتم عقد الندوة بعد ترك صاحبنا لرئاسة القسم بشهور. وتم نشر أعمال ندوة البحر المتوسط، وندوة العرب في أفريقيا في كتب ضم كل منها البحوث التي قدمت في كل منها.

www.alkottob.com

وقبل إنهاء مدة رئاسته الثانية للقسـم، أصـدر مجلـة "المؤرخ المصري"، وصدر العدد الثاني منها قبل نهاية مـدة رئاسته للقسم. التي كانت نهاية لسمنار التاريخ؛ لأن خلفَه في رئاسة القسم لم يرتح لهذه "البدعة"، التي تمثل تبديدا للجهـد "دون عائد مادي"! واختفت الندوات السنوية بعـدما أصـابها الهزال، واستخدمت لتملق السعوديين والخليجيـين ووجهـت لخدمة المصالح "المادية" الشخصية لمنظمها. ولكـن حـافظ رئيس القسم على مجلة "المؤرخ المصري" بعدما تحولت إلى مصدر للكسب، تُنشر فيها بحوث أعضـاء هيئـة التـدريس السعوديين والخليجيين مقابل مبالغ معينة تُدفع بالدولار، كما أصبحت المجلة تٌفرض فرضا علـى الطـلاب، وتـدهورت قيمتها العلمية بعدما أصبح التحكيم فيها شكليا.

واهتم صاحبنا أثناء رئاسته للقسـم برعايـة المعيـدين وشباب الباحثين، ومعاملتهم معاملة أبوية، وبث قيم التنـافس والتعاون العلمي بينهم، والاعتزاز بالكرامة، والتمسك بالتقاليد العلمية الجامعية المتعارف عليها، والحرص على التعبير عن الرأي بحرية حتى أن بعض زملائه اتهمه بخـرق القاعـدة الذهبية التي تقول بضرورة الاحتفاظ بمسافة واسـعة بـين

www.alkottob.com

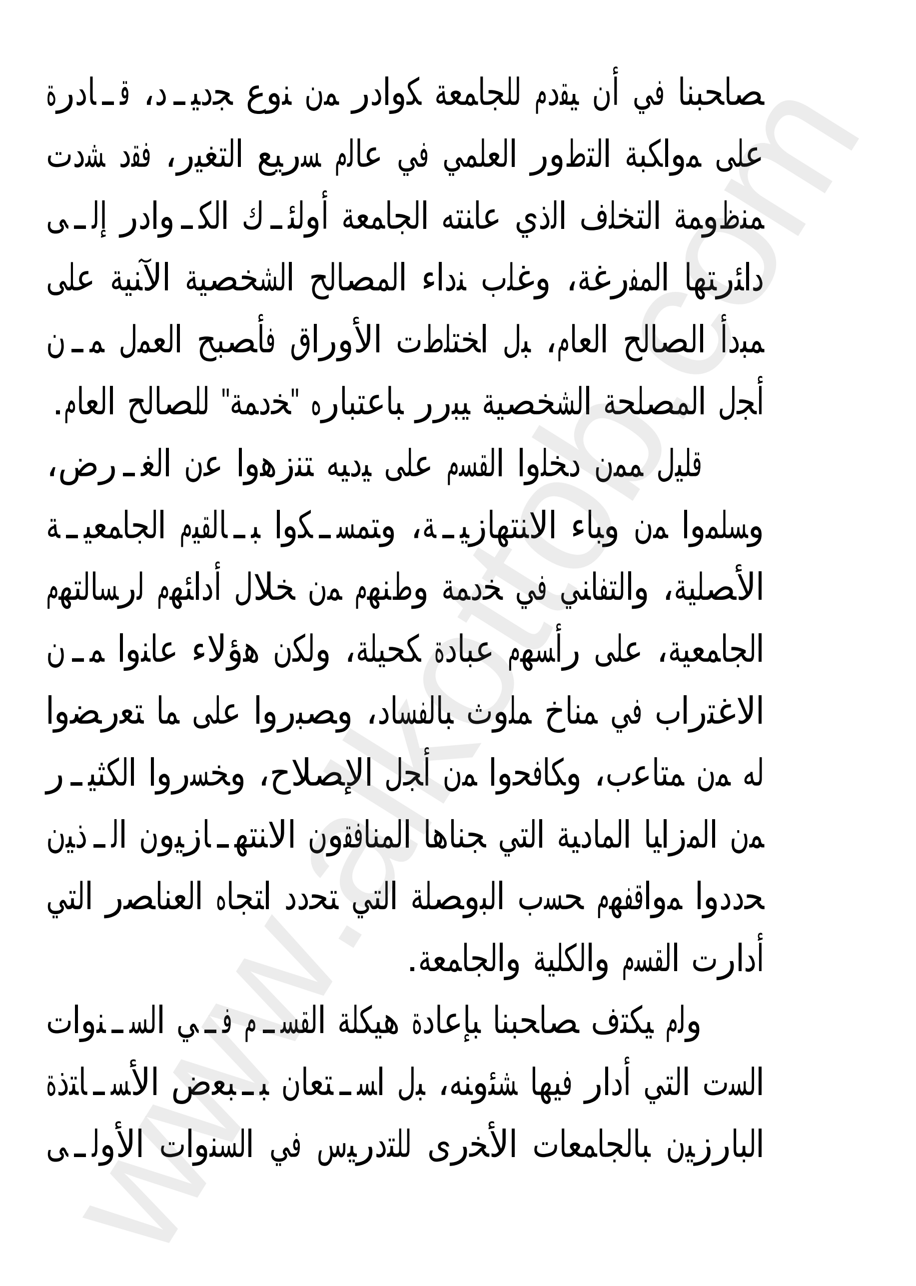


الأستاذ وتلاميذه، وحذره من سـوء عاقبتهـا علـى "هيبـة الأستاذية"!.

ولكن صاحبنا شعر بالأسى والأسف؛ لأن معظم أولئـك الذين رباهم على تلك القيم قبلوا أن يعاملوا بامتهـان وإذلال دون احتجاج، واتخذ معظمهم موقعـه فـي لعبـة التشـرذم والتحزب التي عادت إلى القسم في عهد خلفه، حتـى مـن كونهم في تخصصه لم يحقق الكثير منهم أمله فيهم، فتحولوا إلى باعة للمذكرات والملخصات، وملخصـات الملخصـات، ونماذج الأسئلة والإجابات رغم أن معظمهم قضوا سـنوات طوال في الإعارة كفتهم مئونة الحاجة إلـى التكسـب عـن طريق مجاراة الفساد.

فالعبرة – على ما يبدو – بالمناخ الذي عاشته الجامعـة في العقد الأخير من القرن العشرين، وخاصة النصف الثاني من ذلك العقد، من حيث تردي مستوى الأداء بـين أعضـاء هيئة التدريس، وتفكك الروابط الجامعية، وتحول الجامعة إلى "مدرسة" عليا، واختلال معايير تقييم أعضاء هيئة التـدريس بلجان الترقيات. أو بعبارة أخرى، انعكاس الفساد الذي تفشى في المجتمع على الجامعة، هذه كلها عوامـل بـددت حلـم

www.alkottob.com

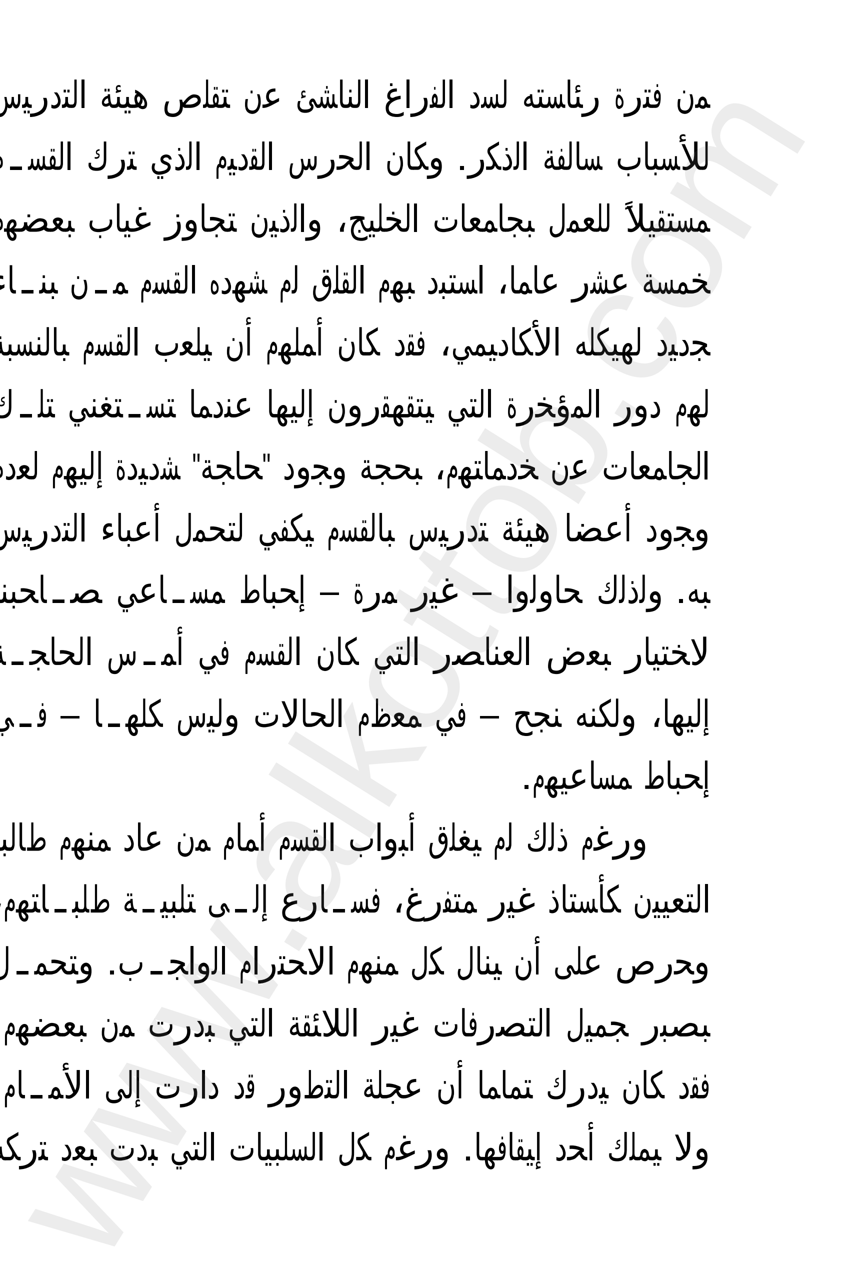


صاحبنا في أن يقدم للجامعة كوادر من نوع جديد، قادرة على مواكبة التطور العلمي في عالم سريع التغير، فقد شدت منظومة التخلف الذي عانته الجامعة أولئك الكوادر إلى دائرتها المفرغة، وغاب نداء المصالح الشخصية الآنية على مبدأ الصالح العام، بل اختلطت الأوراق فأصبح العمل من أجل المصلحة الشخصية يبرر باعتباره "خدمة" للصالح العام.

قليل ممن دخلوا القسم على يديه تنزهوا عن الغرض، وسلموا من وباء الانتهازية، وتمسكوا بالقيم الجامعية الأصلية، والتفاني في خدمة وطنهم من خلال أدائهم لرسالتهم الجامعية، على رأسهم عبادة كحيلة، ولكن هؤلاء عانوا من الاغتراب في مناخ ملوث بالفساد، وصبروا على ما تعرضوا له من متاعب، وكافحوا من أجل الإصلاح، وخسروا الكثير من المزايا المادية التي جناها المنافقون الانتهازيون الذين حددوا مواقفهم حسب البوصلة التي تحدد اتجاه العناصر التي أدارت القسم والكلية والجامعة.

ولم يكتف صاحبنا بإعادة هيكلة القسم في السنوات الست التي أدار فيها شئونه، بل استعان ببعض الأساتذة البارزين بالجامعات الأخرى للتدريس في السنوات الأولى

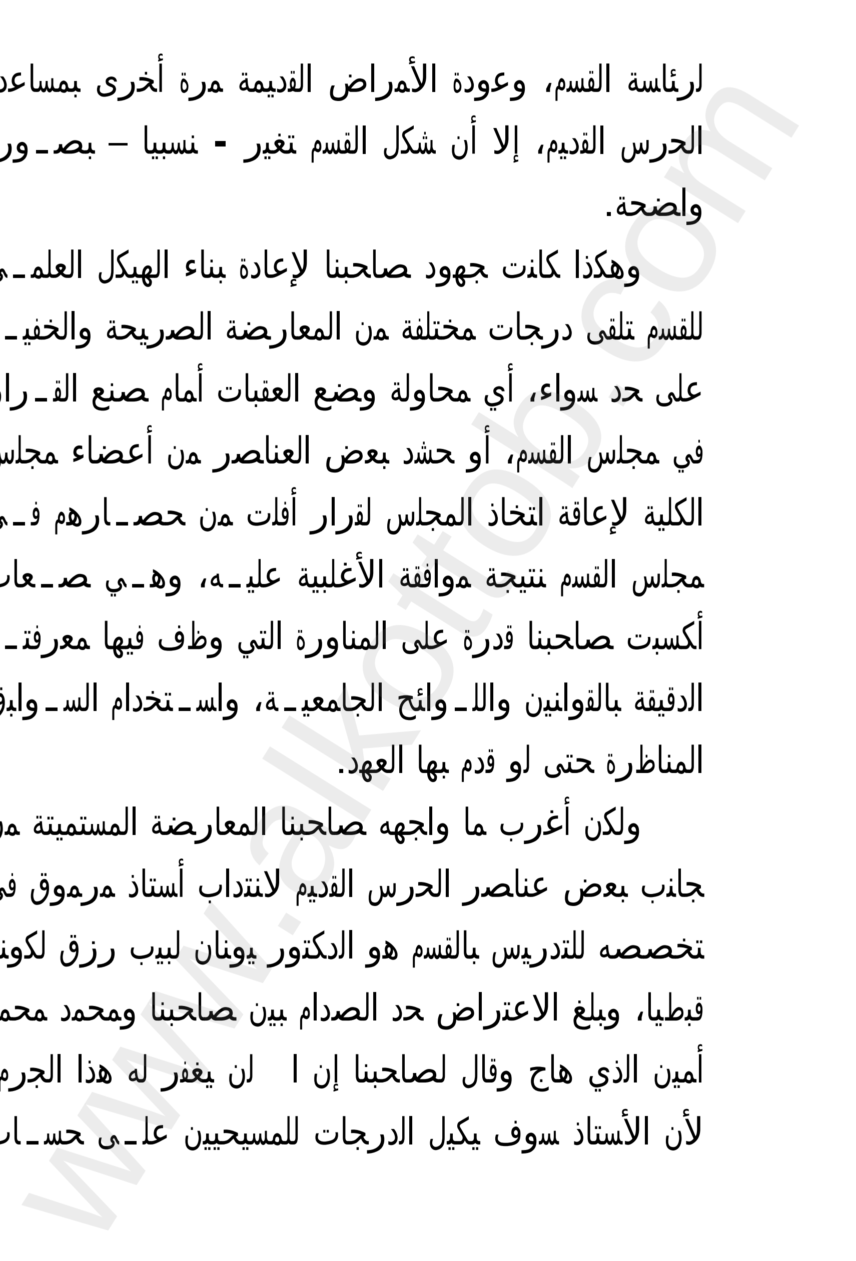
www.alkottob.com



من فترة رئاسته لسد الفراغ الناشئ عن نقاص هيئة التدريس للأسباب سالفة الذكر. وكان الحرس القديم الذي ترك القسـم مستقيلاً للعمل بجامعات الخليج، والذين تجاوز غياب بعضهم خمسة عشر عاما، استبد بهم القلق لم شهده القسم مـن بنـاء جديد لهيكله الأكاديمي، فقد كان أملهم أن يلعب القسم بالنسبة لهم دور المؤخرة التي يتقهقرون إليها عندما تسـتغني تلـك الجامعات عن خدماتهم، بحجة وجود "حاجة" شديدة إليهم لعدم وجود أعضا هيئة تدريس بالقسم يكفي لتحمل أعباء التدريس به. ولذلك حاولوا – غير مرة – إحباط مسـاعي صـاحبنا لاختيار بعض العناصر التي كان القسم في أمـس الحاجـة إليها، ولكنه نجح – في معظم الحالات وليس كلهـا – فـي إحباط مساعيهم.

ورغم ذلك لم يغلق أبواب القسم أمام من عاد منهم طالبا التعيين كأستاذ غير متفرغ، فسـارع إلـى تلبيـة طلبـاتهم، وحرص على أن ينال كل منهم الاحترام الواجـب. وتحمـل بصبر جميل التصرفات غير اللائقة التي بدرت من بعضهم. فقد كان يدرك تماما أن عجلة التطور قد دارت إلى الأمـام. ولا يملك أحد إيقافها. ورغم كل السلبيات التي بدت بعد تركه

www.alkottob.com

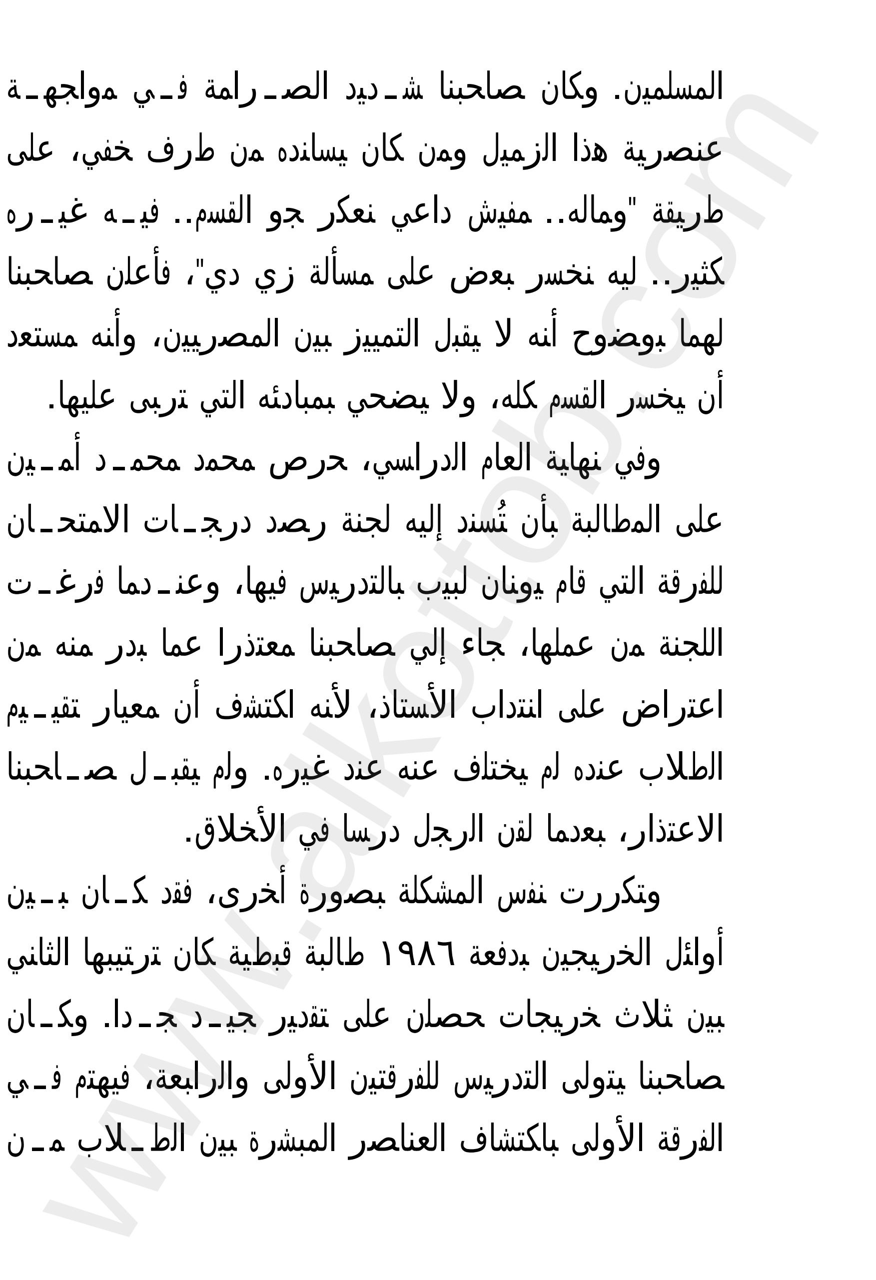


لرئاسة القسم، وعودة الأمراض القديمة مرة أخرى بمساعدة الحرس القديم، إلا أن شكل القسم تغير - نسبيا – بصـورة واضحة.

وهكذا كانت جهود صاحبنا لإعادة بناء الهيكل العلمـي للقسم تلقى درجات مختلفة من المعارضة الصريحة والخفيـة على حد سواء، أي محاولة وضع العقبات أمام صنع القـرار في مجالس القسم، أو حشد بعض العناصر من أعضاء مجالس الكلية لإعاقة اتخاذ المجالس لقرار أفلت من حصـارهم فـي مجالس القسم نتيجة موافقة الأغلبية عليـه، وهـي صـعاب أكسبت صاحبنا قدرة على المناورة التي وظف فيها معرفتـه الدقيقة بالقوانين واللـوائح الجامعيـة، واسـتخدام السـوابق المناظرة حتى لو قدم بها العهد.

ولكن أغرب ما واجهه صاحبنا المعارضة المستميتة من جانب بعض عناصر الحرس القديم لانتداب أستاذ مرموق في تخصصه للتدريس بالقسم هو الدكتور يونان لبيب رزق لكونه قبطيا، وبلغ الاعتراض حد الصدام بين صاحبنا ومحمد محمد أمين الذي هاج وقال لصاحبنا إن ا لن يغفر له هذا الجرم، لأن الأستاذ سوف يكيل الدرجات للمسيحيين علـى حسـاب

www.alkottob.com



المسلمين. وكان صاحبنا شـديد الصـرامة فـي مواجهـة عنصرية هذا الزميل ومن كان يسانده من طرف خفي، على طريقة "وماله.. مفيش داعي نعكر جو القسم.. فيـه غيـره كثير.. ليه نخسر بعض على مسألة زي دي"، فأعلن صاحبنا لهما بوضوح أنه لا يقبل التمييز بين المصريين، وأنه مستعد أن يخسر القسم كله، ولا يضحي بمبادئه التي تربى عليها.

وفي نهاية العام الدراسي، حرص محمد محمـد أمـين على المطالبة بأن تُسند إليه لجنة رصد درجـات الامتحـان للفرقة التي قام يونان لبيب بالتدريس فيها، وعنـدما فرغـت اللجنة من عملها، جاء إلي صاحبنا معتذرا عما بدر منه من اعتراض على انتداب الأستاذ، لأنه اكتشف أن معيار تقيـيم الطلاب عنده لم يختلف عنه عند غيره. ولم يقبـل صـاحبنا الاعتذار، بعدما لقن الرجل درسا في الأخلاق.

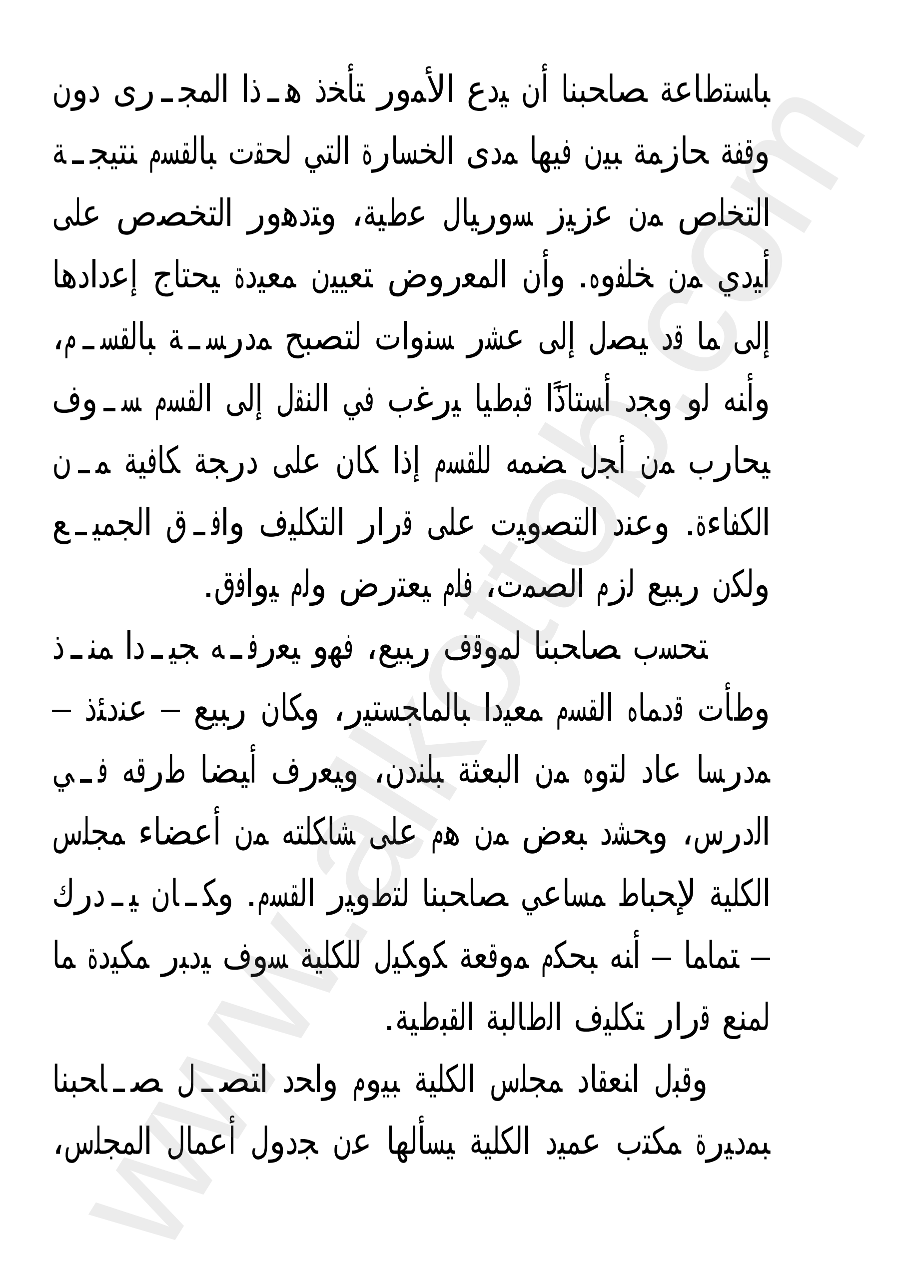
وتكررت نفس المشكلة بصورة أخرى، فقد كـان بـين أوائل الخريجين بدفعة ١٩٨٦ طالبة قبطية كان ترتيبها الثاني بين ثلاث خريجات حصلن على تقدير جيـد جـدا. وكـان صاحبنا يتولى التدريس للفرقتين الأولى والرابعة، فيهتم فـي الفرقة الأولى باكتشاف العناصر المبشرة بين الطـلاب مـن

www.alkottob.com

خلال مناقشاتهم معه، وأدائهم. واعتبارا من الفرقـة الثانيـة يتابع كل منهم، فمن استمر واعدا في الرابعة يهتم بتشـجيعه ورعايته. وكانت الخريجات الثلاث من بـين مـن تـابعهم ورعاهم من طلاب الدفعة، واطمأن إلى أنهن يمـثلن خامـة جيدة تصلح للتكوين العلمي، فتقدم إلى مجلس القسم بـاقتراح تكليف الطالبات الثلاث معيدات بالقسم، على أن تكون الأولى والثانية في فرع التاريخ الحديث والثالثة في فـرع التـاريخ الإسلامي.

وهنا اعترض حسنين ربيع (أسـتاذ تـاريخ العصـور الوسطى ووكيل الكلية عندئذ) على تعيين معيدتين بالتـاريخ الحديث طالبا الاكتفاء بواحدة، وعندما نبهه صاحبنا إلى أنـه أستاذ التخصص وهو الأدرى بحاجته، انفعل ربيع وقـال إن القسم تخلص من هؤلاء قبل ما يزيد عن خمسين عاما، فـلا يجب أن يسمح لهم بدخوله على يدي صاحبنا، وكان يقصـد التخلص من عزيز سوريال عطية عام ١٩٤٤، بنقلـه إلـى آداب الإسكندرية وعندما ضاقت به السبل هناك، هاجر إلـى أمريكا، وأصبح من أعظم علماء العالم ويعد برنارد لـويس (أستاذ ربيع) نكرة مقارنة بعزيز سوريال عطية. ولم يكـن

www.alkottob.com

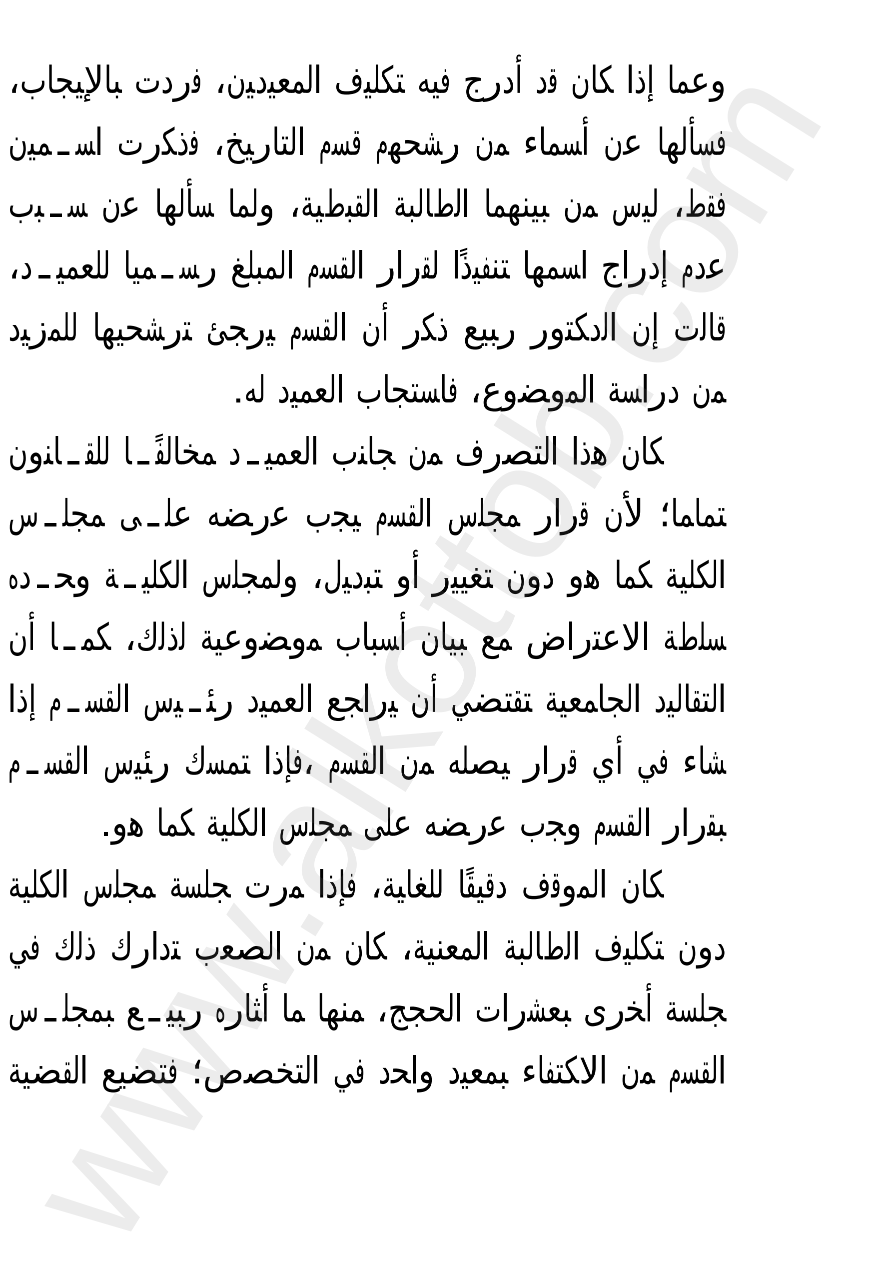


باستطاعة صاحبنا أن يدع الأمور تأخذ هـذا المجـرى دون وقفة حازمة يبين فيها مدى الخسارة التي لحقت بالقسم نتيجـة التخلص من عزيز سوريال عطية، وتدهور التخصص على أيدي من خلفوه. وأن المعروض تعيين معيدة يحتاج إعدادها إلى ما قد يصل إلى عشر سنوات لتصبح مدرسـة بالقسـم، وأنه لو وجد أستاذًا قبطيا يرغب في النقل إلى القسم سـوف يحارب من أجل ضمه للقسم إذا كان على درجة كافية مـن الكفاءة. وعند التصويت على قرار التكليف وافـق الجميـع ولكن ربيع لازم الصمت، فلم يعترض ولم يوافق.

تحسب صاحبنا لموقف ربيع، فهو يعرفـه جيـدا منـذ وطأت قدماه القسم معيدا بالماجستير، وكان ربيع – عندئذ – مدرسا عاد لتوه من البعثة بلندن، ويعرف أيضا طرقه فـي الدرس، وحشد بعض من هم على شاكلته من أعضاء مجلس الكلية لإحباط مساعي صاحبنا لتطوير القسم. وكـان يـدرك – تماما – أنه بحكم موقعة كوكيل للكلية سوف يدبر مكيدة ما لمنع قرار تكليف الطالبة القبطية.

وقبل انعقاد مجلس الكلية بيوم واحد اتصـل صـاحبنا بمديرة مكتب عميد الكلية يسألها عن جدول أعمال المجلس،

www.alkottob.com



وعما إذا كان قد أدرج فيه تكليف المعيدين، فردت بالإيجاب، فسألها عن أسماء من رشحهم قسم التاريخ، فذكرت اسمين فقط، ليس من بينهما الطالبة القبطية، ولما سألها عن سبب عدم إدراج اسمها تنفيذًا لقرار القسم المبلغ رسميا للعميد، قالت إن الدكتور ربيع ذكر أن القسم يرجئ ترشحيها للمزيد من دراسة الموضوع، فاستجاب العميد له.

كان هذا التصرف من جانب العميد مخالفًا للقانون تماما؛ لأن قرار مجلس القسم يجب عرضه على مجلس الكلية كما هو دون تغيير أو تبديل، ولمجلس الكلية وحده سلطة الاعتراض مع بيان أسباب موضوعية لذلك، كما أن التقاليد الجامعية تقتضي أن يراجع العميد رئيس القسم إذا شاء في أي قرار يصله من القسم ،فإذا تمسك رئيس القسم بقرار القسم وجب عرضه على مجلس الكلية كما هو.

كان الموقف دقيقًا للغاية، فإذا مرت جلسة مجلس الكلية دون تكليف الطالبة المعنية، كان من الصعب تدارك ذلك في جلسة أخرى بعشرات الحجج، منها ما أثاره ربيع بمجلس القسم من الاكتفاء بمعيد واحد في التخصص؛ فتضيع القضية

www.alkottob.com

المبدئية التي يراها أساسية، وتختفي العنصـرية والتعصـب وراء ستار "الصالح العام".

هنا قرر صاحبنا أن يلقن العميد (عبد العزيز حمـودة) درسا قاسيا، فكتب على الفور خطاب استقالة "مـن خدمـة جامعة مبدؤها التمييز بين المصريين على أسـاس الـدين، ودينها التعصب الأعمى" وأوضح أن استقالته إنمـا جـاءت احتجاجا على تلك الواقعة، وطلب من العميد رفع الاسـتقالة إلى السلطات الجامعية، وأرسل خطاب الاستقالة إلى مكتـب العميد دون وضعه في ظرف، لُيسلم على "السركي".

وكان القصد من ذلك أن يقرأه كل من هب ودب قبل أن يقرأه العميد نفسه، وأن تطير "وكالة أنباء النميمة" الخبر بين ربوع الكلية. فإذا رفعت الاستقالة إلى السلطات الجامعيـة لا يمكن قبولها – بحكم القانون – إلا بعد إجراء تحقيـق فـي الأسباب الواردة بها.

بدا صاحبنا يجمع أوراق مكتبه استعدادا لمغادرته، ولـم تمضِ أكثر من نصف ساعة حتى وجد عبد العزيز حمـودة أمامه وبيده خطاب الاستقالة، وقال لصاحبنا "أنـت عـاوز توديني في داهية، أنا مالي.. إن شاء ا تعين عشرة أقبـاط،

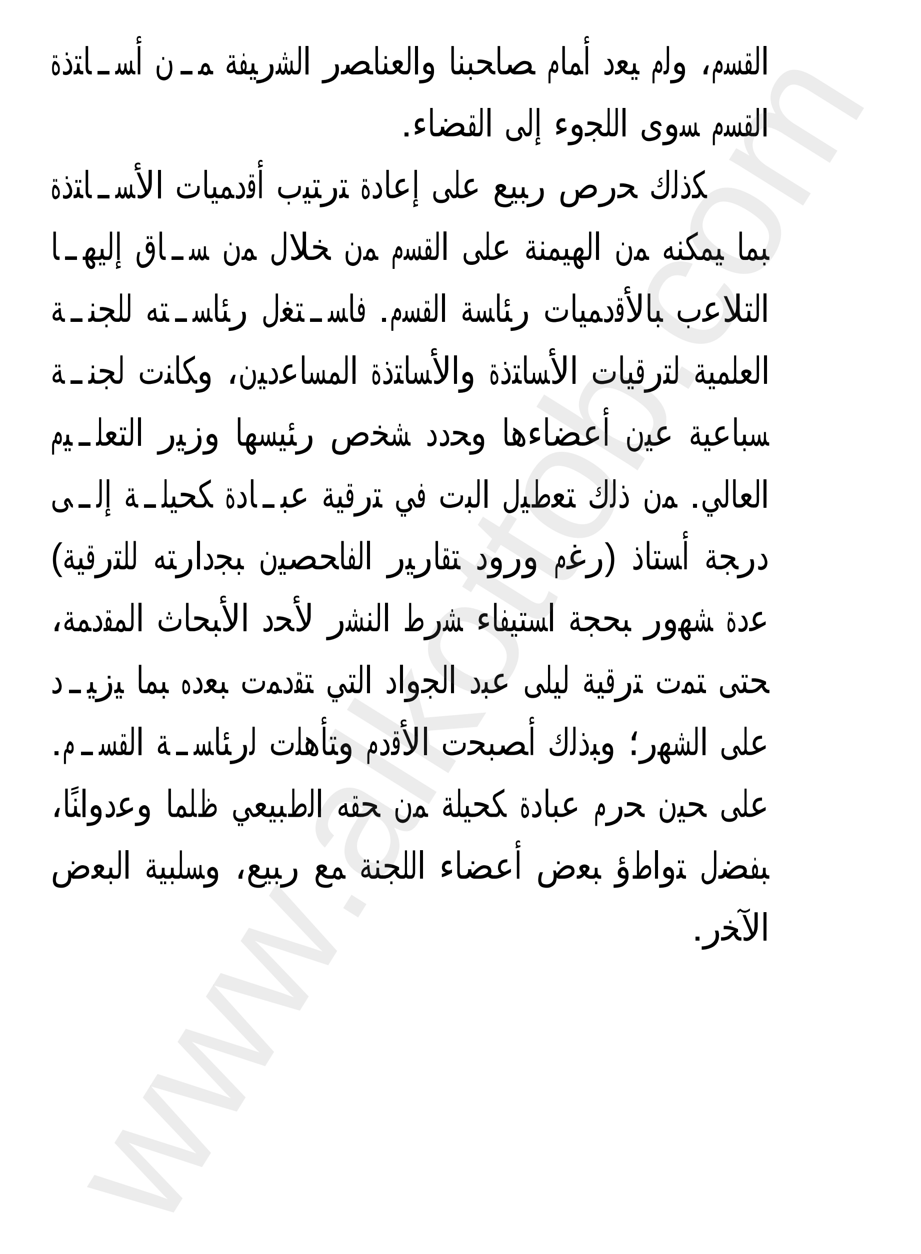
www.alkottob.com

أنا ما عنديش مانع" ومزق خطاب الاستقالة، وذكر له أنه فهم كلام ربيع معه عن هذه الحالة أنه تطور تالٍ لقرار القسـم، وأنه تحدث بناء على تكليف من صاحبنا.

ومر الموضوع بمجالس الكلية، وأصبحت هناك معيـدة قبطية بقسم التاريخ لأول مرة في تاريخه، أصبحت مدرسـا بالقسم بعد حصولها على الدكتوراه بعدما بذل صاحبنا جهـدا في تكوينها وإعدادها. ورغـم أن ربيعـا تسـلق مناصـب الجامعة، فكان عميدا للكلية ثم نائبا لرئيس الجامعة، إلا أنه لم ينس لصاحبنا ما فعله بالقسم من "تشويه" (من وجهة نظره)، وظل يتخذ دائما في كل مسالة الموقف المعارض له.

فعندما فضح صاحبنا حامد زيـان، وضـغوطه علـى أعضاء هيئة التدريس أثناء رئاسته للقسم لتحصل ابنته علـى أعلى الدرجات ويتم تعيينها معيدة، كان الموقـف الطبيعـي لربيع في صف الفساد، ولعب الدور الأكبر في الحيلولة دون فتح تحقيق في الموضوع الذي كانت أدلته واضحة، مسـتغلاً في ذلك صلته الشخصية بنجيـب الهلالـي جـوهر رئـيس الجامعة الذي اتخذ منه مستشارا له، فتم تعيين ابنـة رئـيس

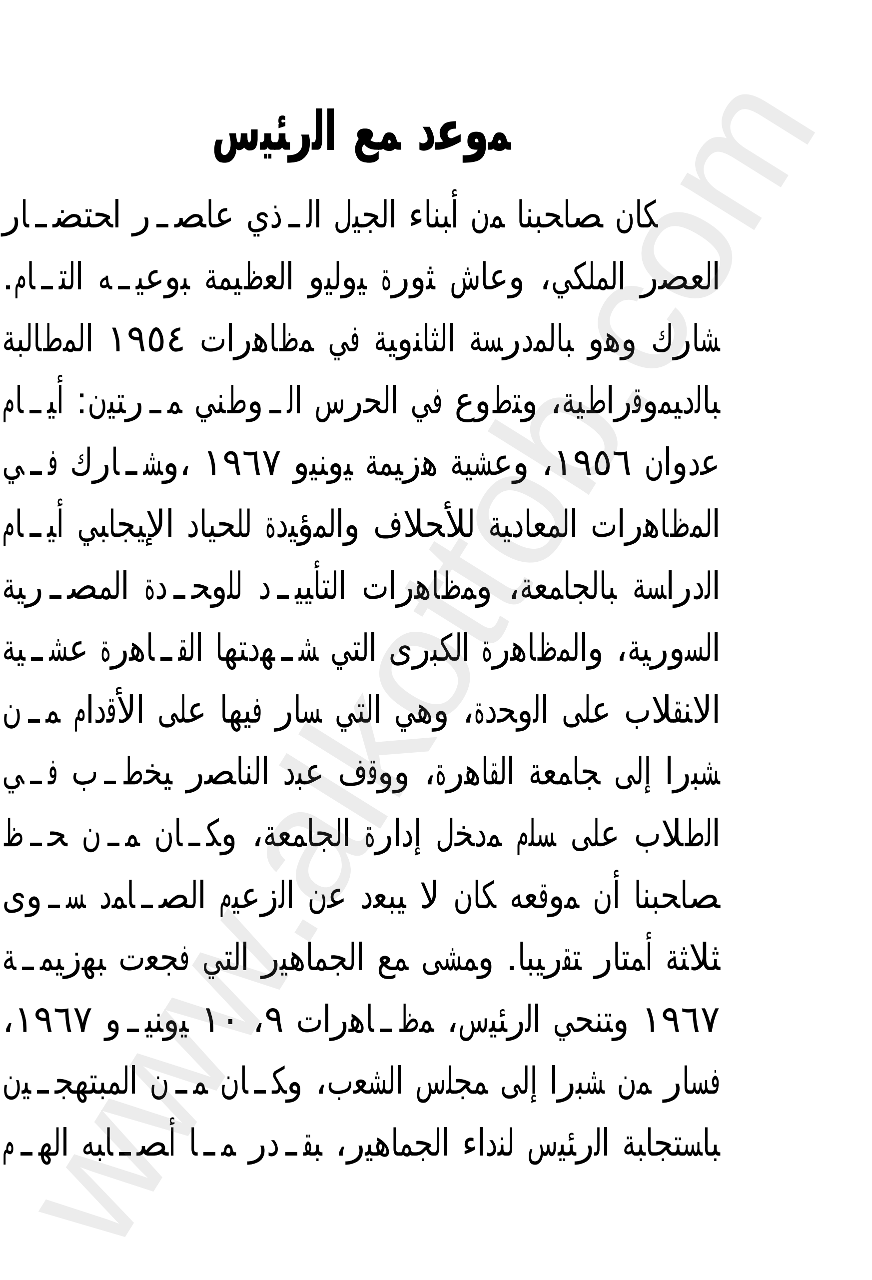
www.alkottob.com



القسم، ولم يعد أمام صاحبنا والعناصر الشريفة مـن أسـاتذة القسم سوى اللجوء إلى القضاء.

كذلك حرص ربيع على إعادة ترتيب أقدميات الأسـاتذة بما يمكنه من الهيمنة على القسم من خلال من سـاق إليهـا التلاعب بالأقدميات رئاسة القسم. فاسـتغل رئاسـته للجنـة العلمية لترقيات الأساتذة والأساتذة المساعدين، وكانت لجنـة سباعية عين أعضاءها وحدد شخص رئيسها وزير التعلـيم العالي. من ذلك تعطيل البت في ترقية عبـادة كحيلـة إلـى درجة أستاذ (رغم ورود تقارير الفاحصين بجدارته للترقية) عدة شهور بحجة استيفاء شرط النشر لأحد الأبحاث المقدمة، حتى تمت ترقية ليلى عبد الجواد التي تقدمت بعده بما يزيـد على الشهر؛ وبذلك أصبحت الأقدم وتأهلت لرئاسـة القسـم. على حين حرم عبادة كحيلة من حقه الطبيعي ظلما وعدوانًا، بفضل تواطؤ بعض أعضاء اللجنة مع ربيع، وسلبية البعض الآخر.

www.alkottob.com



موعد مع الرئيس

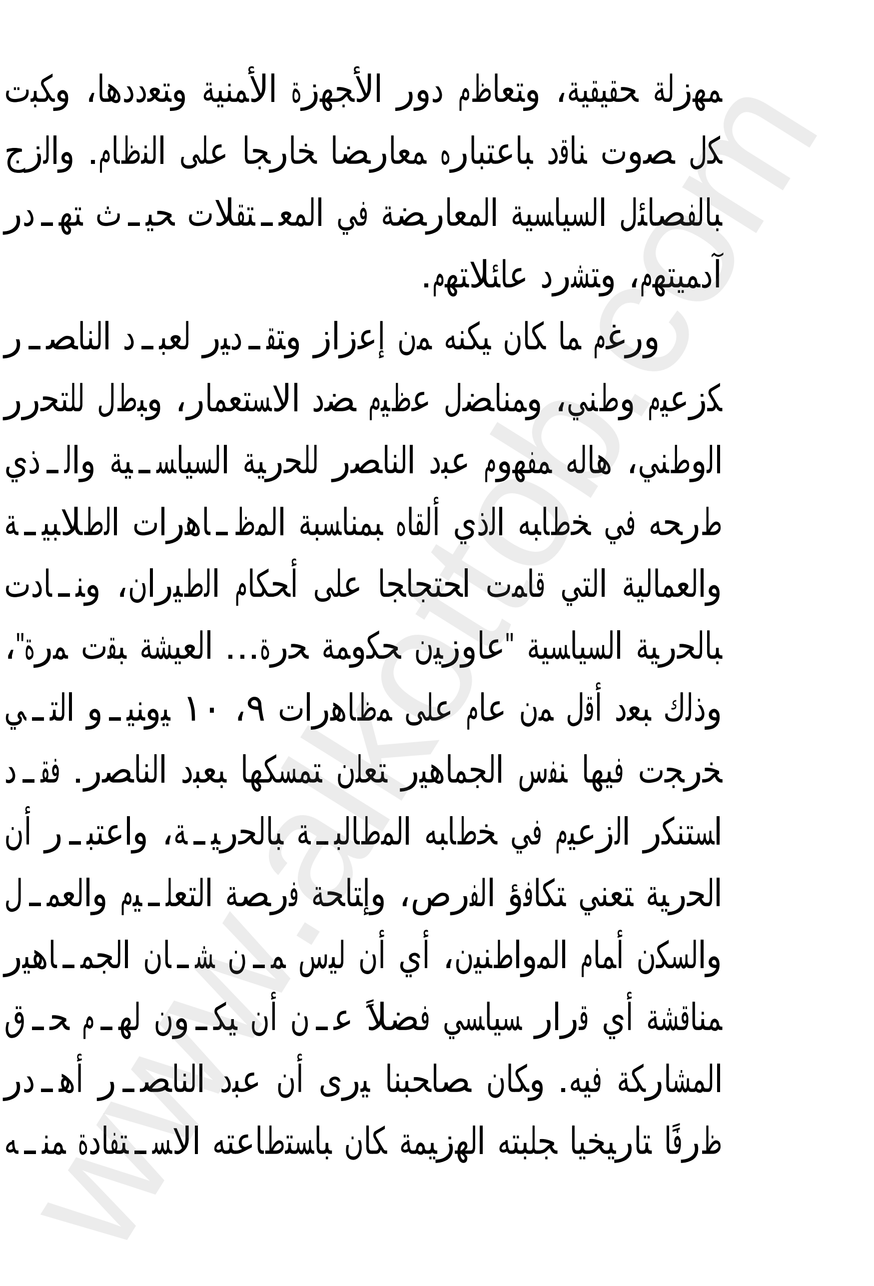
كان صاحبنا من أبناء الجيل الـذي عاصـر احتضـار العصر الملكي، وعاش ثورة يوليو العظيمة بوعيـه التـام. شارك وهو بالمدرسة الثانوية في مظاهرات ١٩٥٤ المطالبة بالديموقراطية، وتطوع في الحرس الـوطني مـرتين: أيـام عدوان ١٩٥٦، وعشية هزيمة يونيو ١٩٦٧ ،وشـارك فـي المظاهرات المعادية للأحلاف والمؤيدة للحياد الإيجابي أيـام الدراسة بالجامعة، ومظاهرات التأييـد للوحـدة المصـرية السورية، والمظاهرة الكبرى التي شـهدتها القـاهرة عشـية الانقلاب على الوحدة، وهي التي سار فيها على الأقدام مـن شبرا إلى جامعة القاهرة، ووقف عبد الناصر يخطـب فـي الطلاب على سلم مدخل إدارة الجامعة، وكـان مـن حـظ صاحبنا أن موقعه كان لا يبعد عن الزعيم الصـامد سـوى ثلاثة أمتار تقريبا. ومشى مع الجماهير التي فجعت بهزيمـة ١٩٦٧ وتنحي الرئيس، مظـاهرات ٩، ١٠ يونيـو ١٩٦٧، فسار من شبرا إلى مجلس الشعب، وكـان مـن المبتهجـين باستجابة الرئيس لنداء الجماهير، بقـدر مـا أصـابه الهـم

www.alkottob.com

والحزن عندما بدأت المحاكمات تكشف القصور الخطير في القوات المسلحة، فضلاً عن سوء إدارة الأزمة التي أدت إلى وقوع مصر في فخ الهزيمة. ولم يحزن على أقرب النـاس إليه مثلما حزن على وفاة عبد الناصر. وتابع بقلـق شـديد سياسة السادات الداخلية والخارجية، وانتشى فرحا بما حققته القوات المسلحة من ثأر لهزيمة ١٩٦٧، بقدر ما اكتأب عندما وقعت الثغرة، واستشرف الخطر وهو يتابع الطريقـة التـي أدار بها السادات الأزمة، وتمنى لنفسه الموت قبل أن يـرى رئيس مصر معتليا منصة الكنيست بالقدس، واضـعا ٩٠% (من أوراق اللعبة) بيد القوة الإمبريالية المساندة للصهيونية.

لم يكن صاحبنا نموذجا فريدا في ذلك كله، فهو شـانه شان غيره من السواد الأعظم من الشـعب المصـري مـن الفلاحين والعمال، كان صنيعة ثورة يوليو، ومـن أصـحاب المصلحة الحقيقية في نجاح برنامجهـا. ولكنـه لـم يكـن "من دراويش" الثورة الذين ينخرطون في "أذكار" المناقب، بل كان ممن ينظرون نظرة نقدية إلى الممارسـات السياسـية، فيقدر ما كان إيجابيا منها. وتوجس خيفـة علـى إنجـازات الثورة، والاستفتاءات التي حولت هذه الآلية الديموقراطية إلى

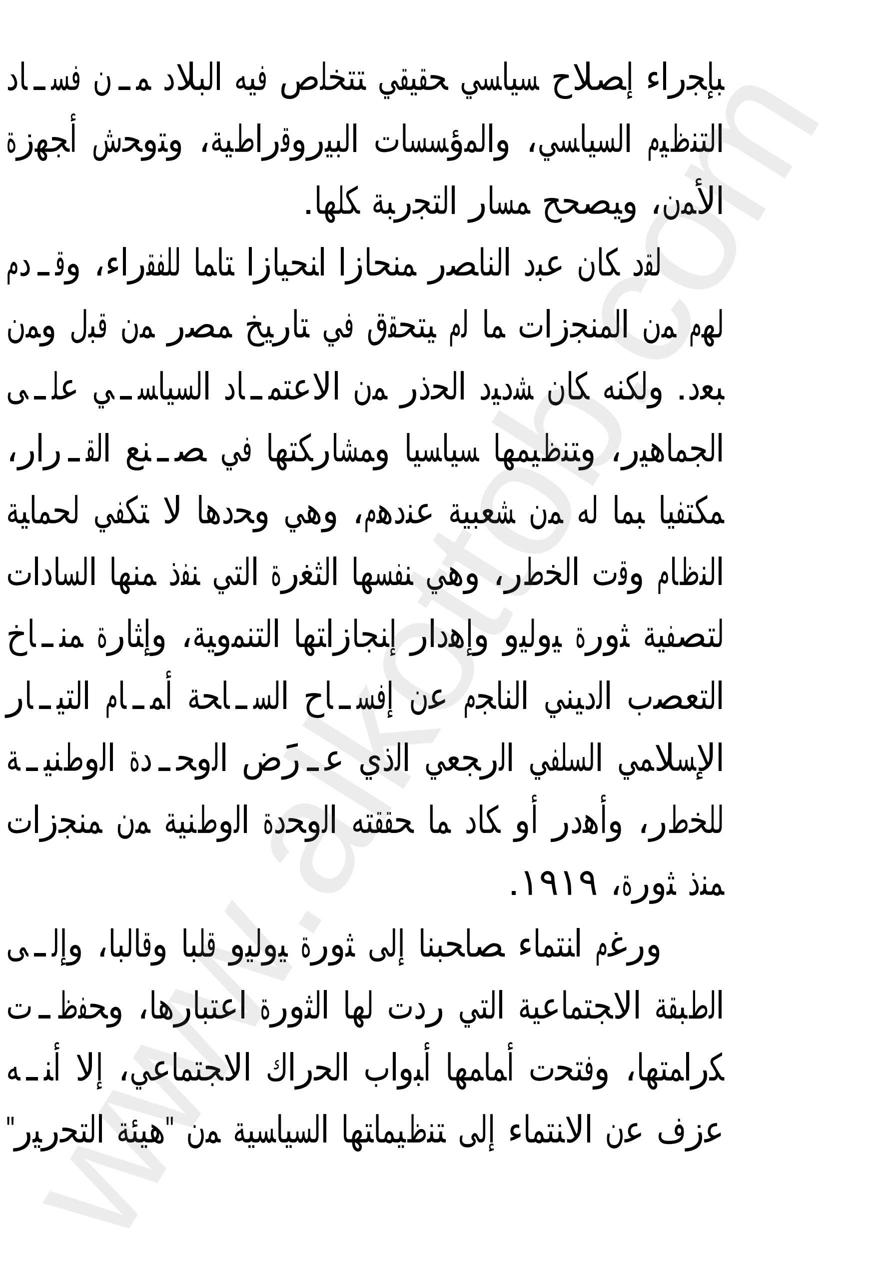
www.alkottob.com



مهزلة حقيقية، وتعاظم دور الأجهزة الأمنية وتعددها، وكبت كل صوت ناقد باعتباره معارضا خارجا على النظام. والزج بالفصائل السياسية المعارضة في المعـتقلات حيـث تهـدر آدميتهم، وتشرد عائلاتهم.

ورغم ما كان يكنه من إعزاز وتقـدير لعبـد الناصـر كزعيم وطني، ومناضل عظيم ضد الاستعمار، وبطل للتحرر الوطني، هاله مفهوم عبد الناصر للحرية السياسـية والـذي طرحه في خطابه الذي ألقاه بمناسبة المظـاهرات الطلابيـة والعمالية التي قامت احتجاجا على أحكام الطيران، ونـادت بالحرية السياسية "عاوزين حكومة حرة... العيشة بقت مرة"، وذلك بعد أقل من عام على مظاهرات ٩، ١٠ يونيـو التـي خرجت فيها نفس الجماهير تعلن تمسكها بعبد الناصر. فقـد استنكر الزعيم في خطابه المطالبـة بالحريـة، واعتبـر أن الحرية تعني تكافؤ الفرص، وإتاحة فرصة التعلـيم والعمـل والسكن أمام المواطنين، أي أن ليس مـن شـان الجمـاهير مناقشة أي قرار سياسي فضلاً عـن أن يكـون لهـم حـق المشاركة فيه. وكان صاحبنا يرى أن عبد الناصـر أهـدر ظرفًا تاريخيا جلبته الهزيمة كان باستطاعته الاسـتفادة منـه

www.alkottob.com

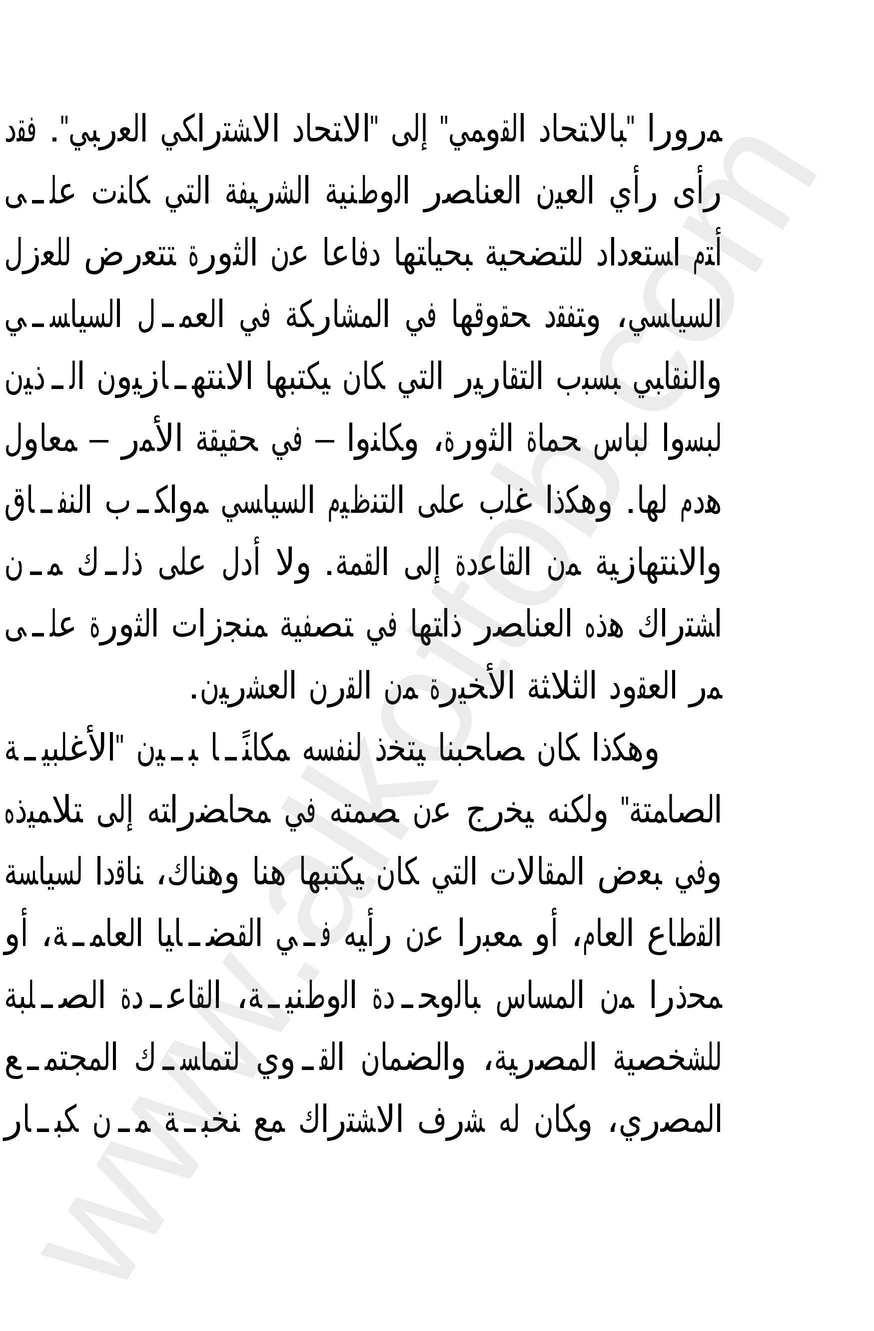


بإجراء إصلاح سياسي حقيقي تتخلص فيه البلاد مـن فسـاد التنظيم السياسي، والمؤسسات البيروقراطية، وتوحش أجهزة الأمن، ويصحح مسار التجربة كلها.

لقد كان عبد الناصر منحازا انحيازا تاما للفقراء، وقـدم لهم من المنجزات ما لم يتحقق في تاريخ مصر من قبل ومن بعد. ولكنه كان شديد الحذر من الاعتمـاد السياسـي علـى الجماهير، وتنظيمها سياسيا ومشاركتها في صـنع القـرار، مكتفيا بما له من شعبية عندهم، وهي وحدها لا تكفي لحماية النظام وقت الخطر، وهي نفسها الثغرة التي نفذ منها السادات لتصفية ثورة يوليو وإهدار إنجازاتها التنموية، وإثارة منـاخ التعصب الديني الناجم عن إفسـاح السـاحة أمـام التيـار الإسلامي السلفي الرجعي الذي عـرَض الوحـدة الوطنيـة للخطر، وأهدر أو كاد ما حققته الوحدة الوطنية من منجزات منذ ثورة، ١٩١٩.

ورغم انتماء صاحبنا إلى ثورة يوليو قلبا وقالبا، وإلـى الطبقة الاجتماعية التي ردت لها الثورة اعتبارها، وحفظـت كرامتها، وفتحت أمامها أبواب الحراك الاجتماعي، إلا أنـه عزف عن الانتماء إلى تنظيماتها السياسية من "هيئة التحرير"

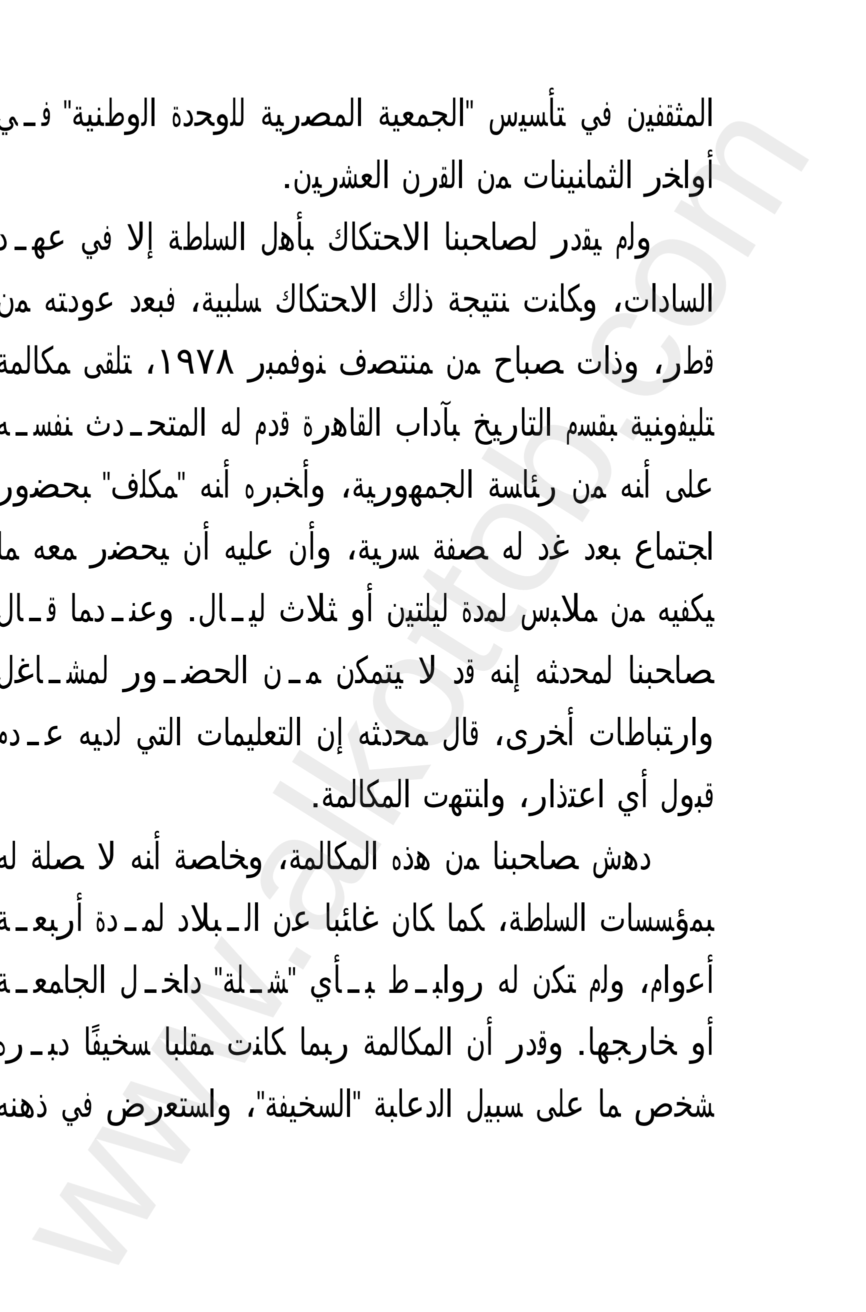
www.alkottob.com



مرورا "بالاتحاد القومي" إلى "الاتحاد الاشتراكي العربي". فقد رأى رأي العين العناصر الوطنية الشريفة التي كانت علـى أتم استعداد للتضحية بحياتها دفاعا عن الثورة تتعرض للعزل السياسي، وتفقد حقوقها في المشاركة في العمـل السياسـي والنقابي بسبب التقارير التي كان يكتبها الانتهـازيون الـذين لبسوا لباس حماة الثورة، وكانوا – في حقيقة الأمر – معاول هدم لها. وهكذا غاب على التنظيم السياسي مواكـب النفـاق والانتهازية من القاعدة إلى القمة. ولا أدل على ذلـك مـن اشتراك هذه العناصر ذاتها في تصفية منجزات الثورة علـى مر العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين.

وهكذا كان صاحبنا يتخذ لنفسه مكانًـا بـين "الأغلبيـة الصامتة" ولكنه يخرج عن صمته في محاضراته إلى تلاميذه وفي بعض المقالات التي كان يكتبها هنا وهناك، ناقدا لسياسة القطاع العام، أو معبرا عن رأيه فـي القضـايا العامـة، أو محذرا من المساس بالوحـدة الوطنيـة، القاعـدة الصـلبة للشخصية المصرية، والضمان القـوي لتماسـك المجتمـع المصري، وكان له شرف الاشتراك مع نخبـة مـن كبـار

www.alkottob.com

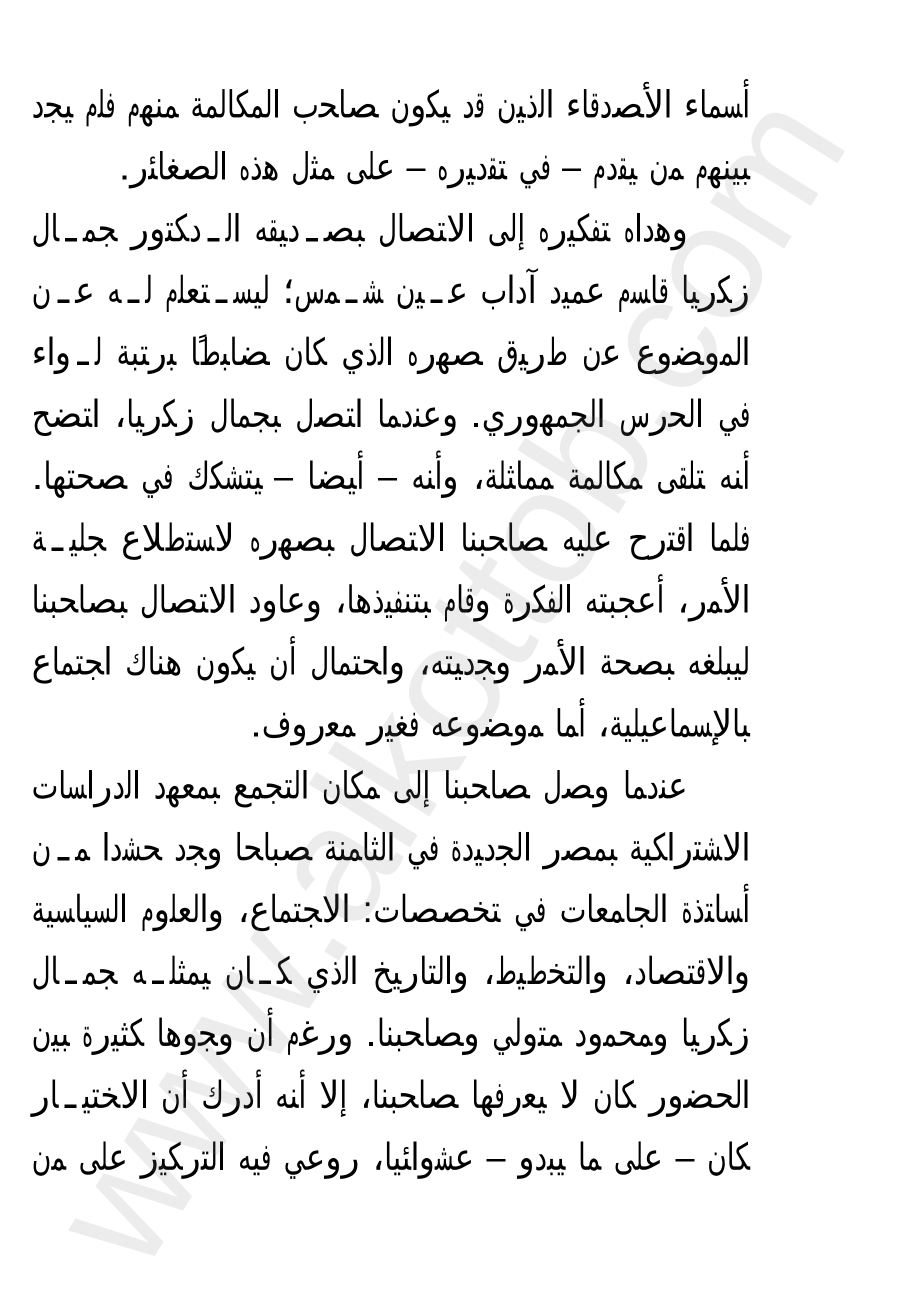


المثقفين في تأسيس "الجمعية المصرية للوحدة الوطنية" في أواخر الثمانينات من القرن العشرين.

ولم يقدر لصاحبنا الاحتكاك بأهل السلطة إلا في عهد السادات، وكانت نتيجة ذلك الاحتكاك سلبية، فبعد عودته من قطر، وذات صباح من منتصف نوفمبر ١٩٧٨، تلقى مكالمة تليفونية بقسم التاريخ بآداب القاهرة قدم له المتحدث نفسه على أنه من رئاسة الجمهورية، وأخبره أنه "مكاف" بحضور اجتماع بعد غد له صفة سرية، وأن عليه أن يحضر معه ما يكفيه من ملابس لمدة ليلتين أو ثلاث ليال. وعندما قال صاحبنا لمحدثه إنه قد لا يتمكن من الحضور لمشاغل وارتباطات أخرى، قال محدثه إن التعليمات التي لديه عدم قبول أي اعتذار، وانتهت المكالمة.

دهش صاحبنا من هذه المكالمة، وخاصة أنه لا صلة له بمؤسسات السلطة، كما كان غائبا عن البلاد لمدة أربعة أعوام، ولم تكن له روابط بأي "شلة" داخل الجامعة أو خارجها. وقدر أن المكالمة ربما كانت مقلبا سخيفًا دبره شخص ما على سبيل الدعابة "السخيفة"، واستعرض في ذهنه

www.alkottob.com



أسماء الأصدقاء الذين قد يكون صاحب المكالمة منهم فلم يجد بينهم من يقدم – في تقديره – على مثل هذه الصغائر.

وهداه تفكيره إلى الاتصال بصـديقه الـدكتور جمـال زكريا قاسم عميد آداب عـين شـمس؛ ليسـتعلم لـه عـن الموضوع عن طريق صهره الذي كان ضابطًا برتبة لـواء في الحرس الجمهوري. وعندما اتصل بجمال زكريا، اتضح أنه تلقى مكالمة مماثلة، وأنه – أيضا – يتشكك في صحتها. فلما اقترح عليه صاحبنا الاتصال بصهره لاستطلاع جليـة الأمر، أعجبته الفكرة وقام بتنفيذها، وعاود الاتصال بصاحبنا ليبلغه بصحة الأمر وجديته، واحتمال أن يكون هناك اجتماع بالإسماعيلية، أما موضوعه فغير معروف.

عندما وصل صاحبنا إلى مكان التجمع بمعهد الدراسات الاشتراكية بمصر الجديدة في الثامنة صباحا وجد حشدا مـن أساتذة الجامعات في تخصصات: الاجتماع، والعلوم السياسية والاقتصاد، والتخطيط، والتاريخ الذي كـان يمثلـه جمـال زكريا ومحمود متولي وصاحبنا. ورغم أن وجوها كثيرة بين الحضور كان لا يعرفها صاحبنا، إلا أنه أدرك أن الاختيـار كان – على ما يبدو – عشوائيا، روعي فيه التركيز على من

www.alkottob.com

لم تكن لهم صلات بالاتحاد الاشتراكي، وإن كـان اختيـار محمود متولي ضمن هؤلاء يشي بعدم دقة المعلومات لـدى من قام بالاختيار. فقد كان الرجل من العناصر التي هـوت التسلق على كل تنظيمات الثورة، وله كتاب ضخم نُشر فـي منتصف الســتينات بعنـوان "الاتحـاد الاشـتراكي وعـاء الديموقراطية"، وكان زملاؤه يفضـلون دائمـا أن يسـتبدلوا بكلمة "وعاء" كلمة "طشت" كلما ورد ذكر الكتاب على لسان أحد، وكان رجل بريئًا من شـبهة "القـدوة" فكـان وجـوده (على ما هو معروف عنه) يوحي بعدم الاطمئنان إلى من لا يعرفهم صاحبنا وصديقه جمال زكريا بين هذا الحشد، الذين اتضح – بعد قليل – أن نصفهم تقريبا كـانوا مـن ضـباط المخابرات الذين دسوا بين أعضاء هيئة التدريس المدعوين.

شُحن القوم في ست سيارات ميكروباص تتبـع إحـدى شركات السياحة (تبين أنها تابعة للمخابرات)، وكـان بكـل سيارة شخص بادر الركاب بتحية الصباح معلنًا أنه "منـدوب الرياسة" وأن وجهة الركب الإسـماعيلية. وعنـدما وصـل الركب إلى الإسماعيلية وجدوا أنفسهم أمـام المبنـى القـديم لإدارة شركة قناة السويس، وكان في استقبالهم عثمان أحمـد

www.alkottob.com

عثمان، ومنصور حسن (وزير الثقافة) الذي كان من أمنـاء الحزب الوطني الديموقراطي الذي أسسـه السـادات بـديلاً للحزب الذي أسسه في إطار تحويل الاتحاد الاشتراكي إلـى منابر ثم أحزاب، وحمل اسم "حزب مصر الاشتراكي"، ثـم عندما أسس السادات "الحزب الوطني الـديموقراطي" هـرع أعضاء حزب مصر الاشتراكي إلى حزب الرئيس، وتركـوا حفنة من الأعضاء يحملون لافتة حزب مصـر الاشـتراكي ممن كان انضمامهم بدافع مبـادئهم ولـيس نفاقًـا لحامـل صولجان السلطة.

صافح عثمان أحمد عثمان ومنصور حسن المـدعوين ورحبوا بهم، وعندما دخلـوا وجـدوا أنفسـهم فـي قاعـة اجتماعات تسع لحوالي ٨٠ شخصا، صفت مقاعدها في نحو ثمانية صفوف بكل منها عشرة مقاعـد، تتصـدرها منصـة عريضة بجوار المدخل، تسع لأربعة أو خمسة أفراد. واتخذ المدعوون مقاعدهم، ولاحظ صاحبنا أن جيب سترة الجـالس بجواره به جهاز لاسلكي ينقل إشارات متبادلة مـع الأمـن، وضع الرجل فمه داخل الجيب الداخلي للسترة للرد عليهـا. وسرعان ما اكتشف أن الجلوس رتب على أساس أن يجلـس

www.alkottob.com

في كل صف ستة من أعضاء هيئة التدريس بينهم أربعة من ضباط المخابرات، واحد منهم على كل طرف، واثنين بـين الجلوس، وبعد نصف ساعة تقريبا دخل السادات القاعة يتبعه محمد حسني مبارك (نائب الرئيس)، واتجه السـادات عبـر الممر الجانبي للقاعة إلى الصف الأخير وصافح الجميع فردا فردا (بما في ذلك ضباط المخابرات) حتى وصل إلى الصف الأول ثم جلس إلى المنصة وعن يمينه نائب الرئيس، وعـن يساره عثمان أحمد عثمان يليه منصور حسن. وخلت القاعة من رجال الصحافة والتليفزيون وكاميرات التصـوير؛ فقـد حرص منظموه على عدم وصول أخباره إلى الإعلام.

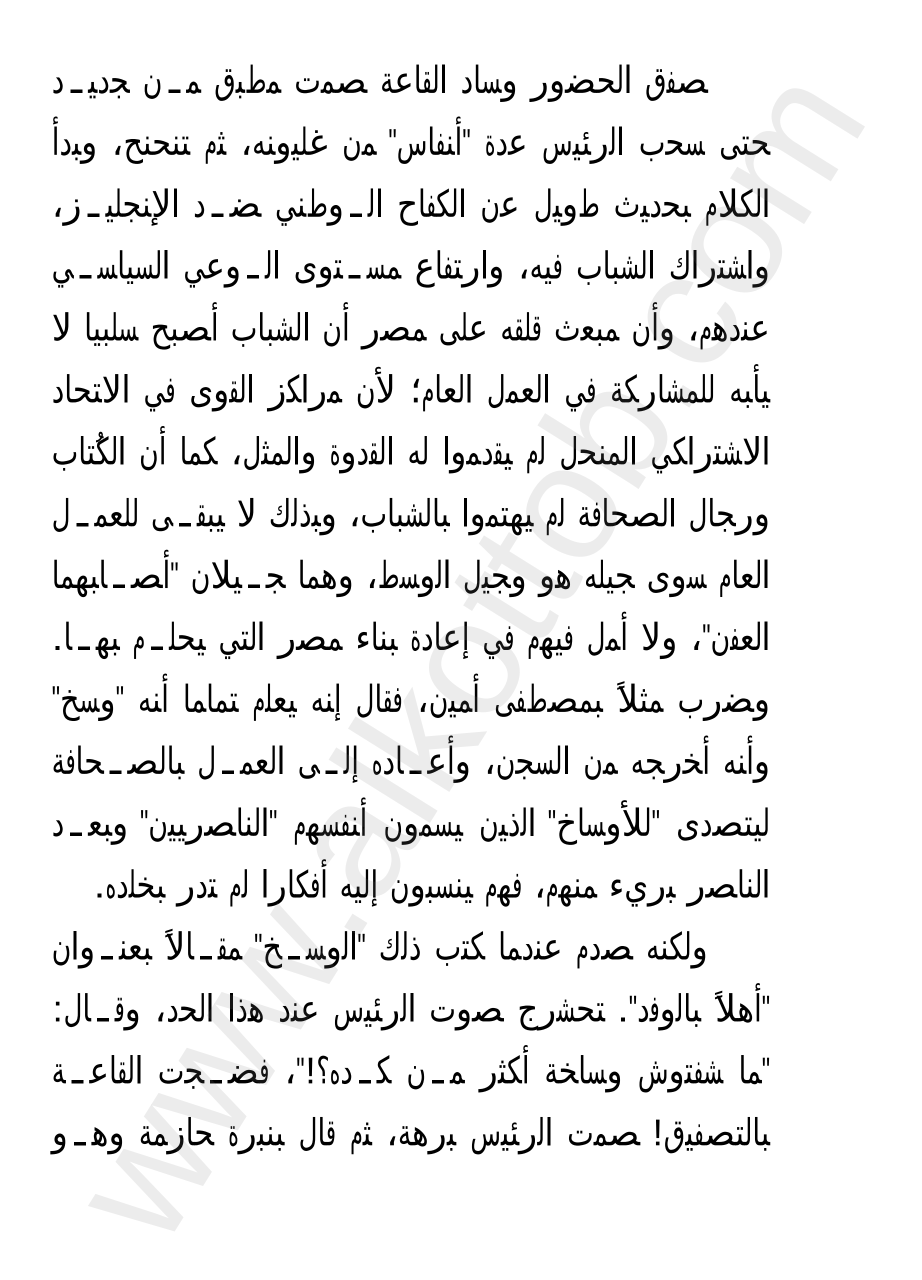
ساد الصمت القاعة بعدما اتخذ الرئيس مجلسه وكانـت أنظاره متجهة إلى سقف القاعة، أما النائب فكان نظره علـى القاعة، وقد ضم يديه إلى بعضهما البعض فـوق المنصـة، وظل كذلك حتى نهاية الاجتماع، بينما كان عثمـان أحمـد عثمان مبتسما يتبادل حديثًا هامسا مع منصور حسن، وقطـع الرئيس الصمت قائلاً: "فين الغليون بتـاعي؟"، فقـام أحـد الجلوس في الصف الأول؛ ليقدم للرئيس غليونـه والطبـاق،

www.alkottob.com

وأخذ الرئيس يحشو غليونه بالطباق باسترخاء وهـدوء، ثـم أشعله وأذن لمنصور حسن في الكلام.

غادر منصور حسن المنصـة إلـى ميكرفـون كـان موضوعا على بعد مترين في مواجهتها إلى الجانب الأيسـر منها، وبدأ كلمته بالإشارة إلى أنـه بنـاء علـى توجيهـات الرئيس، جمع له هذه المجموعة من أساتذة الجامعات الـذين روعي في اختيارهم التميز العلمي، والوطنية المتدفقة، وأنهم جاءوا ليستمعوا إليه، وهم على استعداد تـام لأداء واجـبهم الوطني الذي يكلفهم به الرئيس. وبدا هذا الكـلام غريبـا لا يبعث على الطمأنينة، بل يوحي (لصاحبنا) أنه فـي طريقـه للتورط في عمل يحدده السادات، وأصبح همه التفكيـر فـي مخرج من المأزق. ولاحظ أن منصور حسن رفـع الكلفـة تماما بينه وبين الرئيس، فلا يستخدم عبارات جرى العـرف على استخدامها في مثل هذه المناسبات، فيقـول لـه: "أنـت طلبت كذا" و "أنت كلفتني بكذا"، وكأنه يخاطـب زمـيلاً أو رجلاً في نفس مستواه. وأعلن في ختام كلمته القصـيرة أن "الكلمة الآن للسيد الرئيس".

www.alkottob.com



صفق الحضور وساد القاعة صمت مطبق مـن جديـد حتى سحب الرئيس عدة "أنفاس" من غليونه، ثم تنحنح، وبدأ الكلام بحديث طويل عن الكفاح الـوطني ضـد الإنجليـز، واشتراك الشباب فيه، وارتفاع مسـتوى الـوعي السياسـي عندهم، وأن مبعث قلقه على مصر أن الشباب أصبح سلبيا لا يأبه للمشاركة في العمل العام؛ لأن مراكز القوى في الاتحاد الاشتراكي المنحل لم يقدموا له القدوة والمثل، كما أن الكُتاب ورجال الصحافة لم يهتموا بالشباب، وبذلك لا يبقـى للعمـل العام سوى جيله هو وجيل الوسط، وهما جـيلان "أصـابهما العفن"، ولا أمل فيهم في إعادة بناء مصر التي يحلـم بهـا. وضرب مثلاً بمصطفى أمين، فقال إنه يعلم تماما أنه "وسخ" وأنه أخرجه من السجن، وأعـاده إلـى العمـل بالصـحافة ليتصدى "للأوساخ" الذين يسمون أنفسهم "الناصريين" وبعـد الناصر بريء منهم، فهم ينسبون إليه أفكارا لم تدر بخلده.

ولكنه صدم عندما كتب ذلك "الوسـخ" مقـالاً بعنـوان "أهلاً بالوفد". تحشرج صوت الرئيس عند هذا الحد، وقـال: "ما شفتوش وساخة أكثر مـن كـده؟!"، فضـجت القاعـة بالتصفيق! صمت الرئيس برهة، ثم قال بنبرة حازمة وهـو

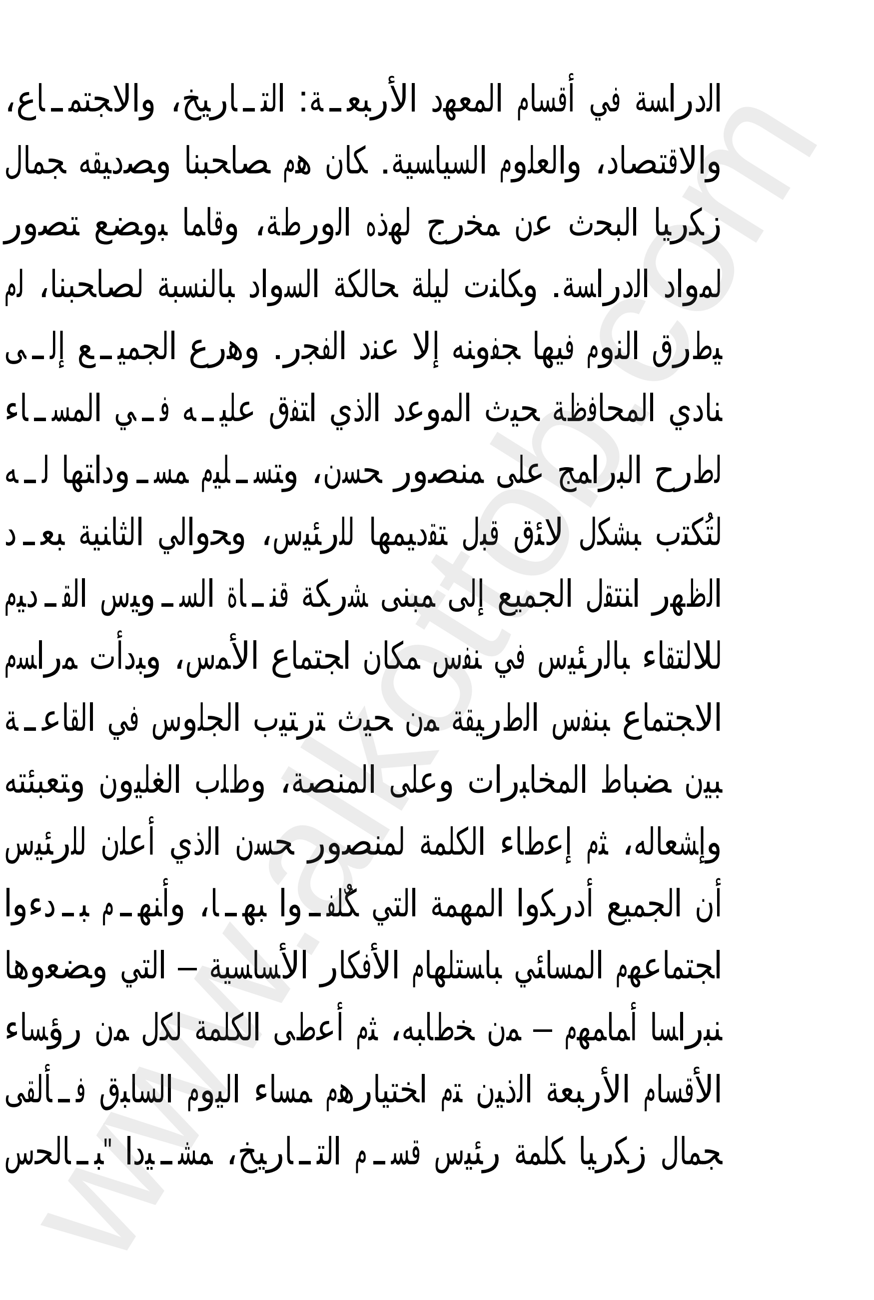
www.alkottob.com

يلوح بسبابته إلى الحضور "علشان كده جمعتكم، لأنكم نجوتم من (الوساخات)، ولأنكم (فخر) مصر، علشان تربوا لمصر جيل (نظيف) قوي يعيد لها مجدها الذي أضاعه (أصحاب الشعارات).

عاوز شباب وطني مستعد لفداء الوطن بروحه، شباب قادر على حمل المسئولية في المستقبل، على أن تكون الوطنية والسمعة الطيبة هي معيار اختيار هؤلاء الشباب، الذين سيتم تنظيم دورات تثقيفية لهم "بمعهد الدراسات الوطنية" الذي كان يسمى مركز الدراسات الاشتراكية، يتعلم فيه الشباب (الكلام الحنجوري)، والآن يريد أن يعلمهم حب مصر". وأنه اختارهم ليكونوا هيئة التدريس بهذا المعهد، وسوف يلقاهم بعد ظهر الغد؛ ليطلعوه على برنامج الدراسة، الذين عليهم إعداده الليلة، ليعرض عليه في الصباح قبل حضوره الاجتماع.

وبعد انصراف الرئيس وصحبه، استبقى منصور حسن المدعوين في مقاعدهم، ووقف مرة أخرى ليؤكد أن الأمل معقود عليهم، ويبلغهم بمكان اجتماعهم مساء لوضع برامج الدراسة، والأسس التي يجب مراعاتها عند وضع مواد

www.alkottob.com



الدراسة في أقسام المعهد الأربعـة: التـاريخ، والاجتمـاع، والاقتصاد، والعلوم السياسية. كان هم صاحبنا وصديقه جمال زكريا البحث عن مخرج لهذه الورطة، وقاما بوضع تصور لمواد الدراسة. وكانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لصاحبنا، لم يطرق النوم فيها جفونه إلا عند الفجر. وهرع الجميـع إلـى نادي المحافظة حيث الموعد الذي اتفق عليـه فـي المسـاء لطرح البرامج على منصور حسن، وتسـليم مسـوداتها لـه لتُكتب بشكل لائق قبل تقديمها للرئيس، وحوالي الثانية بعـد الظهر انتقل الجميع إلى مبنى شركة قنـاة السـويس القـديم للالتقاء بالرئيس في نفس مكان اجتماع الأمس، وبدأت مراسم الاجتماع بنفس الطريقة من حيث ترتيب الجلوس في القاعـة بين ضباط المخابرات وعلى المنصة، وطلب الغليون وتعبئته وإشعاله، ثم إعطاء الكلمة لمنصور حسن الذي أعلن للرئيس أن الجميع أدركوا المهمة التي كُلفـوا بهـا، وأنهـم بـدءوا اجتماعهم المسائي باستلهام الأفكار الأساسية – التي وضعوها نبراسا أمامهم – من خطابه، ثم أعطى الكلمة لكل من رؤساء الأقسام الأربعة الذين تم اختيارهم مساء اليوم السابق فـألقى جمال زكريا كلمة رئيس قسـم التـاريخ، مشـيدا "بـالحس

www.alkottob.com

التاريخي عند الرئيس" مستعرضا عناوين المقررات، واعـدا بموافاة المعهد بتفاصيلها وأسماء من يقترحهم للتدريس. وفعل بقية رؤساء الأقسام نفس الشيء، ثم ختم الرئيس الاجتمـاع بكلمة قصيرة (حوالي ربع ساعة) هنأ فيهـا الجميـع علـى "الإنجاز الرائع" الذي حققوه في زمـن قياسـي، وأن فكـرة دعوتهم إلى الإسماعيلية كانت فكرة صائبة حتى يتـاح لهـم التفرغ للمهمة بعيدا عن أعباء أعمالهم.

وبعد انصراف الرئيس وبطانته، استبقى منصور حسن الحضور في أماكنهم؛ ليعلن ضرورة تسليم جداول الدراسـة وأسماء من يتم اختيارهم للتدريس له شخصيا بمكتب وزيـر الثقافة بالزمالك في تمام السابعة مساء السبت (أي بعـد ٤٨ ساعة)، على أن يحضر هـذا الاجتمـاع رؤسـاء الأقسـام الأربعة، فاعتذر جمال زكريا للوزير عن عدم الحضور ؛لأن لديه اجتماع آخر بالجامعة لا يستطيع التخلف عن حضوره، وأنه يفوض صاحبنا لحضور الاجتماع نيابة عنـه، فوافـق الوزير.

ذهب صاحبنا إلى مكتب الوزير في الموعـد المحـدد، ليجد الدكتور عبد الملك عودة الذي اختير رئيسا لقسم العلوم

www.alkottob.com

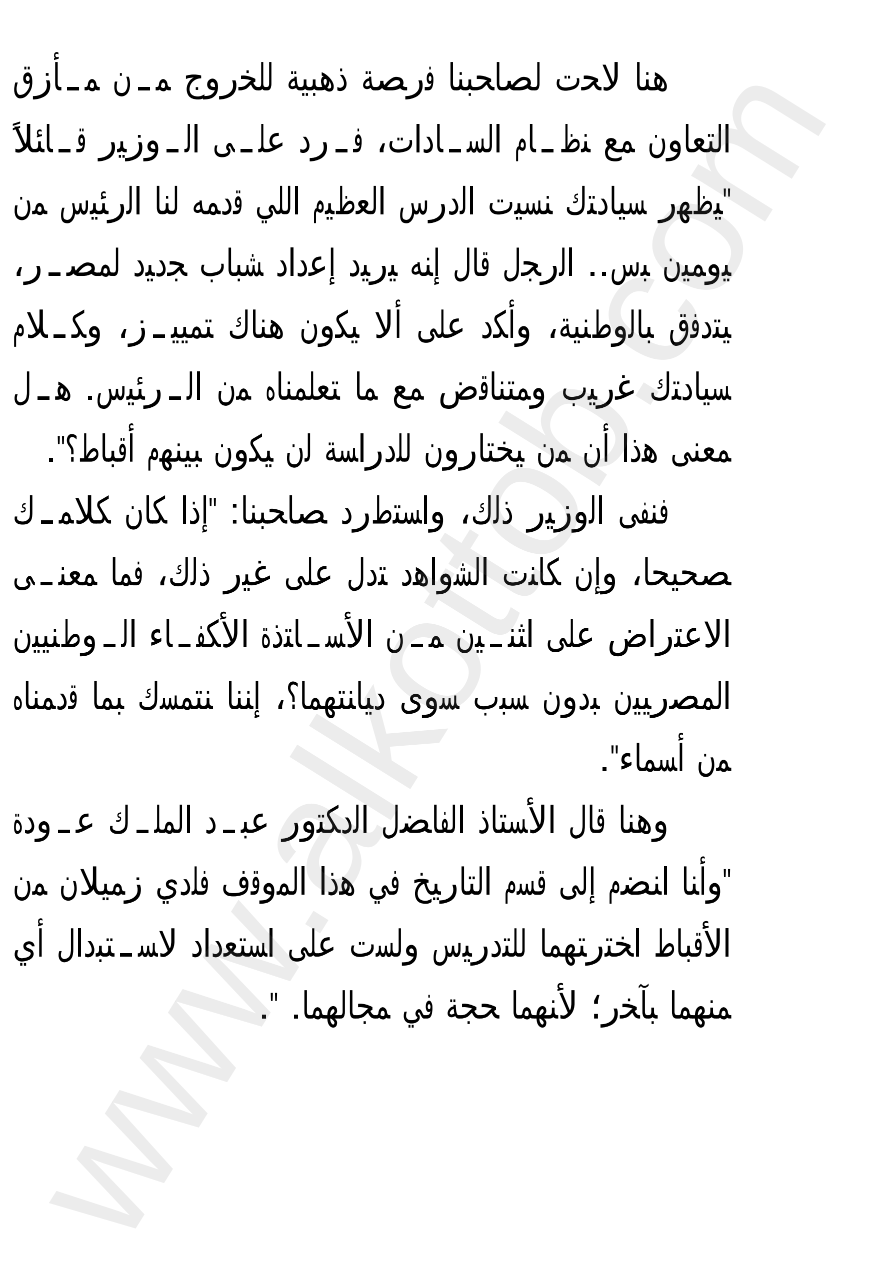
السياسية قد سبقه إلى هناك بدقائق، وكان الوزير جالسا إلـى مكتب صغير (نسبيا) وبجواره رجل متوسط القامـة يهمـس للوزير بحديث بدا من رد فعل الوزير أن هذا الرجـل قـد يكون سكرتيره أو أحد صغار موظفي مكتبه.

وفضل الوزير أن يرى ما في جعبة الـرجلين اللـذين حضرا في الموعد بادئًا بقسم التـاريخ، فعـرض صـاحبنا المواد، وأسماء من يقترح القسم إسناد تدريسها إليهم.

وكان من بين من ذكرهم يونان لبيـب رزق، وإسـحق عبيد تاوضروس، وكل منهما كان حجة في الموضوع الـذي اختير من أجله.

ما كاد صاحبنا يصل إلى ذكر الاسمين حتـى قاطعـه الرجل الجالس بجوار الوزير قائلاً: "مش لازم دول شـوفوا حد تاني.. الأساتذة كثير". فرد عليه صاحبنا بقوله: "لا شـأن لك بهذا، فأنا لا أوجه الحديث إليك وإنما إلى سيادة الوزير". فتدخل منصور حسن قائلاً: "ا .. هو أنت متعرفش الدكتور مصطفى السعيد، ده زميلك في جامعة القـاهرة، ثـم لمـاذا الإصرار على هؤلاء؟"

www.alkottob.com

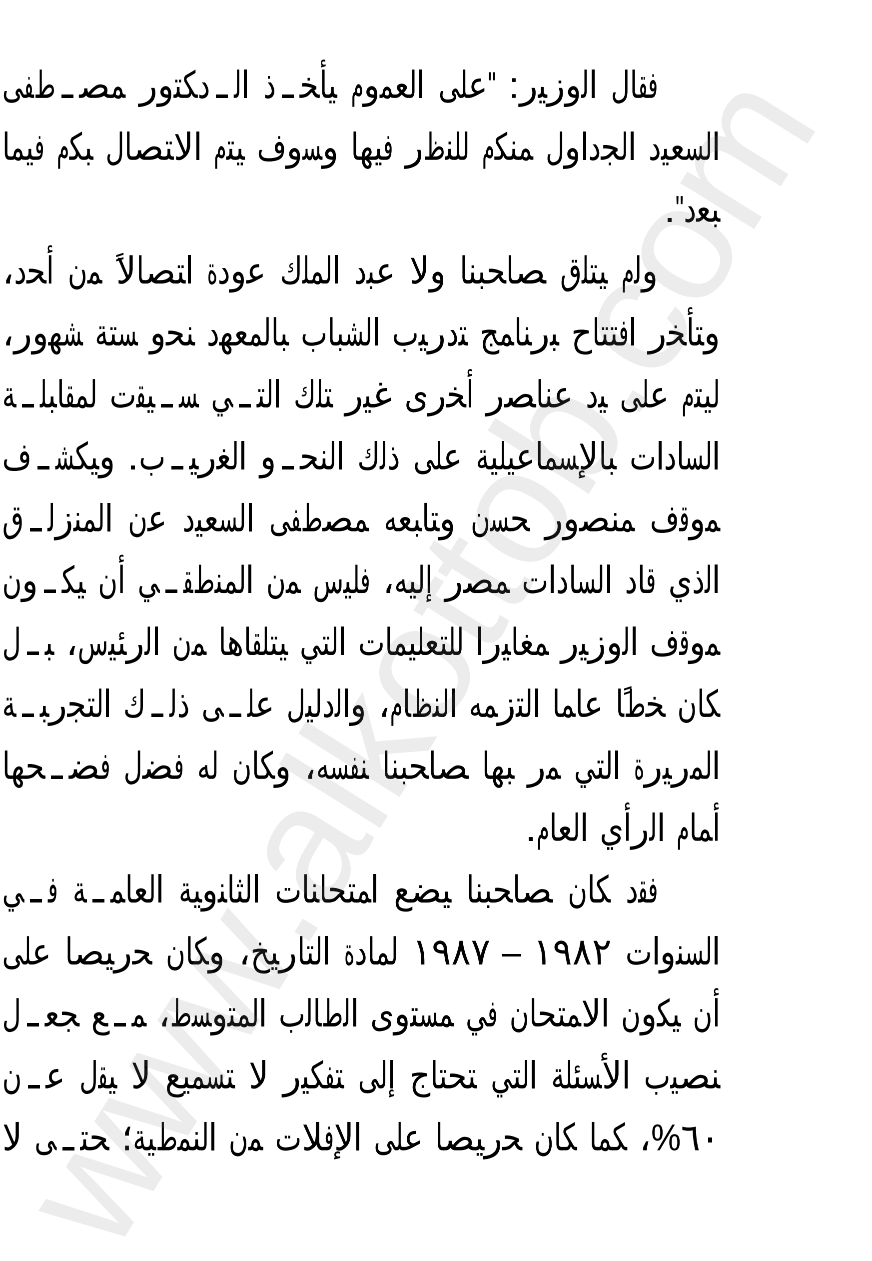


هنا لاحت لصاحبنا فرصة ذهبية للخروج مـن مـأزق التعاون مع نظـام السـادات، فـرد علـى الـوزير قـائلاً "يظهر سيادتك نسيت الدرس العظيم اللي قدمه لنا الرئيس من يومين بس.. الرجل قال إنه يريد إعداد شباب جديد لمصـر، يتدفق بالوطنية، وأكد على ألا يكون هناك تمييـز، وكـلام سيادتك غريب ومتناقض مع ما تعلمناه من الـرئيس. هـل معنى هذا أن من يختارون للدراسة لن يكون بينهم أقباط؟".

فنفى الوزير ذلك، واستطرد صاحبنا: "إذا كان كلامـك صحيحا، وإن كانت الشواهد تدل على غير ذلك، فما معنـى الاعتراض على اثنـين مـن الأسـاتذة الأكفـاء الـوطنيين المصريين بدون سبب سوى ديانتهما؟، إننا نتمسك بما قدمناه من أسماء".

وهنا قال الأستاذ الفاضل الدكتور عبـد الملـك عـودة "وأنا انضم إلى قسم التاريخ في هذا الموقف فلدي زميلان من الأقباط اخترتهما للتدريس ولست على استعداد لاسـتبدال أي منهما بآخر؛ لأنهما حجة في مجالهما. ".

www.alkottob.com

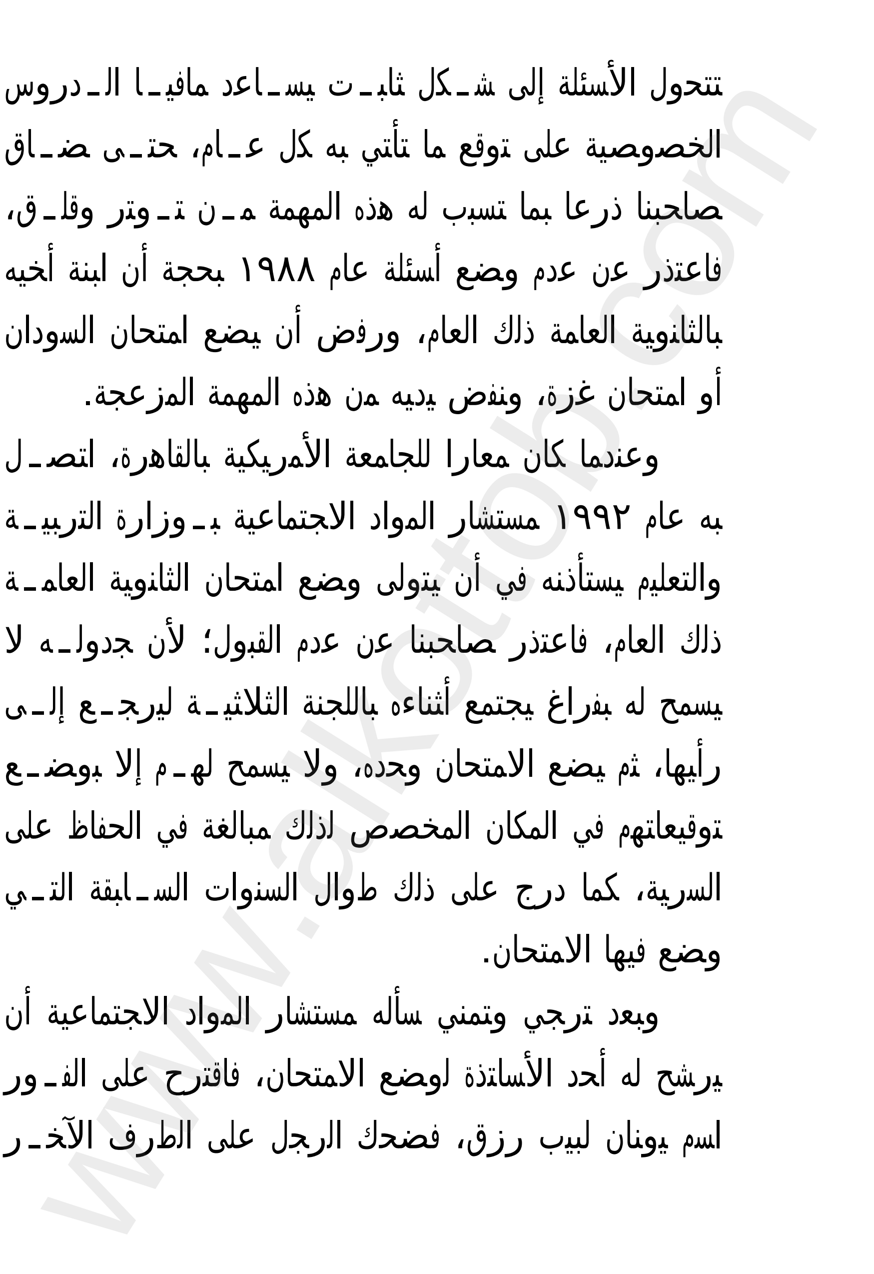


فقال الوزير: "على العموم يأخذ الدكتور مصطفى السعيد الجداول منكم للنظر فيها وسوف يتم الاتصال بكم فيما بعد".

ولم يتلق صاحبنا ولا عبد الملك عودة اتصالاً من أحد، وتأخر افتتاح برنامج تدريب الشباب بالمعهد نحو ستة شهور، ليتم على يد عناصر أخرى غير تلك التي سبقت لمقابلة السادات بالإسماعيلية على ذلك النحو الغريب. ويكشف موقف منصور حسن وتابعه مصطفى السعيد عن المنزلق الذي قاد السادات مصر إليه، فليس من المنطقي أن يكون موقف الوزير مغايرا للتعليمات التي يتلقاها من الرئيس، بل كان خطًا عاما التزمه النظام، والدليل على ذلك التجربة المريرة التي مر بها صاحبنا نفسه، وكان له فضل فضحها أمام الرأي العام.

فقد كان صاحبنا يضع امتحانات الثانوية العامة في السنوات ١٩٨٢ – ١٩٨٧ لمادة التاريخ، وكان حريصا على أن يكون الامتحان في مستوى الطالب المتوسط، مع جعل نصيب الأسئلة التي تحتاج إلى تفكير لا تسميع لا يقل عن ٦٠%، كما كان حريصا على الإفلات من النمطية؛ حتى لا

www.alkottob.com

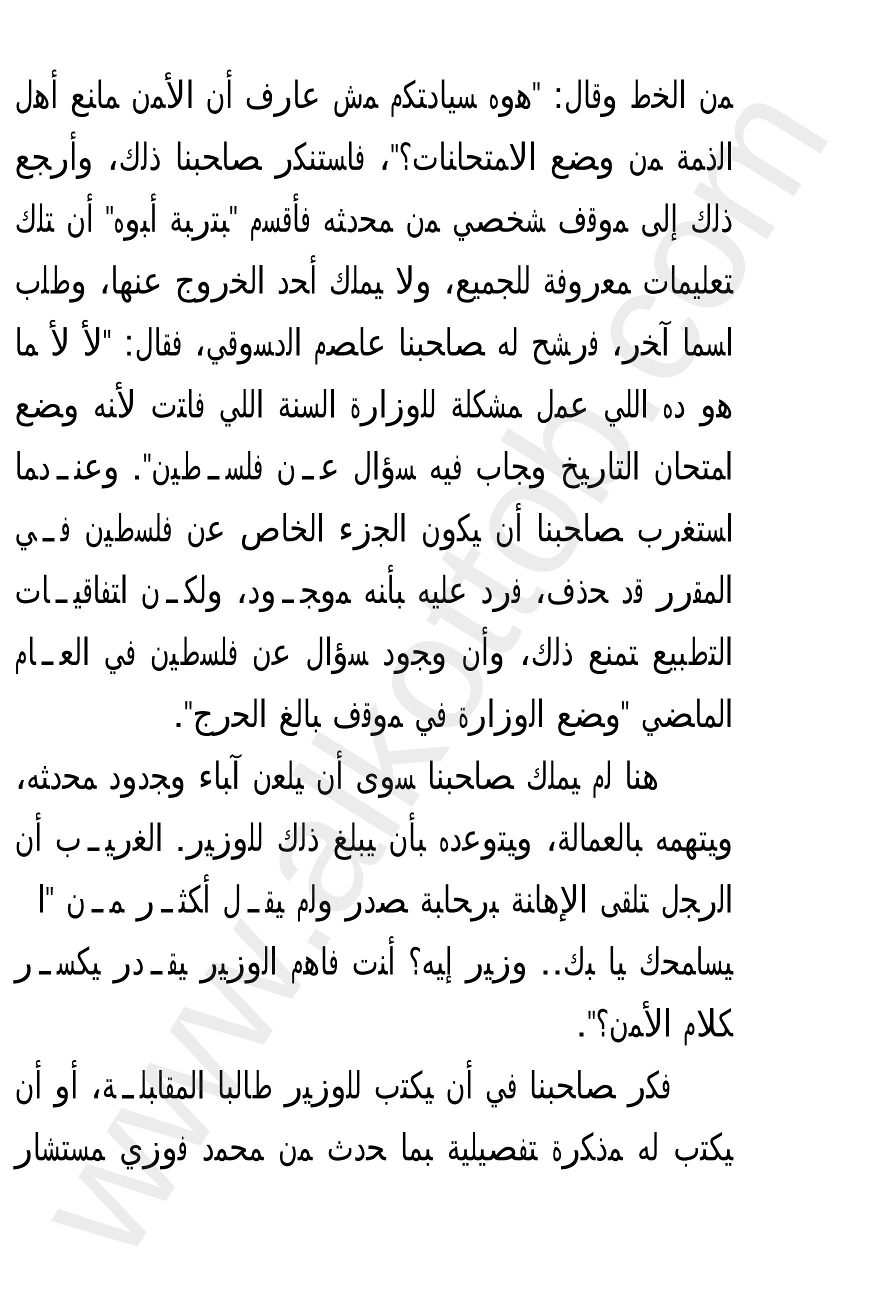


تتحول الأسئلة إلى شكل ثابت يساعد مافيا الدروس الخصوصية على توقع ما تأتي به كل عام، حتى ضاق صاحبنا ذرعا بما تسبب له هذه المهمة من توتر وقلق، فاعتذر عن عدم وضع أسئلة عام ١٩٨٨ بحجة أن ابنة أخيه بالثانوية العامة ذلك العام، ورفض أن يضع امتحان السودان أو امتحان غزة، ونفض يديه من هذه المهمة المزعجة.

وعندما كان معارا للجامعة الأمريكية بالقاهرة، اتصل به عام ١٩٩٢ مستشار المواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم يستأذنه في أن يتولى وضع امتحان الثانوية العامة ذلك العام، فاعتذر صاحبنا عن عدم القبول؛ لأن جدوله لا يسمح له بفراغ يجتمع أثناءه باللجنة الثلاثية ليرجع إلى رأيها، ثم يضع الامتحان وحده، ولا يسمح لهم إلا بوضع توقيعاتهم في المكان المخصص لذلك مبالغة في الحفاظ على السرية، كما درج على ذلك طوال السنوات السابقة التي وضع فيها الامتحان.

وبعد ترجي وتمني سأله مستشار المواد الاجتماعية أن يرشح له أحد الأساتذة لوضع الامتحان، فاقترح على الفور اسم يونان لبيب رزق، فضحك الرجل على الطرف الآخر

www.alkottob.com



من الخط وقال: "هوه سيادتكم مش عارف أن الأمن مانع أهل الذمة من وضع الامتحانات؟"، فاستنكر صاحبنا ذلك، وأرجع ذلك إلى موقف شخصي من محدثه فأقسم "بتربة أبوه" أن تلك تعليمات معروفة للجميع، ولا يملك أحد الخروج عنها، وطلب اسما آخر، فرشح له صاحبنا عاصم الدسوقي، فقال: "لأ لأ ما هو ده اللي عمل مشكلة للوزارة السنة اللي فاتت لأنه وضع امتحان التاريخ وجاب فيه سؤال عـن فلسـطين". وعنـدما استغرب صاحبنا أن يكون الجزء الخاص عن فلسطين فـي المقرر قد حذف، فرد عليه بأنه موجـود، ولكـن اتفاقيـات التطبيع تمنع ذلك، وأن وجود سؤال عن فلسطين في العـام الماضي "وضع الوزارة في موقف بالغ الحرج".

هنا لم يملك صاحبنا سوى أن يلعن آباء وجدود محدثه، ويتهمه بالعمالة، ويتوعده بأن يبلغ ذلك للوزير. الغريـب أن الرجل تلقى الإهانة برحابة صدر ولم يقـل أكثـر مـن "ا يسامحك يا بك.. وزير إيه؟ أنت فاهم الوزير يقـدر يكسـر كلام الأمن؟".

فكر صاحبنا في أن يكتب للوزير طالبا المقابلـة، أو أن يكتب له مذكرة تفصيلية بما حدث من محمد فوزي مستشار

www.alkottob.com

المواد الاجتماعية (الذي لا يعرفه معرفة شخصية). ولكنـه استعاد كلام الرجل معه، وقلبه على مختلف الوجوه، فوجـد أن رجلاً في هذا المركز الذي يعـادل وكيـل وزارة أول لا يمكن أن يورط نفسه في حديث من هذا النوع، إلا إذا كـان واثقًا من أن يد الوزير لن تطوله؛ لأن المسألة تتعلق بالأمن.

واستقر رأي صاحبنا على فضح هذا العفن الذي أصاب الإدارة المصرية، بكتابة خطـاب مفتـوح للـوزير ينُشـر بـالأهرام. فأعـد الخطـاب موجهـا للـوزير كزميـل (بحكم كونه أستاذًا) باعتبار أن الأستاذية هـي الأبقـى وأن الوزارة عرض زائل، لا يبقى منه إلا ما قدمه الوزير لبلاده، وبعد تناول القضية، أُعتبر الوزير مسئولاً أمام الرأي العـام عن إيضاح أسباب هذا التردي الذي وقعـت فيـه الـوزارة بضرب الوحدة الوطنية ،والتنكر لقضـية فلسـطين خدمـة للتطبيع.

اتصل صاحبنا بالمسئول عن صفحة الرأي في الأهرام يسأله عن إمكانية النشر، وعندما علم الرجـل بالموضـوع اعتذر عن عدم إمكانية ذلك بحجة أن "تقاليد" الأهرام تمنعـه من ذلك. وكان صاحبنا على موعد اللقاء الأسبوعي مساء كل

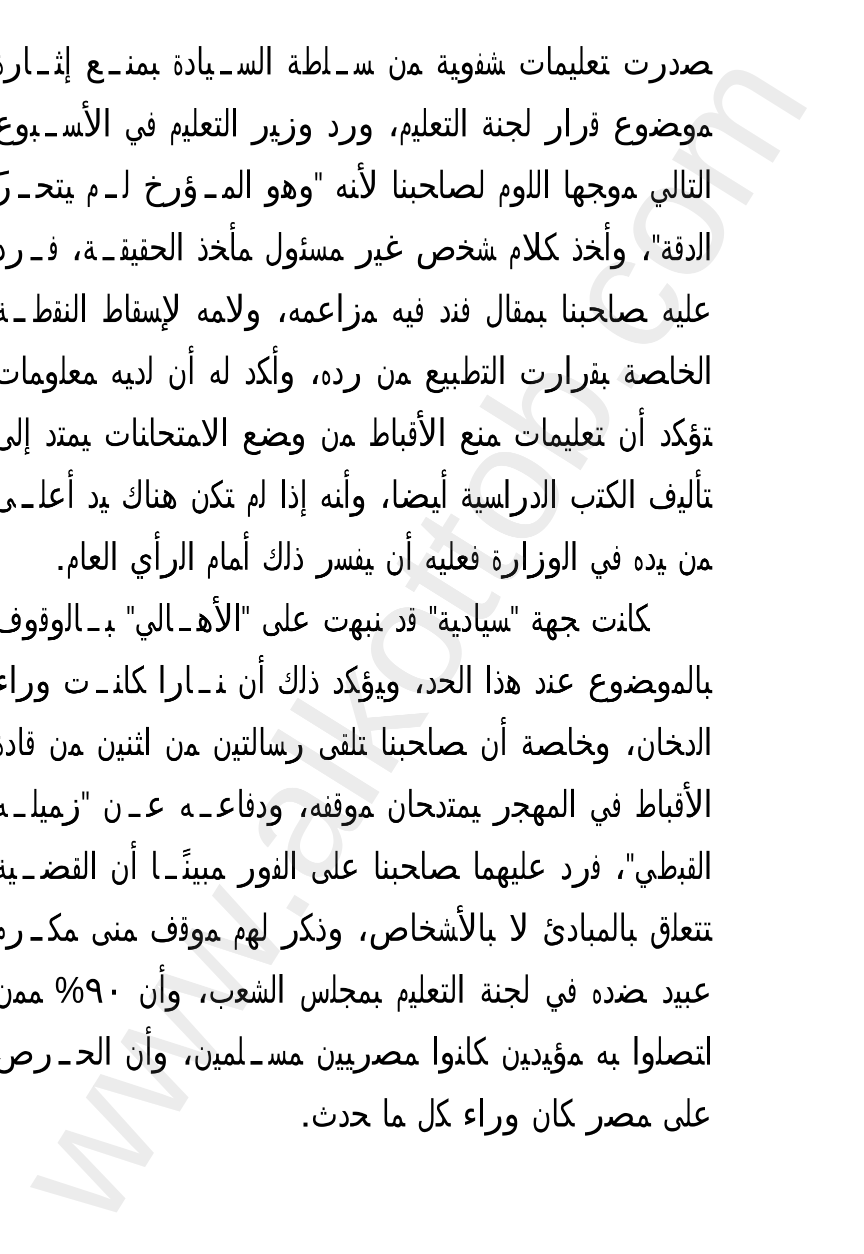
www.alkottob.com

سبت مع صديقه جلال السيد ومجموعة من الأصدقاء، علـى رأسهم عبد العال الباقوري الذي كان (عندئذ) رئيسا لتحرير الأهالي. وعندما استعلم الأصدقاء من صـاحبنا عـن سـر تجهمه أخبرهم بالأمر، فأبدى عبد العال الباقوري اسـتعداده أن ينشر المقال على الصفحة الأولى بالأهالي، وقد كان.

وبمجرد صدور الأهالي صباح الأربعاء، طلب حسـين كامل بهاء الدين اجتماع لجنـة التعلـيم بمجلـس الشـعب، فاجتمعت اللجنة على عجل، ووقفت منى مكرم عبيد تهـاجم صاحبنا وتتهمه "بالعبث" بالوحدة الوطنية! وهو موقف فهمـه صاحبنا جيدا ؛لأنه كان مشـرفًا مشـاركًا لمحمـد محمـود الجوهري على رسالة منى مكرم عبيد للدكتوراه في منتصف الثمانينيات وقام وزميله بإسقاط قيـدها لعـدم جـديتها فـي الدراسة، فرأت في القضية مناسبة لتوجيه ضربة لصـاحبنا، ومجاملة الوزير. واتخذت اللجنة قرارا بالتحذير من اتخـاذ التعليم أداة للصراع السياسي.!

نُشر قرار اللجنة بصفحة أخبار الدولة بالطبعة الأولـى بجريدة الأخبار، وأُسقط من باقي الطبعات، كما لم يـرد لـه ذكر بالأهرام أو غيره من الصحف القومية وغيرهـا؛ فقـد

www.alkottob.com



صدرت تعليمات شفوية من سـلطة السـيادة بمنـع إثـارة موضوع قرار لجنة التعليم، ورد وزير التعليم في الأسـبوع التالي موجها اللوم لصاحبنا لأنه "وهو المـؤرخ لـم يتحـرَ الدقة"، وأخذ كلام شخص غير مسئول مأخذ الحقيقـة، فـرد عليه صاحبنا بمقال فند فيه مزاعمه، ولامه لإسقاط النقطـة الخاصة بقرارت التطبيع من رده، وأكد له أن لديه معلومات تؤكد أن تعليمات منع الأقباط من وضع الامتحانات يمتد إلى تأليف الكتب الدراسية أيضا، وأنه إذا لم تكن هناك يد أعلـى من يده في الوزارة فعليه أن يفسر ذلك أمام الرأي العام.

كانت جهة "سيادية" قد نبهت على "الأهـالي" بـالوقوف بالموضوع عند هذا الحد، ويؤكد ذلك أن نـارا كانـت وراء الدخان، وخاصة أن صاحبنا تلقى رسالتين من اثنين من قادة الأقباط في المهجر يمتدحان موقفه، ودفاعـه عـن "زميلـه القبطي"، فرد عليهما صاحبنا على الفور مبينًـا أن القضـية تتعلق بالمبادئ لا بالأشخاص، وذكر لهم موقف منى مكـرم عبيد ضده في لجنة التعليم بمجلس الشعب، وأن ٩٠% ممن اتصلوا به مؤيدين كانوا مصريين مسـلمين، وأن الحـرص على مصر كان وراء كل ما حدث.

www.alkottob.com

نجا صاحبنا من ورطة التعاون مع نظام السادات وحزب خدم السلطان، ليواجه مأزقًا جديدا، عندما دعي للعمل خادما لآل بيت السادات. فقد استدعاه عميد الكلية يوما لمقابلته، وعندما التقاه انتحى به جانبا وقال له: "السيدة جيهان السادات عاوزة تشوفك". فسأل صاحبنا عن السبب، فقال العميد إنه يبدو أنها تريد استشارته في مسألة تاريخية تتصل بدراستها، وأن بعض من تثق بهم زكاه لها؛ ولذلك عليه الحضور لمقابلتها يوم الثلاثاء (وهو اليوم الذي تلقي فيه درسا في اللغة العربية على طلاب الفرقة الأولى قسم اللغة الألمانية بحكم كونها معيدة بقسم اللغة العربية). رد صاحبنا على العميد بأنه لا يحضر إلى الكلية إلا أيام السبت والاثنين والأربعاء، وأنه أستاذ مساعد يجب أن يسعى المعيد إليه لا أن يسعى هو إلى المعيد، وأن السيدة جيهان إذا كانت بحاجة إلى استشارته تستطيع مقابلته في مكتبه في أحد تلك الأيام الثلاثة كما يفعل غيرها من المعيدين، وأدار ظهره للعميد وانصرف.

كان لقاؤه بالعميد يوم السبت، وكرر العميد استدعاءه يوم الأربعاء؛ ففهم أن لذلك علاقة بالموضوع الذي حدثه

www.alkottob.com

بشأنه، فذهب للقائه، استبقاه العميد حتى صرف مـن كـان بحضرته، ونبه على السكرتارية وساعي المكتب بعدم السماح لأحد بالدخول، حتى إذا خلا الجو، راح العميد يكرر ما قاله من قبل، مضيفًا إليه أنه أبلغ السيدة جيهان بتعذر حضـوره لمقابلتها يوم الثلاثاء، واستعلم منها عن الموضوع الذي تريد الاستعانة به فيه (لاحظ الفرق بين "الاستشارة" و "الاستعانة") فأتضح أن الأمر يتصل بابنتها التي تدرس الماجسـتير فـي تاريخ الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية، وأنها تنتظر منـه أن يحدد اليوم موعدا يزور فيه بيت الرئيس برفقة أحد رجال الرياسة الذي سيحضر بسيارته لاصطحابه من الجامعة إلـى هناك، فرفض صاحبنا ما طرحه عليه العميد، وكرر ما قاله له من قبل أنه على استعداد للقاء من يريد استشـارته فـي مكتبه بالقسم في الأيام التي يتواجد فيها بالكلية، وأدار ظهره – مرة أخرى – للعميد وانصرف.

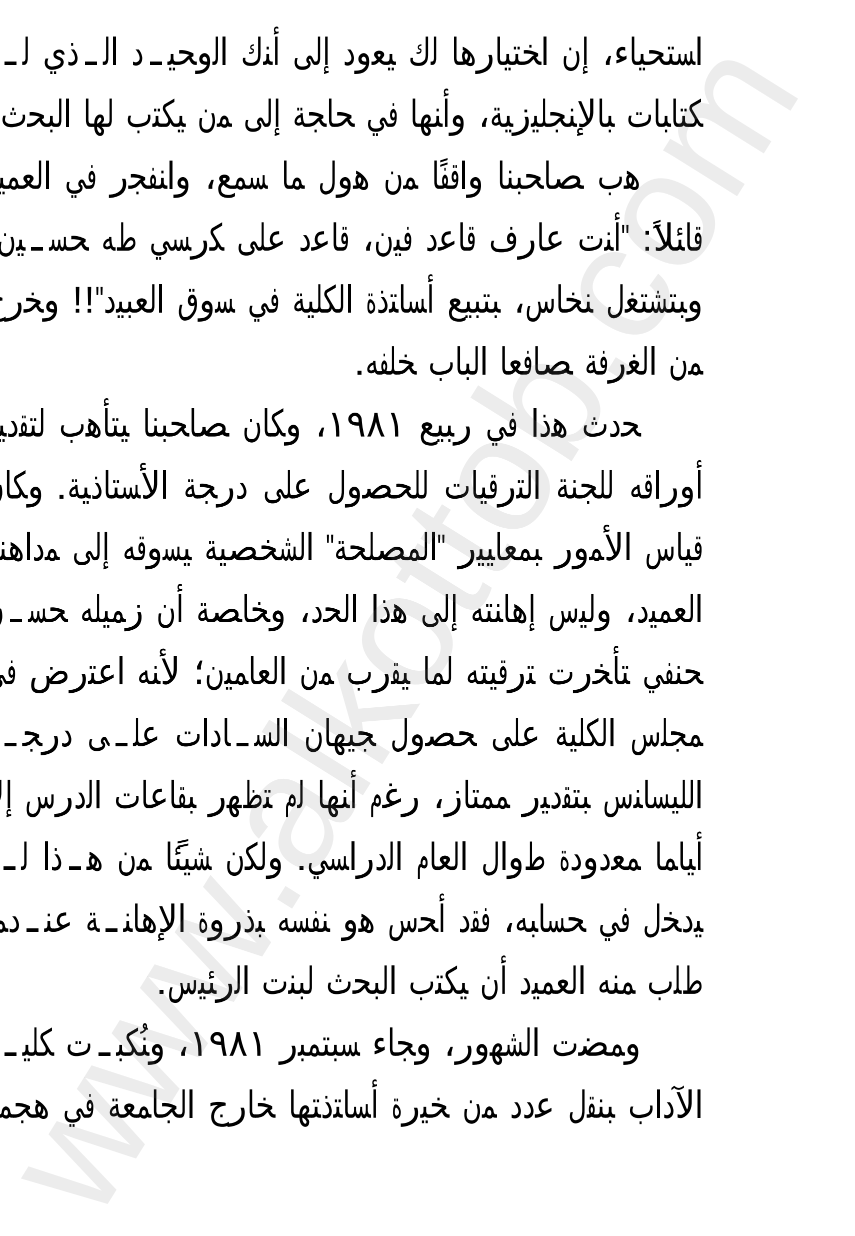
وفي يوم السبت التالي استدعاه العميـد فـي الحاديـة عشرة، وعندما دخل إلى مكتب العميد، كانـت هنـاك فتـاة سمراء نحيفة القوام قدمها له "السيدة نهى السادات"، ثم غادر حجرة المكتب وتركهما معا. قالت ابنة الرئيس إنها تـدرس

www.alkottob.com

الماجستير بالجامعة الأمريكية، وإنها تعد بحثًا عن "حزب الوفد" وإنها بحاجة إلى استشارة أستاذ متخصص، والجامعة الأمريكية ليس فيها من يمكن اللجوء إليه، وأنها استشارت بعض معارفها فأوصاها باللجوء إلى صاحبنا باعتباره صاحب الاختصاص في الموضوع. فقال لها إن المعلومات التي وصلتها خاطئة؛ لأنه متخصص في التاريخ الاجتماعي وليس السياسي، وأنه ينصحها باللجوء إلى عبد العظيم رمضان أو يونان لبيب أو هما معا، فهما المختصان بهذا المجال. وراح يعدد لها كتب ودراسات الأستاذين. فسكتت برهة، ثم قالت إنها متأكدة أنه أنسب المتخصصين لمساعدتها. فاعتذر لها عن عدم إمكانية قيامه بهذا، وأوصاها بالاستعانة بوالدها "لأنه الوحيد في مصر الذي يعرف حقيقة حزب الوفد". وتركها في حجرة العميد وانصرف.

وبعد نحو ساعتين، بينما كان يتأهب للانصراف، استدعاه العميد، وذهب للقائه، فوجد الغرفة خالية (على غير العادة) إلا منه، وشكره العميد على لقائه بالسيدة نهى (الذي لم يكن هناك مفر منه)، وتردد قليلاً قبل أن يقول على

www.alkottob.com



استحياء، إن اختيارها لك يعود إلى أنك الوحيـد الـذي لـه كتابات بالإنجليزية، وأنها في حاجة إلى من يكتب لها البحث.

هب صاحبنا واقفًا من هول ما سمع، وانفجر في العميد قائلاً: "أنت عارف قاعد فين، قاعد على كرسي طه حسـين، وبتشتغل نخاس، بتبيع أساتذة الكلية في سوق العبيد"!! وخرج من الغرفة صافعا الباب خلفه.

حدث هذا في ربيع ١٩٨١، وكان صاحبنا يتأهب لتقديم أوراقه للجنة الترقيات للحصول على درجة الأستاذية. وكان قياس الأمور بمعايير "المصلحة" الشخصية يسوقه إلى مداهنة العميد، وليس إهانته إلى هذا الحد، وخاصة أن زميله حسـن حنفي تأخرت ترقيته لما يقرب من العامين؛ لأنه اعترض في مجلس الكلية على حصول جيهان السـادات علـى درجـة الليسانس بتقدير ممتاز، رغم أنها لم تظهر بقاعات الدرس إلا أياما معدودة طوال العام الدراسي. ولكن شيئًا من هـذا لـم يدخل في حسابه، فقد أحس هو نفسه بذروة الإهانـة عنـدما طلب منه العميد أن يكتب البحث لبنت الرئيس.

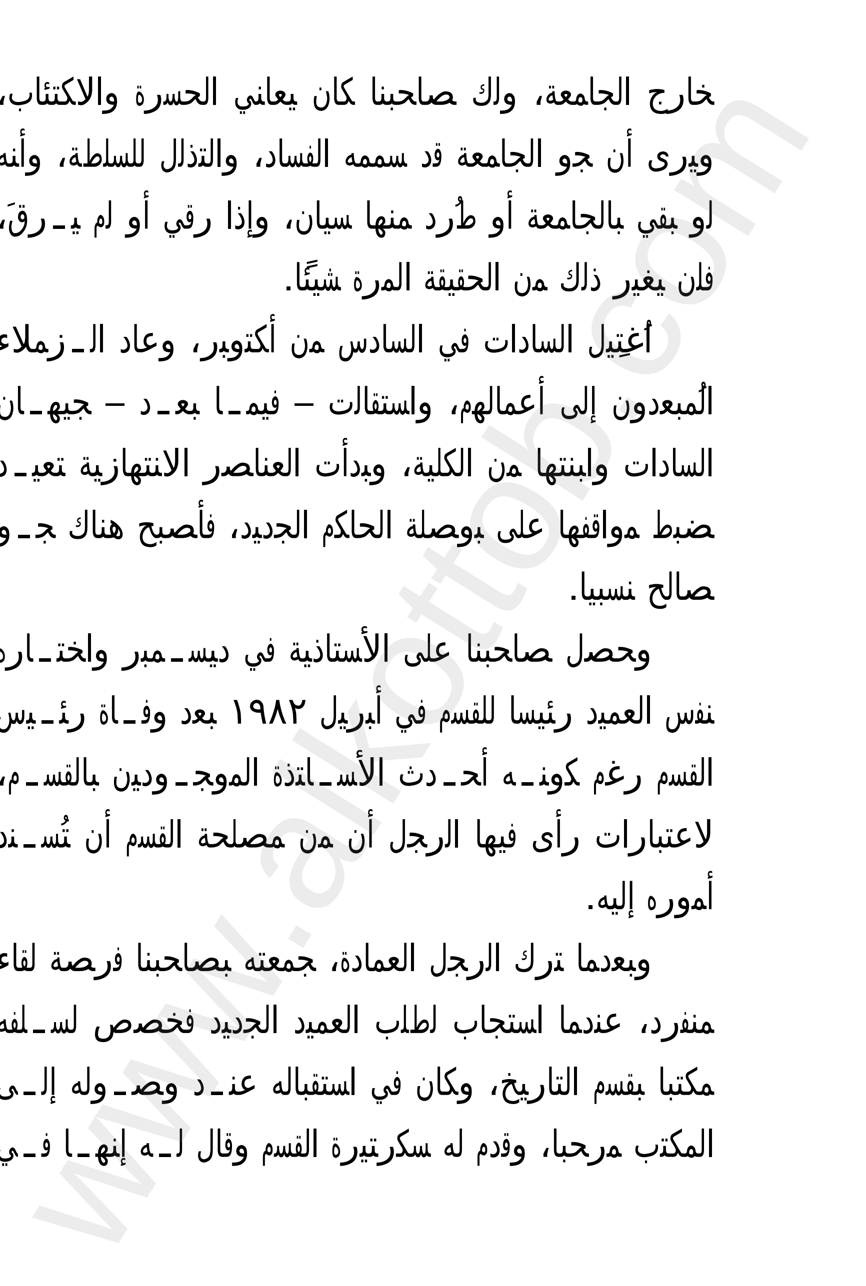
ومضت الشهور، وجاء سبتمبر ١٩٨١، ونُكبـت كليـة الآداب بنقل عدد من خيرة أساتذتها خارج الجامعة في هجمة

www.alkottob.com

سبتمبر الشهيرة، وفي أول مجلس كلية يعقد بعد هذه الكارثة بأسبوع واحد، عرض على مجلس الكلية طلب مقـدم مـن السيدة جيهان أنور السادات(البنت الصغرى للرئيس) المعيدة بكلية التربية - فرع الفيوم – قسم اللغة الإنجليزية، تطلـب فيه نقلها إلى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب "لقربها مـن مكان منزلي". فاستشاط صـاحبنا غضـبا(وكـان عضـوا بالمجلس عن الأساتذة المساعدين)، وقال للعميد إن عـرض هذا الموضوع فيه امتهان للمجلس وأعضاء هيئة التـدريس بالكلية، واستفزاز لمشاعرهم، والأحرى بالمجلس أن يرجـئ النظر فيه لأجل غير مسمى، فرد العميد بأن مجلس قسم اللغة الإنجليزية وافق على الطلب، ونحن أمـام حالـة روتينيـة متكررة، ولا يجب أن تـزر وازرة وزر أخـرى، فأصـر صاحبنا على طرح الموضوع للتصويت وفي مثل هذه الحالة تؤخذ أصوات الموافقين أولاً، ثم يليهم غير الموافقين، ففوجئ صاحبنا بموافقة الأغلبية على الطلب.

كانت أوراق ترقية صاحبنا إلى الأسـتاذية بـين يـدي اللجنة المختصة، وكانت هناك إشاعة قوية أن هنـاك قـرار آخر سيصدر بعد احتفالات السادس من أكتوبر بإبعاد آخرين

www.alkottob.com



خارج الجامعة، ولك صاحبنا كان يعاني الحسرة والاكتئاب، ويرى أن جو الجامعة قد سممه الفساد، والتذلل للسلطة، وأنه لو بقي بالجامعة أو طُرد منها سيان، وإذا رقي أو لم يـرقَ، فلن يغير ذلك من الحقيقة المرة شيئًا.

أُغتِيل السادات في السادس من أكتوبر، وعاد الـزملاء المُبعدون إلى أعمالهم، واستقالت – فيمـا بعـد – جيهـان السادات وابنتها من الكلية، وبدأت العناصر الانتهازية تعيـد ضبط مواقفها على بوصلة الحاكم الجديد، فأصبح هناك جـو صالح نسبيا.

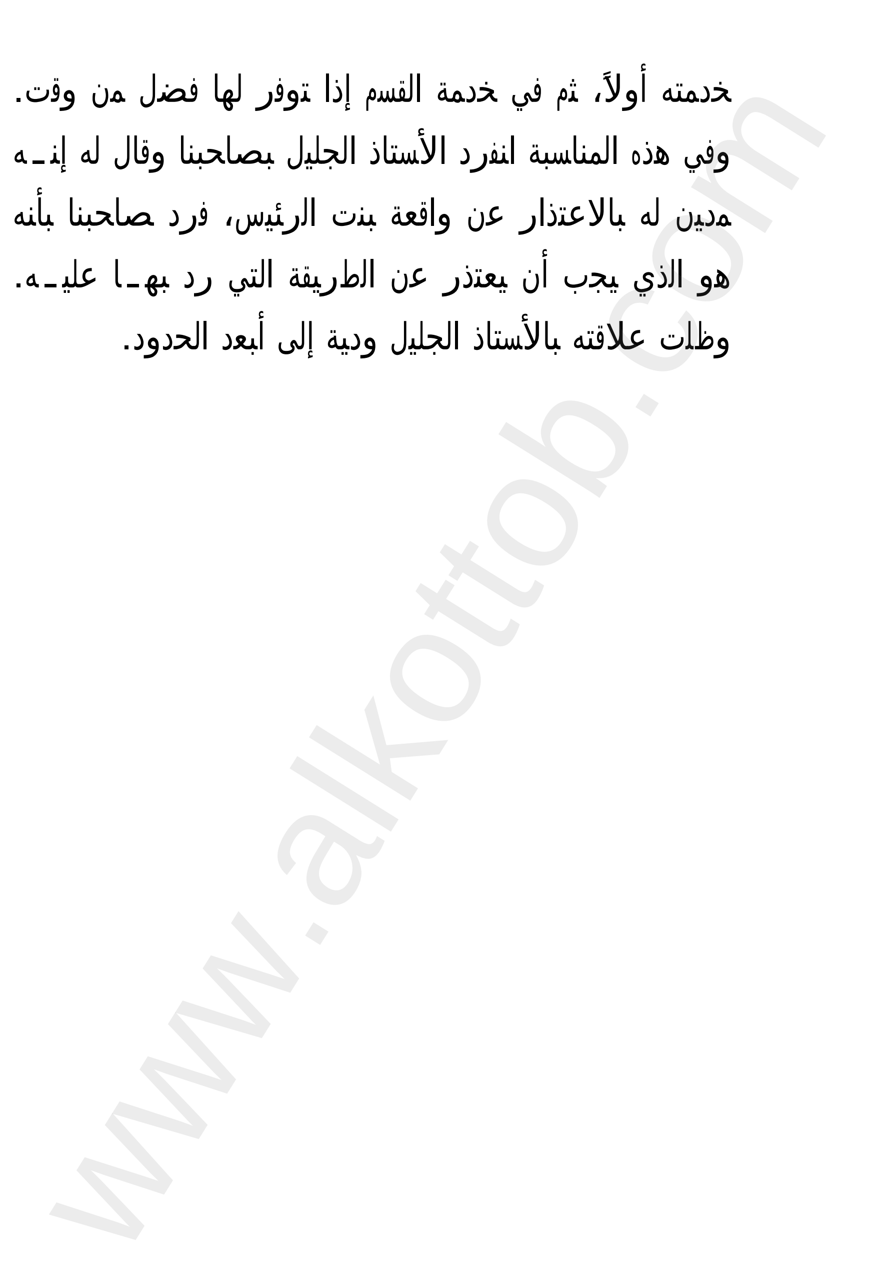
وحصل صاحبنا على الأستاذية في ديسـمبر واختـاره نفس العميد رئيسا للقسم في أبريل ١٩٨٢ بعد وفـاة رئـيس القسم رغم كونـه أحـدث الأسـاتذة الموجـودين بالقسـم، لاعتبارات رأى فيها الرجل أن من مصلحة القسم أن تُسـند أموره إليه.

وبعدما ترك الرجل العمادة، جمعته بصاحبنا فرصة لقاء منفرد، عندما استجاب لطلب العميد الجديد فخصص لسـلفه مكتبا بقسم التاريخ، وكان في استقباله عنـد وصـوله إلـى المكتب مرحبا، وقدم له سكرتيرة القسم وقال لـه إنهـا فـي

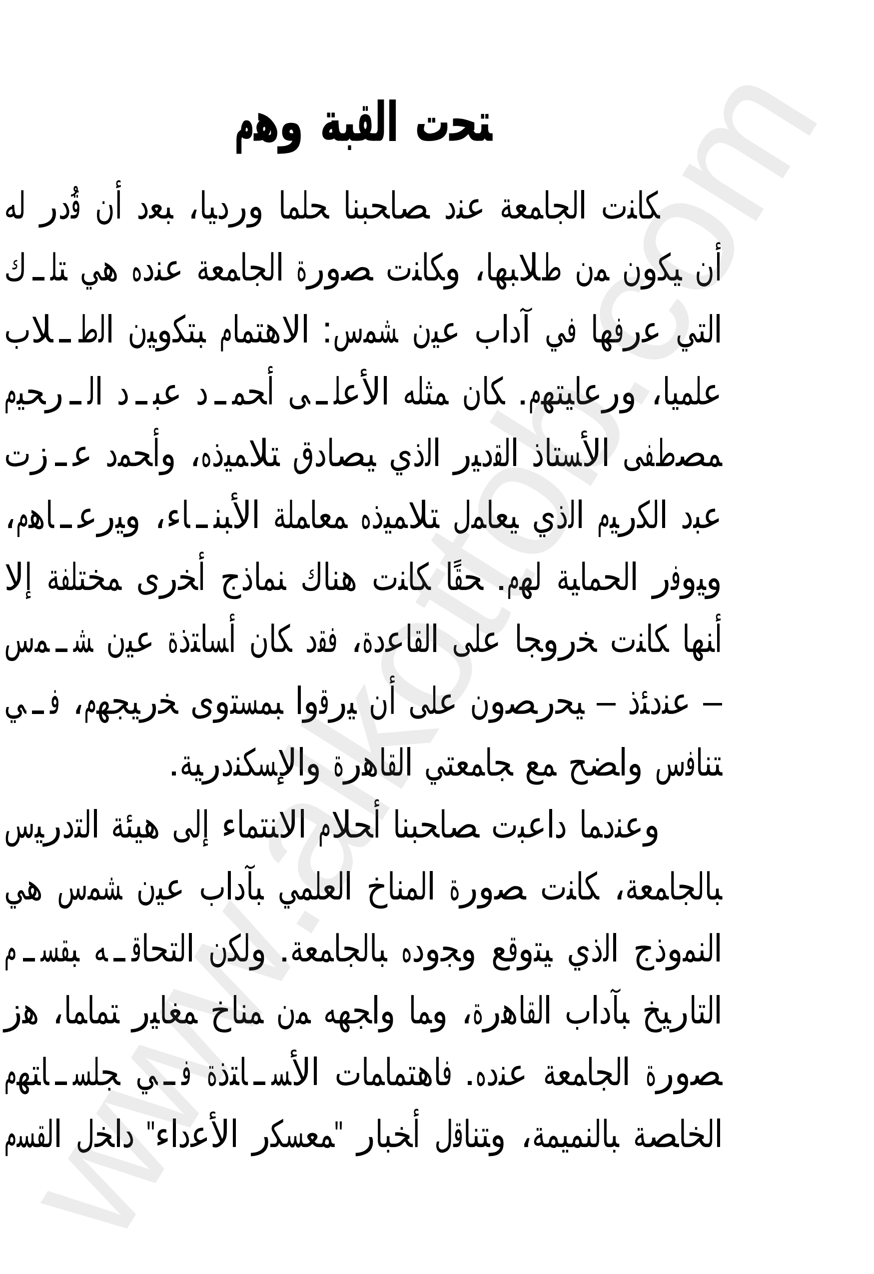
www.alkottob.com

خدمته أولاً، ثم في خدمة القسم إذا توفر لها فضل من وقت.

وفي هذه المناسبة انفرد الأستاذ الجليل بصاحبنا وقال له إنـه مدين له بالاعتذار عن واقعة بنت الرئيس، فرد صاحبنا بأنه هو الذي يجب أن يعتذر عن الطريقة التي رد بهـا عليـه. وظلت علاقته بالأستاذ الجليل ودية إلى أبعد الحدود.



www.alkottob.com

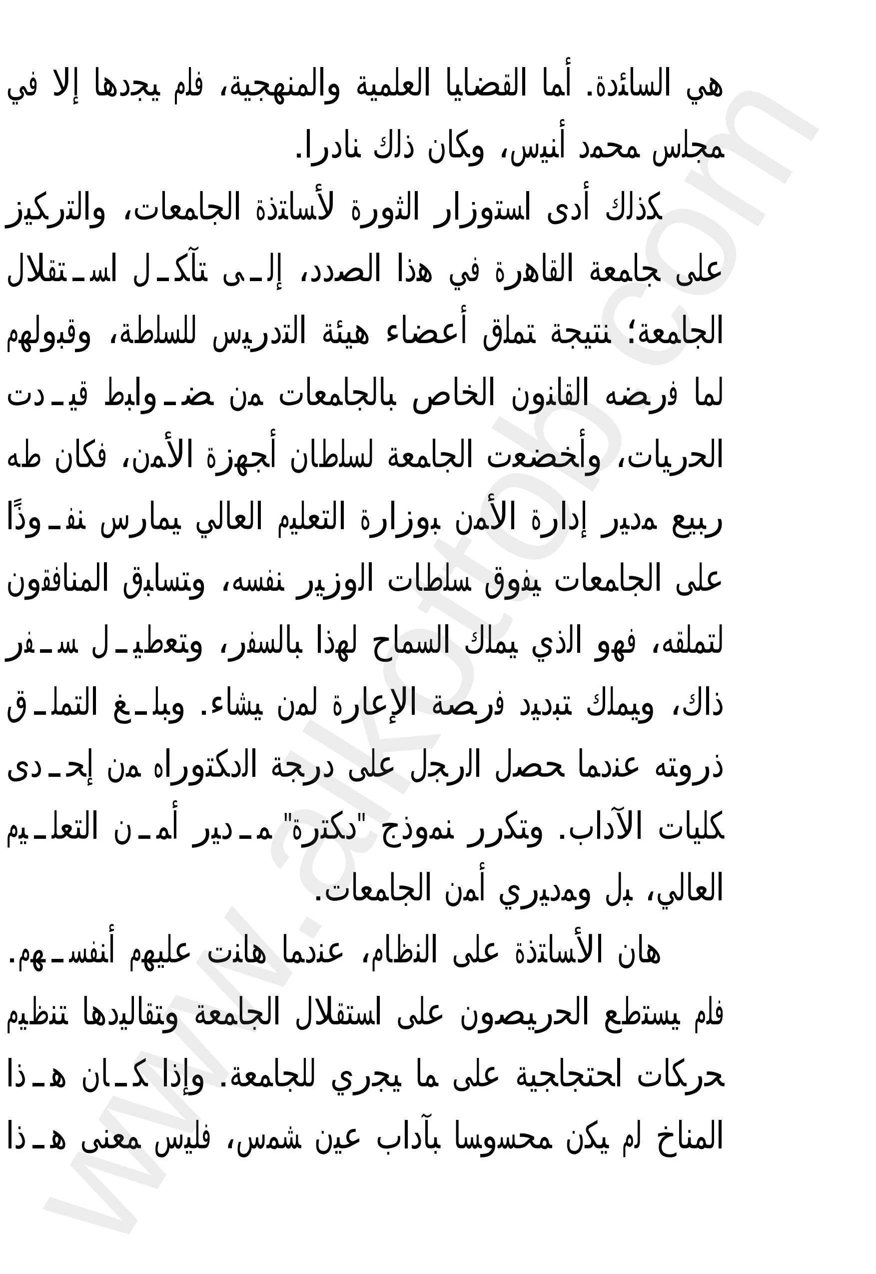


تحت القبة وهم

كانت الجامعة عند صاحبنا حلما ورديا، بعد أن قُدر له أن يكون من طلابها، وكانت صورة الجامعة عنده هي تلـك التي عرفها في آداب عين شمس: الاهتمام بتكوين الطـلاب علميا، ورعايتهم. كان مثله الأعلـى أحمـد عبـد الـرحيم مصطفى الأستاذ القدير الذي يصادق تلاميذه، وأحمد عـزت عبد الكريم الذي يعامل تلاميذه معاملة الأبنـاء، ويرعـاهم، ويوفر الحماية لهم. حقًا كانت هناك نماذج أخرى مختلفة إلا أنها كانت خروجا على القاعدة، فقد كان أساتذة عين شـمس – عندئذ – يحرصون على أن يرقوا بمستوى خريجهم، فـي تنافس واضح مع جامعتي القاهرة والإسكندرية.

وعندما داعبت صاحبنا أحلام الانتماء إلى هيئة التدريس بالجامعة، كانت صورة المناخ العلمي بآداب عين شمس هي النموذج الذي يتوقع وجوده بالجامعة. ولكن التحاقـه بقسـم التاريخ بآداب القاهرة، وما واجهه من مناخ مغاير تماما، هز صورة الجامعة عنده. فاهتمامات الأسـاتذة فـي جلسـاتهم الخاصة بالنميمة، وتناقل أخبار "معسكر الأعداء" داخل القسم

www.alkottob.com



هي السائدة. أما القضايا العلمية والمنهجية، فلم يجدها إلا في مجلس محمد أنيس، وكان ذلك نادرا.

كذلك أدى استوزار الثورة لأساتذة الجامعات، والتركيز على جامعة القاهرة في هذا الصدد، إلى تآكل استقلال الجامعة؛ نتيجة تملق أعضاء هيئة التدريس للسلطة، وقبولهم لما فرضه القانون الخاص بالجامعات من ضوابط قيدت الحريات، وأخضعت الجامعة لسلطان أجهزة الأمن، فكان طه ربيع مدير إدارة الأمن بوزارة التعليم العالي يمارس نفوذًا على الجامعات يفوق سلطات الوزير نفسه، وتسابق المنافقون لتملقه، فهو الذي يملك السماح لهذا بالسفر، وتعطيل سفر ذاك، ويملك تبديد فرصة الإعارة لمن يشاء. وبلغ التملق ذروته عندما حصل الرجل على درجة الدكتوراه من إحدى كليات الآداب. وتكرر نموذج "دكترة" مدير أمن التعليم العالي، بل ومديري أمن الجامعات.

هان الأساتذة على النظام، عندما هانت عليهم أنفسهم. فلم يستطع الحريصون على استقلال الجامعة وتقاليدها تنظيم حركات احتجاجية على ما يجري للجامعة. وإذا كان هذا المناخ لم يكن محسوسا بآداب عين شمس، فليس معنى هذا

www.alkottob.com

أن جامعة عين شمس سلمت من هذا التلوث، فسـرعان مـا انتقلت إليها العدوى بعد تشكيل الاتحاد الاشتراكي، وبـدأت منذ ذلك الحين تظهر حمى التنافس في غير المجال العلمي. فتماق قيادات التنظيم السياسي، والتطوع للتعاون مع أجهـزة الأمن (كتابة التقارير عن الزملاء) كانت الطريق التي سلكها الانتهازيون للحصول على المكافآت: مناصـب المستشـار الثقافي بالسفارات المصرية بالخارج، ومناصـب الهيئـات الدولية، وانتظار "حلول الدور" لتولي منصب "الوزير"

ولن ينسى صاحبنا حرص أساتذة بعينهم على التواجـد بالكلية أيام التعديل الوزاري، وتعليقاتهم بعد تشكيل الـوزارة الجديدة، فهم عند كل تعديل يحاولون في أحاديثهم استشـفاف ما قد يكون لدى الطرف الآخر من معلومات، وخاصـة إذا بدت عليه علامات الاطمئنان. وحدث يوما أن أسـر أسـتاذ مساعد بقسم التاريخ بآداب القاهرة لطالب دراسات عليا مـن تلاميذه، أنه حظي بلقاء طويل مع الرئيس عبد الناصر، أصر فيه الرئيس على توليته وزارة التعليم العالي، وأنه ظل يتمنع حتى أقنعه الرئيس بأنه الأنسب لتولي المنصب، ولمـا كـان ذلك الطالب قريبا لأحد محرري أخبار اليوم، فقد أسر إليـه

www.alkottob.com

بما سمع من أستاذه، فلم يتحرَ الصحفي الدقة، وسارع بنشـر الخبر في مكان بارز. وتعمد صاحبنا الحضور إلى الكلية يوم نشر الخبر، فقوبل استقبال الفاتحين، وحظي بوصلات تملق، وهو يرد عليها بالتأكيد أنه فوجئ مثلهم بما نُشر. ولم يكـن الرجل مرشحا، ولم يكن هناك أساس للقصة كلها.

حدث يوما أن ذهب صاحبنا إلى القسم بعـد التشـكيل الوزاري الذي جاء فيه عبد العزيز حجازي وزيرا للماليـة، فوجد تجمعا من الأساتذة الـذين يحتلـون مواقـع بـالتنظيم السياسي، وهم يعبرون عن غضبهم ؛لأن الرجل الذي نـال الوزارة "ليبرالي رجعي" لا علاقة له بالاتحـاد الاشـتراكي، كما أنه أحدث منهم عهدا بالحصول على الدكتوراه. وأضاف أحدهم في تعداده لمبرارات ما حدث من "تجاوز"، بأن عبـد العزيز حجازي كان لا يعرف شيئًا عندما وصل إلى لنـدن مبعوثًا للحصول على الدكتوراه، وأنه (المتحدث) كان علـى وشك الحصول على الدكتوراه، فكان لا يحسن التصـرف إلا بمساعدته، وأنه كان ضعيفًا في اللغة الإنجليزيـة، فاسـتعان بموظف إنجليزي بالمكتب الثقافي المصري لكتابة الرسـالة له، فكيف يستطيع من كان مثله أن يدير ماليـة الـبلاد؟!..

www.alkottob.com

والعجيب أن الجلسة انتهت بكتابة كل مـنهم برقيـة تهنئـة للوزير" بالثقة الغالية" وأرسلوا ساعي القسـم إلـى مكتـب التلغراف لإرسالها!

وشهد صاحبنا ما حدث أثناء الحملة الانتخابية لوحـدة الاتحاد الاشتراكي بالكلية، عندما وقف أحد المرشحين مـن الأساتذة على السلم الرئيسي المؤدي إلـى مكتـب العميـد، يعرض برنامجه في خطبة عصماء (ركزَّ فيها على المطالبة بتحسين الأوضاع المادية لأعضاء هيئة التـدريس) وأنهـي خطابه بتحذير "الزملاء" من إعطاء أصواتهم لعميـد الكليـة يحيى هويدي؛ لأن أخاه (أمين) كان رئيسا للمخابرات، ورد عليه العميد من الشرفة المطلة على السـلم قـائلاً بصـوت جهوري" :يا دكتور (فلان) أنا لي الشرف أن يكـون أخـي رئيس المخابرات، لكن تحب أقول للناس دي مين اللي بيكتب تقارير عن زمايله للمخابرات وغيرها من أجهزة الأمـن؟!" ولم ينبس صاحبنا ببنت شفة، واختفى عن الأنظار.

وبلغ تملق أعضاء هيئة التدريس للسلطة مداه في عصر السادات، فعدلت قواعد القبول بالجامعـات لتسـمح لحملـة الـ GCE وهي شهادة التعليم العام البريطانية التي تعـادل

www.alkottob.com

الإعدادية (من حيث المستوى العام) حتـى يتسـنى لزوجـة الرئيس وبناتها الالتحاق بالجامعة، فكانت الآداب وجهـتهن، وكال الأساتذة الدرجات لهن. وكانت رسالة الماجستير التـي تقدمت بها زوجة الرئيس، فصلاً محزنًا في تاريخ الجامعات المصرية، أُذيعت المناقشة كاملـة بـالتليفزيون المصـري، وأُعيدت إذاعتها مرة أخرى؛ فقد حضرها الـرئيس، وجـاء على لسان أحد أعضاء اللجنة (بعد أن ألقى قصيدة مدح مـن نظمه) أن الرسالة تستحق عن جدارة درجة الدكتوراه وليس الماجستير، ونعى على القانون قصوره فـي هـذه الناحيـة، واضطرت سهير القلماوي أن تتدارك الموقف، وتفسر ما قاله الأستاذ المنافق بأنه شكل من أشكال التعبير عـن الإعجـاب بالرسالة.

كانت جيهان السادات بعد تخرجها بامتياز قـد عينـت معيدة بقسم اللغة العربية، وكانت تدرس مادة اللغة العربيـة لطلبة الفرقة الأولى بقسم اللغة الألمانية وتخصصت إحـدى عضوات هيئة التدريس(وكانت بدرجة أستاذ مسـاعد) مـن قسم اللغة الألمانية في استقبالها عند حضورها إلـى الكليـة، وإعداد القهوة لها بنفسها، وكوفئت بعـد ذلـك علـى هـذه

www.alkottob.com

"المهمة الوطنية" بتولي منصب المستشار الثقافي بسفارة مصر بألمانيا. وتسابق أعضاء هيئة التدريس في تقديم الالتماسـات إلى المعيدة "السيدة الأولى"، فهذا يطالب تعيين ابنته في وظيفة مهمة، وذلك يطالب "شقة" لكل من والديه، إلى غير ذلك مـن طلبات. وتولى بعض أساتذة قسم اللغة العربية التدريس لهـا في منزل الرئيس، وكوفئ منهم من كوفئ بمناصب المستشار الثقافي، والمراكز الرئيسية في حزب السلطة. ولكن ذلـك لا يبلغ ما بلغته مكافأة عميد الكلية الذي صعد إلى منصب نائب رئيس الجامعة، ثم كان أول رئيس لمجلس الشورى، وكوفئ رئيس الجامعة بتوليه رئاسة مجلس الشعب.

وعندما حصلت جيهان السادات على الماجستير عينـت مدرسا مساعدا، وكان الإجراء المتبع في الجامعات المصرية تطبيقًا لقانون الجامعات هو اعتماد الدرجة العلمية بمجلـس القسم ومجلس الكلية، ثم اتخاذ قرار التعيين بالجلسة التاليـة (بعد شهر)، ولكن تم تغيير الإجراء في الجامعة كلها، فأصبح اعتماد الدرجة يتم في البند الأول من جدول أعمال المجلس، ثم يتم التعيين في البند الأخير بنفس الجلسة، وأصبحت تلـك

www.alkottob.com

البدعة الإجرائية هي الإجراء المتبع حتى اليوم فـي تعيـين المدرسين المساعدين والمدرسين.

ولعل جيهان السادات لم تطلب ذلك، فأغلب الظن أنـه جاء بمبادرة من جانب العميد، أقرها رئيس الجامعة. ولا أدل على ذلك مما لقيه العالم الجليل حسـن حنفـي مـن تنكيـل الرجلين (العميد ورئيس الجامعة) به لمجرد اعتراضه علـى حصول جيهان السادات على درجة "ممتاز" في الليسـانس، واحتجاجه على فساد ذمم من كالوا لها الـدرجات فتـأخرت ترقية الرجل (رغم أن تقرير اللجنة العلمية أوصى بترقيتـه عن جدارة) حتى رحل عميد الكلية ورئيس الجامعة ليتربعـا على مقاعد المجلسين النيابيين. فقام الدكتور إبراهيم بـدران بعرض التقرير على مجلس الجامعة، بعدما أفهمـه بعـض الشرفاء من أساتذة الجامعة حقيقة الموقف. وشتان بين هـذا الرجل وسلفه؛ فقد كان عالما جليلاً منصفًا، لا يخشـى فـي الحق لومة لائم.

ولم يكن الأخذ بمبدأ انتخاب العميد (الذي نـص عليـه قانون تنظيم الجامعات وأُلغي فيما بعد) أداة فعالة للإصـلاح ولتمتع أعضاء هيئة التدريس بحق اختيار رئاستهم العلميـة.

www.alkottob.com

يرجع ذلك إلى النص على أن يختار رئيس الجامعة من بين الثلاثة الأول من يعين عميدا. ولم ينُص على مبدأ الترشيح، بحيث يتقدم من يرغب في ترشيح نفسه للعمادة بطلب بهـذا المعنى، فتكون هناك فرصة لأعضاء هيئة التدريس للاطلاع على برنامج كل مرشح والمفاضلة بين المرشـحين حسـب تاريخهم الشخصي، وما يمكن أن يؤديه كل منهم للكلية. وقيل في تبرير ذلك إن الترشيح سيؤدي إلى تراشـق المرشـحين بالكلمات وكشف عورات كل منهم أمام أعضاء هيئة تدريس الكلية؛ مما يجعل موقف من يقع عليـه الاختيـار ضـعيفًا. واقتصر على أن يشترك أعضاء مجس الكلية والأساتذة فقط من غير أعضاء مجالس الكلية فـي اختيـار العميـد. أي أن القاعدة العريضة من أعضاء هيئـة التـدريس (المدرسـين والأساتذة المساعدين) لا صوت لهم في ذلك الانتخاب.

ولكن كان من يرغب في المنصب يتصل بهذه الـدائرة المحدودة من أصحاب الأصوات فردا فردا، ويعد هذا بـأن يستبعد فلانًا من بين من يختـارهم لمنصـب الوكيـل (لأن صاحب الصوت على خصومة معه) أو يعد شخصـا بعينـه (قد يكون صاحب الصوت أو من يزكيه للمنصب) ليصـبح

www.alkottob.com

أحد الوكيلين. ووصل الأمر إلى حد زيارة البيوت، وطلب القَسم على المصحف للتأكد من الحصول على الأصوات. وهي مهزلة بكل المعايير لا علاقة لها بالديموقراطية من قريب أو بعيد. فقد كان على من له حق التصويت أن يختار ثلاثة أسماء من بين القائمة التي تضم أسماء أساتذة الكلية حسب أقدميتهم، ثم تُحصر الأصوات، ليكون هناك في النهاية ثلاثة أسماء يبين أمام كل منها عدد ما حصل عليه من أصوات، وتُرتب أسماء الفائزين ترتيبا تنازليا (أول – ثاني – ثالث) ثم تُرسل لرئيس الجامعة ليختار واحدا منهم ويصدر القرار بتعيينه، وهو (عادة) يختار من لا يعترض الأمن على اختياره.

فقد كانت لأجهزة الأمن الكلمة العليا في الترشيح للمناصب الإدارية الجامعية عامة، ومنصب العميد خاصة؛ نظرا لأهمية منصب العميد في تحديد أسلوب التعامل مع الطلاب، و"طبخ" انتخابات اتحاد الطلاب على مستوى الكلية التي كانت دائما قضية "أمن" بالدرجة الأولى. لذلك وقع اختيار رؤساء الجامعات – في بعض الحالات على – من جاء في الترتيب الثالث وحصل على أصوات لا تزيد على

www.alkottob.com

١٠% من مجموع أصوات الناخبين. ناهيك عـن حـرص المتطلعين إلى المنصب على حسن تقـديم أنفسـهم للأمـن (من خلال من لهم صلة بالأمن من مؤيـديهم). ولمـا كـان منصب العميد بداية الصعود إلى مناصب القيـادة بالجامعـة (نائب الرئيس والرئيس) وهي مناصب لا ينالهـا إلا مـن لا يعترض عليه الأمن، فقد كان معظم العمداء المنتخبين يبنون علاقة لا ينالها إلا من لا يعترض عليه الأمن، فقد كان معظم العمداء المنتخبين يبنون علاقة "حميمة" مع أجهزة الأمن، تبدأ بحسن الأداء في عملية "طـبخ" انتخابـات اتحـاد الطلبـة، والاستجابة لطلبات الأمن بهذا الخصوص لمنع طلاب بعينهم من الترشيح.

وهنا تتجلى قدرات العميد الهمـام، فيحيـل الطـلاب (الذين يطلب الأمن إبعادهم) إلى التحقيق بأي تهمة، ولكـن تهمة "الإخلال بنظام الدراسة" هي أبرز تلك الـتهم، ويمتـد التحقيق إلى انتهاء موعد الترشيح، وحبذا لو استمر إلى مـا بعد الانتخابات، ثم توقع على الطلاب عقوبات تافهة بعـد أن ينتهي الغرض الذين حولوا للتحقيق من أجله.

www.alkottob.com

أما العميد "العقر" الخادم المخلص للأجهـزة الأمنيـة، فيوحي إلى أعضاء هيئة التدريس بالإعلان لطلابهم أنه لـن تكون هناك محاضرات يوم الانتخابات، فإذا امتنع أحدهم عن القيام بذلك، فهناك عشرات من زملائه يتمنون رضا العميـد عنهم لتسهيل مصالحهم الشخصية. وتكون النتيجة عدم وجود الحد الأدنى من الناخبين يوم الانتخابات؛ مما يعطـي الحـق القانوني للعميد الهمام أن يعين أعضاء اتحاد الطلبة. وقائمـة الأمن جاهزة دائما.

فإذا رفض العميد الاستماع إلى "النصائح الملزمة" التي يقدمها له رجال الأمن، فإنه بذلك يغامر بمسـتقبله الإداري، فعليه أن لا يتوقع ترشيحه لمنصب نائب رئيس الجامعة الذي يضعه كل عميد نصب عينيه أثناء أدائـه لعملـه. كمـا أن مطالب الكلية – في عهده – لن تلقى استجابة مـن رئـيس الجامعة (إذا لم يكن على شاكلة إبراهيم بدران). فلا يستجيب رئيس الجامعة لطلبات الكلية في المسائل المالية والإداريـة، وتتعثر قرارات مجالس الكلية في الاعتماد من رئيس الجامعة أو من مجالس الجامعة.

www.alkottob.com

فإذا أصبح العميد نائبا لرئيس الجامعة، وضـع نصـب عينيه التربع على "الكرسي الكبير" أي رئاسة الجامعة، فيزيد من إبراز "ولاءه" لأجهزة الأمن بتقديم "خـدمات" عامـة أو خاصة في مجال اختصاصه. ولكـن الأمـل الأكبـر هـو "الكرسي العالي" أي الوزارة، التي تتطلب تحركات من نوع آخر خارج الجامعة، مع المتنفذين من رجال حزب الحكومة، ومع من يتيح له قربه من الرئيس اقتراح بعض من يختارون لمناصب الوزارة.

أما اختيار رئيس الجامعة فيتم من خلال تزكية أجهـزة الأمن لأحد المرشحين الثلاثة الذين يتقدم وزير التعليم العالي بأسمائهم إلى الرئيس. وأحيانًا يأتي القرار بتعيين شخص لـم يرد اسمه بين المرشحين، كما حدث عند تعيين مفيد شـهاب رئيسا لجامعة القاهرة؛ لذلك كان رئيس الجامعـة أحـرص الجميع على التفاني في خدمة أجهزة الأمن، ولا يرفض لأحد من كبار ضباطها طلبا "شخصيا"، وتجاوز أحدهم حدود إبداء الولاء للأمن بعدم تطبيق القاعدة القانونية التي جرى اتباعها، وهي بقاء من يتولى منصبا إداريا من الأساتذة في ممارسـة أعمال منصبه حتى نهاية العام الدراسي (آخر يوليـو) فـي

www.alkottob.com

حالة بلوغه سن الستين قبل هذا التاريخ. فقام رئيس جامعـة القاهرة بتعيين عميد للتجارة بديلاً للعميد القديم فور بلوغـه الستين(في منتصف العام الدراسي) لأنه رفض طلب الأمن الذي أبلغه له رئيس الجامعة بالعمل على استبعاد مجموعـة من الطلاب من الترشيح لانتخابات اتحاد الطلاب. ولما نبهه رئيس الجامعة إلى أنه "موظف حكومي" وأن عليه أن يطيـع "أوامر الحكومة"، رد عليه الرجـل بأنـه "أسـتاذ جـامعي – أولاً وأخيرا – وأن ضميره لا يسمح له بأن يتردى إلـى هذا المستوى في التعامل مع طلابه".

نفس رئيس الجامعة طلب من عميد الآداب فـي اليـوم الأول لتوليه منصبه رفع اسم أحـد أسـاتذة قسـم التـاريخ (وكان رئيسا سابقًا للقسم) من جـدول التـدريس بمرحلـة الليسانس، ولما كان قرار تعيين ذلك العميد أول مـا اتخـذه الرئيس الجديد من قرارات فقد وعده خيرا. وعنـدما اطلـع صاحبنا على طلب رئيس الجامعة (وكان صـاحبنا وكـيلاً للدراسات العليا) حذر العميد من التورط في هذا العمل غيـر القانوني؛ لأنه لا يجوز وقف عضو هيئة تدريس عن العمـل إلا بناء على قرار سلطة التحقيق في حالة ارتكابـه مخالفـة

www.alkottob.com

جسيمة من تلك المنصوص عليها بالقانون. ولما كان الأستاذ المطلوب رفع اسمه من جداول الدراسة يتعرض بذلك للوقف عن العمل دون مبرر، فإن ذلك يعرض العميد نفسه للمتاعب من جانب أعضاء هيئة التدريس بالكلية، كمـا أنـه يعطـي للأستاذ المعني الحق في مقاضاته شخصيا؛ لأنه يتحمل وحده وزر منع زميله من العمل دون أن يكون هناك قرار رسمي مكتوب من رئيس الجامعة بهذا الصدد.

وقع العميد الجديد في حيص بيص، ثـم اقتـرح علـى صاحبنا وزميله (وكيل شئون الطلاب) أن يصـحباه لمقابلـة رئيس الجامعة وتسوية الأمر معه. وذهب ثلاثتهم إلى المكتب الذي كان غاصا بالمهنئين، فطلب صاحبنا من رئيس الجامعة أن ينتحي بهم جانبا لأمر مهم، وعندما استجاب الرجل، سأله صاحبنا عن أسباب طلب منع الأستاذ إيـاه مـن التـدريس، فأجاب رئيس الجامعة: "ده عامل قلق للدولة المصرية" فقـال صاحبنا: "هل رسب عنده أحد أبناء أو بنـات مسـئول فـي المخابرات؟". فرد الرئيس "طب ما أنت عارف أهو.. أنا قلت ما يدرسش يعني ما يدرسش" قال صاحبنا للرئيس: "سـيادتك تجلس الآن على كرسي أحمد لطفي السيد، مـدير الجامعـة

www.alkottob.com

الذي رفض المساس باستقلالها، ولا يجب أن تقدم على تصرف مخالف للقانون". فقال "ما وجه المخالفة للقانون"، فشرح له حكم القانون في وقف عضو هيئة تدريس عن العمل، ونصحه باستشارة المستشار القانوني للجامعة (وكان عميدا لكلية الحقوق)، فإذا أيد موقفه فعليه أن يصدر قرارا مكتوبا يوجه لعميد الكلية للعمل بموجبه. وانصرف الثلاثة، واتصل رئيس الجامعة بالعميد في صباح اليوم التالي؛ ليعلمه بعدم وجود داعي لرفع اسم الأستاذ من الجدول، وأن يبقى الحال كما هو عليه. وهذه الواقعة بالغة الدلالة على مدى تفاني بعض رؤساء الجامعات في إرضاء نزوات كبار ضباط الأمن.

ولعل أبرز دليل على اختلال معايير اختيار رؤساء الجامعات، ما اكتشفه صاحبنا بعد عدة شهور، من أن نفس رئيس الجامعة الذي ذكّره بأنه يجلس على كرسي أحمد لطفي السيد، لم يعرف من هو أحمد لطفي السيد الذي كانت قاعة اجتماعات مجلس الجامعة تحمل اسمه!

فقد كان صاحبنا عضوا بلجنة موسعة شكلها رئيس الجامعة للإعداد لاحتفالية ضخمة بالعيد التسعين لجامعة

www.alkottob.com

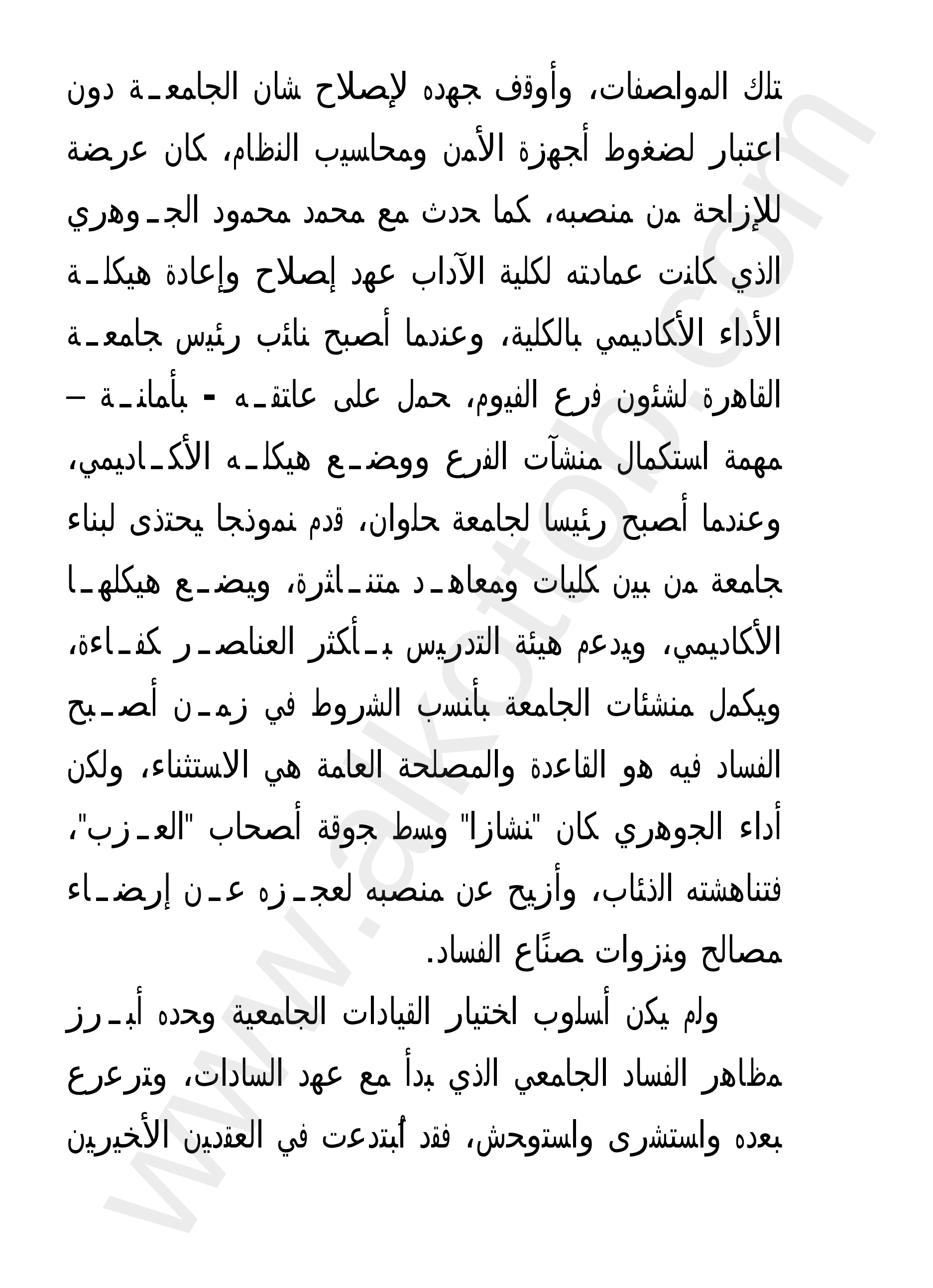
القاهرة، ضمت معظم عمداء الكليات ونواب رئيس الجامعـة وبعض وكلاء الكليات، وبعض الأساتذة الذين لتخصصـاتهم علاقة بالاحتفالية. وكانت اللجنة تنعقد مرة كـل أسـبوعين برئاسة رئيس الجامعة لمدة عام دراسي كامل، فقد كان رئيس الجامعة حريصا على أن يجعل من المناسبة "حملة علاقـات عامة" يروج فيها لنفسـه تطلعـا إلـى "الكرسـي الكبيـر" (الوزارة). وفي أحد تلك الاجتماعات كان صاحبنا يعـرض على اللجنة قائمة كُلف بإعدادها عن رؤساء الجامعة السابقين ليتم تكريم الأحياء منهم بهذه المناسبة وتكريم ذكـرى مـن رحلوا منهم. وكانت هناك نسخة من القائمة بيد كل عضو من أعضاء اللجنة يتصدرها اسم "أحمد لطفي السيد" تليه أسـماء من تولوا رئاسة الجامعة بعده، وقد سبقت أسماؤهم المختصر الدال على "أستاذ دكتور (أ.د.)"، ففوجئ صـاحبنا بـرئيس الجامعة يستوقفه ويقول: "لقد وجدنا غلطة لفلان بـك.. مـن فضلكم ضعوا أ.د. أمام اسم أحمد لطفي السيد". فإذا بالكـل يشرعون أقلامهم ويضعون الإضافة؛ مما أصـاب صـاحبنا بالانزعاج، فقد يكون رئيس الجامعة يجهل أحمد لطفي السيد، فهل شاع الجهل بين العمداء والـوكلاء ونـواب الـرئيس،

www.alkottob.com

والأعضاء من الأساتذة، أم أنه النفاق؟ واعتـرض صـاحبنا بقوله: "يا ريس، أحمد لطفي السيد لم يحمل الدكتوراه، ولـم يحصل على درجة الأستاذية، فقد كان أعلـم ممـن حملـوا الدكتوراه، وكان أستاذًا لأجيال متعاقبـة مـن المصـريين". فضحك الرئيس (وضحك لضحكه الجميع)، وقـال موجهـا الكلام لصاحبنا: "يعني عملوه مدير جامعة لأن مـا كـانش عندهم غيره"!!! ولا تعليق.

استن النظام منذ عهد السادات سنة قُدر لها أن تـدوم، وهي اختيار عناصـر منتقـاة معروفـة بولائهـا للنظـام أو محسوبة على أحد أركانه لتتولى رئاسة كل مؤسسة مـن القطاع العام إلى الوزارات إلى الجامعات، واعتبـار معيـار الولاء هو المحدد الأساسي في الاختيار، وترك كل من يتولى أمر مؤسسة يديرها وكأنها "عزبته" الخاصة، يفعل بهـا مـا يشاء دون حسيب أو رقيب. بل لم يعد للأجهزة الرقابية تلك الهيبة التي كانت لها قبل عهد السادات، فالعبرة برسوخ أقدام المسئول، وقوة الشخصية التي يستند إليهـا، أو يعـد مـن محاسيبها. وانعكس ذلك على اختيار رؤساء الجامعات فـي معظم الحالات فإذا أفلت أحد ممن اُختير رئيسا لجامعة مـن

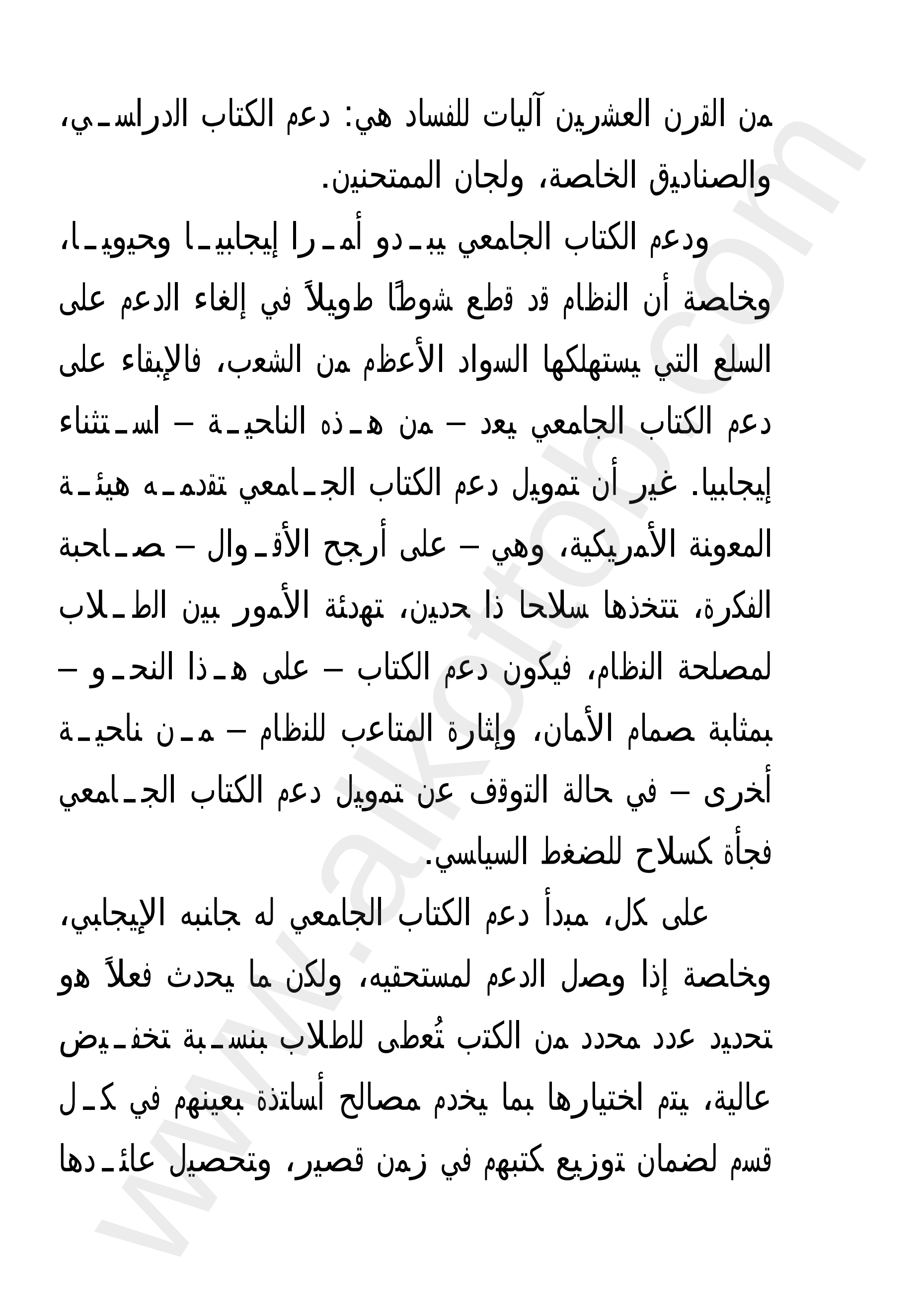
www.alkottob.com



تلك المواصفات، وأوقف جهده لإصلاح شان الجامعـة دون اعتبار لضغوط أجهزة الأمن ومحاسيب النظام، كان عرضة للإزاحة من منصبه، كما حدث مع محمد محمود الجـوهري الذي كانت عمادته لكلية الآداب عهد إصلاح وإعادة هيكلـة الأداء الأكاديمي بالكلية، وعندما أصبح نائب رئيس جامعـة القاهرة لشئون فرع الفيوم، حمل على عاتقـه - بأمانـة – مهمة استكمال منشآت الفرع ووضـع هيكلـه الأكـاديمي، وعندما أصبح رئيسا لجامعة حلوان، قدم نموذجا يحتذى لبناء جامعة من بين كليات ومعاهـد متنـاثرة، ويضـع هيكلهـا الأكاديمي، ويدعم هيئة التدريس بـأكثر العناصـر كفـاءة، ويكمل منشئات الجامعة بأنسب الشروط في زمـن أصـبح الفساد فيه هو القاعدة والمصلحة العامة هي الاستثناء، ولكن أداء الجوهري كان "نشازا" وسط جوقة أصحاب "العـزب"، فتناهشته الذئاب، وأزيح عن منصبه لعجـزه عـن إرضـاء مصالح ونزوات صنَّاع الفساد.

ولم يكن أسلوب اختيار القيادات الجامعية وحده أبـرز مظاهر الفساد الجامعي الذي بدأ مع عهد السادات، وترعرع بعده واستشرى واستوحش، فقد أُبتدعت في العقدين الأخيرين

www.alkottob.com



من القرن العشرين آليات للفساد هي: دعم الكتاب الدراسـي، والصناديق الخاصة، ولجان الممتحنين.

ودعم الكتاب الجامعي يبـدو أمـرا إيجابيـا وحيويـا، وخاصة أن النظام قد قطع شوطًا طويلاً في إلغاء الدعم على السلع التي يستهلكها السواد الأعظم من الشعب، فالإبقاء على دعم الكتاب الجامعي يعد – من هـذه الناحيـة – اسـتثناء إيجابيا. غير أن تمويل دعم الكتاب الجـامعي تقدمـه هيئـة المعونة الأمريكية، وهي – على أرجح الأقـوال – صـاحبة الفكرة، تتخذها سلاحا ذا حدين، تهدئة الأمور بين الطـلاب لمصلحة النظام، فيكون دعم الكتاب – على هـذا النحـو – بمثابة صمام الأمان، وإثارة المتاعب للنظام – مـن ناحيـة أخرى – في حالة التوقف عن تمويل دعم الكتاب الجـامعي فجأة كسلاح للضغط السياسي.

على كل، مبدأ دعم الكتاب الجامعي له جانبه الإيجابي، وخاصة إذا وصل الدعم لمستحقيه، ولكن ما يحدث فعلاً هو تحديد عدد محدد من الكتب تُعطى للطلاب بنسـبة تخفـيض عالية، يتم اختيارها بما يخدم مصالح أساتذة بعينهم في كـل قسم لضمان توزيع كتبهم في زمن قصير، وتحصيل عائـدها

www.alkottob.com

المادي. هذا فضلاً عن الحالة المتردية التي وصـلت إليـه الكتب الجامعية (في معظمها) من حيث المحتوى وأسلوب المعالجة، والتخلف عن مواكبـة الجديـد فـي التخصـص، واتخاذها سبلاً للتكسب على حساب طلاب طحنتهم وذويهـم الأزمة الاقتصادية، ويجد الطالب نفسه مضطرا لشراء كتاب لا نفع فيه بسبب الأساليب الدنيئة التي يتبعها معظم أعضـاء هيئة التدريس لضمان تصريف الكتب والمذكرات. بل أصبح بعضهم يبيع المذكرة، ثم ملحقًا لها يضـم بعـض الأسـئلة النموذجية وإجاباتها، ثم يطرح للبيع قبيل الامتحان ملخصـا للمذكرة التي تعد – في حد ذاتها – عرضا ملخصا للمـادة. وترتب على ذلك انحطاط المستوى الدراسي بالجامعـة مـن ناحية، وخلل العلاقة بين الأستاذ والطالب من ناحية أخـرى، حين يتحول الأستاذ إلى شخص يتطلع إلى ما فـي جيـوب تلاميذه، ولا يعنيه أمر ما قد يكون في عقولهم.

ولو كانت المصلحة العامة هي المعيار، لاستخدم دعـم الكتاب الجامعي في تحسين مستوى التأليف، والتشجيع علـى التأليف الجماعي لمراجع معتمدة في المقـررات الدراسـية، مقابل مكافأة محددة، على أن يتولى قسم النشـر بالجامعـة

www.alkottob.com

(المطبعة) نشر تلك الكتب وبيعها بأسعار معتدلة. كما يمكن أن يتم تزويد مكتبة الكلية بنسخ كافية منها ليستعيرها غير القادرين على اقتناء الكتب.

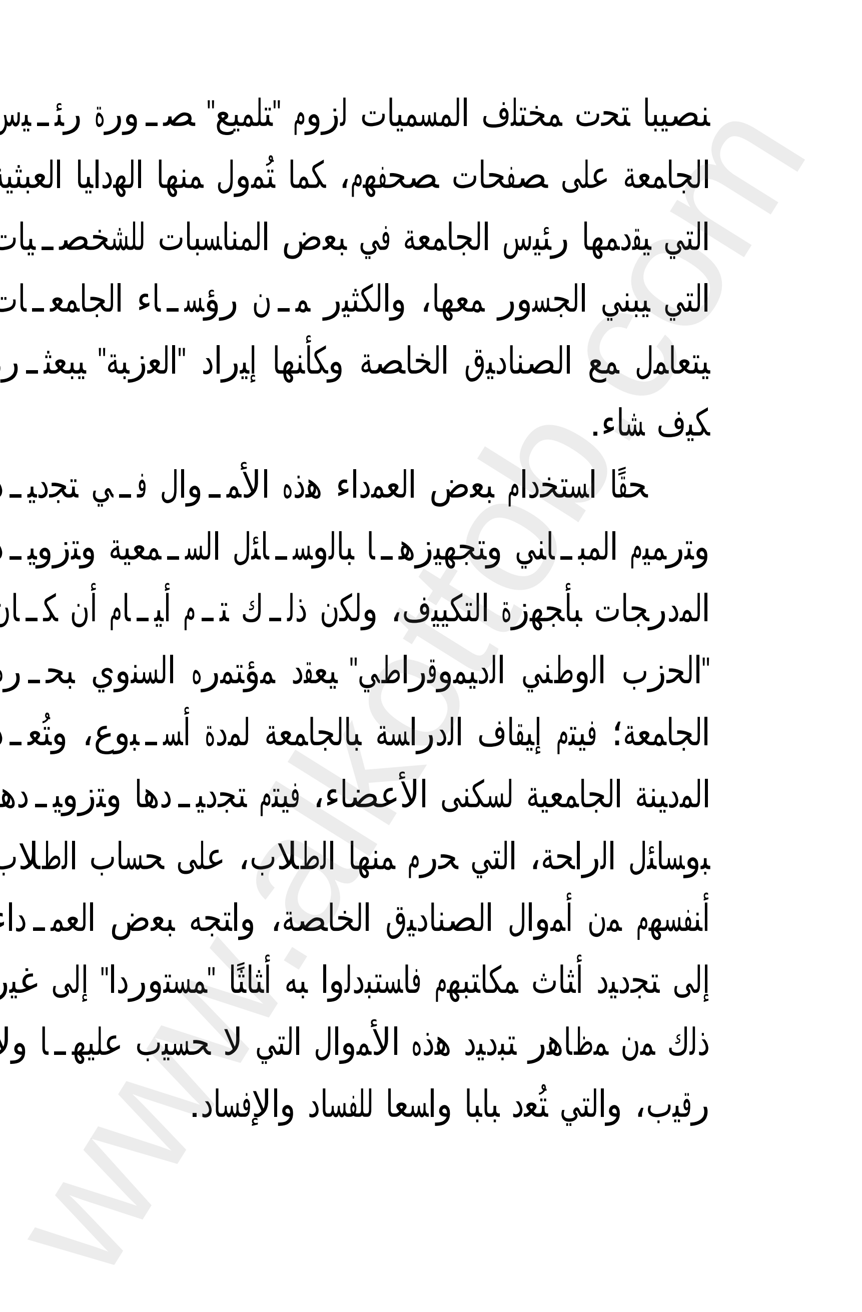
والبدعة الثانية "الصناديق الخاصة" لا تقل أهمية عن دعم الكتاب الجامعي من حيث الشكل، ولكنها أكثر فسادا من حيث المضمون. فلما كان التعليم مجانيا بجميع مراحله وفقًا للدستور، اخترع المجلس الأعلى للجامعات مبدأ أن يكون لكل كلية "صندوق خاص" يتم تمويله من مبالغ إضافية يدفعها كل طالب إلى جانب الرسوم المحددة بحكم القانون. وأُطلق العنان لتحديد المبالغ الإضافية التي قد تصل إلى ما يتراوح بين ٣٠ – ٥٠ ضعفًا من قيمة رسوم القيد. ووزعت هذه المبالغ بشكل يضمن حصول إدارة الجامعة على حوالي الربع، وتحتفظ الكلية بالباقي الذي يصل إلى ما يقرب من عشرة ملايين جنيه في الكليات ذات الأعداد الكبيرة، من المفروض أن تُصرف على الخدمات التعليمية، أي توفير ما تحتاجه الكلية من وسائل تعليمية وأجهزة وأدوات معملية إلى غير ذلك من مستلزمات كما يتم منها رعاية الطلاب. ولما كانت هذه المبالغ التي تمول الصناديق الخاصة، لا تُعد من

www.alkottob.com

موارد الخزينة العامة للدولة ؛لأنهـا لـم تُفـرض بقـانون باعتبارها "رسوما"، فهي لا تخضع للرقابـة الماليـة التـي تخضع لها حسابات الجهـات الحكوميـة، ولا تُـدرج فـي الميزانية الخاصة بالكليات أو الجامعـة باعتبارهـا أمـوالاً "خاصة" وليست "عامة". ولذلك لا يراجعها أو يراقبها "الجهاز المركزي للمحاسبات"، كما أن الصرف منها من سلطة العميد (على مستوى الكلية) ورئيس الجامعة على مستوى الجامعة.

كان من الممكن أن تُستخدم هذه الأموال الطائلة لـدعم البحث العلمي، وتمويل مشـروعات بحثيـة فـي مختلـف التخصصات، أو دعم المعامل بأحـدث الأجهـزة العلميـة، وإنشاء ما ليس موجود منهـا، كـذلك كـان مـن الممكـن استخدامها في دعم النشاط الثقافي والرياضي للطلاب. غيـر أن هذه الأموال تُستخدم – في الغالب – لخدمة مصالح مـن لهم حق التصرف فيها، وليس سرا أن الكثير مـن رؤسـاء الجامعات يمنح مكافآت شهرية من تلك الصـناديق لـبعض المحاسيب من الأساتذة الذين تُقدم لهم مبالغ شـهرية تحـت مسمى "مكافأة مستشار" ولرئيس الجامعة الحق المطلق فـي تحديد أرقام تلك المكافآت، وينال بعـض الصـحفيين منهـا

www.alkottob.com



نصيبا تحت مختلف المسميات لزوم "تلميع" صورة رئيس الجامعة على صفحات صحفهم، كما تُمول منها الهدايا العبثية التي يقدمها رئيس الجامعة في بعض المناسبات للشخصيات التي يبني الجسور معها، والكثير من رؤساء الجامعات يتعامل مع الصناديق الخاصة وكأنها إيراد "العزبة" يبعثره كيف شاء.

حقًا استخدام بعض العمداء هذه الأموال في تجديد وترميم المباني وتجهيزها بالوسائل السمعية وتزويد المدرجات بأجهزة التكييف، ولكن ذلك تم أيام أن كان "الحزب الوطني الديموقراطي" يعقد مؤتمره السنوي بحرم الجامعة؛ فيتم إيقاف الدراسة بالجامعة لمدة أسبوع، وتُعد المدينة الجامعية لسكنى الأعضاء، فيتم تجديدها وتزويدها بوسائل الراحة، التي حرم منها الطلاب، على حساب الطلاب أنفسهم من أموال الصناديق الخاصة، واتجه بعض العمداء إلى تجديد أثاث مكاتبهم فاستبدلوا به أثاثًا "مستوردا" إلى غير ذلك من مظاهر تبديد هذه الأموال التي لا حسيب عليها ولا رقيب، والتي تُعد بابا واسعا للفساد والإفساد.

www.alkottob.com

أما الآفة الثالثة، فهي "لجان الممتحنين" وهي آلية تقرر العمل بها في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، تعطي للعميد حق تشكيل لجنة برئاسته أو رئاسة وكيل الكلية لشئون الطلاب؛ للنظر في نتيجة المادة التي يقل مستوى النجاح فيها عن ٥٠% فتقرر اللجنة إضافة رقم محدد من الدرجات إلى الدرجة التي حصل عليها كل طالب في تلك المادة، بما يكفل رفع نسبة النجاح إلى ما يصل إلى ٥٠% أو يتجاوزها قليلاً.

وأخذًا في الاعتبار لمناخ الفساد السائد في تلك الجامعة، يبدوا أن هذه "البدعة" وضعت لخدمة أبناء بعض أهل الحظوة الذين تعثروا في بعض المواد؛ لأن تطبيقها في السنوات التي عاصرها صاحبنا كان الهدف منه خدمة أبناء بعض الأساتذة، أو المسئولين الكبار، أو كبار ضباط الأمن. وقيل في تبرير هذه الجريمة إن رسوب الطلاب في مثل تلك المواد يؤدي إلى اكتظاظ الكلية بالطلاب المتخلفين، ويوجد صعوبة في تدبير أماكن لهم بلجان الامتحان.

وتتم هذه العملية في الغالب دون الرجوع إلى أستاذ المادة إذا كان من ذوي المكانة، فتتم من وراء ظهره، أما إذا كان صاحب المادة ممن يسهل الضغط عليهم قام بإجراء

www.alkottob.com

التعديل بنفسه ؛حتى لا يغضب العميد، فيضع العقبات في طريق إعارة أو ترقية ينتظرها، وهو عادة لا يتأخر عن الاستجابة للطلب، طالما كان من حق العميد أن يعدل النتيجة عن طريق "لجنة الممتحنين".

أخطر ما في الأمر، أن الدرجات تضاف لجميع الطلاب فلا تساعد الراسب فقط على النجاح، ولكنها ترفع تقدير الناجح ليصبح "جيد جدا" بدلاً من جيد أو "ممتاز" بدلاً من "جيد جيدا"؛ فيؤثر هذا التعديل على فرص خريج معين في التعيين في وظيفة معيد. وهو ما يتم عادة لصالح طلاب بعينهم، ويفسر المستوى المتدني للخريجين عامة والمعيدين خاصة.

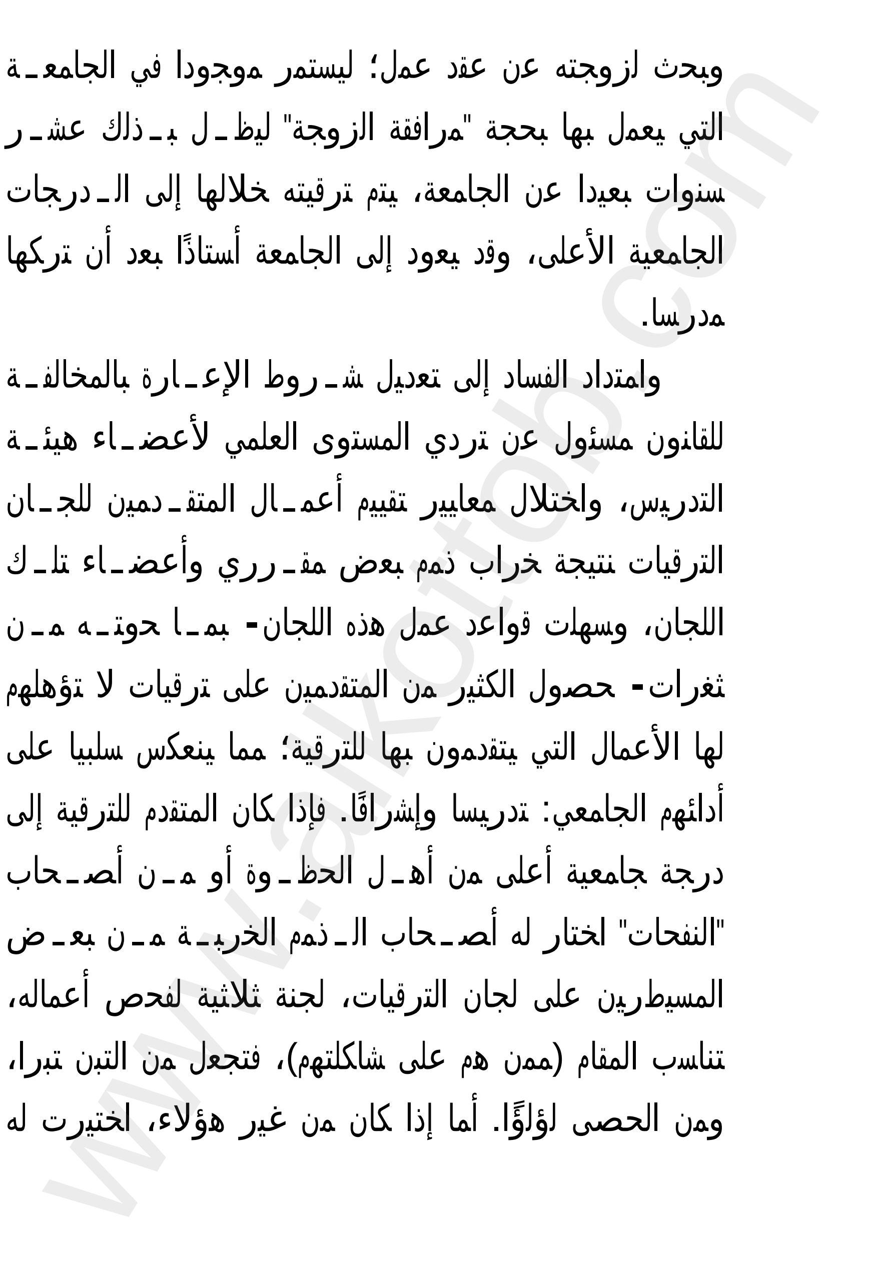
وامتد الفساد ليتناول تعديل شروط الإعارة للجامعات الأخرى المنصوص عليها في قانون تنظيم الجامعات. كان القانون السابق عليه يجيز الإعارة لمدة ثلاث سنوات كحد أقصى، فجاء القانون الحالي ليجعلها لمدة عامين قابلة للتجديد مرة واحد (أي أربع سنوات)، ولعضو هيئة التدريس الحق في الإعارة لمدد تبلغ مجموع سنواتها عشر سنوات خلال مدة الخدمة.

www.alkottob.com

وحدث أن كانت سيدة تشغل درجة الأسـتاذية بإحـدى كليات جامعة القاهرة معارة للسعودية، وطلبت مد إعارتهـا لمدة ثالثة (ست سنوات)، ولما كانت تلك السيدة شقيقة رئيس الوزراء، فقد حصل حسن حمدي رئيس الجامعة على موافقة مجلس الجامعة على إعارتها رغم رفض مجلس الكلية لذلك، واستند رئيس الجامعة إلى فتوى فصلها له المستشار القانوني للجامعة باعتبار أن تقدير مدى ضرورة مـد الإعـارة مـن صلاحيات رئيس الجامعة وحده.

وظن رئيس الجامعة أن المسألة ستتوقف عند هذا الحد، ولم يدر أنه بمجاملته لرئيس الوزارة وكسره القانون قد وضع سابقة لا فكاك منها. فقد شاع خبر المد الاستثنائي لمدة عامين إضافيين بين المعارين في السعودية والخليج، وحصل الكثير منهم على موافقات من جهات الإعارة علـى المـد عـامين آخرين، أو حتى عام واحد (خـامس). وأمطـرت مجـالس الأقسام بطلبات المد، فكان يتم رفضها، ثـم تُعـرض علـى رئيس الجامعة فيوافق عليها. وعندما تفاقمت الظاهرة حوَّلها مجلس الجامعة إلى قاعدة عامة، فأصبح من حق كل معار أن يتغيب عن الجامعة ست سنوات كاملة، بل تفـنن بعضـهم،

www.alkottob.com



وبحث لزوجته عن عقد عمل؛ ليستمر موجودا في الجامعة التي يعمل بها بحجة "مرافقة الزوجة" ليظل بذلك عشر سنوات بعيدا عن الجامعة، يتم ترقيته خلالها إلى الدرجات الجامعية الأعلى، وقد يعود إلى الجامعة أستاذًا بعد أن تركها مدرسا.

وامتداد الفساد إلى تعديل شروط الإعارة بالمخالفة للقانون مسئول عن تردي المستوى العلمي لأعضاء هيئة التدريس، واختلال معايير تقييم أعمال المتقدمين للجان الترقيات نتيجة خراب ذمم بعض مقرري وأعضاء تلك اللجان، وسهلت قواعد عمل هذه اللجان- بما حوته من ثغرات- حصول الكثير من المتقدمين على ترقيات لا تؤهلهم لها الأعمال التي يتقدمون بها للترقية؛ مما ينعكس سلبيا على أدائهم الجامعي: تدريسا وإشرافًا. فإذا كان المتقدم للترقية إلى درجة جامعية أعلى من أهل الحظوة أو من أصحاب "النفحات" اختار له أصحاب الذمم الخربة من بعض المسيطرين على لجان الترقيات، لجنة ثلاثية لفحص أعماله، تناسب المقام (ممن هم على شاكلتهم)، فتجعل من التبن تبرا، ومن الحصى لؤلؤًا. أما إذا كان من غير هؤلاء، اختيرت له

www.alkottob.com

لجنة ثلاثية من الأساتذة "المتشددين" (وهو المصطلح الذي يطلقونه على الأساتذة الشرفاء). ولما كان هؤلاء أساتذة بحق، فهم لا يرقون إلا من كانت أعماله تؤهله للدرجة المتقدم إليها.

فإذا تقدم عالم رفيع القدر في تخصصه، تحظى أعماله العلمية باعتراف دولي، لوظيفة الأستاذية من خارج الجامعة، حرصوا على إبعاده عن الجامعة؛ حتى لا يغطي وجوده عليهم، ويكشف حقيقة مستواهم العلمي، حدث هذا مع العالم الجليل أيمن فؤاد سيد عندما تقدم لوظيفة أستاذ في التاريخ الإسلامي أعلنت عنها جامعة حلوان. وكانت اللجنة العلمية (عندئذٍ) مكونة من سبعة أعضاء كان رئيسها وأربعة على الأقل من الأعضاء من فصيلة الموظفين بدرجة أستاذ ذوي الإمكانيات العلمية المتواضعة، فاختاروا له لجنة فحص من أناس لا يصلحون للتتلمذ على يديه، رأوا عدم صلاحيته للأستاذية، ولكن بعد أربع سنوات من التقاضي رد القضاء العادل له حقه، ولكن بعد أن حرمت الجامعة من وجوده فيها طوال تلك السنوات.

www.alkottob.com

ولا يمكن أن يتوقع المرء أن يكون أداء الدراسات العليا في جامعة غالبية أساتذتها من الموظفين الذين يحملون درجة الأستاذية، والقلة منهم هم أساتذة بحق على مستوى يليق بـأم الجامعات العربية، أو يكون مستوى البحوث فيها (في قطاع الإنسانيات على الأقل) مواكبا للتطور العملي فـي مجـالات تلك العلوم. فلا توجـد مشـروعات بحثيـة عنـد أسـاتذة التخصصات. يوجهون تلاميذهم إلى اختيار نقاط البحث فـي إطارها حتى إذا تكاملت محاور المشروع، كان إضافة علمية معرفية لها قيمتها، بل يترك الأمر للصدفة، ولمـدى قـدرة الطالب على الاختيار أو استعانته (من وراء ظهر أسـتاذه) بأحد الأساتذة المتميزين ليساعده على الاختيار. وهم الأستاذ (من أولئك الموظفين بدرجة أستاذ) أن يجمع تحت إشـرافه أكبر عدد من الرسائل حتى وصل العدد عنـد بعضـهم ٢٥ رسالة (في أحد فروع الطب) ناهيك عن الدراسات الإنسانية التي زاد عدد الرسائل المسجلة عند البعض إلى أكثـر مـن أربعين رسالة وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الابتذال والفوضى، فلا يظن صاحبنا أن ذاكرة الأستاذ تتسع لمثل هذا العدد من أسماء الطلاب المسجلين تحت إشرافه ناهيك عـن

www.alkottob.com

موضوعات رسائلهم التي لابد أن يكون كل منها "قضية" في حاجة إلى متابعة دقيقة من الأستاذ، خاصـة فـي مرحلـة الكتابة، ولابد أن يكون الأستاذ عبقري زمانـه حتـى تسـع ذاكرته هذا الكم الهائل من "القضايا"، فما بالنا لو كان تكوينه العلمي هشًا على نحو ما تقدم!

نتج عن ذلك أن تعامل الأساتذة مع الطلاب باعتبـارهم مجموعة من الأقنان كان أحد أساتذة التاريخ(ممـن تسـلقوا مناصب الإدارة العليا) يعامل المعيدين معاملة الخدم، يكلـف أحدهم مثلاً بالوقوف في طابور خزينة كلية الهندسة؛ ليسـدد الرسوم بدلاً من نجله، ويكلف المعيد بجمـع مـادة علميـة لطلاب سعوديين يعملون تحت إشرافه، ويبقى المعيد في كل رسالة سبع سنوات بينما لا تستغرق المدة التي يحصل فيهـا الطالب الخليجي معه أكثر من عام بالنسبة للماجسـتير مـن تاريخ التسجيل وعامين بالنسبة للدكتوراه، فإذا سـئل عـن أسباب تأخر المعيد، زعم أنه بذلك يريد "إنضاج" المعيد خدمة للتخصص. وهو – في حقيقة الأمر – ينشد إذلاله، وإبقـاءه مطية له لأطول فترة ممكنة.

www.alkottob.com

ولن ينسى صاحبنا تلك المعركة التي دارت بين أستاذين بقسمه تنافسا على الإشراف علـى طالـب تقـدم لتسـجيل للدكتوراه من آل ثانٍ (حكام قطر)، وعندما وجد أحـد أهـل التخصص انتقادا لمشروع الرسالة الذي تقدم بـه الطالـب، صرخ أحدهم قائلاً: "يكفينا أن سعادته اختار قسمنا للدراسـة فيه.. شرف كبير وا العظيم".

وعندما وضعت مجالس الدراسات العليا بالجامعات حدا أعلى لعدد الرسائل التي يشرف عليها الأستاذ جعلتها جامعة القاهرة عشر رسائل، ثم فُتح باب الاستثناء لخمس أخـرى. وجعلتها عين شمس خمسة عشرة رسالة مع إمكانية الاستثناء بحجة "ندرة" التخصص. فعندما كان صاحبنا وكـيلاً للكليـة للدراسات العليا وعضوا بمجلس الدراسات العليا بالجامعـة، عرض على المجلس النظر في استثناء أستاذ بطب القـاهرة لديه ٢٥ رسالة من قيود التسجيل حتـى يمكـن أن يسـجل رسائل تسعة طلاب جدد من الطلاب العرب بحجـة نـدرة التخصص. وعندما اتجه المجلس إلى رفض الطلب لتجاوزه عن الحد المسموح بخمسة عشرة رسالة فإذا سـجل التسـعة أصـبح التجـاوز ٢٤ رسـالة، أرجـأ رئـيس المجلـس

www.alkottob.com

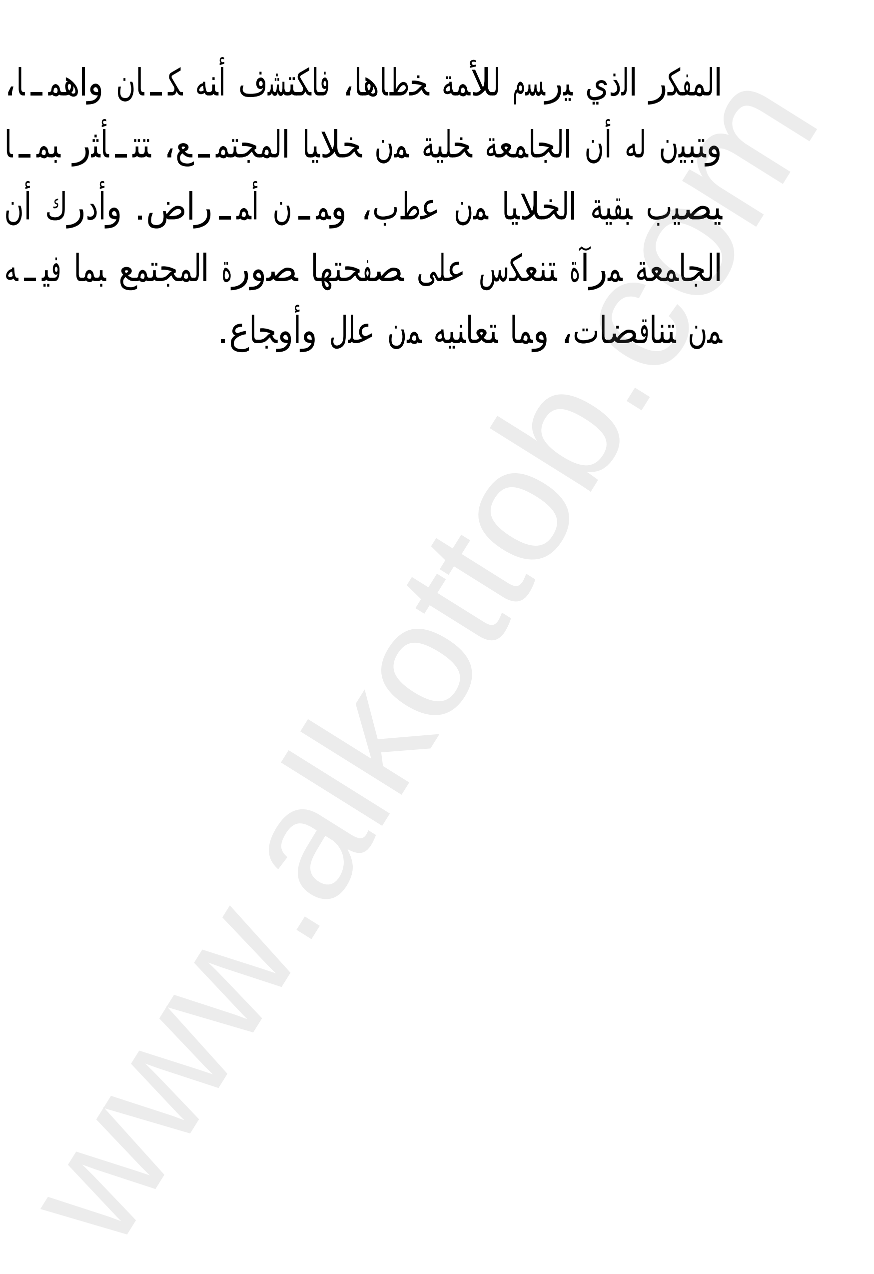
(نائب رئيس الجامعة) التصويت للجلسة التالية (بعد شـهر). وفي بداية الجلسة الموعودة، أُخطـر الأعضـاء أن رئـيس الجامعة (الذي تولى بعد ذلك منصب وزارة التعليم العالي) قد اقتنع بما قدمه الأستاذ من حجج، ووافق له وأن هذا من حق رئيس الجامعة!!

وعندما كان صاحبنا وكيلاً للدراسات العليا، أقنع مجلس الكلية بضرورة تطوير الدراسات العليا بالكلية، وشُكلت لجنة لهذا الغرض استمر عملها عدة شهور. ووضعت مشـروعا يضع من الضوابط والقيود ما يكفل رفع مستوى الدراسـات العليا، ومواكبتها لإيقاع التطور في المجال الأكاديمي العالمي بقدر الإمكان. ولقي مشروع اللجنة عند العرض على مجلس الكلية من الحذف والإضافة ما أفقده ٥٠% من قيمته، وعندما أُجيز بعد عام آخر، كان هـم الأقسـام الأساسـي التحايـل للالتفاف حول الضوابط التي وضعتها اللائحة الجديدة، ولـم يرتح لهم بال إلا بعد إلغاء العمل بها عام، ٢٠٠٣.

هذا غيض من فيض عايشه صاحبنا تحت قبة الجامعة، التي ظنها يوما مثالاً للنزاهة والنقاء خلت من الآفات التـي يعانيها المجتمع. كان يظن أن الجامعة "بيت الحكمة"، العقـل

www.alkottob.com

المفكر الذي يرسم للأمة خطاها، فاكتشف أنه كـان واهمـا، وتبين له أن الجامعة خلية من خلايا المجتمـع، تتـأثر بمـا يصيب بقية الخلايا من عطب، ومـن أمـراض. وأدرك أن الجامعة مرآة تنعكس على صفحتها صورة المجتمع بما فيـه من تناقضات، وما تعانيه من علل وأوجاع.

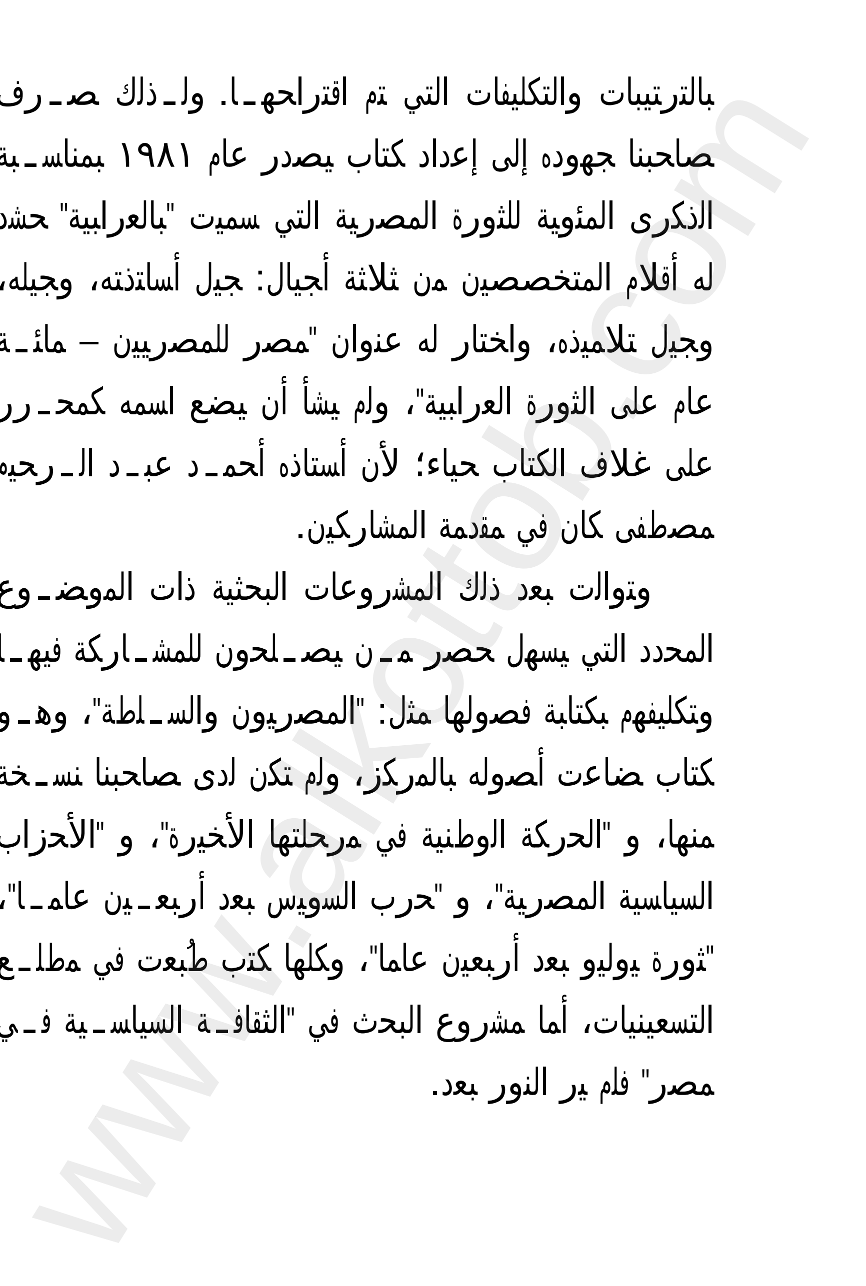


www.alkottob.com

خارج الجامعة

امتدت ساحة النشاط العلمي لصاحبنا خارج الجامعـة، فكان له دور أساسي في أبرز المراكز البحثيـة منـذ عـام ١٩٧٩ (تاريخ عودته من الإعارة إلى قطر). ويأتي مركـز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام في مقدمـة تلـك المراكز. تلقى صـاحبنا خطابـا رقيقًـا مـن السـيد يـس (مدير المركز) يدعوه للانضمام إلى أسرة المركز (فبرايـر ١٩٧٩) وتولي رئاسة وحدة الدراسات التاريخية بـه، فلبـى الدعوى، وأعد مشروعا مبـدئيا لدراسـة تطـور المجتمـع المصري، على أمل تكوين "مجموعة بحثية" تعمل عليه على مراحل، بحيث ينتهي العمل فيه في بحـر ثـلاث سـنوات، مستفيدا في ذلك من خبرته بالتجربة اليابانية في تنظيم وإدارة المجموعات البحثية، ولكنه لم يضع في حسـبانه أن صـيغة العمل في إطار "الفريق" غريبة علـى المجـال الأكـاديمي المصري، وخاصة في العلوم الإنسانية، فلم يلقَ استجابة جادة ممن اتصل بهم من الزملاء لتكـوين المجموعـة البحثيـة، الغريب أن أحدا لم يرفض الانضمام، ولكن لم يلتـزم أحـد

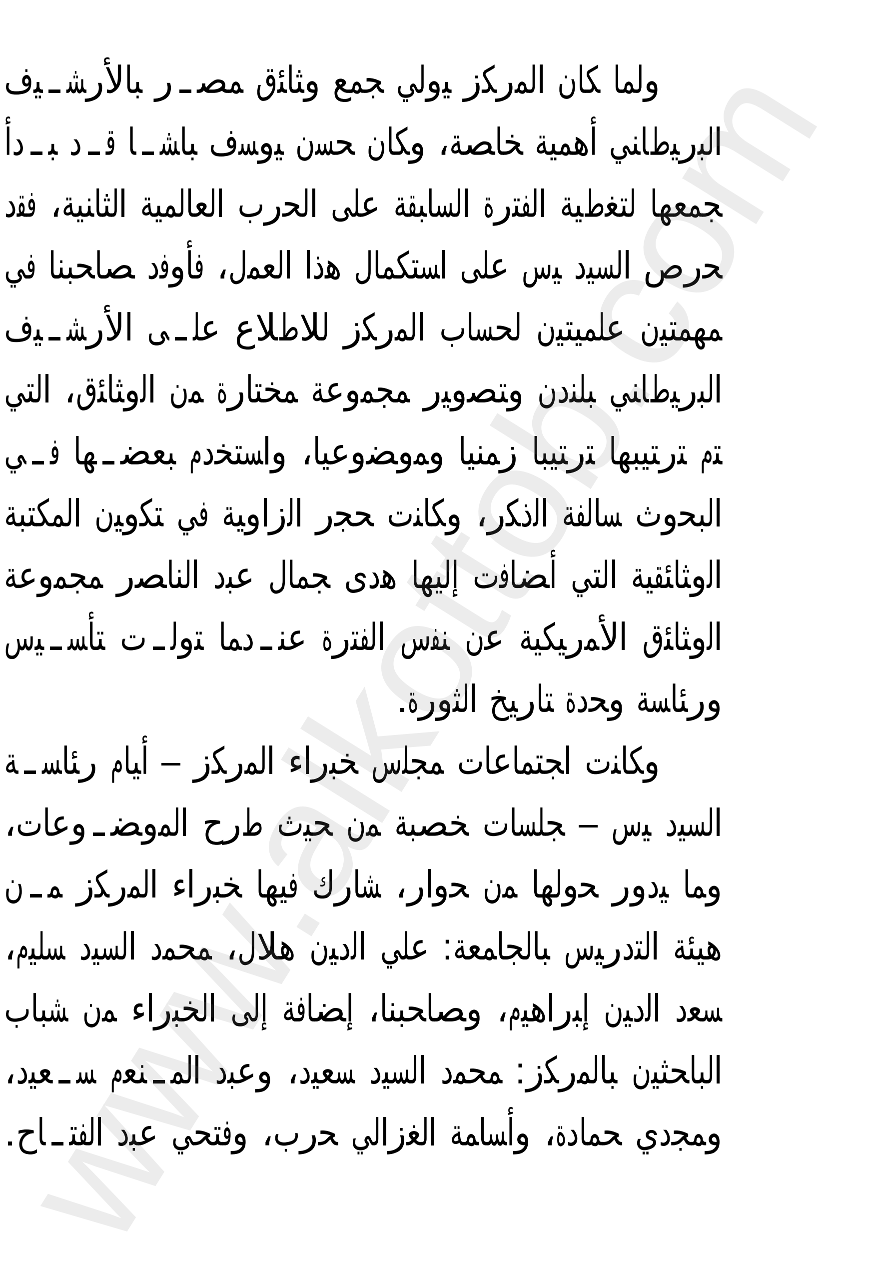
www.alkottob.com



بالترتيبات والتكليفات التي تم اقتراحهـا. ولـذلك صـرف صاحبنا جهوده إلى إعداد كتاب يصدر عام ١٩٨١ بمناسـبة الذكرى المئوية للثورة المصرية التي سميت "بالعرابية" حشد له أقلام المتخصصين من ثلاثة أجيال: جيل أساتذته، وجيله، وجيل تلاميذه، واختار له عنوان "مصر للمصريين – مائـة عام على الثورة العرابية"، ولم يشأ أن يضع اسمه كمحـرر على غلاف الكتاب حياء؛ لأن أستاذه أحمـد عبـد الـرحيم مصطفى كان في مقدمة المشاركين.

وتوالت بعد ذلك المشروعات البحثية ذات الموضـوع المحدد التي يسهل حصر مـن يصـلحون للمشـاركة فيهـا وتكليفهم بكتابة فصولها مثل: "المصريون والسـلطة"، وهـو كتاب ضاعت أصوله بالمركز، ولم تكن لدى صاحبنا نسـخة منها، و "الحركة الوطنية في مرحلتها الأخيرة"، و "الأحزاب السياسية المصرية"، و "حرب السويس بعد أربعـين عامـا"، "ثورة يوليو بعد أربعين عاما"، وكلها كتب طُبعت في مطـابع التسعينيات، أما مشروع البحث في "الثقافـة السياسـية فـي مصر" فلم ير النور بعد.

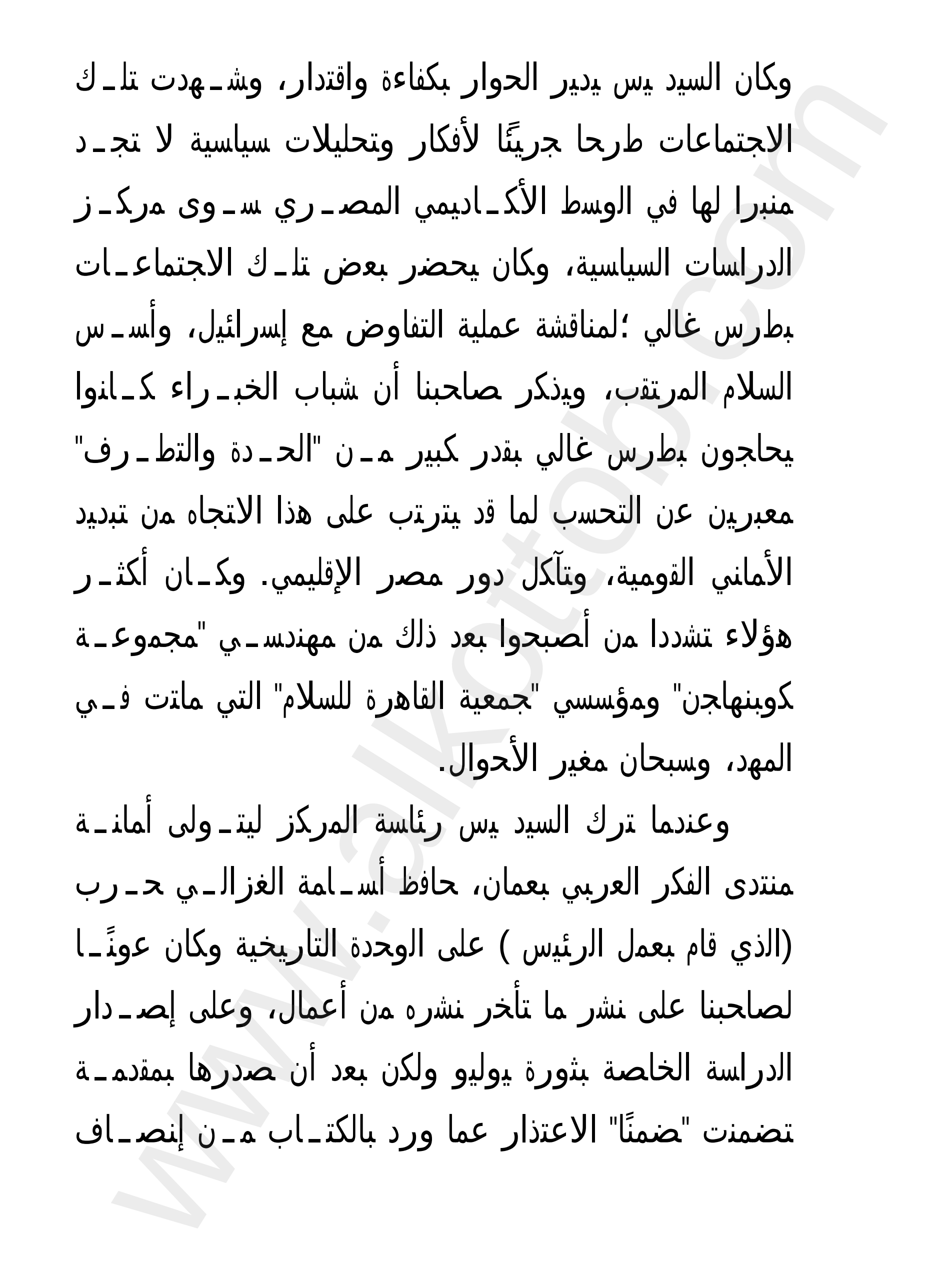
www.alkottob.com



ولما كان المركز يولي جمع وثائق مصر بالأرشيف البريطاني أهمية خاصة، وكان حسن يوسف باشا قد بدأ جمعها لتغطية الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية، فقد حرص السيد يس على استكمال هذا العمل، فأوفد صاحبنا في مهمتين علميتين لحساب المركز للاطلاع على الأرشيف البريطاني بلندن وتصوير مجموعة مختارة من الوثائق، التي تم ترتيبها ترتيبا زمنيا وموضوعيا، واستخدم بعضها في البحوث سالفة الذكر، وكانت حجر الزاوية في تكوين المكتبة الوثائقية التي أضافت إليها هدى جمال عبد الناصر مجموعة الوثائق الأمريكية عن نفس الفترة عندما تولت تأسيس ورئاسة وحدة تاريخ الثورة.

وكانت اجتماعات مجلس خبراء المركز – أيام رئاسة السيد يس – جلسات خصبة من حيث طرح الموضوعات، وما يدور حولها من حوار، شارك فيها خبراء المركز من هيئة التدريس بالجامعة: علي الدين هلال، محمد السيد سليم، سعد الدين إبراهيم، وصاحبنا، إضافة إلى الخبراء من شباب الباحثين بالمركز: محمد السيد سعيد، وعبد المنعم سعيد، ومجدي حمادة، وأسامة الغزالي حرب، وفتحي عبد الفتاح.

www.alkottob.com



وكان السيد يس يدير الحوار بكفاءة واقتدار، وشهدت تلك الاجتماعات طرحا جريئًا لأفكار وتحليلات سياسية لا تجد منبرا لها في الوسط الأكاديمي المصري سوى مركز الدراسات السياسية، وكان يحضر بعض تلك الاجتماعات بطرس غالي ؛لمناقشة عملية التفاوض مع إسرائيل، وأسس السلام المرتقب، ويذكر صاحبنا أن شباب الخبراء كانوا يحاجون بطرس غالي بقدر كبير من "الحدة والتطرف" معبرين عن التحسب لما قد يترتب على هذا الاتجاه من تبديد الأماني القومية، وتآكل دور مصر الإقليمي. وكان أكثر هؤلاء تشددا من أصبحوا بعد ذلك من مهندسي "مجموعة كوبنهاجن" ومؤسسي "جمعية القاهرة للسلام" التي ماتت في المهد، وسبحان مغير الأحوال.

وعندما ترك السيد يس رئاسة المركز ليتولى أمانة منتدى الفكر العربي بعمان، حافظ أسامة الغزالي حرب (الذي قام بعمل الرئيس) على الوحدة التاريخية وكان عونًا لصاحبنا على نشر ما تأخر نشره من أعمال، وعلى إصدار الدراسة الخاصة بثورة يوليو ولكن بعد أن صدرها بمقدمة تضمنت "ضمنًا" الاعتذار عما ورد بالكتاب من إنصاف

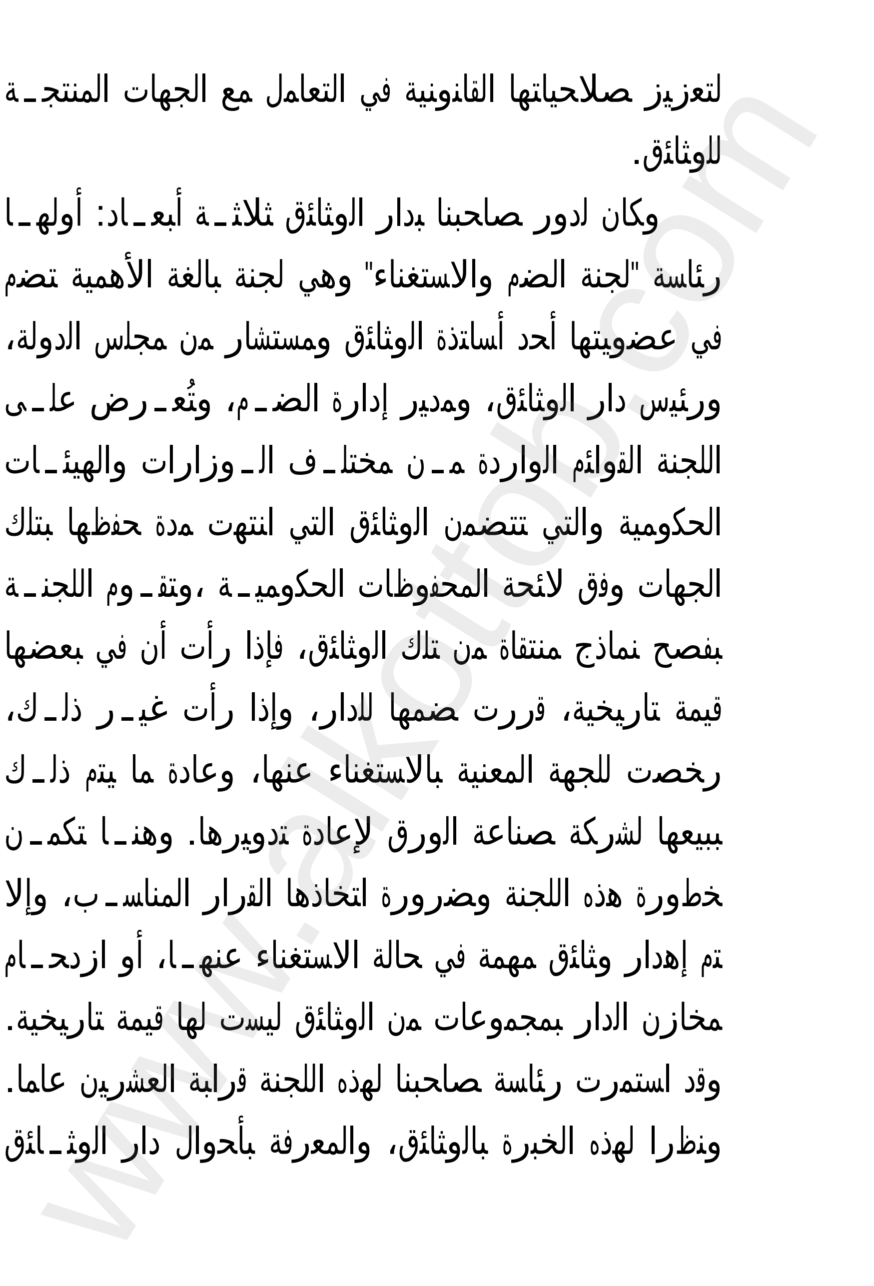
www.alkottob.com

للثورة، فعد هذه الدراسات تمثل "وجهة نظر" تقابلها وجهات نظر أخرى، رغم أن الكتاب لـم يغفـل تحليـل السـلبيات وإبرازها.

وضعفت علاقة صاحبنا بالمركز عندما أصـبح عبـد المنعم سعيد رئيسا له، وخاصة بعـد مسـألة "كوبنهـاجن"، ولاحظ صاحبنا من بعض المؤشرات أن رئيس المركـز لا يفسح مكانًا لوحدة الدراسات التاريخية التي لا تزال موجودة على الورق، ولازال اسم صاحبنا يذكر على موقع المركـز بالشبكة الدولية للمعلومـات(الإنترنـت) كـرئيس للوحـدة التاريخية.

ساحة أخرى شهدت جانبا من النشاط العلمي لصـاحبنا هي "دار الكتب والوثائق القومية" التي ارتبط بهـا ارتباطـًا وثيقًا بحكم اهتمامه بإصلاح شأن دار الوثائق القومية لترقـى إلى المستوى العالمي للأرشيفات التاريخيـة، بحكـم كونهـا مستودع ذاكرة الأمة، فكتب العديد من المقـالات بالصـحف ومجلة "الهلال"، مطالبا بالحفاظ علـى الوثـائق، وحمايتهـا وجعل دار الوثائق هيئة قائمة بذاتها تتبـع سـلطة السـيادة؛

www.alkottob.com



لتعزيز صلاحياتها القانونية في التعامل مع الجهات المنتجـة للوثائق.

وكان لدور صاحبنا بدار الوثائق ثلاثـة أبعـاد: أولهـا رئاسة "لجنة الضم والاستغناء" وهي لجنة بالغة الأهمية تضم في عضويتها أحد أساتذة الوثائق ومستشار من مجلس الدولة، ورئيس دار الوثائق، ومدير إدارة الضـم، وتُعـرض علـى اللجنة القوائم الواردة مـن مختلـف الـوزارات والهيئـات الحكومية والتي تتضمن الوثائق التي انتهت مدة حفظها بتلك الجهات وفق لائحة المحفوظات الحكوميـة ،وتقـوم اللجنـة بفصح نماذج منتقاة من تلك الوثائق، فإذا رأت أن في بعضها قيمة تاريخية، قررت ضمها للدار، وإذا رأت غيـر ذلـك، رخصت للجهة المعنية بالاستغناء عنها، وعادة ما يتم ذلـك ببيعها لشركة صناعة الورق لإعادة تدويرها. وهنـا تكمـن خطورة هذه اللجنة وضرورة اتخاذها القرار المناسـب، وإلا تم إهدار وثائق مهمة في حالة الاستغناء عنهـا، أو ازدحـام مخازن الدار بمجموعات من الوثائق ليست لها قيمة تاريخية. وقد استمرت رئاسة صاحبنا لهذه اللجنة قرابة العشرين عاما. ونظرا لهذه الخبرة بالوثائق، والمعرفة بأحوال دار الوثـائق

www.alkottob.com

القومية، اختير صاحبنا عضوا بلجنة مصغرة شكلها رئـيس الهيئة (محمود فهمي حجازي) للنظر في تطوير وتحديث دار الوثائق، وإعداد مشروع قانون جديد للمحافظة على الوثـائق وحمايتها. ومارست اللجنة عملها لمدة ١٨ شـهرا وضـعت خلالها مشروعا متكاملاً لتطوير الدار، كما وضعت مشروعا لقانون حماية الوثائق استرشـدت فيـه بدراسـتها لقـوانين الأرشيفات: الإنجليزي، والفرنسي، والإيطـالي، وقـرارات المجلس الدولي للأرشيف، وقوانين الوثائق بـبعض الـدول العربية. ولكن عندما قـدمت الحكومـة مشـروع القـانون – بعدما يزيد على العامين – لمجس الشعب، جاء المشـروع مخيبا للآمال، فقد قام "ترزية" القوانين بحذف بعض المـواد المهمة التي جاءت بمشروع لجنة التطوير، وعـدل بعضـها الآخر بالقدر الذي بدد الهدف الذي قصدته اللجنة من ورائه.

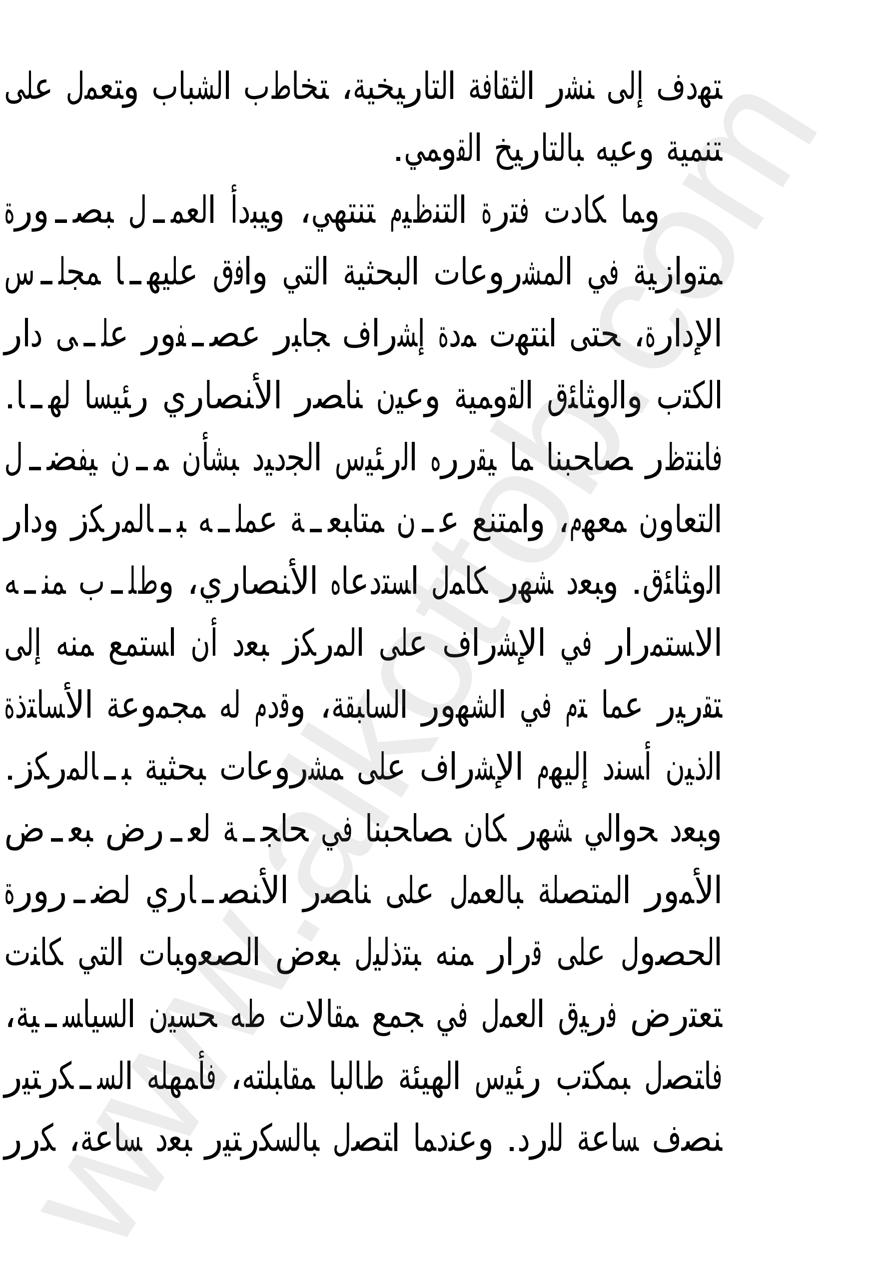
كذلك تولى صاحبنا الإشراف على مركز تاريخ مصـر المعاصر التابع لدار الكتب المصرية عنـدما تـولى جـابر عصفور رئاسة الهيئة إلى جانب موقعه كأمين للمجلس الأعلى للثقافة مدة ستة شهور، وكان المركز تحـت إشـراف عبـد العظيم رمضان لعدة سنوات لم ينتج فيها شيئًا سوى ما كـان

www.alkottob.com

ينشره من مذكرات سعد زغلول التي كان يتولى أحد موظفي المركز كتاباتها على الآلة الكاتبة نقلاً عن الأصل الذي كتبه سعد زغلول بخطه (وهو خط تصعب قراءاته)، فكان ذلـك الموظف (محمد حجازي) يجتهد في قراءة النص، ويتـولى رمضان كتابة مقدمة لكل جزء بعدما أعـاد ترتيـب المـادة بصورة تختلف عن الأصل، وتخل بقواعد التحقيق والنشـر. كما توقفت على يديه السلسة التي تولى الإشراف عليها يونان لبيب بعنوان "مصر المعاصرة" وكانت تنشر بحوثًا دون خطة محددة، فكل من لديه بحث يسعى لنشره يلجأ للمشرف علـى السلسلة؛ فيختار من بينها ما يمكن نشـره. وكانـت علاقـة الباحثين بعبد العظيم رمضان على درجة كبيرة من السـوء؛ بسبب ترك معظمهم بلا عمل، وحرمانهم من بعض المزايـا العينية لمجرد معارضتهم له في الرأي.

ولذلك كله، كلف جابر عصفور صاحبنا بالإشراف على المركز، فأعاد تنظيمه، ووضع خطة بحثيـة وافـق عليهـا مجلس الإدارة، من بينها مشروع تجميع ونشـر المقـالات السياسية لطه حسين، ومشروع إحياء سلسلة بحوث المركـز مع توجيهها لتغطية قضايا محددة، ومشروع إصدار مجلـة

www.alkottob.com


تهدف إلى نشر الثقافة التاريخية، تخاطب الشباب وتعمل على تنمية وعيه بالتاريخ القومي.

وما كادت فترة التنظيم تنتهي، ويبدأ العمـل بصـورة متوازية في المشروعات البحثية التي وافق عليهـا مجلـس الإدارة، حتى انتهت مدة إشراف جابر عصـفور علـى دار الكتب والوثائق القومية وعين ناصر الأنصاري رئيسا لهـا. فانتظر صاحبنا ما يقرره الرئيس الجديد بشأن مـن يفضـل التعاون معهم، وامتنع عـن متابعـة عملـه بـالمركز ودار الوثائق. وبعد شهر كامل استدعاه الأنصاري، وطلـب منـه الاستمرار في الإشراف على المركز بعد أن استمع منه إلى تقرير عما تم في الشهور السابقة، وقدم له مجموعة الأساتذة الذين أسند إليهم الإشراف على مشروعات بحثية بـالمركز. وبعد حوالي شهر كان صاحبنا في حاجـة لعـرض بعـض الأمور المتصلة بالعمل على ناصر الأنصـاري لضـرورة الحصول على قرار منه بتذليل بعض الصعوبات التي كانت تعترض فريق العمل في جمع مقالات طه حسين السياسـية، فاتصل بمكتب رئيس الهيئة طالبا مقابلته، فأمهله السـكرتير نصف ساعة للرد. وعندما اتصل بالسكرتير بعد ساعة، كرر

www.alkottob.com

الاعتذار ؛لأن الرئيس لديه ضـيف مـن ضـباط البـوليس (زملائه القدامى)، وأنه أمر بألا يزعجه أحد. استاء صاحبنا، وانصرف من المركز وأثناء خروجه من بـاب دار الكتـب التقى ليلى حميد رئيسة الإدارة المركزية لدار الكتب عائـدة من مكتب ناصر الأنصاري، وعلم منها أن الرئيس الجديـد وضع تعليمات تقضي بأن يتقدم من يريد مقابلته من مسئولي الدار بطلب المقابلة وموضوعها قبل الموعد المطلوب بثلاثة أيام على الأقل، ويترك لمكتب "الباشا" الحق فـي اسـتدعائه للمقابلة (السامية) عندما يقرر "الباشا" ذلك.

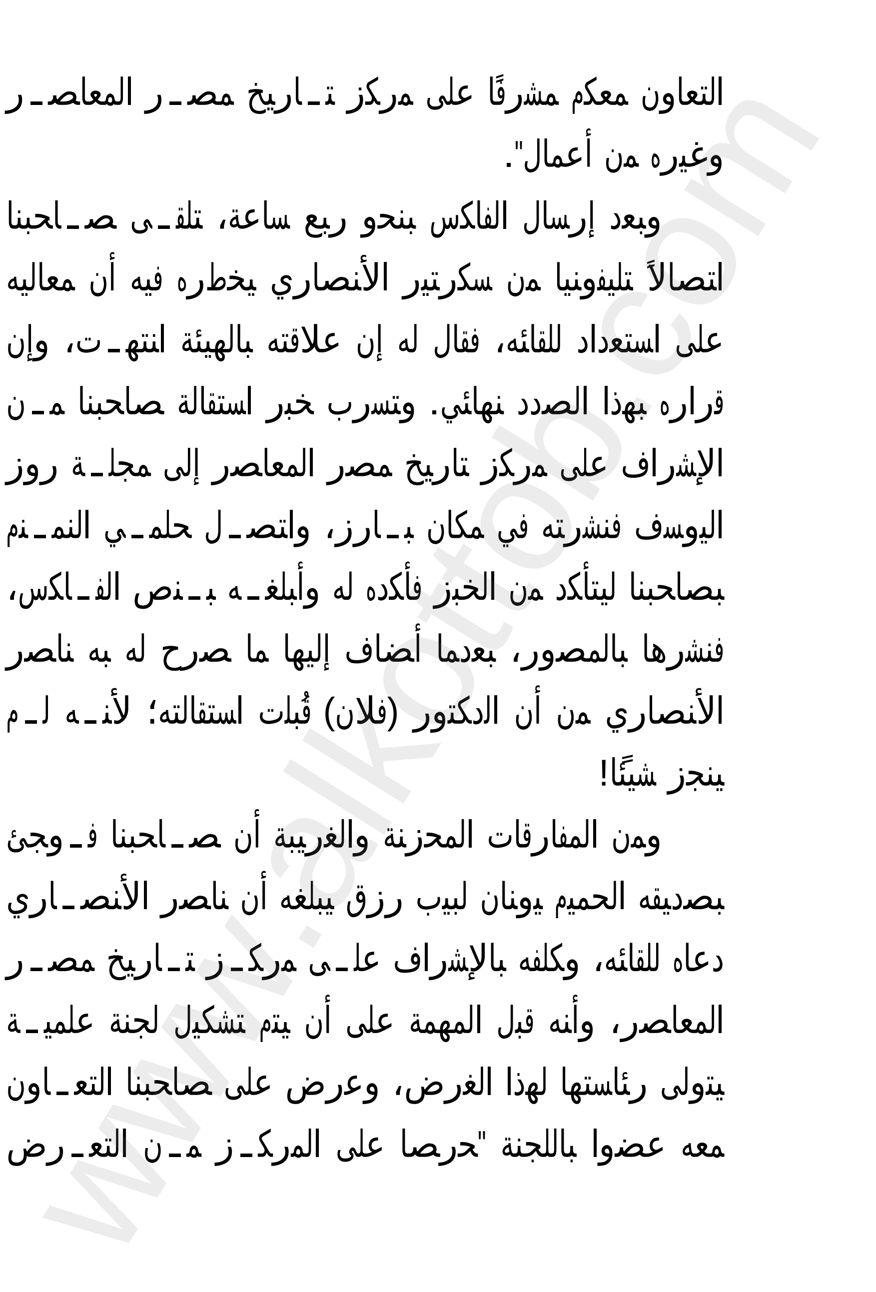
ولما كان هذا الأسلوب لا يتفق مع متطلبات العمل فـي مجال البحث، وخاصة أن الرئيس الجديـد لا يفـرق بـين الموظفين والأساتذة الذين يخدمون الهيئة بدافع وطني ولـيس نفعيا (ولم يكن صاحبنا قد تقاضى أية مكافآت لمـدة سـبعة شهور، كما لم يطالب بتحديد مكافأة له)، قـرر صـاحبنا أن ينسحب من الإشراف على المركز بعـد تلقـين الأنصـاري درسا في الأخلاق، فأرسل له رسالة بالفاكس في اليوم نفسـه جاء فيها: "احتجاجا على أسلوبك غير اللائق في التعامل مع الأساتذة ذوي القامات العلمية العالية، لا يشـرفني اسـتمرار

www.alkottob.com

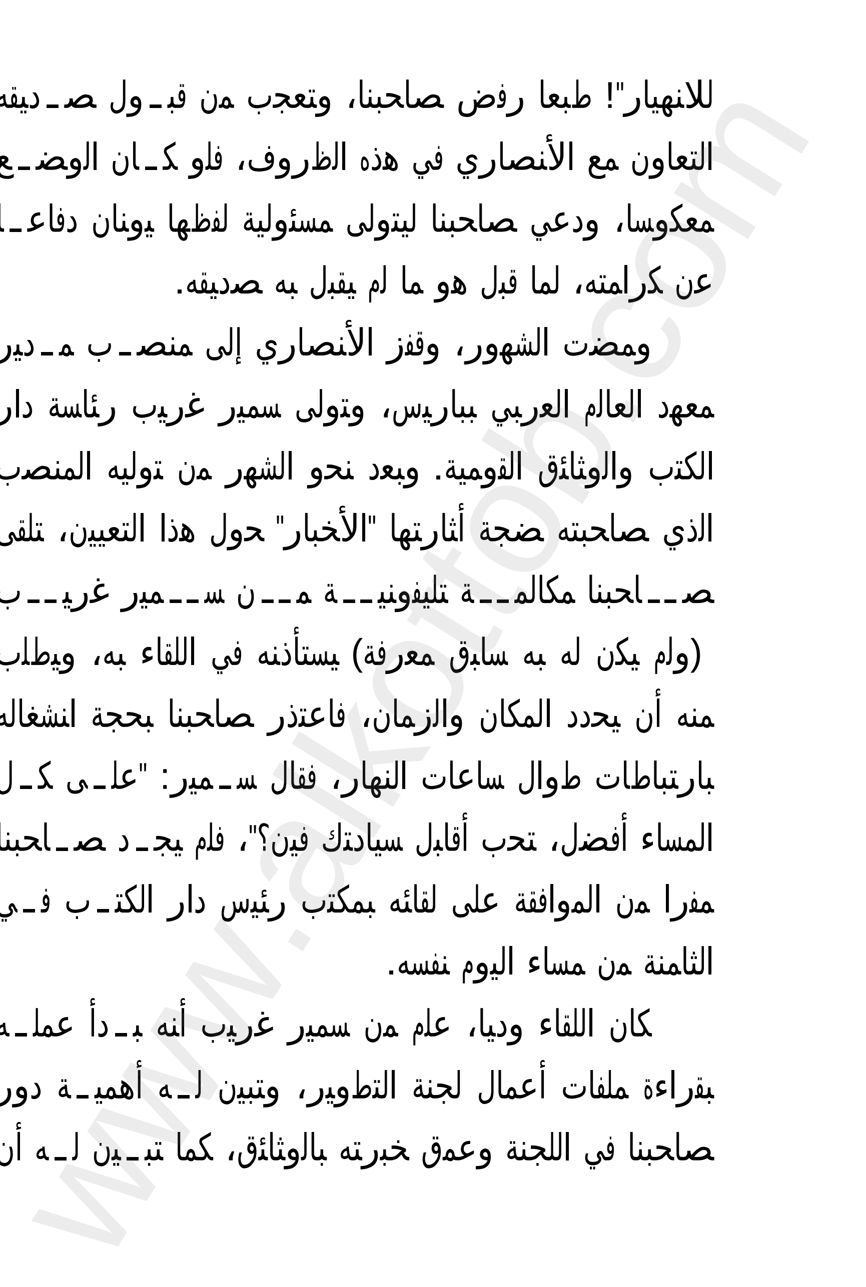
التعاون معكم مشرفًا على مركز تـاريخ مصـر المعاصـر وغيره من أعمال".

وبعد إرسال الفاكس بنحو ربع ساعة، تلقـى صـاحبنا اتصالاً تليفونيا من سكرتير الأنصاري يخطره فيه أن معاليه على استعداد للقائه، فقال له إن علاقته بالهيئة انتهـت، وإن قراره بهذا الصدد نهائي. وتسرب خبر استقالة صاحبنا مـن الإشراف على مركز تاريخ مصر المعاصر إلى مجلـة روز اليوسف فنشرته في مكان بـارز، واتصـل حلمـي النمـنم بصاحبنا ليتأكد من الخبز فأكده له وأبلغـه بـنص الفـاكس، فنشرها بالمصور، بعدما أضاف إليها ما صرح له به ناصر الأنصاري من أن الدكتور (فلان) قُبلت استقالته؛ لأنـه لـم ينجز شيئًا!

ومن المفارقات المحزنة والغريبة أن صـاحبنا فـوجئ بصديقه الحميم يونان لبيب رزق يبلغه أن ناصر الأنصـاري دعاه للقائه، وكلفه بالإشراف علـى مركـز تـاريخ مصـر المعاصر، وأنه قبل المهمة على أن يتم تشكيل لجنة علميـة يتولى رئاستها لهذا الغرض، وعرض على صاحبنا التعـاون معه عضوا باللجنة "حرصا على المركـز مـن التعـرض



www.alkottob.com

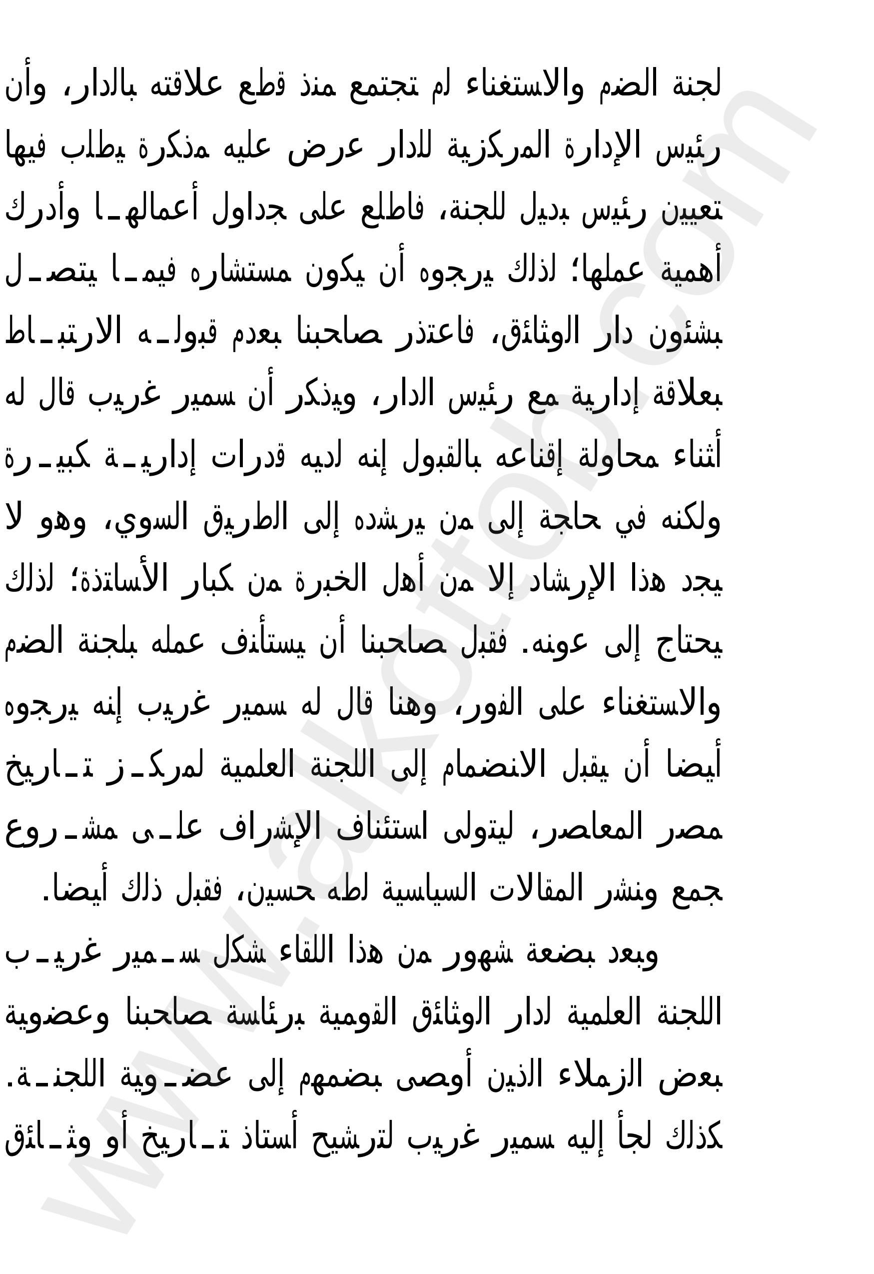


للانهيار"! طبعا رفض صاحبنا، وتعجب من قبول صديقه التعاون مع الأنصاري في هذه الظروف، فلو كان الوضع معكوسا، ودعي صاحبنا ليتولى مسئولية لفظها يونان دفاعا عن كرامته، لما قبل هو ما لم يقبل به صديقه.

ومضت الشهور، وقفز الأنصاري إلى منصب مدير معهد العالم العربي بباريس، وتولى سمير غريب رئاسة دار الكتب والوثائق القومية. وبعد نحو الشهر من توليه المنصب الذي صاحبته ضجة أثارتها "الأخبار" حول هذا التعيين، تلقى صاحبنا مكالمة تليفونية من سمير غريب (ولم يكن له به سابق معرفة) يستأذنه في اللقاء به، ويطلب منه أن يحدد المكان والزمان، فاعتذر صاحبنا بحجة انشغاله بارتباطات طوال ساعات النهار، فقال سمير: "على كل المساء أفضل، تحب أقابل سيادتك فين؟"، فلم يجد صاحبنا مفرا من الموافقة على لقائه بمكتب رئيس دار الكتب في الثامنة من مساء اليوم نفسه.

كان اللقاء وديا، علم من سمير غريب أنه بدأ عمله بقراءة ملفات أعمال لجنة التطوير، وتبين له أهمية دور صاحبنا في اللجنة وعمق خبرته بالوثائق، كما تبين له أن

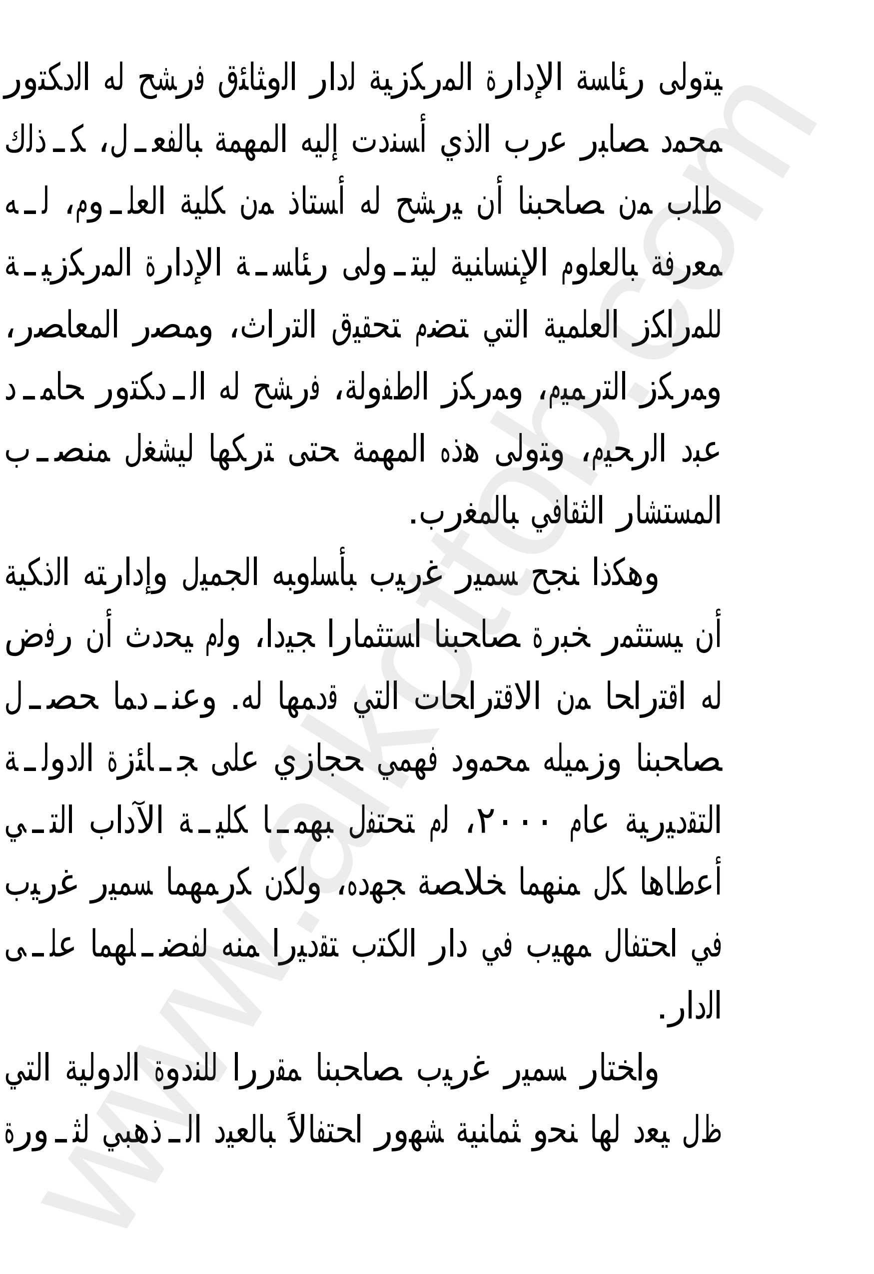
www.alkottob.com



لجنة الضم والاستغناء لم تجتمع منذ قطع علاقته بالدار، وأن رئيس الإدارة المركزية للدار عرض عليه مذكرة يطلب فيها تعيين رئيس بديل للجنة، فاطلع على جداول أعمالهـا وأدرك أهمية عملها؛ لذلك يرجوه أن يكون مستشاره فيمـا يتصـل بشئون دار الوثائق، فاعتذر صاحبنا بعدم قبولـه الارتبـاط بعلاقة إدارية مع رئيس الدار، ويذكر أن سمير غريب قال له أثناء محاولة إقناعه بالقبول إنه لديه قدرات إداريـة كبيـرة ولكنه في حاجة إلى من يرشده إلى الطريق السوي، وهو لا يجد هذا الإرشاد إلا من أهل الخبرة من كبار الأساتذة؛ لذلك يحتاج إلى عونه. فقبل صاحبنا أن يستأنف عمله بلجنة الضم والاستغناء على الفور، وهنا قال له سمير غريب إنه يرجوه أيضا أن يقبل الانضمام إلى اللجنة العلمية لمركـز تـاريخ مصر المعاصر، ليتولى استئناف الإشراف علـى مشـروع جمع ونشر المقالات السياسية لطه حسين، فقبل ذلك أيضا.

وبعد بضعة شهور من هذا اللقاء شكل سـمير غريـب اللجنة العلمية لدار الوثائق القومية برئاسة صاحبنا وعضوية بعض الزملاء الذين أوصى بضمهم إلى عضـوية اللجنـة. كذلك لجأ إليه سمير غريب لترشيح أستاذ تـاريخ أو وثـائق

www.alkottob.com

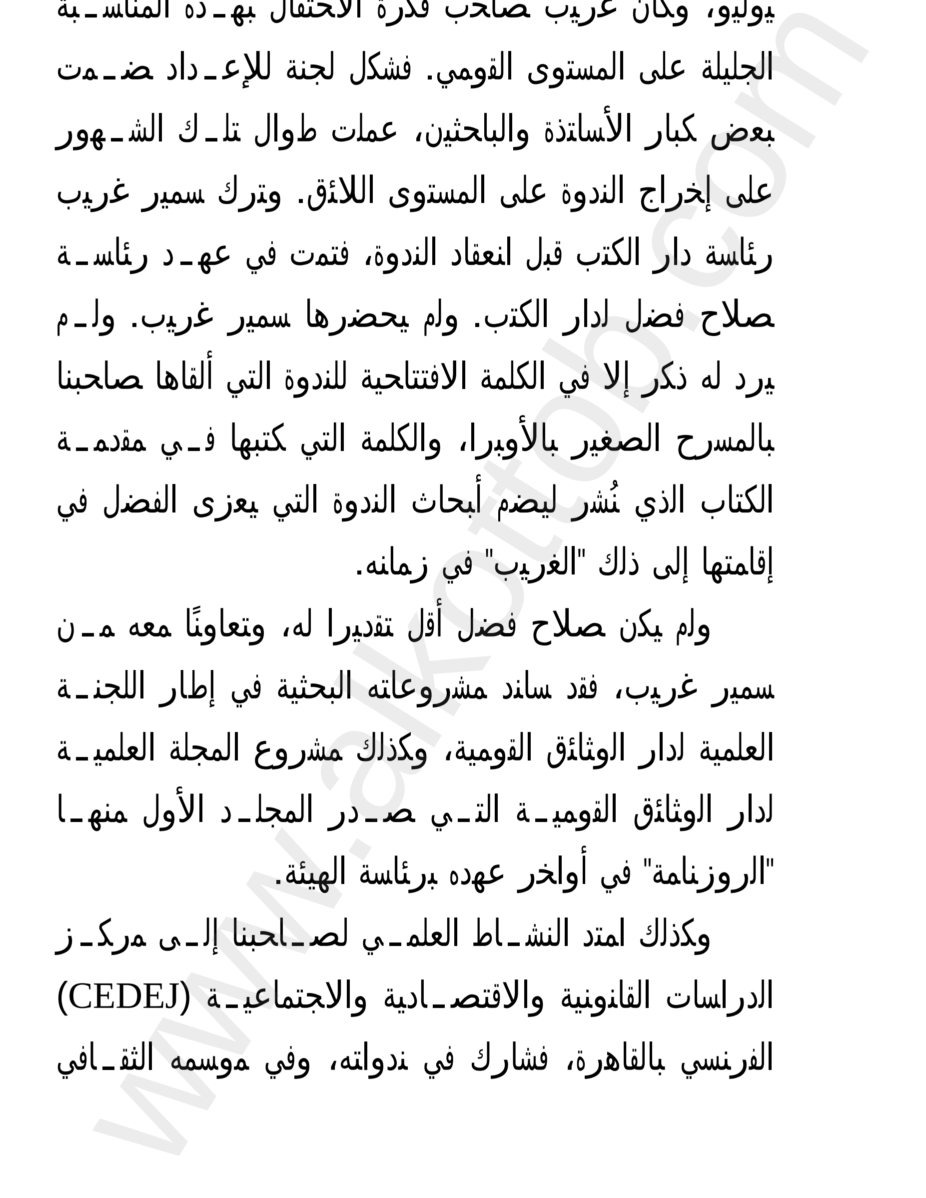


يتولى رئاسة الإدارة المركزية لدار الوثائق فرشح له الدكتور محمد صابر عرب الذي أسندت إليه المهمة بالفعـل، كـذلك طلب من صاحبنا أن يرشح له أستاذ من كلية العلـوم، لـه معرفة بالعلوم الإنسانية ليتـولى رئاسـة الإدارة المركزيـة للمراكز العلمية التي تضم تحقيق التراث، ومصر المعاصر، ومركز الترميم، ومركز الطفولة، فرشح له الـدكتور حامـد عبد الرحيم، وتولى هذه المهمة حتى تركها ليشغل منصـب المستشار الثقافي بالمغرب.

وهكذا نجح سمير غريب بأسلوبه الجميل وإدارته الذكية أن يستثمر خبرة صاحبنا استثمارا جيدا، ولم يحدث أن رفض له اقتراحا من الاقتراحات التي قدمها له. وعنـدما حصـل صاحبنا وزميله محمود فهمي حجازي على جـائزة الدولـة التقديرية عام ٢٠٠٠، لم تحتفل بهمـا كليـة الآداب التـي أعطاها كل منهما خلاصة جهده، ولكن كرمهما سمير غريب في احتفال مهيب في دار الكتب تقديرا منه لفضـلهما علـى الدار.

واختار سمير غريب صاحبنا مقررا للندوة الدولية التي ظل يعد لها نحو ثمانية شهور احتفالاً بالعيد الـذهبي لثـورة

www.alkottob.com

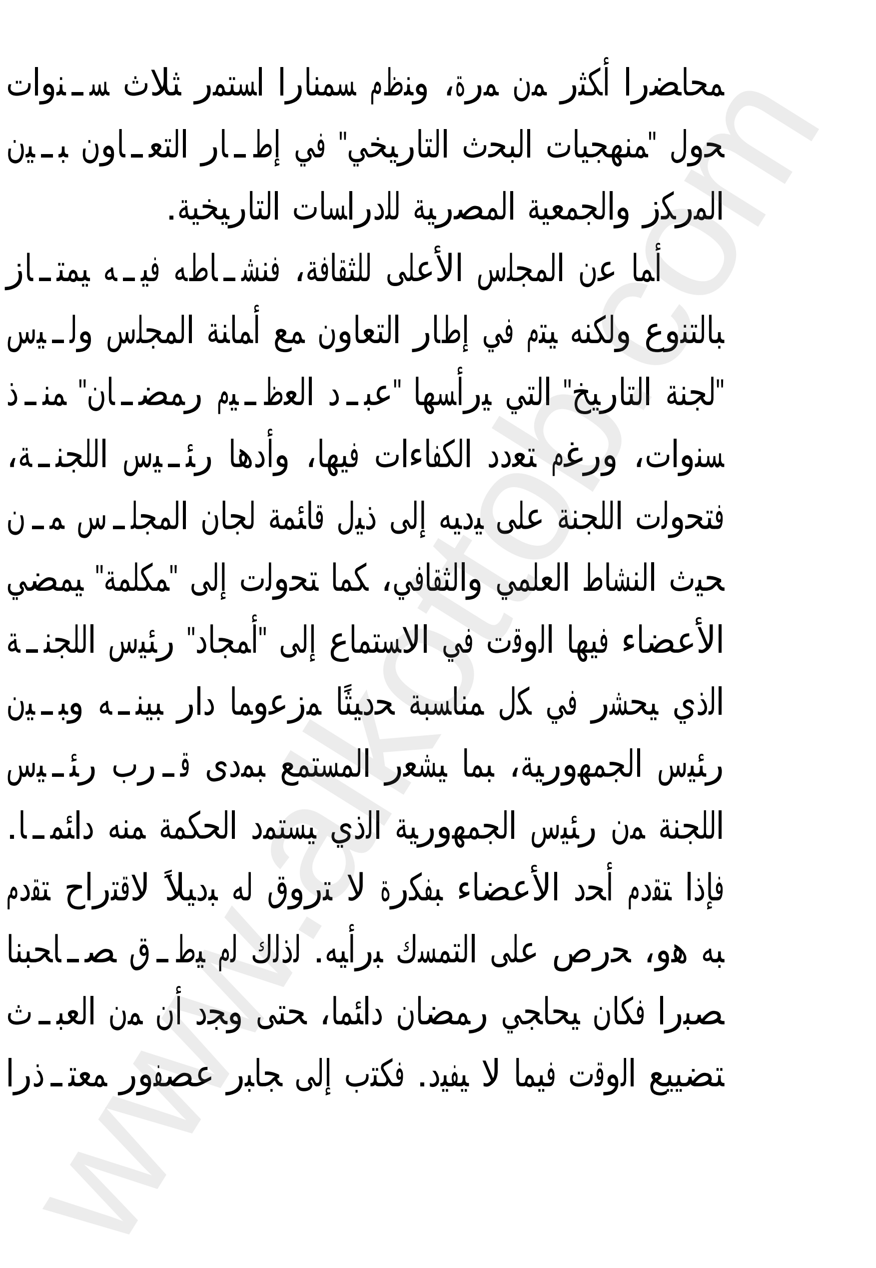


يوليو، وكان غريب صاحب فكرة الاحتفال بهذه المناسبة الجليلة على المستوى القومي. فشكل لجنة للإعداد ضمت بعض كبار الأساتذة والباحثين، عملت طوال تلك الشهور على إخراج الندوة على المستوى اللائق. وترك سمير غريب رئاسة دار الكتب قبل انعقاد الندوة، فتمت في عهد رئاسة صلاح فضل لدار الكتب. ولم يحضرها سمير غريب. ولم يرد له ذكر إلا في الكلمة الافتتاحية للندوة التي ألقاها صاحبنا بالمسرح الصغير بالأوبرا، والكلمة التي كتبها في مقدمة الكتاب الذي نُشر ليضم أبحاث الندوة التي يعزى الفضل في إقامتها إلى ذلك "الغريب" في زمانه.

ولم يكن صلاح فضل أقل تقديرا له، وتعاونًا معه من سمير غريب، فقد ساند مشروعاته البحثية في إطار اللجنة العلمية لدار الوثائق القومية، وكذلك مشروع المجلة العلمية لدار الوثائق القومية التي صدر المجلد الأول منها "الروزنامة" في أواخر عهده برئاسة الهيئة.

وكذلك امتد النشاط العلمي لصاحبنا إلى مركز الدراسات القانونية والاقتصادية والاجتماعية (CEDEJ) الفرنسي بالقاهرة، فشارك في ندواته، وفي موسمه الثقافي

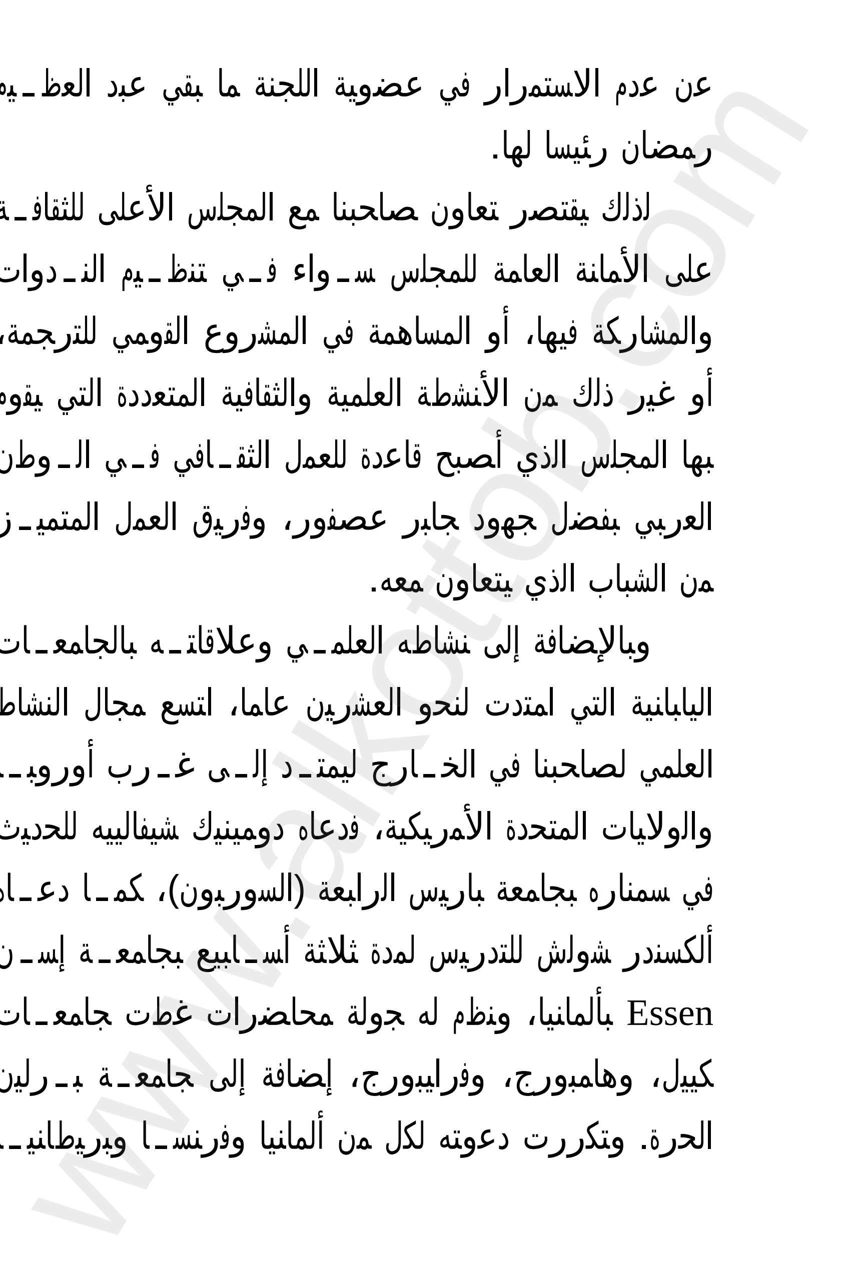
www.alkottob.com



محاضرا أكثر من مرة، ونظم سمنارا استمر ثلاث سنوات حول "منهجيات البحث التاريخي" في إطار التعاون بين المركز والجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

أما عن المجلس الأعلى للثقافة، فنشاطه فيه يمتاز بالتنوع ولكنه يتم في إطار التعاون مع أمانة المجلس وليس "لجنة التاريخ" التي يرأسها "عبد العظيم رمضان" منذ سنوات، ورغم تعدد الكفاءات فيها، وأدها رئيس اللجنة، فتحولت اللجنة على يديه إلى ذيل قائمة لجان المجلس من حيث النشاط العلمي والثقافي، كما تحولت إلى "مكلمة" يمضي الأعضاء فيها الوقت في الاستماع إلى "أمجاد" رئيس اللجنة الذي يحشر في كل مناسبة حديثًا مزعوما دار بينه وبين رئيس الجمهورية، بما يشعر المستمع بمدى قرب رئيس اللجنة من رئيس الجمهورية الذي يستمد الحكمة منه دائما. فإذا تقدم أحد الأعضاء بفكرة لا تروق له بديلاً لاقتراح تقدم به هو، حرص على التمسك برأيه. لذلك لم يطق صاحبنا صبرا فكان يحاجي رمضان دائما، حتى وجد أن من العبث تضييع الوقت فيما لا يفيد. فكتب إلى جابر عصفور معتذرا

www.alkottob.com



عن عدم الاستمرار في عضوية اللجنة ما بقي عبد العظـيم رمضان رئيسا لها.

لذلك يقتصر تعاون صاحبنا مع المجلس الأعلى للثقافـة على الأمانة العامة للمجلس سـواء فـي تنظـيم النـدوات والمشاركة فيها، أو المساهمة في المشروع القومي للترجمة، أو غير ذلك من الأنشطة العلمية والثقافية المتعددة التي يقوم بها المجلس الذي أصبح قاعدة للعمل الثقـافي فـي الـوطن العربي بفضل جهود جابر عصفور، وفريق العمل المتميـز من الشباب الذي يتعاون معه.

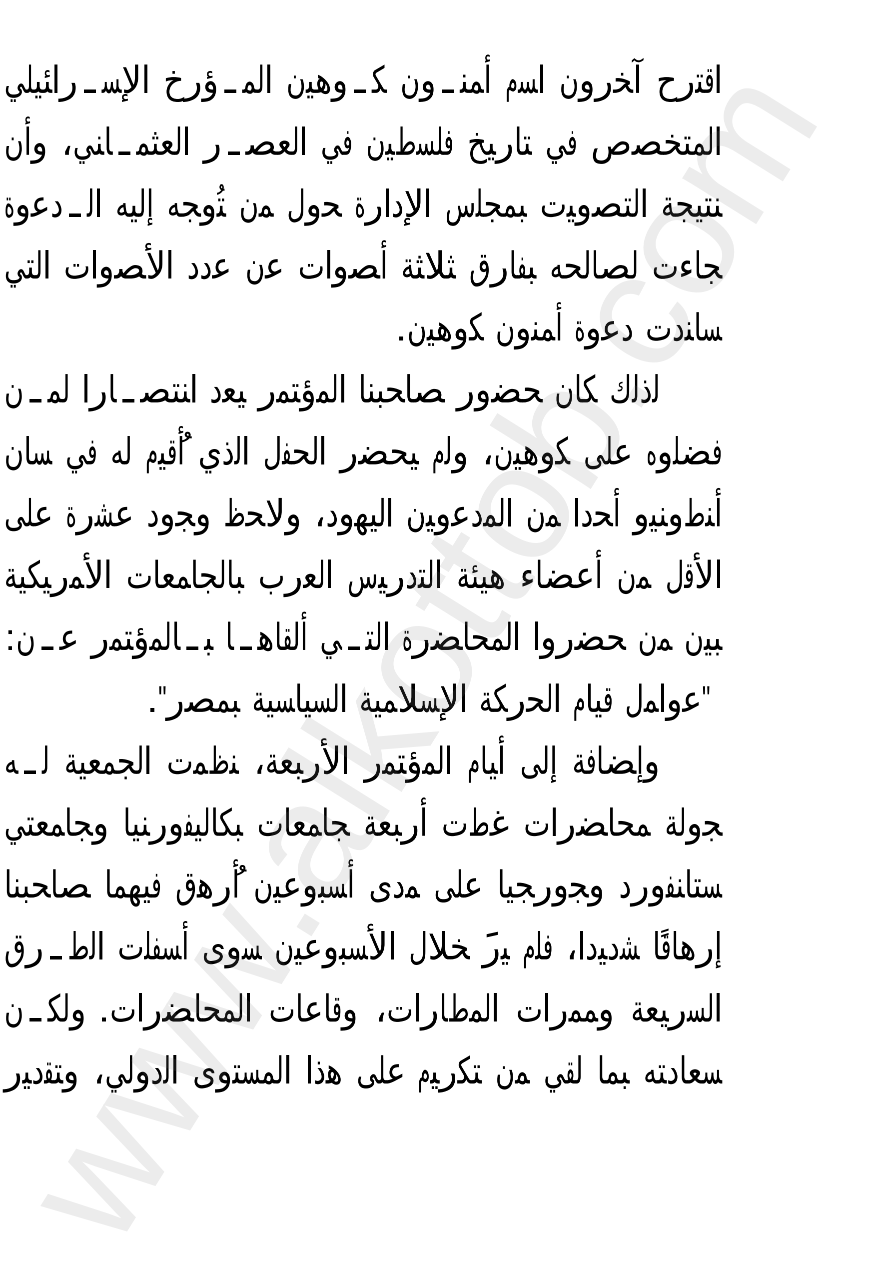
وبالإضافة إلى نشاطه العلمـي وعلاقاتـه بالجامعـات اليابانية التي امتدت لنحو العشرين عاما، اتسع مجال النشاط العلمي لصاحبنا في الخـارج ليمتـد إلـى غـرب أوروبـا والولايات المتحدة الأمريكية، فدعاه دومينيك شيفالييه للحديث في سمناره بجامعة باريس الرابعة (السوربون)، كمـا دعـاه ألكسندر شولش للتدريس لمدة ثلاثة أسـابيع بجامعـة إسـن Essen بألمانيا، ونظم له جولة محاضرات غطت جامعـات كييل، وهامبورج، وفرايبورج، إضافة إلى جامعـة بـرلين الحرة. وتكررت دعوته لكل من ألمانيا وفرنسـا وبريطانيـا

www.alkottob.com

عدة مرات للمشاركة في ورش العمل والندوات والمؤتمرات التي قدم فيها بحوثًا نُشرت بالإنجليزية، وتُرجم أحـدها إلـى الألمانية ونُشر بها.

وفي أواخر ١٩٨٩، تلقى صاحبنا من "جمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشـمالية" (MESA) وهـي أكبـر الجمعيات العلمية المتخصصة في الغرب، تلقى ما يفيـد أن مجلس إدارة الجمعية قد اختاره "ضيف الشرف" في مـؤتمره السنوي الذي يعقد في سان أنطونيو بولايـة تكسـاس فـي نوفمبر، ١٩٩٠ وكانت الجمعية قد قررت توجيه الدعوة إلى أحد الأساتذة البارزين ليكون ضيف الشرف فـي المـؤتمر السنوي كل عام، تتحمل الجمعية نفقات سفره وإقامته، ويـتم تكريمه على هامش المؤتمر الذي يدعى لحضوره، وتُنظم له جولة محاضرات ببعض الجامعات الأمريكيـة التـي تقبـل استضافته. وكان أول الضيوف برنارد لويس، ثم جاك بيرك، ثم ألبرت حوراني، وكان صاحبنا الرابع في سلسلة ضـيوف الشرف، والأول من بين من ينتمون إلى الشـرق الأوسـط. وعلم فيما بعد أن بعـض أعضـاء مجلـس إدارة "جمعيـة دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية" اقترح اسمه، بينما

www.alkottob.com

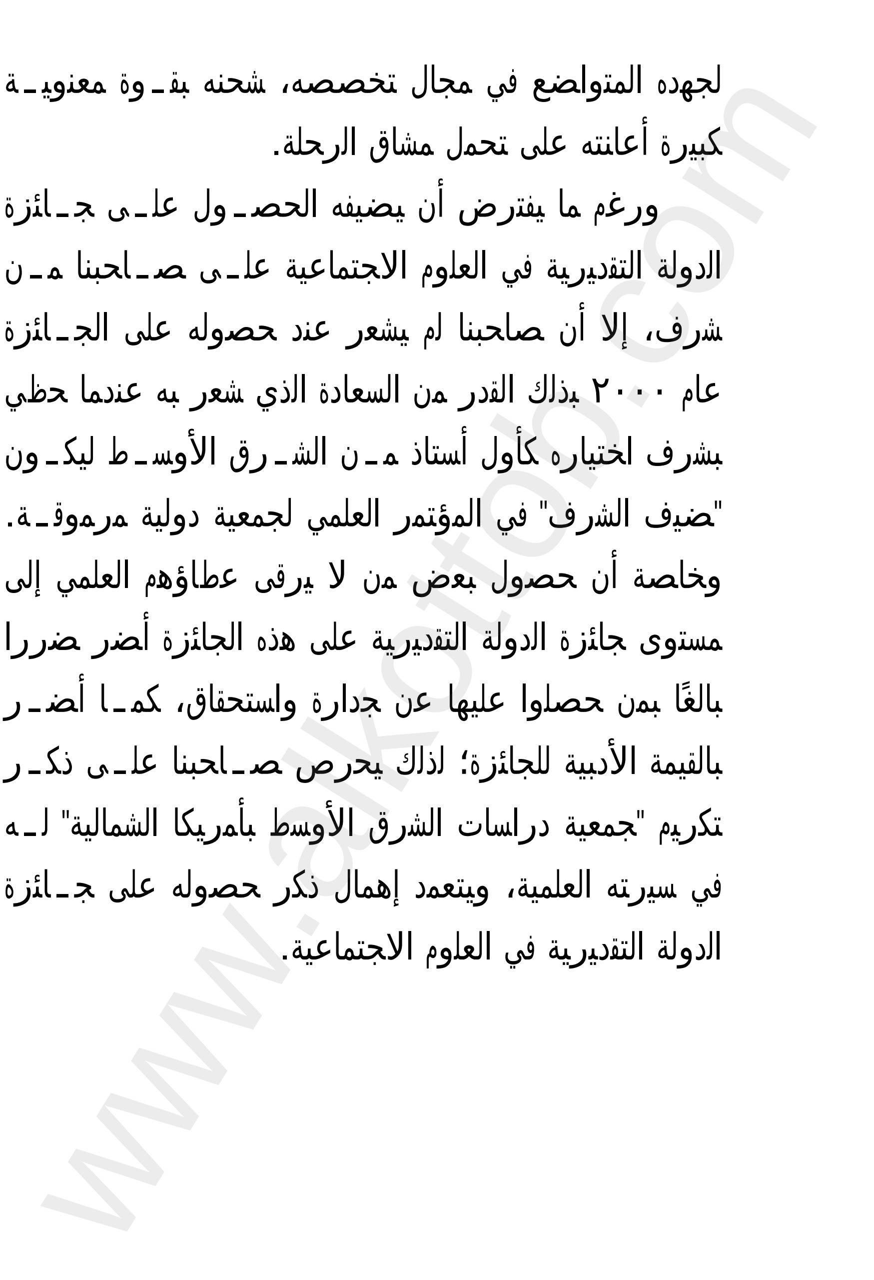


اقترح آخرون اسم أمنون كوهين المؤرخ الإسرائيلي المتخصص في تاريخ فلسطين في العصر العثماني، وأن نتيجة التصويت بمجلس الإدارة حول من تُوجه إليه الدعوة جاءت لصالحه بفارق ثلاثة أصوات عن عدد الأصوات التي ساندت دعوة أمنون كوهين.

لذلك كان حضور صاحبنا المؤتمر يعد انتصارا لمن فضلوه على كوهين، ولم يحضر الحفل الذي أُقيم له في سان أنطونيو أحدا من المدعوين اليهود، ولاحظ وجود عشرة على الأقل من أعضاء هيئة التدريس العرب بالجامعات الأمريكية بين من حضروا المحاضرة التي ألقاها بالمؤتمر عن: "عوامل قيام الحركة الإسلامية السياسية بمصر".

وإضافة إلى أيام المؤتمر الأربعة، نظمت الجمعية له جولة محاضرات غطت أربعة جامعات بكاليفورنيا وجامعتي ستانفورد وجورجيا على مدى أسبوعين أُرهق فيهما صاحبنا إرهاقًا شديدا، فلم يرَ خلال الأسبوعين سوى أسفلت الطرق السريعة وممرات المطارات، وقاعات المحاضرات. ولكن سعادته بما لقي من تكريم على هذا المستوى الدولي، وتقدير

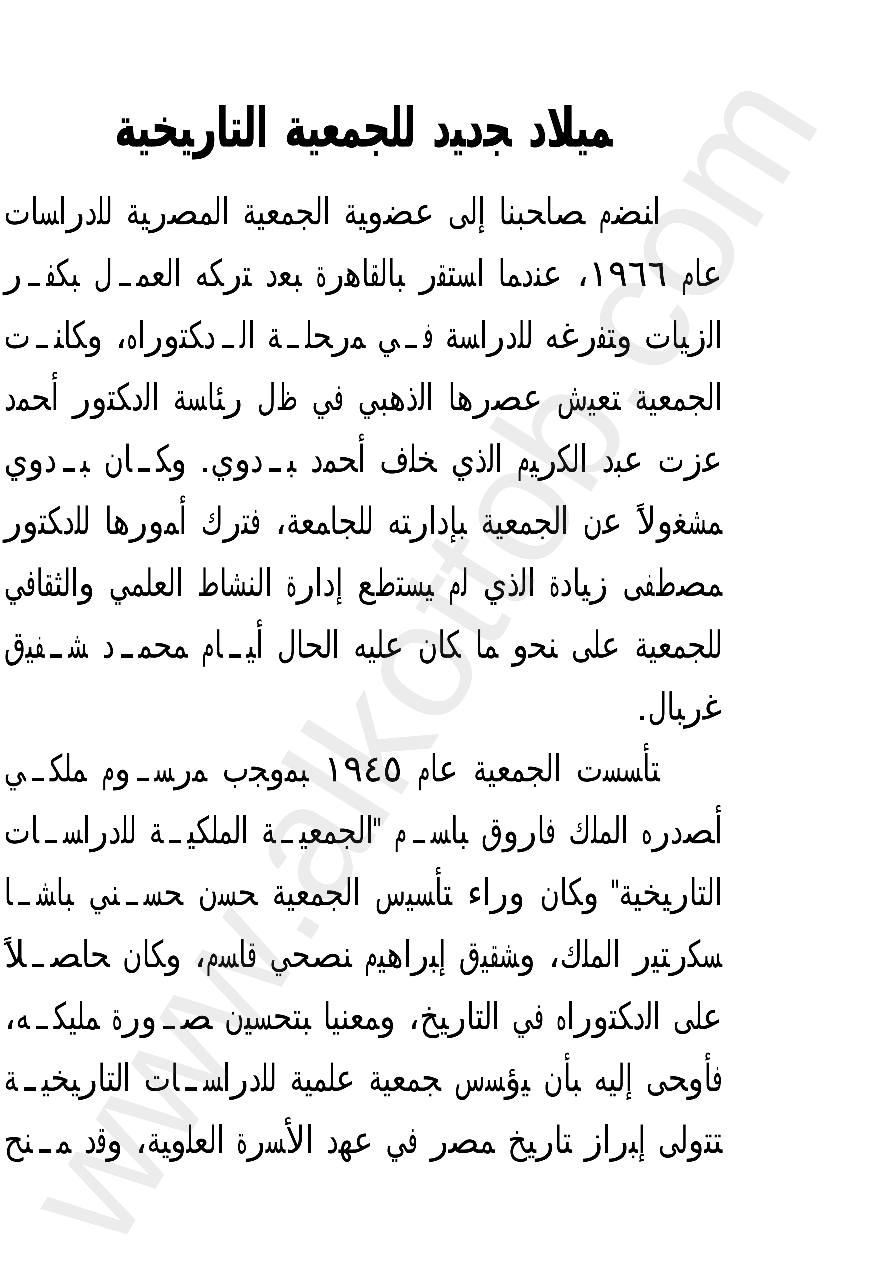
www.alkottob.com



لجهده المتواضع في مجال تخصصه، شحنه بقـوة معنويـة كبيرة أعانته على تحمل مشاق الرحلة.

ورغم ما يفترض أن يضيفه الحصـول علـى جـائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية علـى صـاحبنا مـن شرف، إلا أن صاحبنا لم يشعر عند حصوله على الجـائزة عام ٢٠٠٠ بذلك القدر من السعادة الذي شعر به عندما حظي بشرف اختياره كأول أستاذ مـن الشـرق الأوسـط ليكـون "ضيف الشرف" في المؤتمر العلمي لجمعية دولية مرموقـة. وخاصة أن حصول بعض من لا يرقى عطاؤهم العلمي إلى مستوى جائزة الدولة التقديرية على هذه الجائزة أضر ضررا بالغًا بمن حصلوا عليها عن جدارة واستحقاق، كمـا أضـر بالقيمة الأدبية للجائزة؛ لذلك يحرص صـاحبنا علـى ذكـر تكريم "جمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية" لـه في سيرته العلمية، ويتعمد إهمال ذكر حصوله على جـائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية.

www.alkottob.com



ميلاد جديد للجمعية التاريخية

انضم صاحبنا إلى عضوية الجمعية المصرية للدراسات عام ١٩٦٦، عندما استقر بالقاهرة بعد تركه العمل بكفر الزيات وتفرغه للدراسة في مرحلة الدكتوراه، وكانت الجمعية تعيش عصرها الذهبي في ظل رئاسة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذي خلف أحمد بدوي. وكان بدوي مشغولاً عن الجمعية بإدارته للجامعة، فترك أمورها للدكتور مصطفى زيادة الذي لم يستطع إدارة النشاط العلمي والثقافي للجمعية على نحو ما كان عليه الحال أيام محمد شفيق غربال.

تأسست الجمعية عام ١٩٤٥ بموجب مرسوم ملكي أصدره الملك فاروق باسم "الجمعية الملكية للدراسات التاريخية" وكان وراء تأسيس الجمعية حسن حسني باشا سكرتير الملك، وشقيق إبراهيم نصحي قاسم، وكان حاصلاً على الدكتوراه في التاريخ، ومعنيا بتحسين صورة مليكه، فأوحى إليه بأن يؤسس جمعية علمية للدراسات التاريخية تتولى إبراز تاريخ مصر في عهد الأسرة العلوية، وقد منح

www.alkottob.com

الماك للجمعية عند تأسيسها عشرة آلاف جنيه مصري، كمـا أفسح لها مكانًا "بالجمعية الزراعية الملكية" بأرض الجزيـرة (موقع الأوبرا الآن)، ولم يشيد لها بناء خاصا تتخـذه مقـرا لها. لذلك عندما قامت حكومة ثورة يوليـو بإنشـاء "هيئـة المعارض الدولية" التي اتخذت من مباني الجمعية الزراعيـة مقرا لها، طردت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مـن مكانها، فاستأجرت طابقًا من بناية بشـارع البسـتان عـام ١٩٥٨، بإيجار شهري قدره ٥٩,٥ جنيها، ويبدو أن صاحب العقار (وهو محام آل إليه المبنى عام ١٩٥٦ وكان مملوكًـا لموكل أجنبي)، قد أبرم العقد مـع الجمعيـة بهـذه القيمـة الإيجارية المرتفعة كبديل عن الخلو، لأنه اتضح – فيما بعـد – أن إيجار الطابق بسجلات العوائد اثنا عشر جنيها شهريا.

كان الطابق يتكون من شقتين بكل منها خمـس غـرف وصالة، أُزيل الحائط الفاصل بين حجرتين متجاورتين بكـل شقة ؛ليتحول في واحدة منهما إلى قاعة للمكتبة، وفي الثانيـة إلى قاعة للمحاضرات وتُركت ثلاث غرف لمكتب الـرئيس، وحجرة اجتماعات مجلـس الإدارة، وحجـرة السـكرتارية، وشُغلت باقي الغرف بدواليب المكتبة واستخدمت قاعة الشقة

www.alkottob.com

الأخرى للمحاضرات ولم تزد سعتها على ٣٥ مقعـدا. أمـا الصالة فاتخذت مكانًا لاطلاع المتـرددين علـى المكتبـة، وخُصصت إحدى الحجرات مخزنًا للمطبوعات.

ومنذ تأسيس الجمعية عام ١٩٤٥ وحتـى عـام ١٩٦١ تاريخ وفاة محمد شفيق غربال، أصدرت الجمعية عدة كتـب عن عهود محمد علي وإبراهيم وإسماعيل، كمـا أصـدرت "المجلة التاريخية المصرية" التي بدأت نصف سـنوية، ثـم أصبحت سنوية عندما عجزت موارد الجمعية الماليـة عـن إصدار عددين في السنة الواحدة، ونظرا لعدم وجـود جهـة تتولى توزيع هذه المطبوعات تكدسـت بحجـرة المخـزن وتعرضت للتاف.

ورغم بؤس المكان وتواضعه، شـهدت منصـة قاعـة المحاضرات كبار مؤرخي مصر يلقون محاضـراتهم فـي المواسم الثقافية للجمعية، كما شهدت بعض كبار المـؤرخين الأجانب مثل أرنولد تويني، وجاك بيرك، ودومينيك شيفالييه وأندريه ريمون، وغيرهم. وبلغ النشـاط الثقـافي والعلمـي ذروته فـي عهـد رئاسـة أحمـد عـزت عبـد الكـريم (١٩٦٦ – ١٩٧٦) فاتسع حجم النشاط، وزاد الإقبال على

www.alkottob.com

المحاضرات فكان الوقوف ضعف عدد الجلوس في بعـض المناسبات. وأصبحت الجمعية تعقد ندوات كل عام بالاشتراك مع المجلس الأعلى للفنون والآداب (الذي أصبح فيمـا بعـد المجلس الأعلى للثقافة) تناولت كبار مؤرخي العرب من ابن عبد الحكم إلى علي مبارك، نُشر معظمها في كتب.

وشهدت انتخابات مجلس الإدارة إقبالاً شديدا في عهـد عزت عبد الكريم، وبدأ الشباب من الأعضاء يتسربون إلـى المجلس الذي كان احتكارا لكبار الأساتذة. ويرجع ذلك إلـى غلبة الشباب في القاعدة العريضة مـن أعضـاء الجمعيـة العمومية. كما شهدت اجتماعات الجمعية العمومية نقاشًا جادا حول النشاط العلمي والثقافي للجمعية، لعل أهمه مـا أثـاره محمد أنيس في الجمعية العمومية للعام ١٩٦٩ من اعتراض على دعوة برنارد لويس لإلقاء محاضرة بالجمعية، وإشـادة من ترأس جلسة المحاضرة (سعيد عاشور) به وبفضله على العالم العربي، وعد ذلك "انحرافًا" خطيـرا وخروجـا علـى إجماع الأمة على مقاطعة الصهيونية؛ نظرا لما عرف عـن برنارد لويس من مشـايعة للصـهيونية ومناصـرة الكيـان الصهيوني، واستهانة بالثقافة العربية، وأيد محمد أنيس، عبد

www.alkottob.com

الكريم أحمد. ورد عزت عبد الكريم بأن لويس كان مـدعوا من الدولة للمشاركة في الاحتفال بألفية القاهرة، فإذا كانـت الدولة دعته، والتقى به عبد الناصر فلا يضير الجمعيـة أن توجه الدعوة إليه. وعرض عزت عبد الكريم على الجمعيـة العمومية اقتراحا بحق رئيس الجمعية في توجيه الدعوة لمن يشاء لإلقاء محاضرة بالجمعية دون حاجـة إلـى الرجـوع لمجلس الإدارة؛ فوافقت الأغلبية على القرار، وغضب محمد أنيس وعبد الكريم أحمد وغادرا الاجتماع.

وساهم صاحبنا (أيام رئاسة عبد الكـريم) فـي إعـداد الببليوجرافيا التي نُشـرت لأول مـرة بالمجلـة التاريخيـة المصرية عن رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ التـي أجازتها الجامعات المصرية منذ بداية الدراسات العليا في كل منها فاختص بالجانب الأكبر منها، إذ كُلف بإعـداد الجـزء الخاص بجامعة القاهرة. واختير صاحبنا أكثر من مرة أميناً لجلسة اجتماع الجمعية العمومية ليتولى تسجيل ما يدور مـن مناقشات في محضر الجلسة.

وشجعه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على الاشتراك في الموسم الثقافي للعام ١٩٧٢، فألقى أول محاضرة عامـة

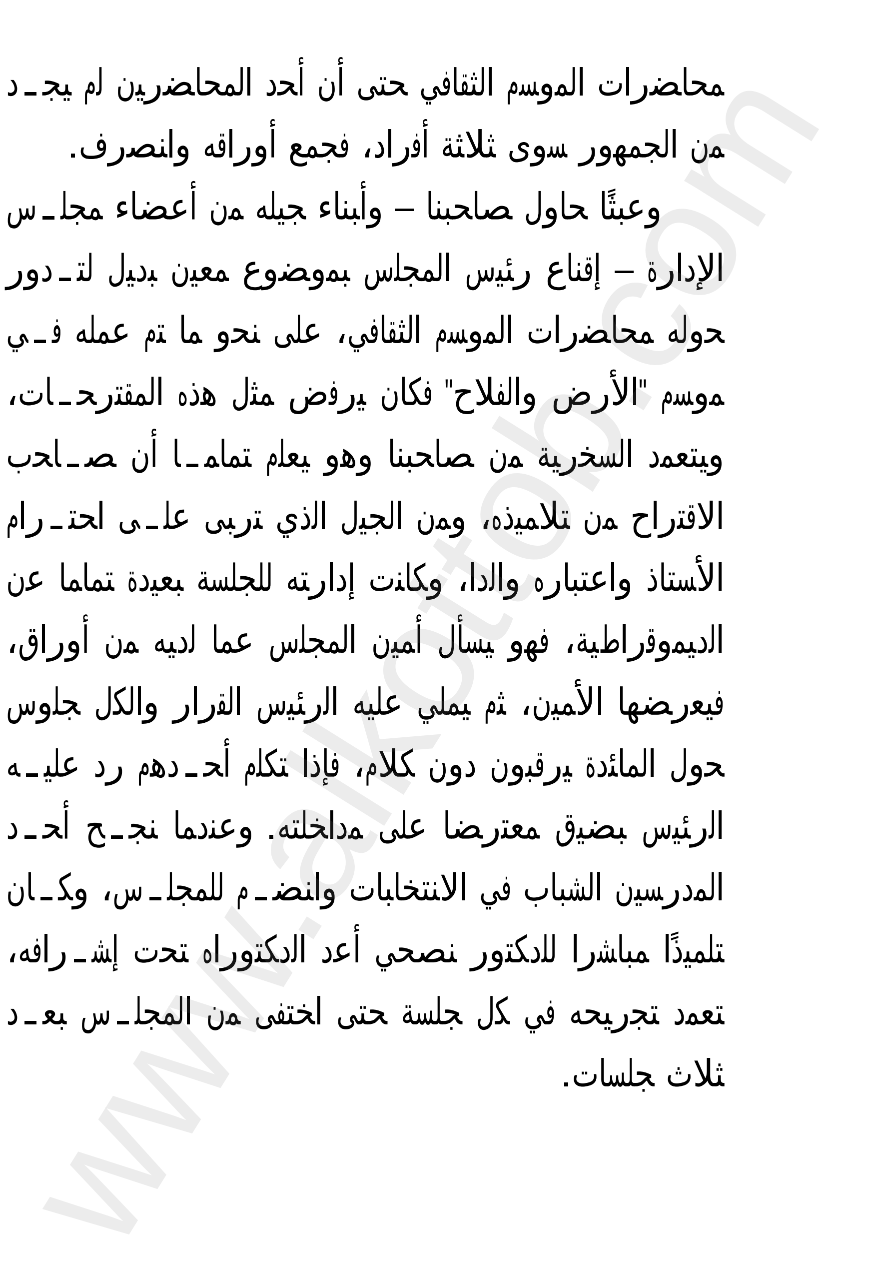
www.alkottob.com

في حياته أمام جمهور نصفه من كبار الأساتذة. كما شـارك في موسم "جمال عبد الناصر الثقافي" الذي أقيم عقب وفـاة عبد الناصر وخُصص لموضوع: "الأرض والفـلاح عبـر العصور"، وتم طبع أعماله في كتاب على درجة كبيرة مـن القيمة.

ولم يدخل صاحبنا مجلس إدارة الجمعية عضوا إلا عام ١٩٧٩، عندما أقنعه فريق من زملائه بترشيح نفسـه ففـاز بالعضوية بعدد من الأصوات فاق ما حصل عليه بعض كبار الأساتذة، وكانت رئاسة المجلس للدكتور إبـراهيم نصـحي قاسم. وكان من بين أعضاء ا لمجلس (عندئذٍ) بدر الدين أبو غازي (وزير الثقافة الأسبق) وأحمد عبد الرحيم مصـطفى، وصلاح العقاد، وعبد العزيز صالح، وجمال زكريا قاسم.

كان عزت عبد الكريم يستثمر مكانته العلمية وعلاقاتـه الشخصية في دعم موارد الجمعية المالية، وفي إبراز نشاطها الثقافي، وهو ما كان يفتقر إليه إبراهيم نصحي الذي اعتمـد في إعداد وتنظيم الموسم الثقافي على صلاح العقـاد، ولـم يحسن اختيار من يتولون الإعداد للندوة السـنوية، فـتقلص النشاط الثقافي تدريجيا وقـل اهتمـام الأعضـاء بحضـور

www.alkottob.com



محاضرات الموسم الثقافي حتى أن أحد المحاضرين لم يجـد من الجمهور سوى ثلاثة أفراد، فجمع أوراقه وانصرف.

وعبثًا حاول صاحبنا – وأبناء جيله من أعضاء مجلـس الإدارة – إقناع رئيس المجلس بموضوع معين بديل لتـدور حوله محاضرات الموسم الثقافي، على نحو ما تم عمله فـي موسم "الأرض والفلاح" فكان يرفض مثل هذه المقترحـات، ويتعمد السخرية من صاحبنا وهو يعلم تمامـا أن صـاحب الاقتراح من تلاميذه، ومن الجيل الذي تربى علـى احتـرام الأستاذ واعتباره والدا، وكانت إدارته للجلسة بعيدة تماما عن الديموقراطية، فهو يسأل أمين المجلس عما لديه من أوراق، فيعرضها الأمين، ثم يملي عليه الرئيس القرار والكل جلوس حول المائدة يرقبون دون كلام، فإذا تكلم أحـدهم رد عليـه الرئيس بضيق معترضا على مداخلته. وعندما نجـح أحـد المدرسين الشباب في الانتخابات وانضـم للمجلـس، وكـان تلميذًا مباشرا للدكتور نصحي أعد الدكتوراه تحت إشـرافه، تعمد تجريحه في كل جلسة حتى اختفى من المجلـس بعـد ثلاث جلسات.

www.alkottob.com

وحاول أعضاء المجلس إدارة أمـور الجمعيـة بقـدر الإمكان دون المساس بالدكتور نصحي باعتباره أستاذًا لثلاثة أجيال من الأساتذة ممثلون بالمجلس. فكان أمين الصندوق ثم الأمين العام من الشباب، يتصرفون في مواجهـة الصـعاب التي تعانيها الجمعية قدر طاقتهم، فإذا احتاج الأمـر الكتابـة إلى وزير الثقافة (مثلاً) لطلب الجمعية معونة مالية رفـض نصحي توقيع الخطاب حتى لا ينـزل إلـى مسـتوى ذلـك الوزير!.

وعندما أصبح من يدعون إلى إلقاء المحاضـرات فـي الموسم الثقافي يحجمون عن الإقبال على إلقاء المحاضـرات تدهور مستوى ما يتم تقديمه من عناصر متواضعة. وحاول رئيس الجمعية شغل الفراغ بإقامة أربع حفلات تأبين في عام واحد لأعضاء هيئة تدريس ماتوا خلال العام لم يكن بيـنهم سـوى اثنـين أعضـاء للجمعيـة، فـاعترض صـاحبنا (وكان أمينًا عاما)، وهدد بالاستقالة إذا ما تم تحويلهـا إلـى (قاعة عزاء). ولم ينقذ الموقف سوى عبد العزيـز صـالح (نائب الرئيس) الذي أقنعه بالعدول عن ذلك.

www.alkottob.com

تعثرت أيضا المجلة، ولم يكن حساب الجمعية بالبنـك يغطي إصدار عدد واحد منها، وكان العرض الـذي قدمتـه الدار المصرية اللبنانية لإصدار المجلة طوق نجاه للجمعيـة ومجلتها، فقد تمت الموافقة على أن يقوم الناشر بطبع المجلة على أن يقدم للجمعية ٢٥٠ نسخة مـن كـل عـدد ويـدفع (٥٠٠ جنيه) نقدا. واشترى حق إعادة طباعة الأعداد القديمة بمبلغ ١٦٥٠٠ جنيها. كما اشـترى كميـة مـن مخـزون المطبوعات لدى الجمعية بمبلغ ١٤٠٠ جنيها. ووافق الدكتور نصحي بعد جهد جهيد على هذه الصفقة التي تـولى أمرهـا الأمين العام (جمال زكريا)، وأمين الصندوق(صاحبنا).

وكان الأعضاء يفكرون في البحث عن بديل لنصـحي لرئاسة الإدارة، ولكن المشكلة كانت في البحث عمن يجـرؤ أن يربط الجرس في رقبة القط. فقد كان نصحي بعـد كـل انتخاب يجلس في مقعد الرئيس ويقول: "أنـا عـارف إنكـم متمسكين بي، وأنا قبلت الرئاسة عشان أعفيكم من الحـرج"، ثم يسأل عمن ينتخب نائبا، وأمينًا عاما، وأمينًـا للصـندوق، فكان الاتجاه دائما إلى إبقاء الحال على ما هو عليه.

www.alkottob.com

وحاول صاحبنا أن يكسر الجليـد فـي إحـدى هـذه المناسبات (عند اختيار هيئة المكتب)، وكان أمينًا عاما، فقال أن من بقي في موقع ثلاثة أعوام من الأفضل أن يتيح لغيره فرصة خدمة الجمعية في هذا الموقع، ولذلك يعتذر مقدما عن عدم استمراره أمينًا عاما. وعندما ألح الأعضاء على صاحبنا في الاستمرار قال نصحي: "بردون.. هو بالعافية... الراجل شايف نفسه ما ينفعش يستمر، أوكيه شـوفوا غيـره، وأنـا شخصيا موافق على الاستمرار".وعاد صـاحبنا إلـى هيئـة المكتب مرة أخرى نائبا للرئيس مدة عامين عقب وفاة عبـد العزيز صالح.

واستطاع صاحبنا أن يحول منصب نائب الرئيس إلـى أداة فعالة للعمل على النهوض بالجمعية بالتعاون مع أيمـن فؤاد (أمين الصندوق) وعبد المنعم الجميعي (الأمين العـام) وغيرهما من أعضاء مجلس الإدارة. فعملـوا عـام ١٩٩٧، ١٩٩٨ على مواجهة أزمة تضخم القيمة الإيجاريـة للمقـر نتيجة صدور قانون تأجير الأماكن غير المخصصة لأغراض السكنى. وتم الحصول من وزير الثقافة علـى دعـم مـالي

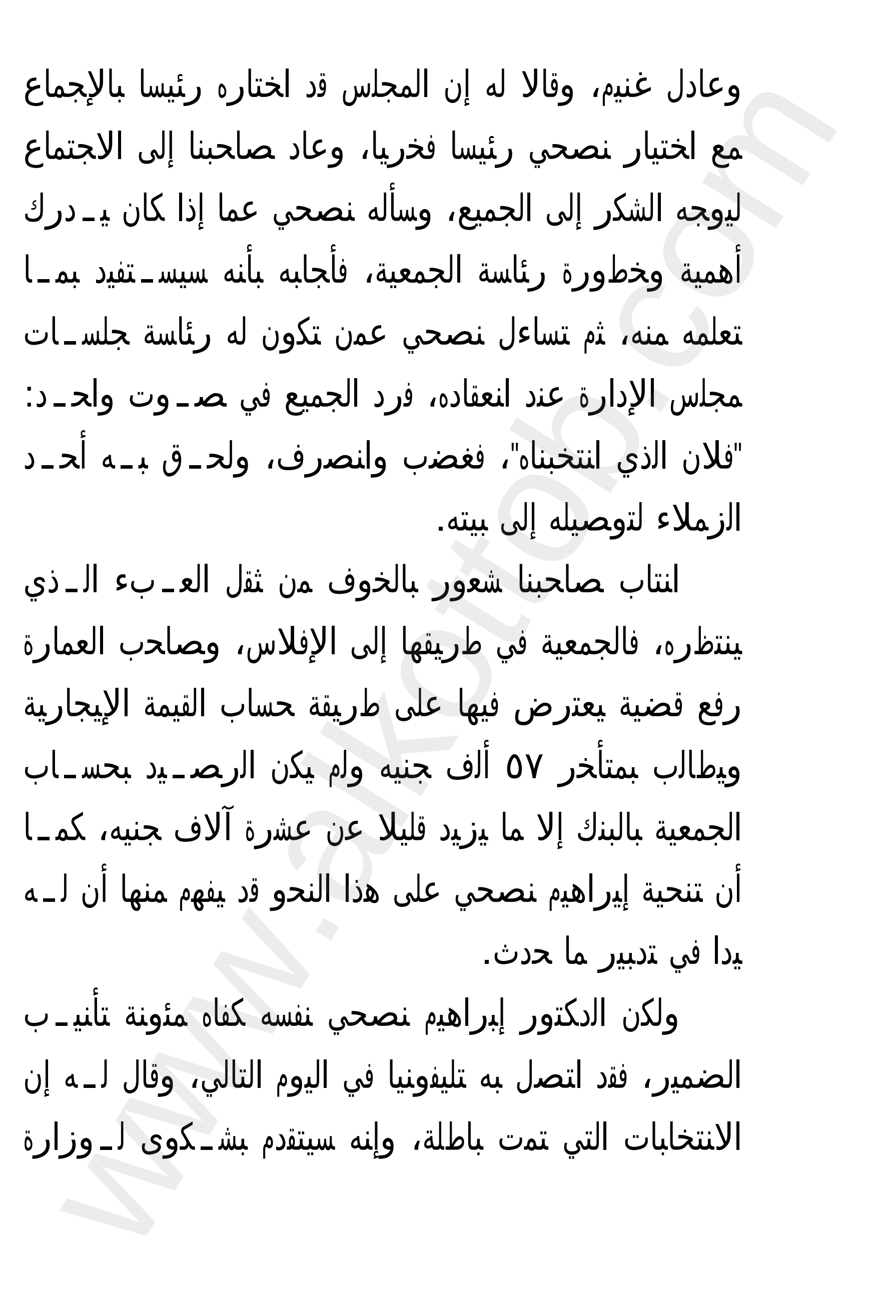
www.alkottob.com

سنوي قدره عشرة آلاف جنيها للمساعدة في تسديد الإيجـار الذي عجزت مالية الجمعية عن تحمله.

وخلال ذلك العام، والعام السابق عليه حـاول صـاحبنا إقناع جمال زكريا قاسم بالترشـيح لمجلـس الإدارة تمهيـدا لاختياره رئيسا بديلاً لنصحي؛ فرفض الترشيح، كذلك حاول صاحبنا إقناع يونان لبيب رزق ترشيح نفسه لرئاسة المجلس مع ترتيب الأمور في المجلس لتأييـده (وكـان ذلـك عـام ١٩٩٩)، فلم يحضر الجمعية العمومية حتى لا يتـورط فـي حضور جلسة مجلس الإدارة لاختيار هيئة المكتب، فقد كانوا رغم وصولهم إلى الأستاذية، وما تمتعوا به من مكانة علمية، يشعرون بالحرج الشديد من مواجهة نصحي.

وقد فوجئ صاحبنا في هذا الاجتماع (١٩٩٩) بعضوات مجلس الإدارة: نللي حنا ولطيفة سالم، ومنى بـدر يـدبرن انقلابا صامتًا. فبمجرد جلوس إبراهيم نصـحي فـي مقعـد الرئيس قالوا: "إحنا عاوزين فلان (أي صاحبنا) يتولى رئاسة المجلس ،ونقترح أن تكون سيادتك رئيسا فخريا للجمعيـة". فاستاء صاحبنا لهذه المفاجأة التي لم يتوقعها، وتـرك قاعـة الاجتماع غاضبا. وبعد حوالي ربع ساعة جاءه سعيد عاشور

www.alkottob.com



وعادل غنيم، وقالا له إن المجلس قد اختاره رئيسا بالإجماع مع اختيار نصحي رئيسا فخريا، وعاد صاحبنا إلى الاجتماع ليوجه الشكر إلى الجميع، وسأله نصحي عما إذا كان يـدرك أهمية وخطورة رئاسة الجمعية، فأجابه بأنه سيسـتفيد بمـا تعلمه منه، ثم تساءل نصحي عمن تكون له رئاسة جلسـات مجلس الإدارة عند انعقاده، فرد الجميع في صـوت واحـد: "فلان الذي انتخبناه"، فغضب وانصرف، ولحـق بـه أحـد الزملاء لتوصيله إلى بيته.

انتاب صاحبنا شعور بالخوف من ثقل العـبء الـذي ينتظره، فالجمعية في طريقها إلى الإفلاس، وصاحب العمارة رفع قضية يعترض فيها على طريقة حساب القيمة الإيجارية ويطالب بمتأخر ٥٧ ألف جنيه ولم يكن الرصـيد بحسـاب الجمعية بالبنك إلا ما يزيد قليلا عن عشرة آلاف جنيه، كمـا أن تنحية إبراهيم نصحي على هذا النحو قد يفهم منها أن لـه يدا في تدبير ما حدث.

ولكن الدكتور إبراهيم نصحي نفسه كفاه مؤونة تأنيـب الضمير، فقد اتصل به تليفونيا في اليوم التالي، وقال لـه إن الانتخابات التي تمت باطلة، وإنه سيتقدم بشـكوى لـوزارة

www.alkottob.com

الشئون الاجتماعية، ويمكن أن يتسـبب ذلـك فـي "أذيـة" صاحبنا، وأنه إذا فضل الحكمة والتعقل يضمن له أن يظـل نائبا للرئيس، بشرط إعادة الانتخابات مرة أخرى.

أحس صاحبنا بالارتياح الشديد، وعبر عن ذلك صراحة لمحدثه، وقال له إن الشئون الاجتماعية أُبلغت بالفعل بالأمس بالتشكيل الجديد، والاجتماع قـانوني ؛لأن جميـع أعضـاء المجلس كانوا حاضرين باستثناء يونان لبيب. وانـه إذا أراد الشكوى فهذا حقه، ولكنه ينصحه – تقديرا له – ألا يتـورط في ذلك قبل استشارة من يفهم في القانون.

وحضر إبراهيم نصحي أول اجتمـاع لمجلـس الإدارة رأسه صاحبنا (بعد شهر من انتخاب هيئة المكتـب)، وهـو الاجتماع الذي طرح فيه الرئيس الجديد الظـروف الحرجـة التي تمر بها الجمعية، وتعرضها لفقد المقر إذا كسب مالـك العقار القضية. وطلب من المجلس الموافقـة علـى توكيـل المستشار الدكتور محمد حسني عبد اللطيف المحامي لتمثيل الجمعية (وقد قبل أن يتولى القضية دون أتعاب، بـل تبـرع أيضا للجمعية بثلاثة آلاف جنيه)، كما اقترح أن تلجأ الجمعية إلى الشخصيات المعروفة برعاية الثقافة في العـالم العربـي

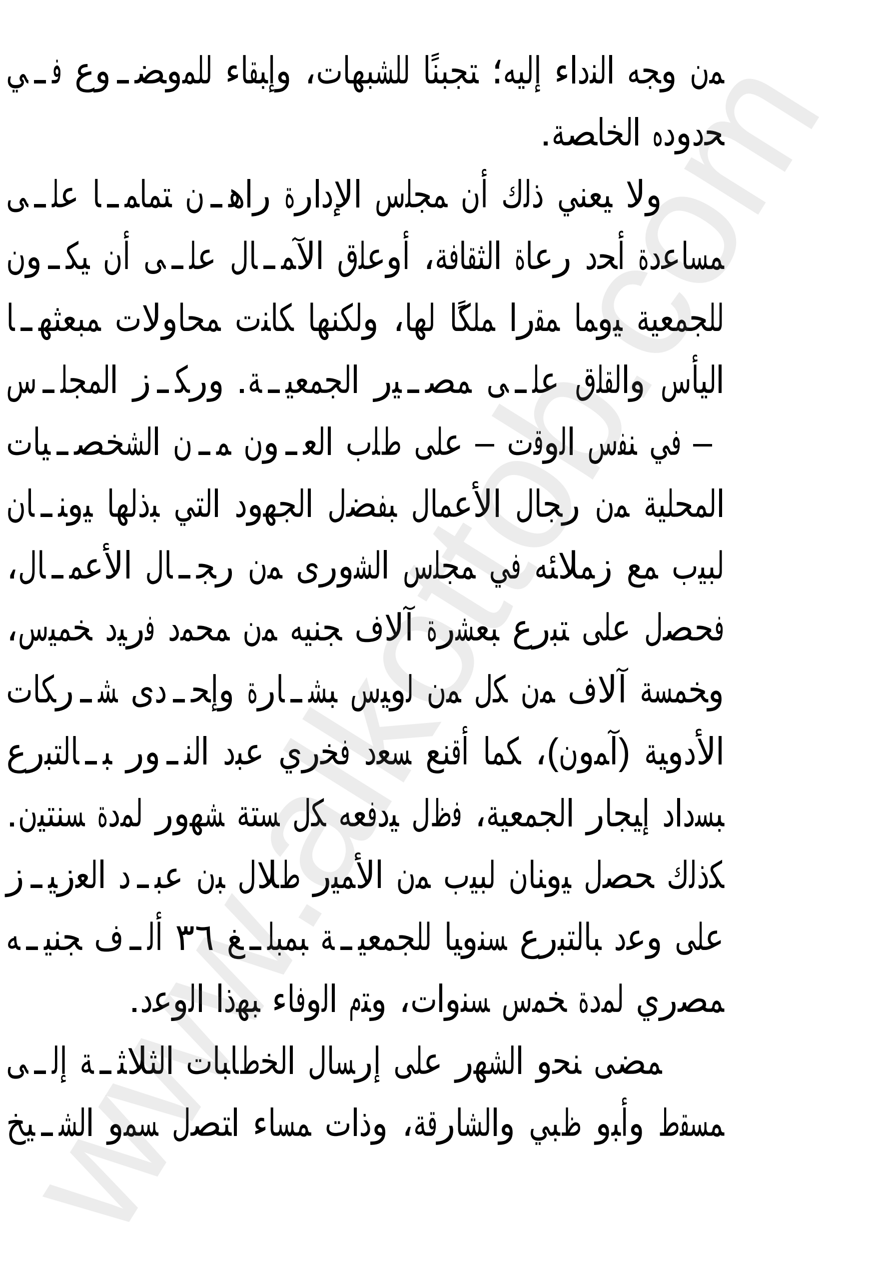
www.alkottob.com

لبناء مقر خاص؛ حتى لا تقع الجمعية في مـأزق مطـاردة ملاك العقارات.

واقترح الكتابة إلى الشيخ زايد بن سـلطان آل نهيـان والسلطان قابوس، والشيخ سلطان بن محمد القاسـمي أميـر الشارقة الذي تبرع لجامعة القاهرة ببناء مكتبة لكلية الزراعة تكلفت ١٢ مليونًا من الجنيهات، وأعد صيغة للخطاب قرأها على الأعضاء، فوافقوا عليها فيما عدا إبراهيم نصحي الـذي هاله أن تلجأ الجمعية المصرية للدراسـات التاريخيـة إلـى "أولئك البدو" تطلب عونهم ومصر هي التي كانـت تفـيض عليهم بخيراتها. ورأى في تنفيذ هذا الاقتراح "إهانة لا تغتفر" تدل على عدم تقدير القيمة الأدبية للجمعية. وغادر الاجتماع غاضبا، ولم يحضر غيره مـن اجتماعـات مجلـس الإدارة التالية لـه، بعـدما امتـدت رئاسـته للجمعيـة ٢٣ عامـا (١٩٦٧ – ١٩٩٩).

ولما كانت غالبية أعضاء المجلس قد وافقت على إرسال الخطابات الثلاثة، فقد تم إرسالها مساء اليوم نفسـه بالبريـد المسجل من مكتب البريد الأهلي أسفل نفس المبنى، ولم يفكر أحد في اللجوء إلى القنوات الدبلوماسية، أي سـفارات دول

www.alkottob.com

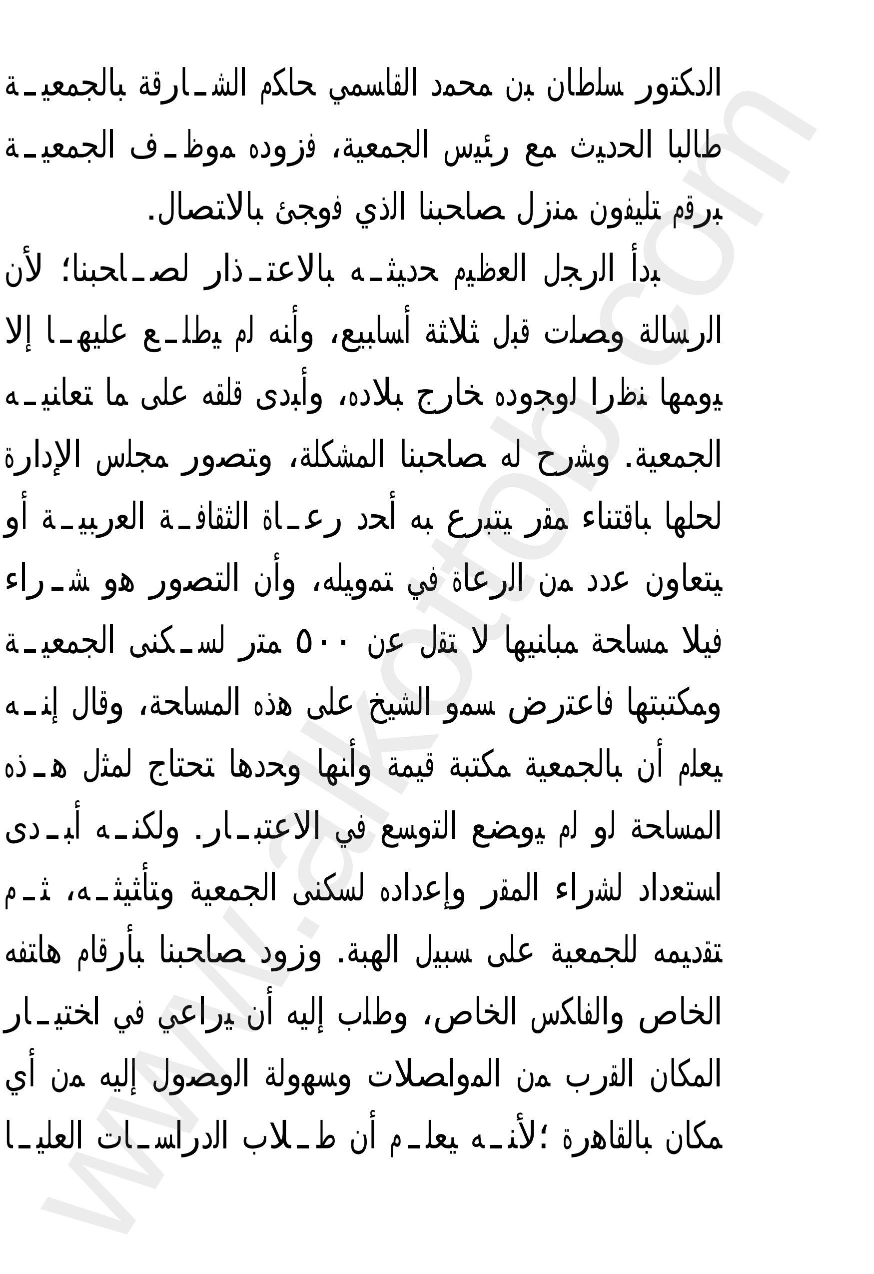


من وجه النداء إليه؛ تجنبًا للشبهات، وإبقاء للموضوع في حدوده الخاصة.

ولا يعني ذلك أن مجلس الإدارة راهن تمامًا على مساعدة أحد رعاة الثقافة، أوعلق الآمال على أن يكون للجمعية يوما مقرا ملكًا لها، ولكنها كانت محاولات مبعثها اليأس والقلق على مصير الجمعية. وركز المجلس – في نفس الوقت – على طلب العون من الشخصيات المحلية من رجال الأعمال بفضل الجهود التي بذلها يونان لبيب مع زملائه في مجلس الشورى من رجال الأعمال، فحصل على تبرع بعشرة آلاف جنيه من محمد فريد خميس، وخمسة آلاف من كل من لويس بشارة وإحدى شركات الأدوية (آمون)، كما أقنع سعد فخري عبد النور بالتبرع بسداد إيجار الجمعية، فظل يدفعه كل ستة شهور لمدة سنتين. كذلك حصل يونان لبيب من الأمير طلال بن عبد العزيز على وعد بالتبرع سنويا للجمعية بمبلغ ٣٦ ألف جنيه مصري لمدة خمس سنوات، وتم الوفاء بهذا الوعد.

مضى نحو الشهر على إرسال الخطابات الثلاثة إلى مسقط وأبو ظبي والشارقة، وذات مساء اتصل سمو الشيخ

www.alkottob.com



الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشـارقة بالجمعيـة طالبا الحديث مع رئيس الجمعية، فزوده موظـف الجمعيـة برقم تليفون منزل صاحبنا الذي فوجئ بالاتصال.

بدأ الرجل العظيم حديثـه بالاعتـذار لصـاحبنا؛ لأن الرسالة وصلت قبل ثلاثة أسابيع، وأنه لم يطلـع عليهـا إلا يومها نظرا لوجوده خارج بلاده، وأبدى قلقه على ما تعانيـه الجمعية. وشرح له صاحبنا المشكلة، وتصور مجلس الإدارة لحلها باقتناء مقر يتبرع به أحد رعـاة الثقافـة العربيـة أو يتعاون عدد من الرعاة في تمويله، وأن التصور هو شـراء فيلا مساحة مبانيها لا تقل عن ٥٠٠ متر لسـكنى الجمعيـة ومكتبتها فاعترض سمو الشيخ على هذه المساحة، وقال إنـه يعلم أن بالجمعية مكتبة قيمة وأنها وحدها تحتاج لمثل هـذه المساحة لو لم يوضع التوسع في الاعتبـار. ولكنـه أبـدى استعداد لشراء المقر وإعداده لسكنى الجمعية وتأثيثـه، ثـم تقديمه للجمعية على سبيل الهبة. وزود صاحبنا بأرقام هاتفه الخاص والفاكس الخاص، وطلب إليه أن يراعي في اختيـار المكان القرب من المواصلات وسهولة الوصول إليه من أي مكان بالقاهرة ؛لأنـه يعلـم أن طـلاب الدراسـات العليـا

www.alkottob.com

يستخدمون مكتبة الجمعية. وقال سموه إنه لا يجـب تـرك الجمعية دون مساعدة حتى يتم تدبير المقر، وتساءل عما إذا كان بإمكانه المساعدة بمبلغ بسيط في حدود مائة ألف درهم؟.

شكره صاحبنا، وأثنى على ما يقدمه من عطاء لمصر، ذاكرا تبرعـه لجامعـة القـاهرة بمكتبـة كليـة الزراعـة (التي تخرج فيها الشيخ). فاستنكر الرجـل وصـف ذلـك بالفضل، وقال إن فضل مصر على العرب كبير، وإنه يسأل ا تعالى أن يعينه على أداء بعض ما لمصـر مـن ديـن. وعندما أشار صاحبنا إلى هذا الحديث في الكلمة المرتجلـة التي ألقاها في حفل افتتاح المقـر الجديـد بمدينـة نصـر (٢٣ مايو ٢٠٠١)، بحضور الشيخ ووزير التعلـيم العـالي وبعض كبار رجال وزارة الثقافة، لاحظ عند اطلاعه علـى شريط الفيديو بعد الاحتفال أن عيني الشيخ اغرورقتا بالدموع عندما وصل صاحبنا في حديثه إلى ذكـر هـذه العبـارات المخلصة النادرة التي تكشف عن أصالة هذا الرجل العظـيم وعمق تقديره لمصر والمصريين.

وبعد أن تم العثور على ثلاثة فيلات بمدينة نصر أخطر سمو الشيخ بذلك لتكليف من يمثله بالقاهرة لفحصها واختيار

www.alkottob.com

ما يراه منها صالحا لسكنى الجمعية، وإعداده وتأثيثه. ولكـن ممثل سموه وجد أن شراء أي فيلا وتجهيزها يسـاوي مـن حيث التكلفة شراء قطعة أرض لهذا الغرض وتصميمها بمـا يتفق مع متطلبات الجمعية ليصبح مقرا لائقًا بها. وبالفعل تم شراء الأرض بمعرفة ممثل الشيخ وصدر تصـريح البنـاء باسمه وتم افتتاح المبنى في ٢٣ مـايو ٢٠٠١ فـي نفـس الأسبوع الذي تم فيه افتتاح مكتبة كلية الزراعة.

ولكن مكرمة سمو الشيخ سلطان القاسمي لم تتوقف عند هذا الحد فقد تلقت الجمعية منه تبرعا بمبلغ ٩٢ ألف جنيـه مصري (بما يعادل ١٠٠ ألف درهم) بعد أسبوع من مكالمته مع صاحبنا (أبريل ١٩٩٩)، كما تبرع بعد ذلك بعام (يوليـو ٢٠٠٠) بمبلغ ٩٠ ألف جنيه مصري. فقـام مجلـس الإدارة بتجميع هذه التبرعات مع ما تلقته الجمعية من الأمير طـلال بن عبد العزيز (٧٢ ألفًا على عامين) وقـام بـربط وديعـة مصرفية بربع مليون جنيه يصرف منها على نشاط الجمعية، وفي يناير ٢٠٠٤ تبرع سمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي للجمعية بمبلغ نصف مليون درهم لتتحول إلى وديعة بالجنيه المصري بلغت ٢٠٠ ألف من الجنيهات تدر ريعـا سـنويا

www.alkottob.com

يتراوح بين ٨٠ – ٨٥ ألف جنيه (حسب سعر الفائدة) وبذلك استقرت الأحوال المالية للجمعية فـي حـدود المصـروفات الفعلية بأسعار العام، ٢٠٠٤.

وجدير بالذكر أن مجلس إدارة الجمعية لم يفقد الأمل في أن يدرك من أفاء ا عليهم بنعمة الثـراء مـن المصـريين أهمية الرسالة التي تقوم بها الجمعية، فيوفروا لها من الرعاية المادية ما يتيح لها المضي قدما في أداء رسـالتها، فطرقـوا أبواب الكثيرين دون جدوى. كما لم يفقدوا الأمل فـي دعـم مؤسسات الدولة لنشاط الجمعية، كوزارات الثقافـة والتعلـيم العالي، والبحث العلمي، والشباب.

وبعد افتتاح المقر الجديد بشهر واحد(تقريبا)، رتـب أحمد الجمال – الكاتب المعروف وعضو الجمعيـة – لقـاء لأربعة من أعضاء مجلس الإدارة مع الأستاذ محمد حسـنين هيكل بناء على طلبه. وتم اللقاء بمكتبه الخاص على شـارع النيل، وحضر مع صاحبنا، عاصم الدسوقي، وجمال زكريا، ومحمد صابر عرب، وأيمن أحمد الجمال.

وفي هذا اللقاء أبدى "الأستاذ" اهتمامه برسالة الجمعيـة وقال إن الشيخ سلطان القاسمي يشكر على مكرمته، ولكـن

www.alkottob.com

رعاية الجمعية ماديا يجب أن تكون من واجب المصـريين. وبعد أن اطلع على تصور مجلس إدارة الجمعية الذي كـان يتجه إلى تكوين وديعة في حدود المليون جنيه يتم تجميعهـا من تبرعات أثرياء المصريين، وقال إن هذا التصور لا يضع في اعتباره التضخم، وإن الوديعة يجب أن تصل إلى خمسة ملايين على الأقل. ولما كان الحصول على مليون أو أكثـر من التبرعات من الصعوبة بمكان نظرا للركود الاقتصـادي الذي تعانيه البلاد، ورأى "الأستاذ" أن تكون هناك مجموعـة من "الرعاة" المصريين في حدود العشرة أفراد، يتبرع كـل منهم للجمعية بمبلغ عشرين ألفًا من الجنيهات سنويا، ولمـدة خمس سنوات حتى تعطي الجمعية دفعة قوية لخدمة تـاريخ مصر.. ووعد بأن يتولى بنفسه مجموعة من "الرعـاة" وأن يكون أول المتبرعين.

سعد القوم باقتراح (الأستاذ)، وشكروه بحرارة، وطلبوا منـه أن يلقـي محاضـرة فـي الموسـم الثقـافي القـادم (أكتوبر ٢٠٠٢ – مايو ٢٠٠٣) في موضوع يختاره. فأبدى موافقته من حيث المبدأ، محذرا من أن ذلك قد يجر المتاعب على الجمعية. فطمأنوه إلى أن الجمعية هيئة علميـة أهليـة

www.alkottob.com

مستقلة، وهي حريصة تماما على استقلال قرارها وإدارتها، وعندما فتح (الأستاذ) موضوع الوثائق التاريخية التي يحتفظ بنسخ منها، ويريد إيداعها هيئة خاصة يطمئن إليهـا، أبـدى ممثلو الجمعية استعدادهم لقبول تخصيص مكان لها بمكتبـة الجمعية، بعدما تُشرف الجمعية بزيارته ليطمئن بنفسه علـى صلاحية الجمعية لهذا الغرض.

وفي اليوم التالي للمقابلة، حمل صاحبنا مجموعة مـن مطبوعات الجمعية وخطاب شكر لهيكل على المقابلة، سجل فيه كل ما تم الاتفاق عليه، وختمه بطلـب تحديـد الموعـد الملائم "للأستاذ" لإلقـاء محاضـرته بالجمعيـة وموضـوع المحاضرة. وسلم الرسالة والكتب المهداة (بنفسه) لسـكرتير هيكل.

وبعد نحو الأسبوع، تلقى صاحبنا مكالمة تليفونية مـن هيكل شكره فيها على الكتب المهداة، وقال إن لـدي سـؤالاً مهما حول الجمعية، قد يبدو تافها، ولكنه مهم بالنسـبة لـه: "هل لمن يسمى عبد العظيم رمضان علاقة بالجمعية؟" فقـال له صاحبنا إن رمضان كان عضوا بالجمعية منـذ سـنوات، ولكن سقطت عضويته لانقطاعـه عـن سـداد اشـتراكات

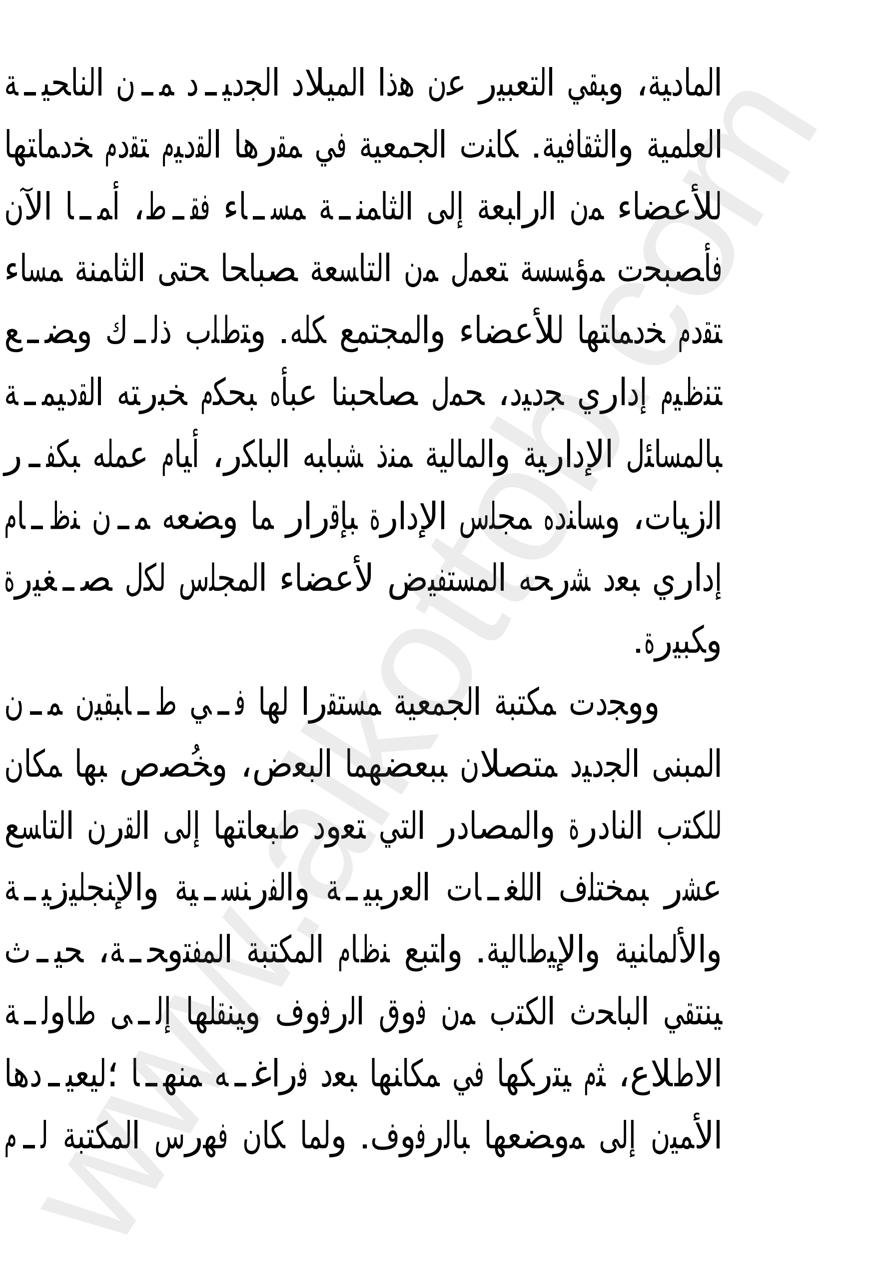
www.alkottob.com

العضوية، وذلك منذ رسب مرتين في انتخابات مجلس الإدارة، وإنه لا هم له إلا الهجوم على الجمعية وخاصة صاحبنا. فقال هيكل: "يعني مش سايب حد.. على العموم شكرا، دي معلومة مهمة بالنسبة لي". وانتهت المكالمة عند هذا الحد.

وظل صاحبنا يتصل بمكتب هيكل على فترات متباعدة (يوليو – سبتمبر ٢٠٠١) فكان يتلقى ردا بأن "الأستاذ" غير موجود، أو أنه نبه إلى عدم إزعاجه، وفي كل مرة كان صاحبنا يترك اسمه وأرقام تليفوناته، ورسالة مؤداها أن الجمعية بانتظار رده (الكريم) على دعوتها. ولكن يبدو أن الرجل لم يكن جادا فيما وعد به من "رعاية"، أو أنه أعاد حساباته فوجد أن من مصلحته أن ينأى بنفسه عن الوقوع في هذه "الورطة". فلم يسمع صاحبنا منه!!.

وهكذا كانت استجابة سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي لنداء مجلس إدارة الجمعية، وتشييده لمبنى المقر الجديد بمدينة نصر الذي أقيم بتكلفة قدرها ٣,٥ مليون جنيه مصري دفعها من ماله الخاص، كانت بمثابة ميلاد جديد للجمعية المصرية للدراسات التاريخية من الناحية

www.alkottob.com



المادية، وبقي التعبير عن هذا الميلاد الجديد من الناحية العلمية والثقافية. كانت الجمعية في مقرها القديم تقدم خدماتها للأعضاء من الرابعة إلى الثامنة مساء فقط، أما الآن فأصبحت مؤسسة تعمل من التاسعة صباحا حتى الثامنة مساء تقدم خدماتها للأعضاء والمجتمع كله. وتطلب ذلك وضع تنظيم إداري جديد، حمل صاحبنا عبأه بحكم خبرته القديمة بالمسائل الإدارية والمالية منذ شبابه الباكر، أيام عمله بكفر الزيات، وسانده مجلس الإدارة بإقرار ما وضعه من نظام إداري بعد شرحه المستفيض لأعضاء المجلس لكل صغيرة وكبيرة.

ووجدت مكتبة الجمعية مستقرا لها في طابقين من المبنى الجديد متصلان ببعضهما البعض، وخُصص بها مكان للكتب النادرة والمصادر التي تعود طبعاتها إلى القرن التاسع عشر بمختلف اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية. واتبع نظام المكتبة المفتوحة، حيث ينتقي الباحث الكتب من فوق الرفوف وينقلها إلى طاولة الاطلاع، ثم يتركها في مكانها بعد فراغه منها ؛ليعيدها الأمين إلى موضعها بالرفوف. ولما كان فهرس المكتبة لم

www.alkottob.com

يضف إليه ما ضم من كتب منذ أوائل السـبعينيات؛ بسـبب عدم وجود العدد الكافي من الأمناء، فكان لدى الجمعية أمين واحد للمكتبة يعمل مساء، أصبحت الحاجة ماسة إلى تـوفير عدد من الأمناء للقيام بأعمال الفهرسة والتصنيف، وخدمـة الباحثين في نوبتين: صباحا ومساء، وقدر صـاحبنا حاجـة المكتبة بثمانية من الأمناء.

ولكن من أين تحصل الجمعية على هذا العدد من الأمناء ذوي الخبرة، وكيف تتحمل رواتبهم بمواردها التي لا تكـاد تكفي تغطية استهلاك المياه والكهرباء والصيانة وأجور عمال النظافة والسكرتارية، والمصروفات النثرية؟ هنا لجأ صاحبنا إلى دار الكتب المصرية، بعد أن علم أن الدار تعير بعـض الأمناء إلى الجمعية الجغرافية ومكتبات بعض الأندية، فالتقى سمير غريب (رئيس دار الكتب) وطلب منه مـد الجمعيـة بثمانية أمناء، فاستجاب الرجل على الفور، وقـدم للجمعيـة (على سبيل الإعارة) العدد المطلوب من الأمنـاء علـى أن تتحمل دار الكتب مرتباتهم وحوافزهم، وهـن جميعـا مـن السيدات المقيمات بمدينة نصر. وأحدثهن خدمة تزيد سنوات خبرتها عن عشر سنوات. فقدم سمير غريب بذلك للجمعيـة

www.alkottob.com

خدمة جليلة تنم عن إدراكه لأهمية رسالتها، وأصبح ذلك أمرا واقعا التزم به خلفه صلاح فضل الذي تعاون مع الجمعية بلا تحفظ، وإن ظهرت بوادر التراجع (النسبي) لهذا التعاون في عهد رئاسة أحمد مرسي لدار الكتب، فعندما طلبت أمينتان من الأمناء العودة إلى دار الكتب، ماطل رئيس الهيئة في تزويد الجمعية بالبديل.

وعلى كل، بفضل هذا التعاون المثمر من جانب دار الكتب، تم الفراغ من تصنيف وفهرسة المقتنيات العربية بالمكتبة على مدى العامين، وبدأ العمل في فهرسة الكتب المطبوعة باللغات الأجنبية، وقامت الجمعية بتعيين خبيرين بالفهرسة من العاملين السابقين بدار الكتب (المتقاعدين) بنظام المكافأة، لدعم فريق العمل بالخبرة المتميزة.

ولما كان المبنى مزودا بحجرة معدة لتأسيس مكتبة إلكترونية، وهو ما لم يتم توفيره في إطار الجانب الخاص بتأثيث المبنى، فقد ظلت الحجرة فارغة، وحاول صاحبنا استكمال المكتبة، فلجأ إلى وزارة الاتصالات ووزارة الشباب، دون جدوى، وأخيرا قدم الدكتور فطين أحمد فريد الأستاذ المساعد بجامعة قناة السويس وعضو مجلس إدارة

www.alkottob.com

الجمعية (وكان ضابطًا سابقًا برتبة العميد) قدم مساعدة جليلة بدفع طلب الجمعية تأسيس مكتبة إلكترونية في قنوات وزارة الدفاع، فصدر قرار وزير الدفاع بمنح الجمعية التجهيـزات اللازمة لإقامة المكتبة، وتم ذلك بالفعل في ربيع عام ٢٠٠٤، واستكمالاً لتحديث الخدمة، قامت الجمعيـة بإقامـة شـبكة للحواسب الآلية ربطت بين المكتبـة الإلكترونيـة ومكتبـة الجمعية بما تطلب ذلك من أجهزة ومعدات، وبذلك بدأ إعداد فهرس إلكتروني (رقمي) لمقتنيات المكتبة.

وبعد إقامة المكتبة الإلكترونية، توفرت للمترددين على مكتبة الجمعية خدمة الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنـت)، وقام الدكتور صبري العدل(عضو الجمعية) بتصميم موقـع للجمعية على الشبكة الدولية يضم المعلومات الأساسية عنهـا وعن نشاطها، والإعلان عن برنامجهـا العلمـي والثقـافي، وسوف يضاف إليه الفهرس الرقمي لمقتنيات مكتبة الجمعيـة عند اكتماله.

أما عن إعادة تنظيم النشاط الثقافي للجمعية فقد اضطلع به عاصم الدسوقي، ثم عبادة كحيلة. وكان لكل منهما فضـل الارتقاء بمستوى الخدمات الثقافية التـي تقـدمها الجمعيـة

www.alkottob.com

بالإعداد الجيد للموسم الثقافي كل عام، وفتح منبر الجمعيـة أمام أصحاب الـرؤى الجديـدة مـن مختلـف المـدارس والوجهات، دون تمييز (سوى بين الغث والثمين). كما نجـح كل منهما في الإعداد الجيد لندوات الجمعية، فـنظم عاصـم الدسوقي ندوة "المصريون والسلطة" وندوة "الدين والدولة في الوطن العربي"، ونظم عبادة كحيلة ندوة "التقاء الحضـارات في عالم متغير حوار أم صراع؟"، وندوة "الثورة والتغيير في العالم العربي"، كما تعاون معه عاصم الدسوقي فـي تنظـيم ندوة "تطور الفكر العربي" وكلها ندوات أعـادت للجمعيـة حيويتها ونشاطها الذي افتقدته منذ ترك رئاستها أحمد عزت عبد الكريم. ووضعها هذا النشاط في موقع متميز على ساحة الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط على المستوى العـالمي، فأصبح نشاطها العلمي يحظى بالمتابعة والمشاركة من جانب متخصصين متميزين من أوروبا وأمريكـا. كمـا أُدرجـت مجلتها العلمية في الدليل الدولي للمجلات العلمية.

ولم يتوقف النشاط العلمي على الموسم الثقـافي الـذي تلقى فيه محاضرتان شهريا (من أكتوبر – مـايو)، والنـدوة السنوية التي تستمر عادة على مدى ثلاثة أيام كاملـة، بـل

www.alkottob.com

هناك سمنار الباحثين الشبان في التاريخ العثماني الذي أنهى العام ٢٠٠٤ عشر سنوات من عمره، ونُشرت أربعة كتـب تضم جانبا من أعماله، ونُظم في العام ٢٠٠٤ ثلاث سمنارات أخرى شهرية في التاريخ القـديم (اليونـاني – الرومـاني) والتاريخ الإسلامي والوسيط، ثم التاريخ المعاصر.

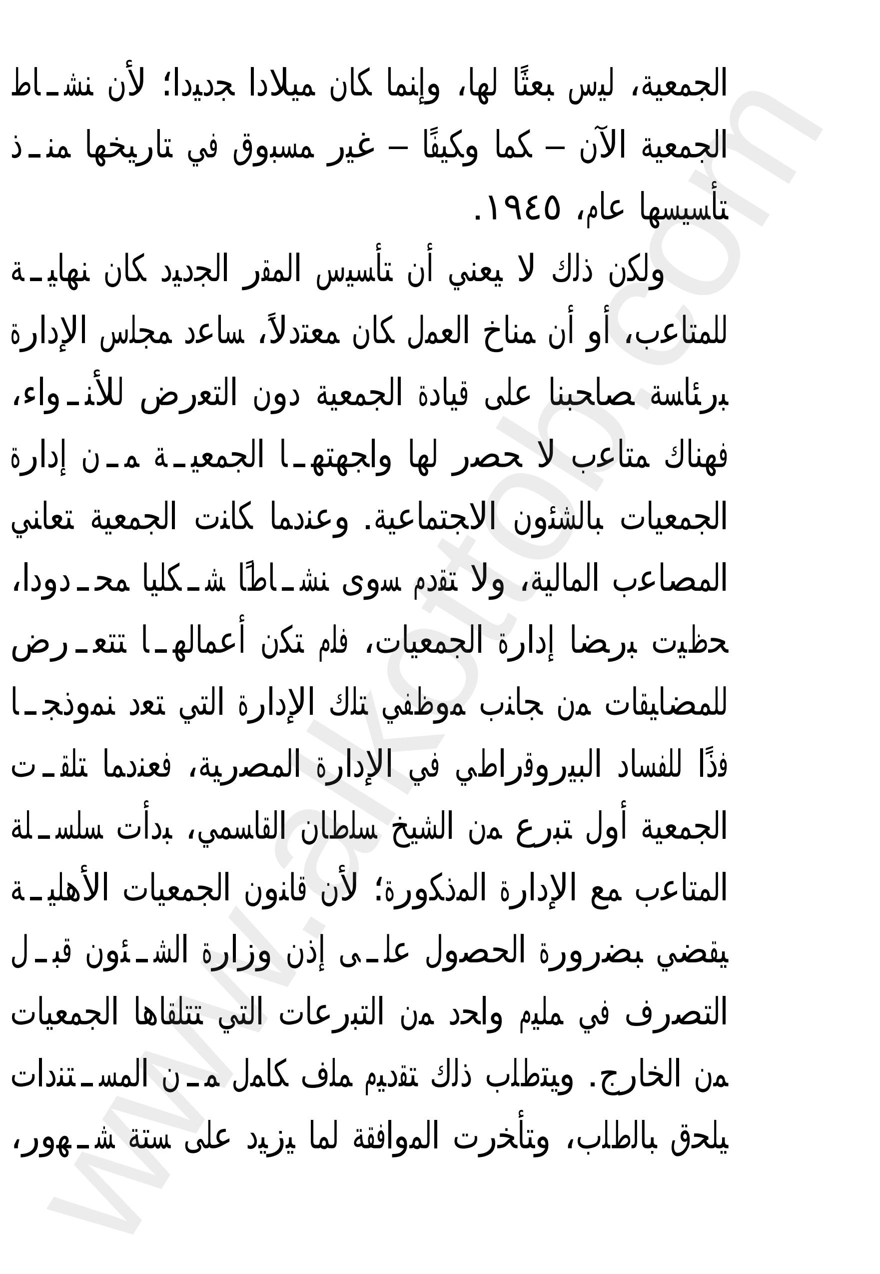
وتقدم هذه السمنارات بحوثًا متميزة يتم فيها التواصـل بين التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى، وتولي قضايا المنهج اهتماما خاصا، ويرجع الفضل في تنظيمها وإدارتهـا إلـى ناصر أحمد إبراهيم ونللي حنا(التـاريخ العثمـاني)، وأبـو اليسر فرج (القديم)، وعلي السيد علي (الإسلامي والوسيط). وتعتزم الجمعية أن تعمل على نشر أعمال هذه السـمنارات الثلاثة الأخيرة في كتب تصدرها من خلال التعاون مع دور النشر المختلفة.

وهكذا تحولت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية – بفضل مكرمة الشيخ الدكتور القاسمي – إلى مركـز ثقـافي علمي متميز، ومنارة للعمل العلمي الذي لا يهـدف سـوى لخدمة تاريخ هذه الأمة، ومعهد للإعـداد العلمـي للكـوادر العلمية. وما حدث – على هذا النحو – من تطـور شـهدته

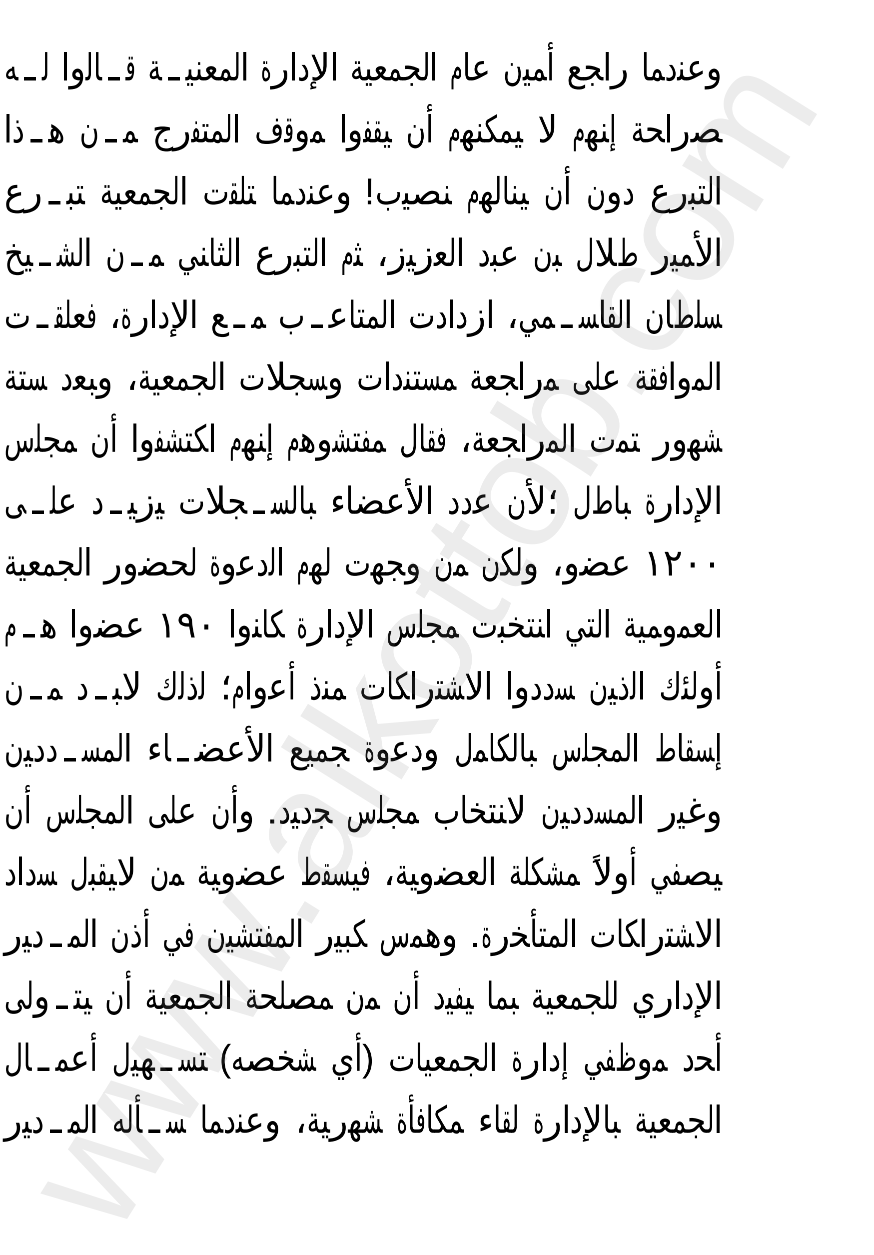
www.alkottob.com

الجمعية، ليس بعثًا لها، وإنما كان ميلادا جديدا؛ لأن نشاط الجمعية الآن – كما وكيفًا – غير مسبوق في تاريخها منذ تأسيسها عام، ١٩٤٥.

ولكن ذلك لا يعني أن تأسيس المقر الجديد كان نهاية للمتاعب، أو أن مناخ العمل كان معتدلاً، ساعد مجلس الإدارة برئاسة صاحبنا على قيادة الجمعية دون التعرض للأنواء، فهناك متاعب لا حصر لها واجهتها الجمعية من إدارة الجمعيات بالشئون الاجتماعية. وعندما كانت الجمعية تعاني المصاعب المالية، ولا تقدم سوى نشاطًا شكليا محدودا، حظيت برضا إدارة الجمعيات، فلم تكن أعمالها تتعرض للمضايقات من جانب موظفي تلك الإدارة التي تعد نموذجا فذًا للفساد البيروقراطي في الإدارة المصرية، فعندما تلقت الجمعية أول تبرع من الشيخ سلطان القاسمي، بدأت سلسلة المتاعب مع الإدارة المذكورة؛ لأن قانون الجمعيات الأهلية يقضي بضرورة الحصول على إذن وزارة الشئون قبل التصرف في مليم واحد من التبرعات التي تتلقاها الجمعيات من الخارج. ويتطلب ذلك تقديم ملف كامل من المستندات يلحق بالطلب، وتأخرت الموافقة لما يزيد على ستة شهور،



www.alkottob.com



وعندما راجع أمين عام الجمعية الإدارة المعنية قالوا له صراحة إنهم لا يمكنهم أن يقفوا موقف المتفرج من هذا التبرع دون أن ينالهم نصيب! وعندما تلقت الجمعية تبرع الأمير طلال بن عبد العزيز، ثم التبرع الثاني من الشيخ سلطان القاسمي، ازدادت المتاعب مع الإدارة، فعلقت الموافقة على مراجعة مستندات وسجلات الجمعية، وبعد ستة شهور تمت المراجعة، فقال مفتشوهم إنهم اكتشفوا أن مجلس الإدارة باطل ؛لأن عدد الأعضاء بالسجلات يزيد على ١٢٠٠ عضو، ولكن من وجهت لهم الدعوة لحضور الجمعية العمومية التي انتخبت مجلس الإدارة كانوا ١٩٠ عضوا هم أولئك الذين سددوا الاشتراكات منذ أعوام؛ لذلك لابد من إسقاط المجلس بالكامل ودعوة جميع الأعضاء المسددين وغير المسددين لانتخاب مجلس جديد. وأن على المجلس أن يصفي أولاً مشكلة العضوية، فيسقط عضوية من لايقبل سداد الاشتراكات المتأخرة. وهمس كبير المفتشين في أذن المدير الإداري للجمعية بما يفيد أن من مصلحة الجمعية أن يتولى أحد موظفي إدارة الجمعيات (أي شخصه) تسهيل أعمال الجمعية بالإدارة لقاء مكافأة شهرية، وعندما سأله المدير

www.alkottob.com

الإداري عن كيفية تسوية مبالغ المكافـأة حسـابيا قـال "أي حاجة.. مصاريف نثرية، أو اعملوا بند إكراميـات.. علـى العموم لو قبل رئيس مجلس الإدارة الاقتراح أنا أحـل كـل شيء".

وهنا اتجه مجلس الإدارة إلى العمل في اتجاهين: حـل مشكلة العضوية بعد توجيه خطابات للأعضاء غير المسددين لاشتراكاتهم وترك مهلة زمنية لهم للسداد (٣٠ يومـا) ثـم إسقاط عضوية من لم يسددوا. وتكليف صاحبنا بالشكوى إلى هيئة الرقابة الإدارية بشان ابتزاز إدارة الجمعيات. والسـعار الذي أصاب موظفيها طلبا لرشوة شـهرية ثابتـة لقـاء أن (يمشي الحال).

وأُعيد انتخاب مجلس الإدارة بالكامل، واختار أعضـاء المجلس (الذي دخلته بعض عناصر الشباب) صاحبنا رئيسـا للمجلس، وصدرت موافقات إدارة الجمعيات (بضـغط مـن الرقابة الإدارية) على مدى عام بما في ذلك الموافقة علـى قبول هبة سمو الشيخ (الدكتور سلطان القاسمي) وهي أرض ومبنى المقر الجديد وأثاثه، ونُقلت تبعية الجمعية مـن إدارة غرب القاهرة التي تضم حيتان إدارة الجمعيـات إلـى إدارة

www.alkottob.com

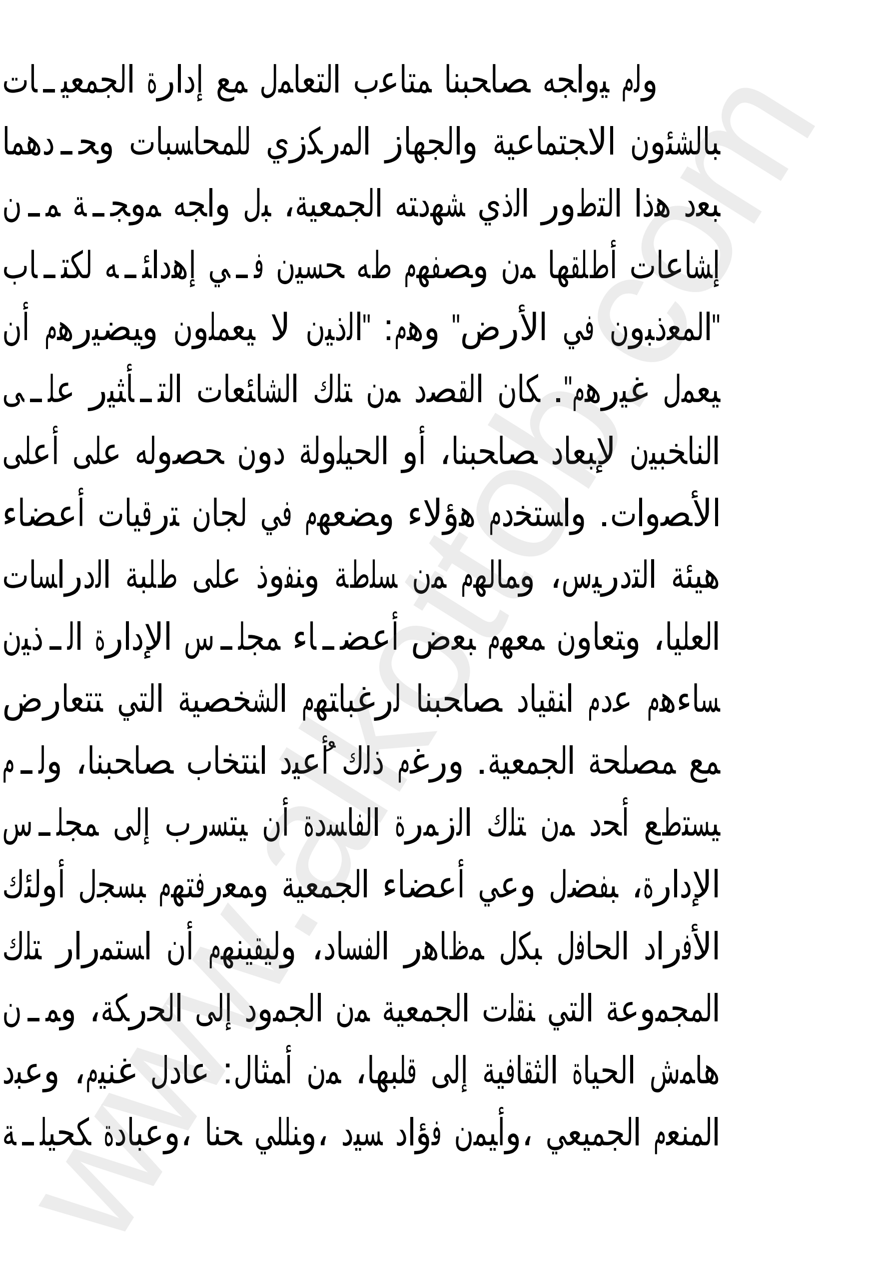
شرق مدينة نصر التي تعد نموذجا طيبا غريبا علـى وزارة الشئون الاجتماعية، ولكن لازالت إدارة الجمعيـات بوكالـة الوزارة بمحافظة القاهرة تماطل في الموافقة على التبرعـات التي تلقتها الجمعية أخيرا، فلا تأتي الموافقة إلا بعد عام كامل من التقدم بالطلب، وقد يئس صـاحبنا مـن اللجـوء إلـى المسئولين الكبار، فلم يجده نفعا الشكوى لـوزيرة الشـئون الاجتماعية، ولا إلى محافظ القاهرة، وكذلك هيئـة الرقابـة الإدارية. فهذه الشكاوى تنتهي دائما إلى المشكو منه، فيـرد بإجابة تكفي المسئول مشقة التحقق مـن صـحتها، فيـزداد الموظفون الأوغاد توحشًا وفجورا.

وبعدما أعيت صاحبنا الشكاوى، لجأ إلى بعض عتاة من أهل الخبرة ممن يتولون أمور الجمعيات الخيريـة (التـي تخضع لنفس القانون) يسأل عن كيفية تعاملهم مـع الشـئون الاجتماعية، وكيف يتصرفون مع زبانيتهـا، فعلـم أن كـل جمعية من تلك الجمعيات تخصص مبلغًا شهريا تدفعه لمـن يحدده رئيس إدارة الجمعيات، وأن المبالغ كلها تتجمع عنـد المدير ليعاد توزيعها على مـوظفي الإدارة. وعنـدما سـأل صاحبنا عن كيفية تسوية هذا المبلغ حسابيا، علـم أن هـذه

www.alkottob.com

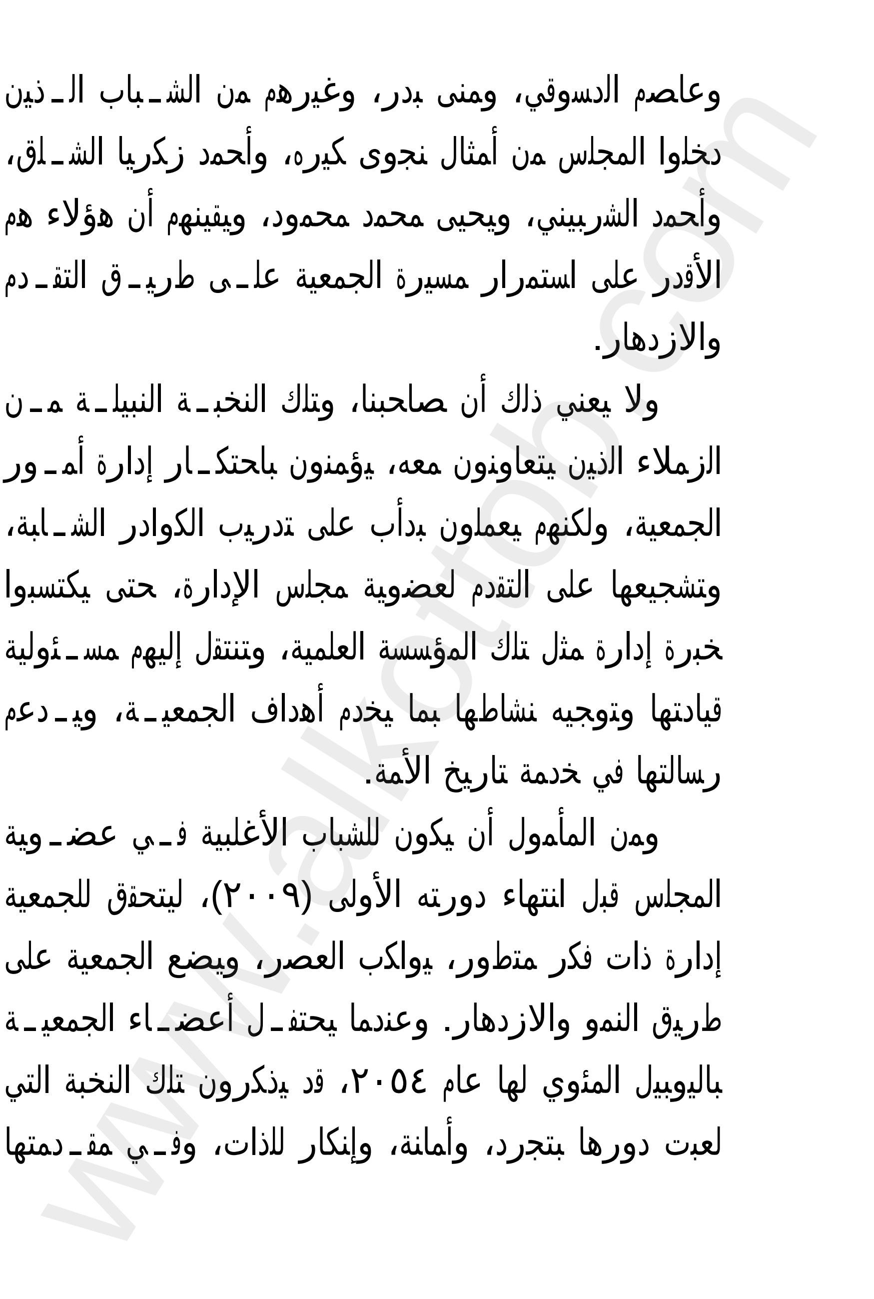
الجمعيات تجنب بعض ما تحصل عليه من تبرعـات أهـل الخير في شهر رمضان لتغطية هذه النفقات غير المنظورة"، فلا يدرج هذا المبلغ في السجلات المالية للجمعية أصلاً، ثـم تنبه مسئول الجمعية إلى أنه تحدث مع صاحبنا بما يتجـاوز حدود الأمور، فسأله: "هو جمعيتكم بتدفع مبلغ بسيط عشـان كده بيضـايقوكم؟ أحسـن لـيكم تسـألوهم عـاوزين كـام وتريحوهم". رد صاحبنا بأن الجمعية التاريخية لا تدفع شـيئًا لمفتشي إدارة الجمعيات، ولا لمفتشـي الجهـاز المركـزي للمحاسبات (وقد جاء في حديث الرجل أنهم أيضا يحصـلون على مبلغ سنوي عند التفتـيش علـى سـجلات الجمعيـة الخيرية). فالجمعية التاريخية مواردها محـدودة ومعلومـة، وليس لديها صندوق زكاة و "ملجأ أيتام" تجمع الأموال تحت غطائه ليتصرف فيها "العاملون عليها" دون ضمير أو وازع خلقي أو ديني. المهم أن صاحبنا كان يدفع زكاته لمثل هـذه الجمعيات، فأصبح بعد هذا الحديث في حيرة من أمره وبـدأ يفهم السر وراء انتشار وزيادة عدد الجمعيات الخيريـة فـي السنوات الأخيرة.

www.alkottob.com



ولم يواجه صاحبنا متاعب التعامل مع إدارة الجمعيـات بالشئون الاجتماعية والجهاز المركزي للمحاسبات وحـدهما بعد هذا التطور الذي شهدته الجمعية، بل واجه موجـة مـن إشاعات أطلقها من وصفهم طه حسين فـي إهدائـه لكتـاب "المعذبون في الأرض" وهم: "الذين لا يعملون ويضيرهم أن يعمل غيرهم". كان القصد من تلك الشائعات التـأثير علـى الناخبين لإبعاد صاحبنا، أو الحيلولة دون حصوله على أعلى الأصوات. واستخدم هؤلاء وضعهم في لجان ترقيات أعضاء هيئة التدريس، ومالهم من سلطة ونفوذ على طلبة الدراسات العليا، وتعاون معهم بعض أعضـاء مجلـس الإدارة الـذين ساءهم عدم انقياد صاحبنا لرغباتهم الشخصية التي تتعارض مع مصلحة الجمعية. ورغم ذلك أُعيد انتخاب صاحبنا، ولـم يستطع أحد من تلك الزمرة الفاسدة أن يتسرب إلى مجلـس الإدارة، بفضل وعي أعضاء الجمعية ومعرفتهم بسجل أولئك الأفراد الحافل بكل مظاهر الفساد، وليقينهم أن استمرار تلك المجموعة التي نقلت الجمعية من الجمود إلى الحركة، ومـن هامش الحياة الثقافية إلى قلبها، من أمثال: عادل غنيم، وعبد المنعم الجميعي ،وأيمن فؤاد سيد ،ونللي حنا ،وعبادة كحيلـة

www.alkottob.com



وعاصم الدسوقي، ومنى بدر، وغيرهم من الشباب الذين دخلوا المجلس من أمثال نجوى كيره، وأحمد زكريا الشلق، وأحمد الشربيني، ويحيى محمد محمود، ويقينهم أن هؤلاء هم الأقدر على استمرار مسيرة الجمعية على طريق التقدم والازدهار.

ولا يعني ذلك أن صاحبنا، وتلك النخبة النبيلة من الزملاء الذين يتعاونون معه، يؤمنون باحتكار إدارة أمور الجمعية، ولكنهم يعملون بدأب على تدريب الكوادر الشابة، وتشجيعها على التقدم لعضوية مجلس الإدارة، حتى يكتسبوا خبرة إدارة مثل تلك المؤسسة العلمية، وتنتقل إليهم مسئولية قيادتها وتوجيه نشاطها بما يخدم أهداف الجمعية، ويدعم رسالتها في خدمة تاريخ الأمة.

ومن المأمول أن يكون للشباب الأغلبية في عضوية المجلس قبل انتهاء دورته الأولى (٢٠٠٩)، ليتحقق للجمعية إدارة ذات فكر متطور، يواكب العصر، ويضع الجمعية على طريق النمو والازدهار. وعندما يحتفل أعضاء الجمعية باليوبيل المئوي لها عام ٢٠٥٤، قد يذكرون تلك النخبة التي لعبت دورها بتجرد، وأمانة، وإنكار للذات، وفي مقدمتها

www.alkottob.com

الرجل العظيم الذي لولا رعايته الكريمة للجمعية، لما كـان هذا الميلاد الجديد (سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسـمي)، يومها سيكون الجميع في رحاب من يغدق الجزاء على مـن أحسن عملاً، ولكن أرواحهم سوف تشعر بالطمأنينة عنـدما تظل ثمرة عملهم يانعة، تزداد شبابا بمرور الزمن.

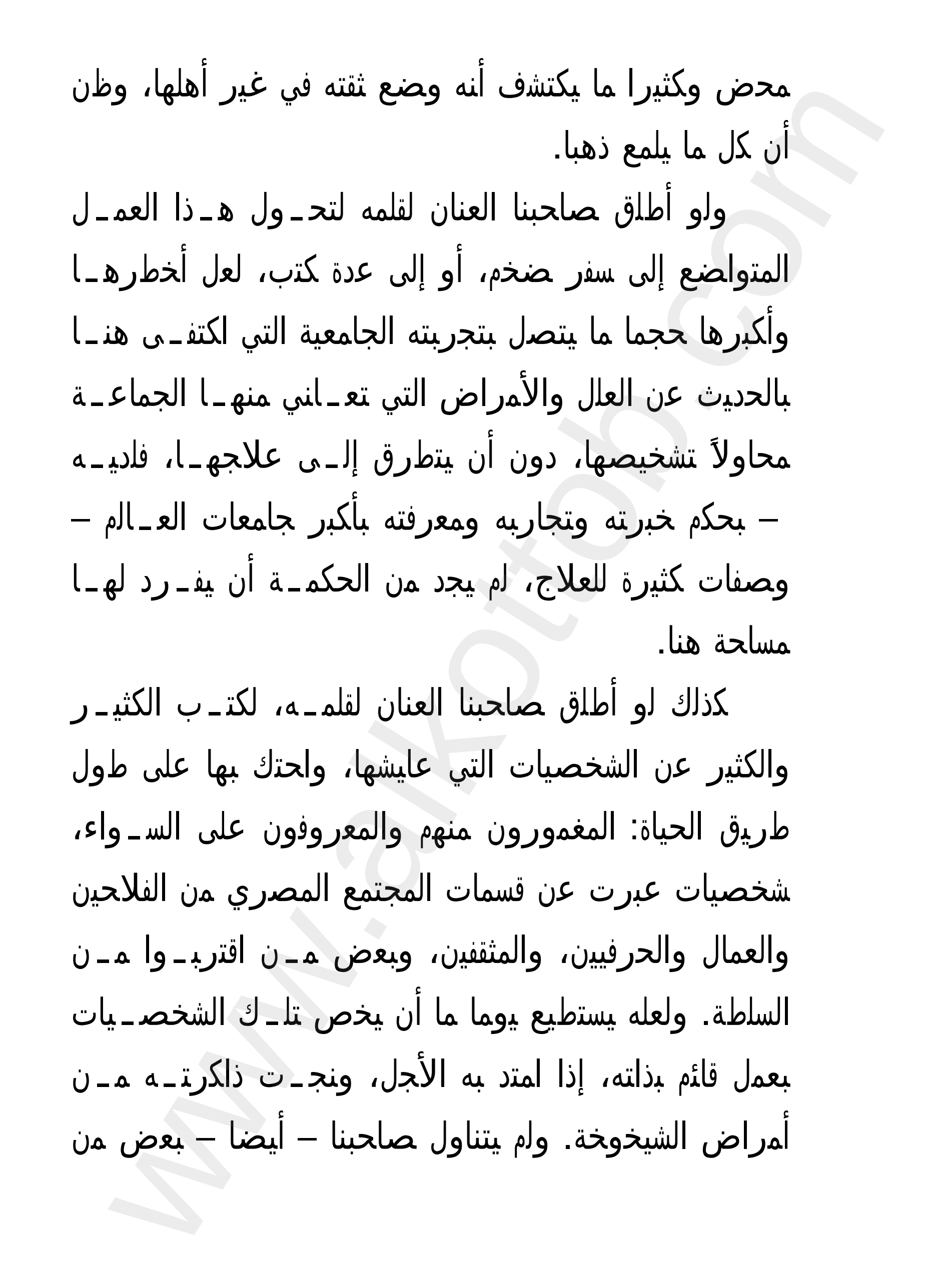
www.alkottob.com

ماذا بعد؟

قطع صاحبنا هذه المسيرة على طريق الحيـاة، مخلفًـا وراءه آثار أقدام – هنا وهناك – تقف شاهدا على ما استطاع أن يحققه خلال تلك السنوات، وما عجز عن تحقيقه. وهو في تقديمه لما مر به من تجارب يحرص على ذكر تلـك التـي يقوم عليها شهود معاصرون (مد ا في أعمارهم)، حتى لا يظن أحد أن بعضها أملته الأوهام وأحلام اليقظـة وتصـفية الحسابات، فكلها وقائع ثابتة، أكتفى بالإشارة إلـى مناصـب أصحابها أحيانًا، وذكر بعضهم بالاسم أحيانًا أخرى، لا بقصد التشهير بهذا أو ذاك، ولكن بغرض دق ناقوس الخطر لمـن خدعتهم المظاهر فأخفت عنهم الجوهر.

ولا يعني ذلك أن صاحبنا كان دائما حكيما، خاليا مـن العيوب والأخطاء، فلا يوجد قديسون بين البشر، بل جميعهم خطاءون، وكثيرا ما يتأمل صاحبنا هذه المواقف التي مـرت به، ويعيد تقييمها فيأخذ على نفسه أنه بالغ في سـوء الظـن بمواقف أطراف أخرى بعينها. ولكن ليس كل الظن إثم على أي حال، حسبه أنه لم يتخذ موقفًا – يوما ما – بدافع شخصي

www.alkottob.com
www.alkottob.com

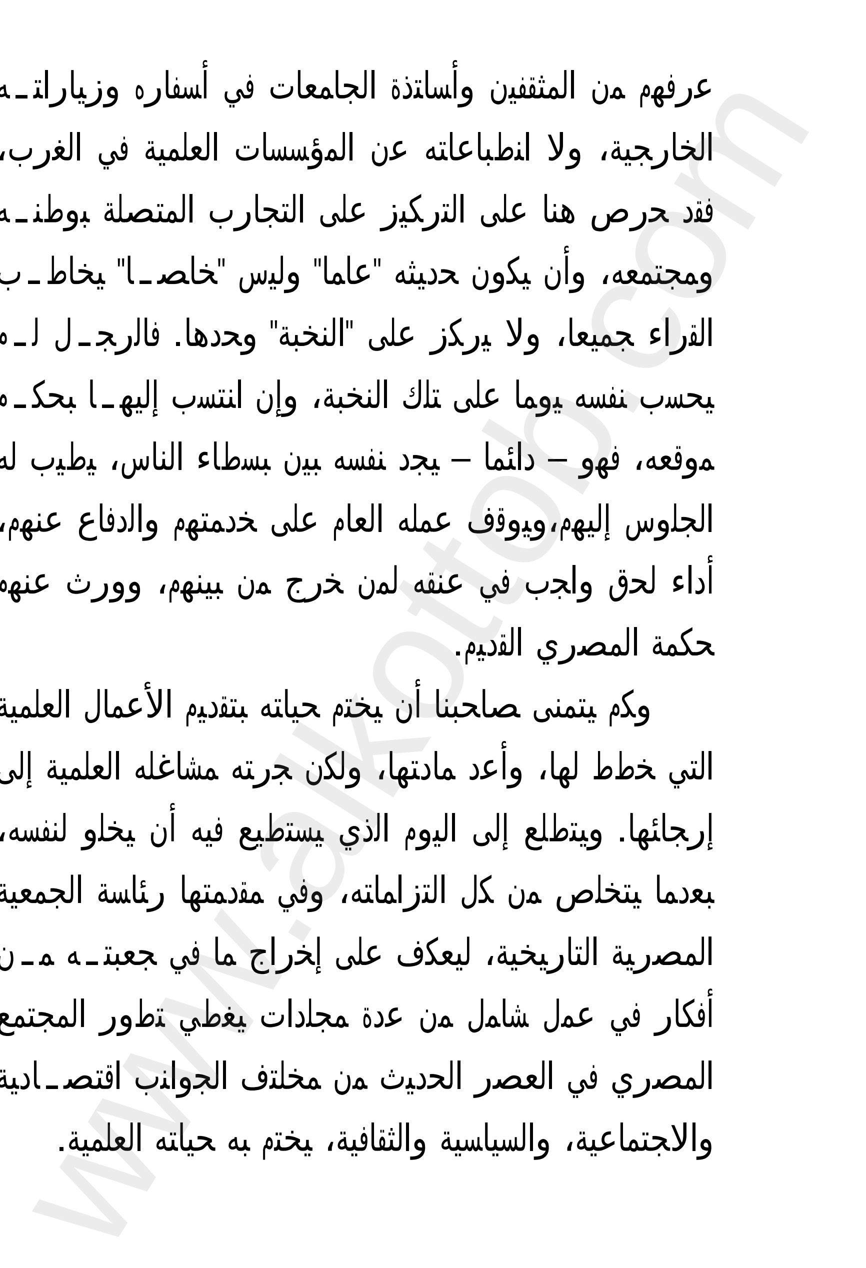


محض وكثيرا ما يكتشف أنه وضع ثقته في غير أهلها، وظن أن كل ما يلمع ذهبا.

ولو أطلق صاحبنا العنان لقلمه لتحـول هـذا العمـل المتواضع إلى سفر ضخم، أو إلى عدة كتب، لعل أخطرهـا وأكبرها حجما ما يتصل بتجربته الجامعية التي اكتفـى هنـا بالحديث عن العلل والأمراض التي تعـاني منهـا الجماعـة محاولاً تشخيصها، دون أن يتطرق إلـى علاجهـا، فلديـه – بحكم خبرته وتجاربه ومعرفته بأكبر جامعات العـالم – وصفات كثيرة للعلاج، لم يجد من الحكمـة أن يفـرد لهـا مساحة هنا.

كذلك لو أطلق صاحبنا العنان لقلمـه، لكتـب الكثيـر والكثير عن الشخصيات التي عايشها، واحتك بها على طول طريق الحياة: المغمورون منهم والمعروفون على السـواء، شخصيات عبرت عن قسمات المجتمع المصري من الفلاحين والعمال والحرفيين، والمثقفين، وبعض مـن اقتربـوا مـن السلطة. ولعله يستطيع يوما ما أن يخص تلـك الشخصـيات بعمل قائم بذاته، إذا امتد به الأجل، ونجـت ذاكرتـه مـن أمراض الشيخوخة. ولم يتناول صاحبنا – أيضا – بعض من

www.alkottob.com



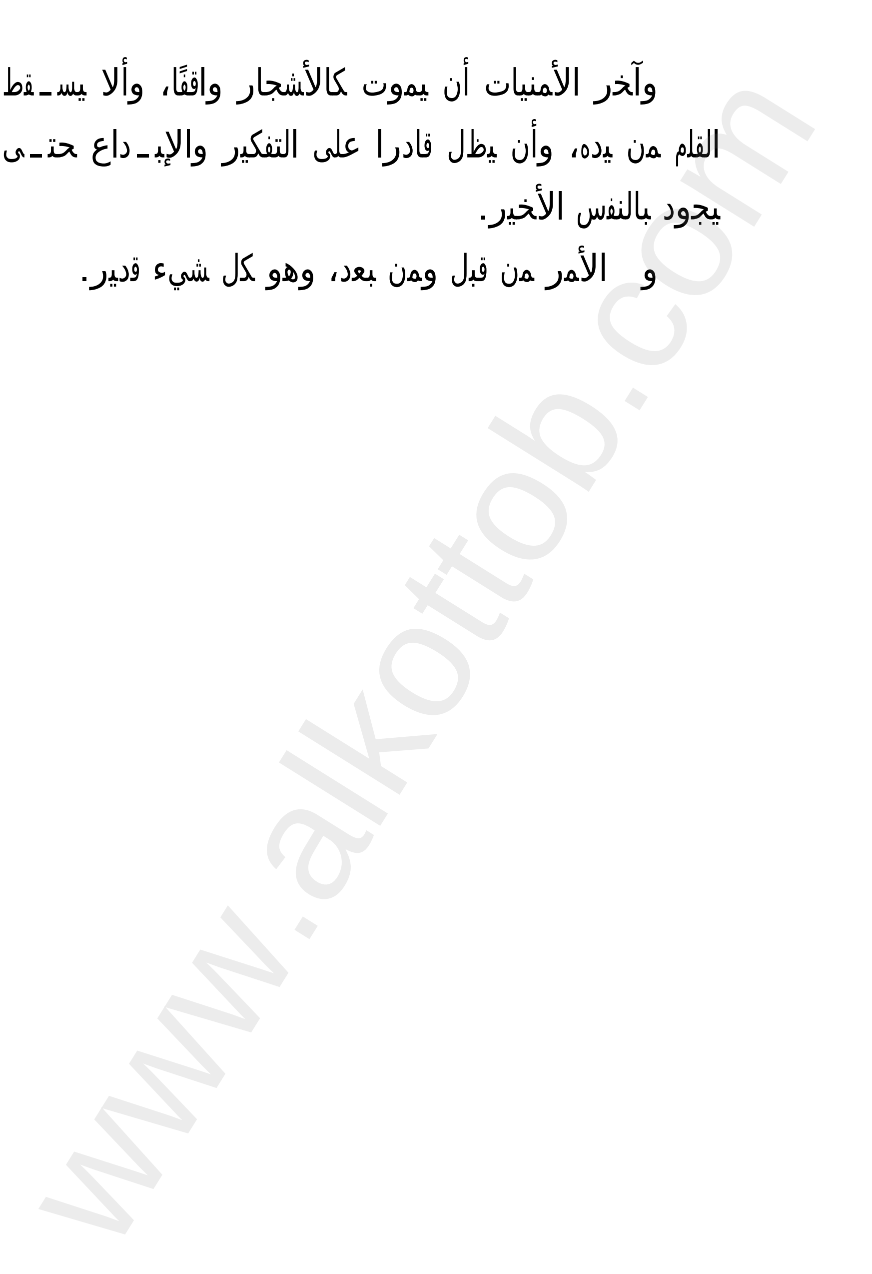
عرفهم من المثقفين وأساتذة الجامعات في أسفاره وزياراته الخارجية، ولا انطباعاته عن المؤسسات العلمية في الغرب، فقد حرص هنا على التركيز على التجارب المتصلة بوطنه ومجتمعه، وأن يكون حديثه "عاما" وليس "خاصا" يخاطب القراء جميعا، ولا يركز على "النخبة" وحدها. فالرجل لم يحسب نفسه يوما على تلك النخبة، وإن انتسب إليها بحكم موقعه، فهو – دائما – يجد نفسه بين بسطاء الناس، يطيب له الجلوس إليهم،ويوقف عمله العام على خدمتهم والدفاع عنهم، أداء لحق واجب في عنقه لمن خرج من بينهم، وورث عنهم حكمة المصري القديم.

وكم يتمنى صاحبنا أن يختم حياته بتقديم الأعمال العلمية التي خطط لها، وأعد مادتها، ولكن جرته مشاغله العلمية إلى إرجائها. ويتطلع إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن يخلو لنفسه، بعدما يتخلص من كل التزاماته، وفي مقدمتها رئاسة الجمعية المصرية التاريخية، ليعكف على إخراج ما في جعبته من أفكار في عمل شامل من عدة مجلدات يغطي تطور المجتمع المصري في العصر الحديث من مختلف الجوانب اقتصادية والاجتماعية، والسياسية والثقافية، يختم به حياته العلمية.

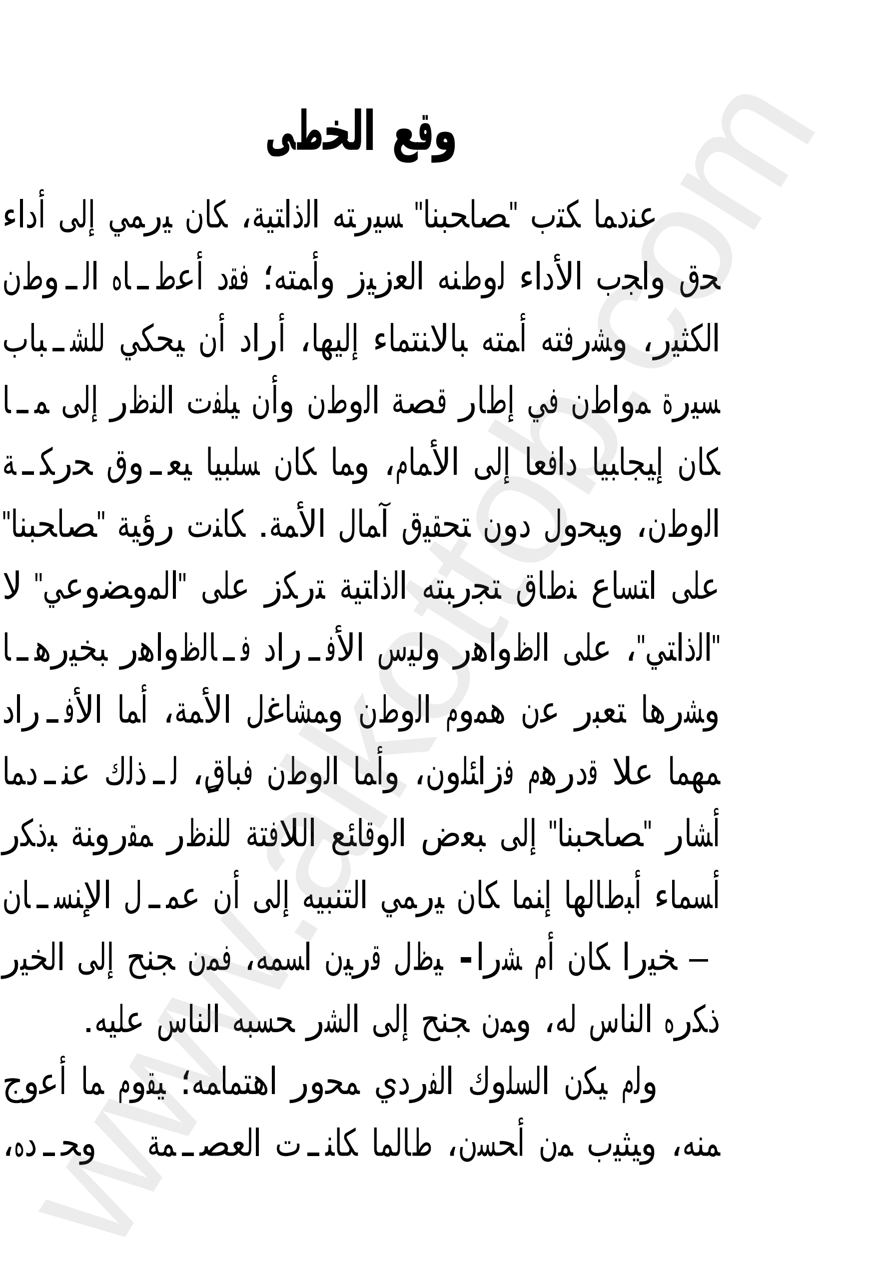
www.alkottob.com

وآخر الأمنيات أن يموت كالأشجار واقفًا، وألا يسـقط القلم من يده، وأن يظل قادرا على التفكير والإبـداع حتـى يجود بالنفس الأخير.

و   الأمر من قبل ومن بعد، وهو كل شيء قدير.



www.alkottob.com



وقع الخطى

عندما كتب "صاحبنا" سيرته الذاتية، كان يرمي إلى أداء حق واجب الأداء لوطنه العزيز وأمته؛ فقد أعطاه الوطن الكثير، وشرفته أمته بالانتماء إليها، أراد أن يحكي للشباب سيرة مواطن في إطار قصة الوطن وأن يلفت النظر إلى ما كان إيجابيا دافعا إلى الأمام، وما كان سلبيا يعوق حركة الوطن، ويحول دون تحقيق آمال الأمة. كانت رؤية "صاحبنا" على اتساع نطاق تجربته الذاتية تركز على "الموضوعي" لا "الذاتي"، على الظواهر وليس الأفراد فالظواهر بخيرها وشرها تعبر عن هموم الوطن ومشاغل الأمة، أما الأفراد مهما علا قدرهم فزائلون، وأما الوطن فباقٍ، لذلك عندما أشار "صاحبنا" إلى بعض الوقائع اللافتة للنظر مقرونة بذكر أسماء أبطالها إنما كان يرمي التنبيه إلى أن عمل الإنسان – خيرا كان أم شرا- يظل قرين اسمه، فمن جنح إلى الخير ذكره الناس له، ومن جنح إلى الشر حسبه الناس عليه.

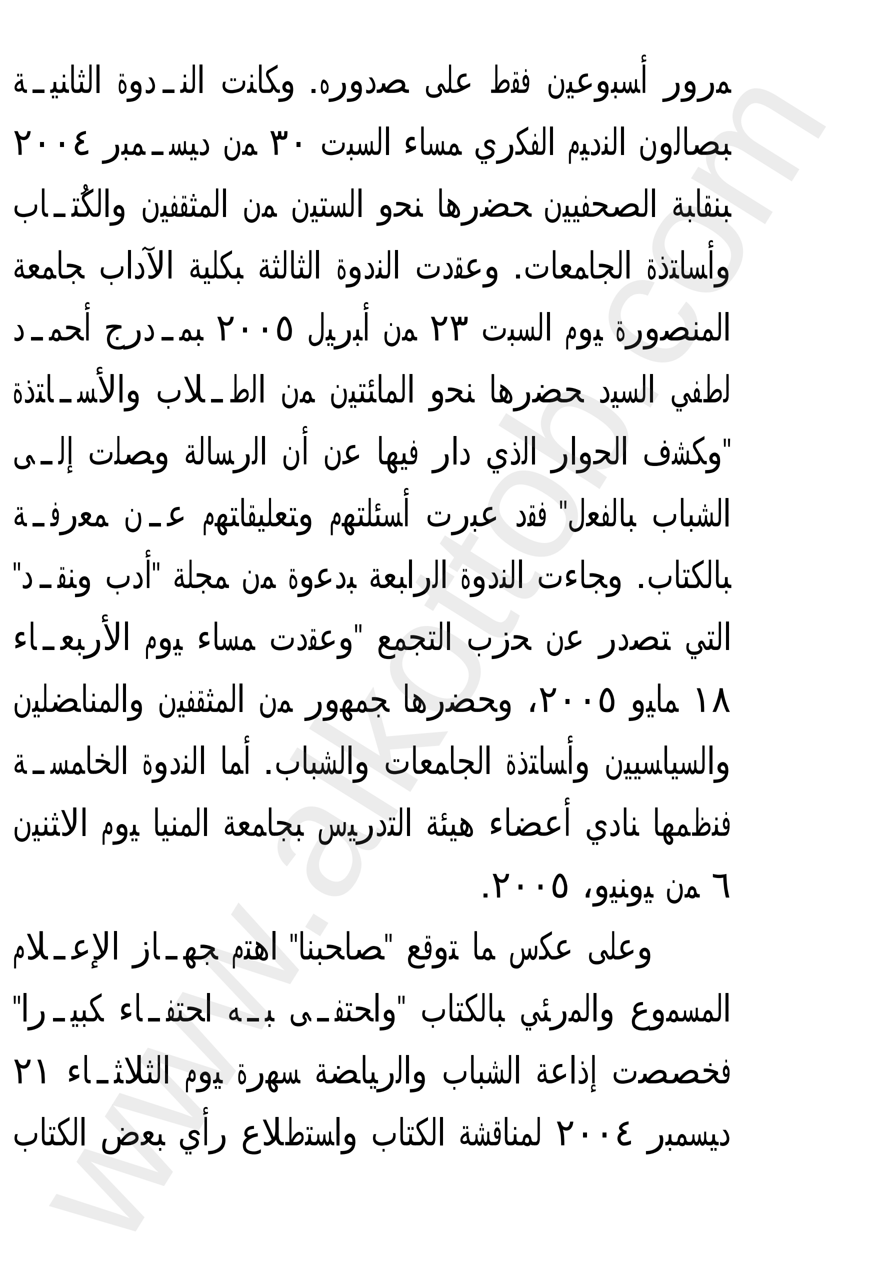
ولم يكن السلوك الفردي محور اهتمامه؛ يقوم ما أعوج منه، ويثيب من أحسن، طالما كانت العصمة وحده،

www.alkottob.com

وطالما كان الخطأ والصواب من خصال البشر (الذين ينتمي إليهم). ولذلك عندما أشار إلى صاحب سلوك معـوج" إنمـا أراد بذلك أن يوصل رسالة إلى كل مـن يمارسـون نفـس السلوك "تنذرهم باليوم الذي تكشف فيه أفعالهم" فيرتـدعون. وكان ذلك كله في إطار النقد المباح" البعيد تماما عن القـذف والسب" فليس من خلق" صاحبنا " استخدام هذا النهج " كمـا أنه يمقت كل من يلجأون إليه. كان الشـأن العـام مرامـه ومبتغاه" وليس الشأن الشخصي... وخاصة أنه توجه بسيرته إلى الشباب عساهم ينتفعون بها" وجعلها نذيرا لمن يسـممون الآبار أمامهم لعلهم يتعظون.

لم يدر بخلده عندما صدر الكتاب في الخـامس مـن ديسمبر ٢٠٠٤، أنه سوف يلقى كل هذا الاهتمام من الوسـط الثقافي المصري والعربي، ومن الرأي العام على السواء. فقد اهتمت الجماعات الثقافية بعقد ندوات لمناقشة الكتاب "شارك فيها كبار المثقفين " كانت أولاها في "أتيليه القـاهرة" مسـاء الثلاثاء ٢١ ديسمبر ٢٠٠٤ حضرها نحو الثمانين من الكُتاب والأدباء والشعراء والفنانين "وكشف الحوار الذي دار بالندوة عن أن معظم الحضور كانوا قد قرءوا الكتاب بالفعل رغـم

www.alkottob.com



مرور أسبوعين فقط على صدوره. وكانت الندوة الثانية بصالون النديم الفكري مساء السبت ٣٠ من ديسمبر ٢٠٠٤ بنقابة الصحفيين حضرها نحو الستين من المثقفين والكُتاب وأساتذة الجامعات. وعقدت الندوة الثالثة بكلية الآداب جامعة المنصورة يوم السبت ٢٣ من أبريل ٢٠٠٥ بمدرج أحمد لطفي السيد حضرها نحو المائتين من الطلاب والأساتذة "وكشف الحوار الذي دار فيها عن أن الرسالة وصلت إلى الشباب بالفعل" فقد عبرت أسئلتهم وتعليقاتهم عن معرفة بالكتاب. وجاءت الندوة الرابعة بدعوة من مجلة "أدب ونقد" التي تصدر عن حزب التجمع "وعقدت مساء يوم الأربعاء ١٨ مايو ٢٠٠٥، وحضرها جمهور من المثقفين والمناضلين والسياسيين وأساتذة الجامعات والشباب. أما الندوة الخامسة فنظمها نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة المنيا يوم الاثنين ٦ من يونيو، ٢٠٠٥.

وعلى عكس ما توقع "صاحبنا" اهتم جهاز الإعلام المسموع والمرئي بالكتاب "واحتفى به احتفاء كبيرا" فخصصت إذاعة الشباب والرياضة سهرة يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ٢٠٠٤ لمناقشة الكتاب واستطلاع رأي بعض الكتاب

www.alkottob.com

من مختلف الأعمار في الكتاب على الهـواء مباشـرة كمـا استضافت "قناة النيل الثقافية" صاحبنا وباقة من المثقفين فـي سهرة الأربعاء ٢٠ من أبريل ٢٠٠٥ ببرنامج "قمـر النيـل" الذي يبث مباشرة عبر الأقمار الصناعية إلى مختلف الـبلاد العربية" كما يستقبل في مصر على الإرسال الأرضي.

وفيما بين تاريخ صدور الكتـاب (٥ مـن ديسـمبر ٢٠٠٤) وآخر مايو ٢٠٠٥ نشر نحو ٣٥ مقالاً عن الكتـاب بالصحافة المصرية "ونشرت بعض الصحف مقالين أو ثلاث مقالات عن الكتاب بأقلام كتاب مختلفين، فنشرت الصـحف القومية: "أخبار الأدب" و"القاهرة" و "الأهرام" و"صباح الخير" و"الإذاعة والتليفزيون "عـدة مقـالات ونشـرت الصـحف الحزبية: "الأهالي" و"العربي" و"الموقف العربـي" و"الوفـد" و"آفاق عربية" عدة مقالات أيضا. ونشرت الصحف المستقلة: "المصري اليوم" و"نهضة مصر" و"صوت الأمـة" مقـالات متفرقة.

وقد أشاد جميع من تناول الكتاب بجرأة صاحبه فـي إلقاء الضوء على مواطن الفساد في مختلف المواقـع التـي قطعتها خطاه "واعتبر معظمهم الكتاب علامة في أدب السيرة

www.alkottob.com

الذاتية" ولم ترد إشارة إلى مآخذ في الكتاب سوى ما اتصـل بذكر أسماء بعض الشخصيات "فعلى حين رأى فيها الـبعض شجاعة تحسب للكاتب" نظر إليها السيد يس باعتبارها نوعـا من تصفية الحسابات (وهو ما لم يهدف إليه صـاحبنا علـى الإطلاق) "وتمنى على الكاتب أن يستخدم الحروف الأولـى بدلاً من الأسماء.

كاتب واحد فقط شذ عن الجميع هـو عبـد العظـيم رمضان. وكأنه أوتي الحكمة وحده "فرأى في الكتاب ما لـم يره غيره" إذ نشر مقالا في مجلة "أكتوبر" في ١٩ من مارس ٢٠٠٥ اختار له عنوان" بل هي خطى مشاها خطأ!" أكد فيه على أن الكتاب لا يحتوي إلا على أكاذيب "وأعـرب عـن حزنه الشديد"؛ لأنه ليس من حق المؤرخ أن يكذب. واتهـم "صاحبنا إلى جانب الكذب "بالافتقار إلى الوطنية" والعمالـة لجهات أجنبية " لأنه أقدم على ما لا يستطيع أن يقدم عليـه أستاذ إسرائيلي" وأن كل ما جاء بكتابه محـض افتـراءات "وطالب من علماء النفس و الأجناس أن يكشفوا له عن طبيعة " صاحبنا" فاتهمه – بذلك – بالخلل العقلي" وأخرجـه مـن زمرة الإنسانية" وعرض بأصله الاجتماعي "فلأنه جاء مـن

www.alkottob.com

قاع المجتمع" فلا عجب أن "ينضح كل إناء بما فيـه" وقـدم رمضان أمثلة من الكتـاب تتصـل بمـن وردت أسـماؤهم صريحة" ومن لم ترد أسـماؤهم علـى الإطـلاق" فتبـرع عبد العظيم رمضان بالكشف عنها والتشهير بها.

ولما كانت مقالة رمضان مليئـة بالقـذف الصـريح والسب المقذع "والاتهام الخطير" فلم يكن من المناسب النزول إلى هذا المستوى المتردي للرد عليه "الاكتفاء بـاللجوء إلـى القضاء. ولكن بعض أهل الخبرة في التعامل مع مثـل هـذه الشخصيات" نصحوا "صاحبنا" بالرد عليه "فـإذا لـم تنشـر "أكتوبر" الرد كان من حقه مقاضاة رئيس تحريـر المجلـة أيضا، فكتب ردا بعنوان: "وقفة الحيران في أحوال رمضان" تـأخرت المجلــة فــي نشــره لمــدة ثلاثــة أســابيع (مخالفة بذلك نص قانون الصحافة) "فنشرته يوم السـبت ١٤ من مايو ٢٠٠٥ كما نشـره "صـاحبنا بجريـدة "العربـي الناصري" يوم الأحد ١٥ من مايو ٢٠٠٥ وجاء النشر فـي أكتوبر مقرونًا بما سمي ردا من عبد العظيم رمضان علـى صاحبنا "اختار له عنوان" أخلاقيات عباس" أضاف فيه إلـى ما رمى به "صاحبنا" من تهم "ما يمس شرفه وذمته الماليـة"

www.alkottob.com

وبذلك هبط عبد العظيم رمضان إلى مستوى "الـردح" فلجـأ "صاحبنا" إلى القضاء ليلقن رمضان درسا في أدب الحوار.

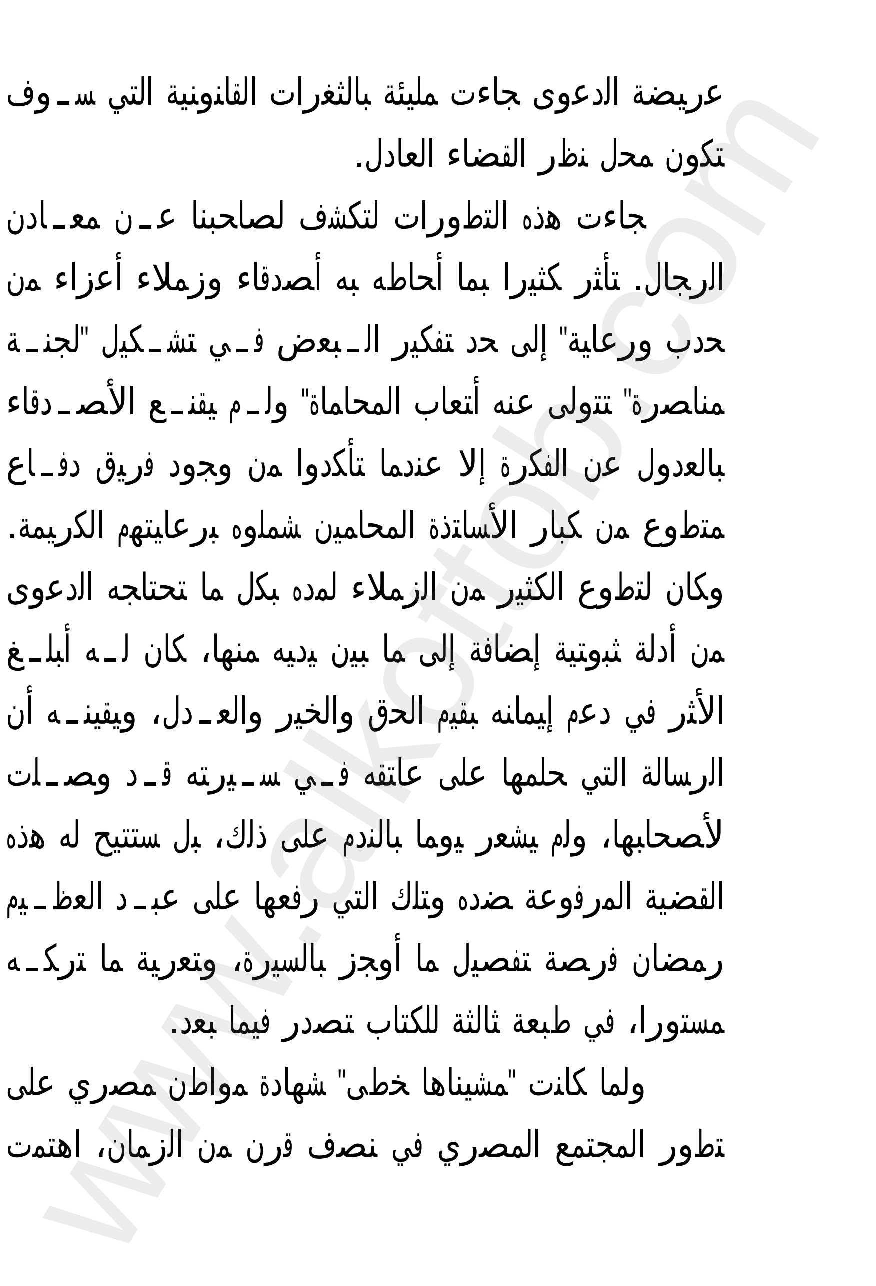
وكان من الواضح أن بعض من تناول الكتاب دورهم في فساد الجامعة "ممن ذكروا بالاسم " وممـن ذكـروا دون الإشارة إلى أسمائهم "قد حاولوا استعداء أجهزة الأمن ضـد "صاحبنا" وعندما لم يجدوا استجابة حاولوا تحريك السـلطات الجامعية "فلم يتم الاستجابة لهم أيضا؛ لأنه عشـية صـدور الكتاب" وفي شهر يناير ٢٠٠٥ تحديدا "نشر التقرير الـدولي عن الخمسمائة جامعة ذات الاعتبار في العالم "فلم تكـن أي جامعة عربية من بين تلك الجامعات" على حين كانت هنـاك عدة جامعات في إسرائيل" و ١٧ جامعة فـي الهنـد و ٢١ جامعة في الصين " وجامعتان بجنوب أفريقيا (علـى سـبيل المثال لا الحصر)" مما جعل لكل من جاء بسيرة "صـاحبنا" عن الجامعة كمؤسسة أكاديمية ناقوس خطر أخذ يدوي فـي أرجاء الوطن العربي" فتناولت الكتـاب بـالعرض صـحف خليجية ومغربية وصحف لندنية عربية" بل تناوله أحد كتاب الأعمدة في الجارديان الإنجليزية.

www.alkottob.com

وفضلاً عن ذلك نشطت حركة ٩ مـارس المطالبـة باستقلال الجامعات للمطالبة بكف يد الأمن عن التدخل فـي الجامعة، وضرورة إصلاح التعلـيم الجـامعي" والنهـوض بالبحث العلمي" وكلها أمور تناولها "صاحبنا" فـي "مشـيناها خطى" ؛لذلك لم تجدِ محاولات من أرادوا استعداء سـلطات الأمن وسلطات الجامعة ضد "صاحبنا".. فاستفادوا من مركب العظمة عند عبد العظيم رمضان" فنصب نفسه حاميـا لهـم" ورأى أن الفرصة قد حانت له ليصب أحقاده على "صـاحبنا" بعد أن كشف ممارسته السلبية في مركـز تـاريخ مصـر المعاصر" ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة" مسـتخدما أحط أساليب القذف والسب.

ومما يكشف عن الصلة بين حملة رمضـان وزمـرة الفساد "تلك القضية التي رفعها حسنين ربيع وحامـد زيـان" وزبيدة عطا (التي لم ترد أي إشارة إليها بالكتاب)" وإيمـان عامر" (التي تبناها صاحبنا منذ كانت معيدة "درسـت عليـه الماجستير والدكتوراه" وبذل معها أقصى الجهد حتى قـدمت رسالة الدكتوراه وتمت ترقيتها مدرسة على يديه) وتولى رفع الدعوى في ٢١ من مارس ٢٠٠٥ أستاذ في القانون. ولكـن

www.alkottob.com



عريضة الدعوى جاءت مليئة بالثغرات القانونية التي سوف تكون محل نظر القضاء العادل.

جاءت هذه التطورات لتكشف لصاحبنا عن معادن الرجال. تأثر كثيرا بما أحاطه به أصدقاء وزملاء أعزاء من حدب ورعاية" إلى حد تفكير البعض في تشكيل "لجنة مناصرة" تتولى عنه أتعاب المحاماة" ولم يقنع الأصدقاء بالعدول عن الفكرة إلا عندما تأكدوا من وجود فريق دفاع متطوع من كبار الأساتذة المحامين شملوه برعايتهم الكريمة. وكان لتطوع الكثير من الزملاء لمده بكل ما تحتاجه الدعوى من أدلة ثبوتية إضافة إلى ما بين يديه منها، كان له أبلغ الأثر في دعم إيمانه بقيم الحق والخير والعدل، ويقينه أن الرسالة التي حلمها على عاتقه في سيرته قد وصلت لأصحابها، ولم يشعر يوما بالندم على ذلك، بل ستتيح له هذه القضية المرفوعة ضده وتلك التي رفعها على عبد العظيم رمضان فرصة تفصيل ما أوجز بالسيرة، وتعرية ما تركه مستورا، في طبعة ثالثة للكتاب تصدر فيما بعد.

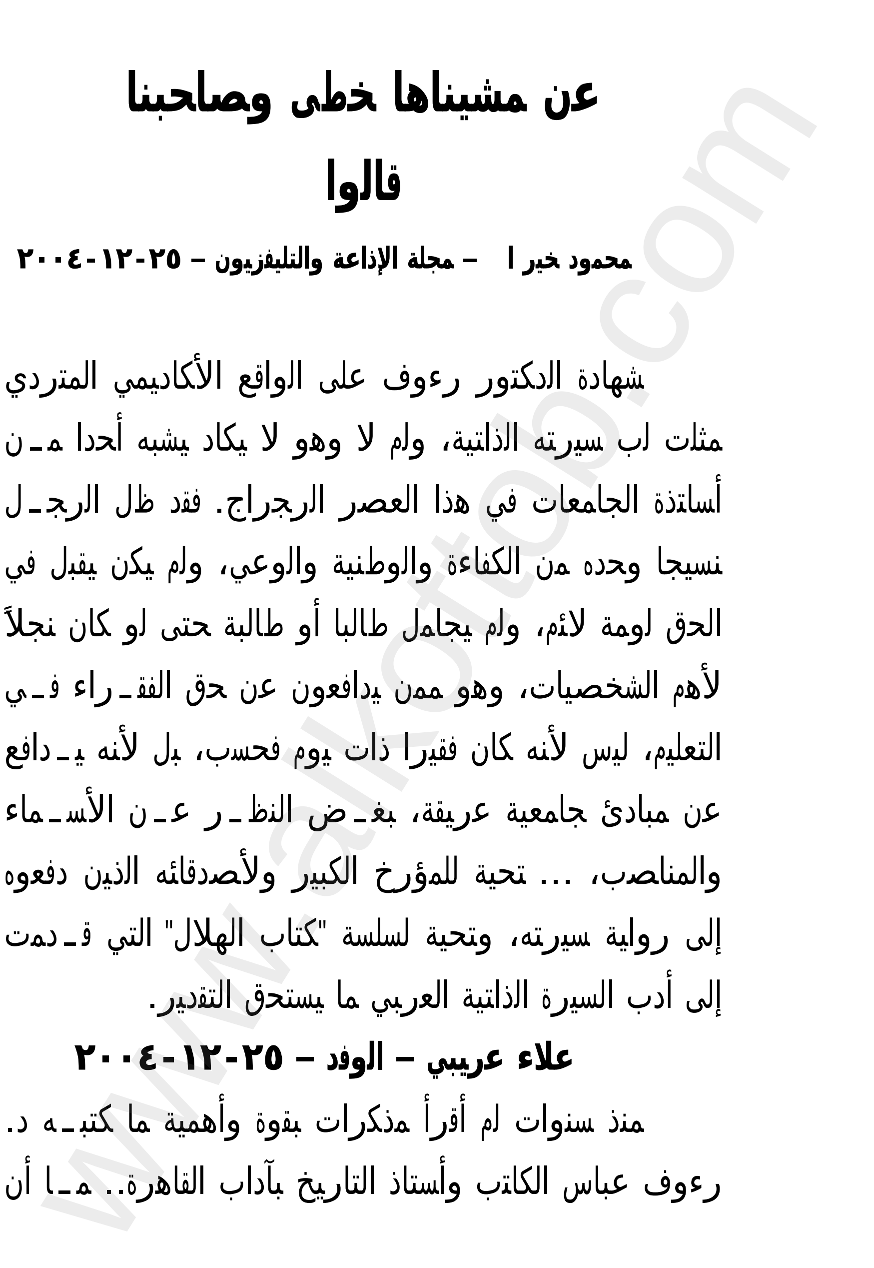
ولما كانت "مشيناها خطى" شهادة مواطن مصري على تطور المجتمع المصري في نصف قرن من الزمان، اهتمت

www.alkottob.com

بعض دور النشـر الأوروبيـة بترجمتـه إلـى الفرنسـية والإنجليزية، وسوف تصدر الترجمة بـاللغتين فـي العـام ٢٠٠٦.



www.alkottob.com



عن مشيناها خطى وصاحبنا قالوا

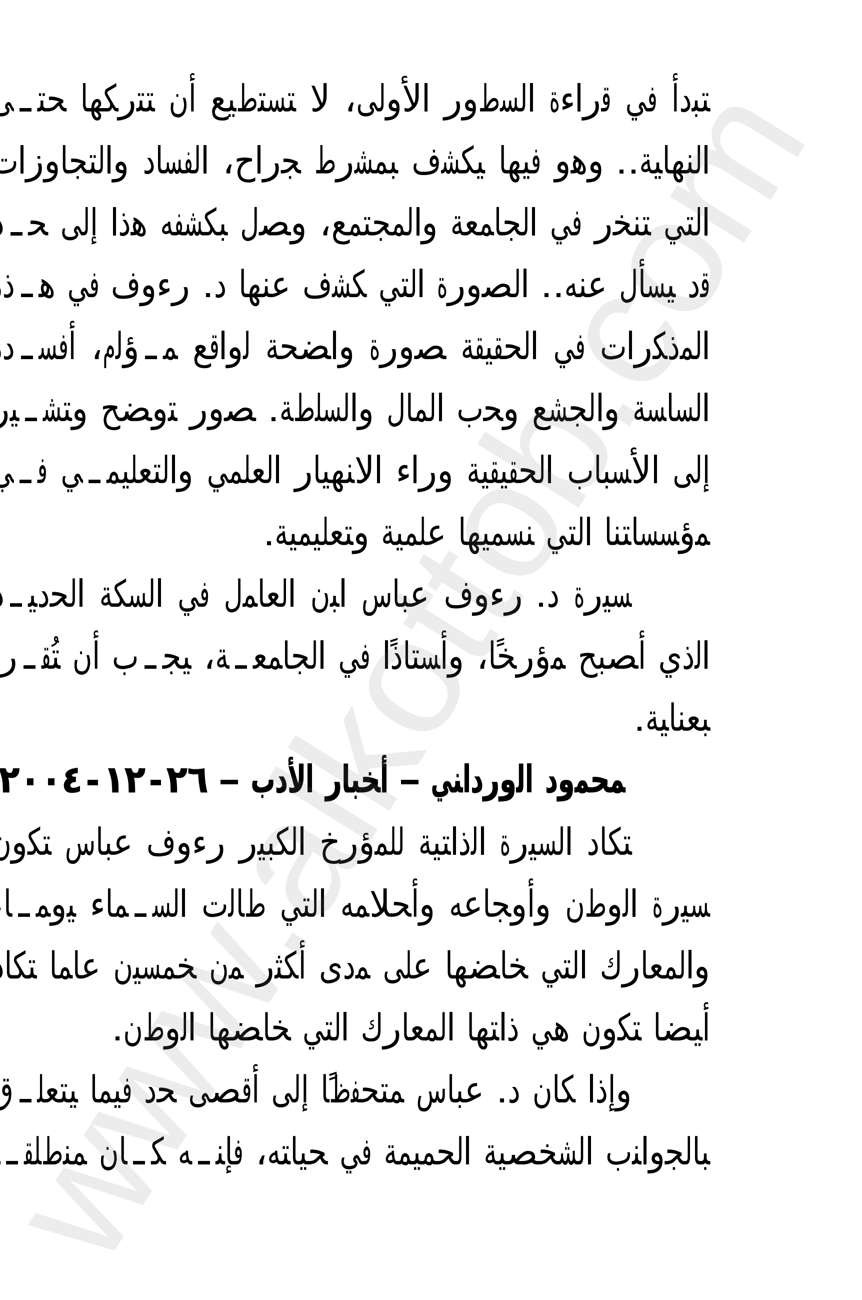
محمود خير ا – مجلة الإذاعة والتليفزيون – ٢٥-١٢-٢٠٠٤

شهادة الدكتور رءوف على الواقع الأكاديمي المتردي مثلت لب سيرته الذاتية، ولم لا وهو لا يكاد يشبه أحدا من أساتذة الجامعات في هذا العصر الرجراج. فقد ظل الرجل نسيجا وحده من الكفاءة والوطنية والوعي، ولم يكن يقبل في الحق لومة لائم، ولم يجامل طالبا أو طالبة حتى لو كان نجلاً لأهم الشخصيات، وهو ممن يدافعون عن حق الفقراء في التعليم، ليس لأنه كان فقيرا ذات يوم فحسب، بل لأنه يدافع عن مبادئ جامعية عريقة، بغض النظر عن الأسماء والمناصب، ... تحية للمؤرخ الكبير ولأصدقائه الذين دفعوه إلى رواية سيرته، وتحية لسلسة "كتاب الهلال" التي قدمت إلى أدب السيرة الذاتية العربي ما يستحق التقدير.

علاء عريبي – الوفد – ٢٥-١٢-٢٠٠٤

منذ سنوات لم أقرأ مذكرات بقوة وأهمية ما كتبه د. رءوف عباس الكاتب وأستاذ التاريخ بآداب القاهرة.. ما أن

www.alkottob.com



تبدأ في قراءة السطور الأولى، لا تستطيع أن تتركها حتى النهاية.. وهو فيها يكشف بمشرط جراح، الفساد والتجاوزات التي تنخر في الجامعة والمجتمع، وصل بكشفه هذا إلى حد قد يسأل عنه.. الصورة التي كشف عنها د. رءوف في هذه المذكرات في الحقيقة صورة واضحة لواقع مؤلم، أفسده الساسة والجشع وحب المال والسلطة. صور توضح وتشير إلى الأسباب الحقيقية وراء الانهيار العلمي والتعليمي في مؤسساتنا التي نسميها علمية وتعليمية.

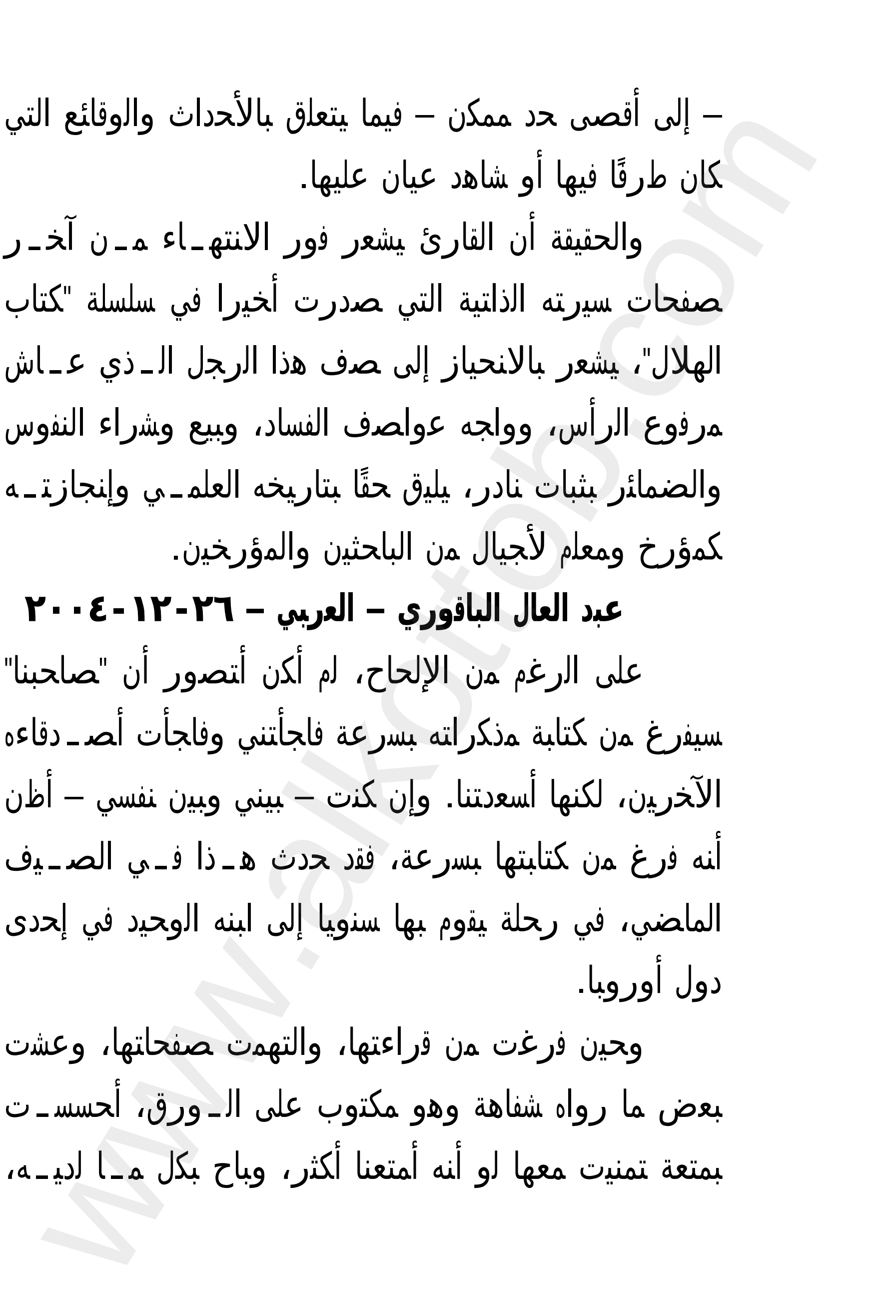
سيرة د. رءوف عباس ابن العامل في السكة الحديد الذي أصبح مؤرخًا، وأستاذًا في الجامعة، يجب أن تُقرأ بعناية.

محمود الورداني – أخبار الأدب – ٢٦-١٢-٢٠٠٤

تكاد السيرة الذاتية للمؤرخ الكبير رءوف عباس تكون سيرة الوطن وأوجاعه وأحلامه التي طالت السماء يوما، والمعارك التي خاضها على مدى أكثر من خمسين عاما تكاد أيضا تكون هي ذاتها المعارك التي خاضها الوطن.

وإذا كان د. عباس متحفظًا إلى أقصى حد فيما يتعلق بالجوانب الشخصية الحميمة في حياته، فإنه كان منطلقا

www.alkottob.com



– إلى أقصى حد ممكن – فيما يتعلق بالأحداث والوقائع التي كان طرفًا فيها أو شاهد عيان عليها.

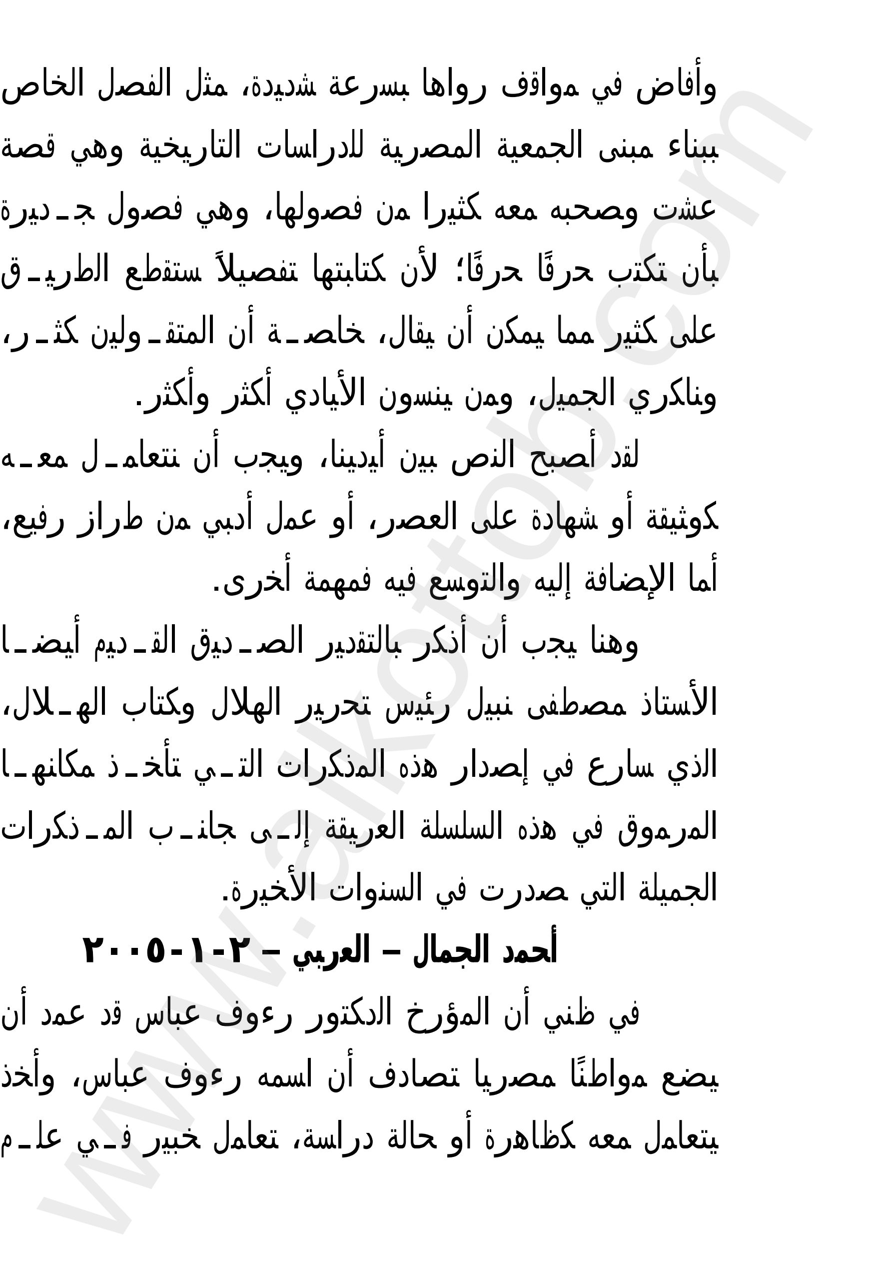
والحقيقة أن القارئ يشعر فور الانتهـاء مـن آخـر صفحات سيرته الذاتية التي صدرت أخيرا في سلسلة "كتاب الهلال"، يشعر بالانحياز إلى صف هذا الرجل الـذي عـاش مرفوع الرأس، وواجه عواصف الفساد، وبيع وشراء النفوس والضمائر بثبات نادر، يليق حقًا بتاريخه العلمـي وإنجازتـه كمؤرخ ومعلم لأجيال من الباحثين والمؤرخين.

عبد العال الباقوري – العربي – ٢٦-١٢-٢٠٠٤

على الرغم من الإلحاح، لم أكن أتصور أن "صاحبنا" سيفرغ من كتابة مذكراته بسرعة فاجأتني وفاجأت أصـدقاءه الآخرين، لكنها أسعدتنا. وإن كنت – بيني وبين نفسي – أظن أنه فرغ من كتابتها بسرعة، فقد حدث هـذا فـي الصـيف الماضي، في رحلة يقوم بها سنويا إلى ابنه الوحيد في إحدى دول أوروبا.

وحين فرغت من قراءتها، والتهمت صفحاتها، وعشت بعض ما رواه شفاهة وهو مكتوب على الـورق، أحسسـت بمتعة تمنيت معها لو أنه أمتعنا أكثر، وباح بكل مـا لديـه،

www.alkottob.com



وأفاض في مواقف رواها بسرعة شديدة، مثل الفصل الخاص ببناء مبنى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وهي قصة عشت وصحبه معه كثيرا من فصولها، وهي فصول جديرة بأن تكتب حرفًا حرفًا؛ لأن كتابتها تفصيلاً ستقطع الطريق على كثير مما يمكن أن يقال، خاصة أن المتقولين كثر، وناكري الجميل، ومن ينسون الأيادي أكثر وأكثر.

لقد أصبح النص بين أيدينا، ويجب أن نتعامل معه كوثيقة أو شهادة على العصر، أو عمل أدبي من طراز رفيع، أما الإضافة إليه والتوسع فيه فمهمة أخرى.

وهنا يجب أن أذكر بالتقدير الصديق القديم أيضا الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال وكتاب الهلال، الذي سارع في إصدار هذه المذكرات التي تأخذ مكانها المرموق في هذه السلسلة العريقة إلى جانب المذكرات الجميلة التي صدرت في السنوات الأخيرة.

أحمد الجمال – العربي – ٢-١-٢٠٠٥

في ظني أن المؤرخ الدكتور رءوف عباس قد عمد أن يضع مواطنًا مصريا تصادف أن اسمه رءوف عباس، وأخذ يتعامل معه كظاهرة أو حالة دراسة، تعامل خبير في علم

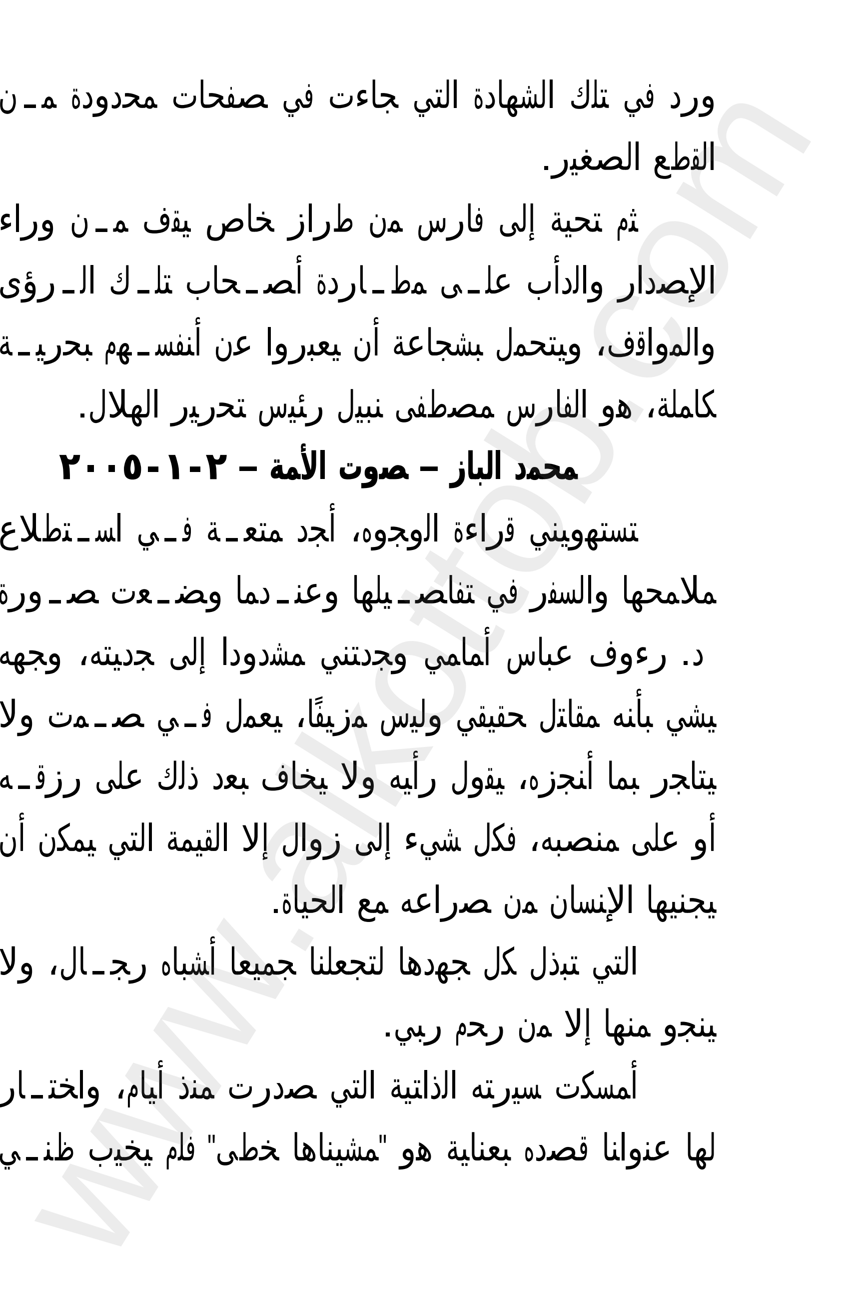
www.alkottob.com

النفس وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، حتى اكتملت "التعشيقة" بين المواطن رءوف وبـين أسـرته وفئته الاجتماعية وبيئته المحيطة ومراحـل نمـوه الزمنـي لتتواكب مع مراحـل التطـور الاقتصـادي والاجتمـاعي والسياسي والثقافي في وطنه، وكانت النتيجة رصدا تاريخيـا متماسكًا، استخدمت فيه كل العلوم المساعدة لعلم التاريخ.

ولأننا بصدد مؤرخ يتعامل مع مصدر حي، يحاول أن يستنطق شهادته لتصبح مكتملة كمادة أولية، فإن الأمر جـاء خلوا من المحسنات من أي لون، فلا محسنات بديعيـة، ولا مساحيق لتجميل أي قبح كان، ولا لتزويق أية واقعة وتزييف أي واقع، سواء اتصل بالمصـدر نفسـه (المـواطن رءوف عباس) أو اتصل بمن هم في موقع أعلى منه كالجـدة والأب وأساتذة المدرسة والجامعة ثم الزملاء تحت القبة الجامعيـة، وصولاً إلى الوزراء وكبار المسئولين حتى رأس الدولة..

وإذا كان من نقد يوجه في هذا المقام، فإنه يوجه إلـى رءوف عباس الأستاذ المؤرخ الذي أهمل لسنين طويلة فـي استخلاص ما لدى المواطن رءوف من إمكانـات وخبـرات وذكريات ومواقف يبدو أنها أكبر وأعمق وأكثر جذرية ممـا

www.alkottob.com



ورد في تلك الشهادة التي جاءت في صفحات محدودة من القطع الصغير.

ثم تحية إلى فارس من طراز خاص يقف من وراء الإصدار والدأب على مطاردة أصحاب تلك الرؤى والمواقف، ويتحمل بشجاعة أن يعبروا عن أنفسهم بحرية كاملة، هو الفارس مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال.

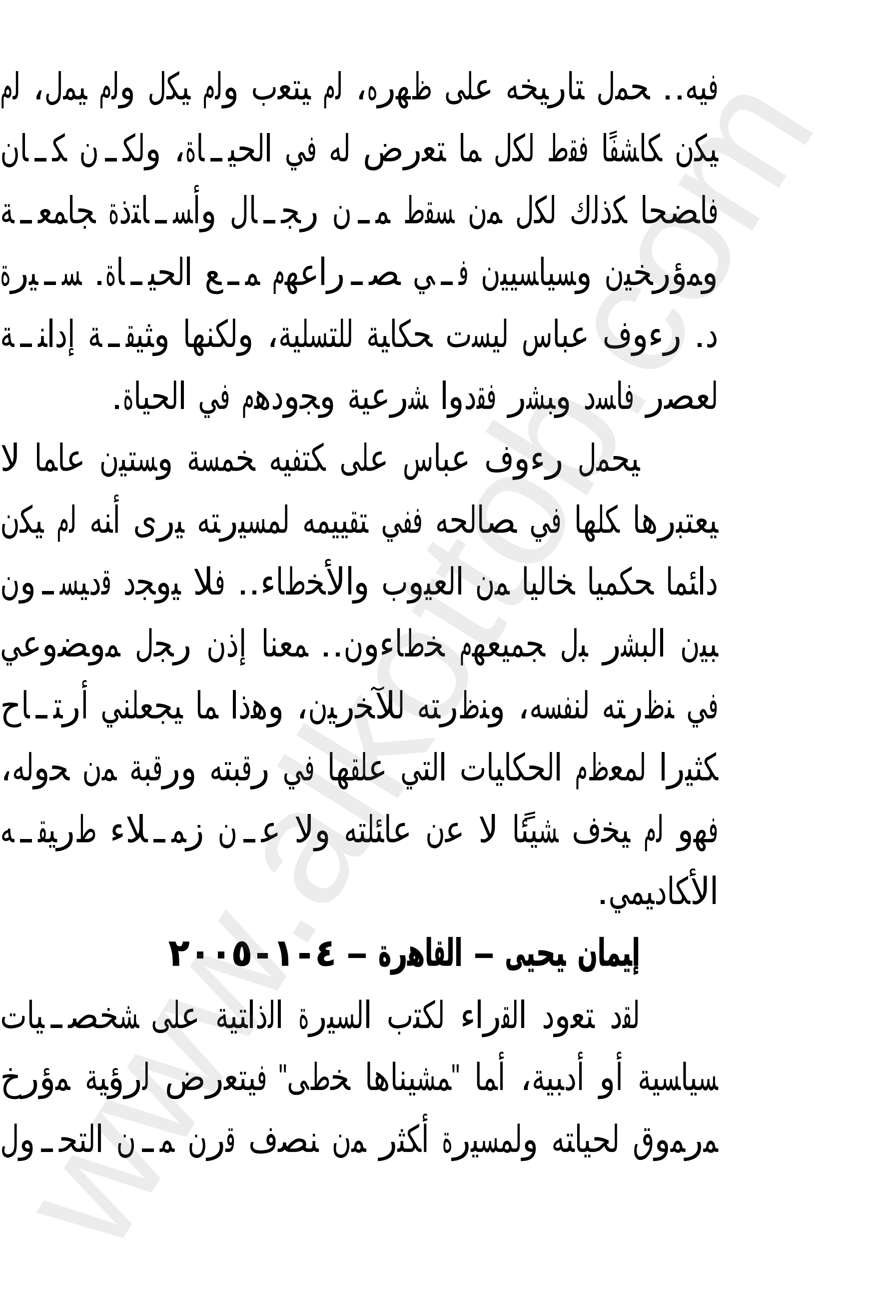
محمد الباز – صوت الأمة – ٢-١-٢٠٠٥

تستهويني قراءة الوجوه، أجد متعة في استطلاع ملامحها والسفر في تفاصيلها وعندما وضعت صورة د. رءوف عباس أمامي وجدتني مشدودا إلى جديته، وجهه يشي بأنه مقاتل حقيقي وليس مزيفًا، يعمل في صمت ولا يتاجر بما أنجزه، يقول رأيه ولا يخاف بعد ذلك على رزقه أو على منصبه، فكل شيء إلى زوال إلا القيمة التي يمكن أن يجنيها الإنسان من صراعه مع الحياة.

التي تبذل كل جهدها لتجعلنا جميعا أشباه رجال، ولا ينجو منها إلا من رحم ربي.

أمسكت سيرته الذاتية التي صدرت منذ أيام، واختار لها عنوانا قصده بعناية هو "مشيناها خطى" فلم يخيب ظني

www.alkottob.com



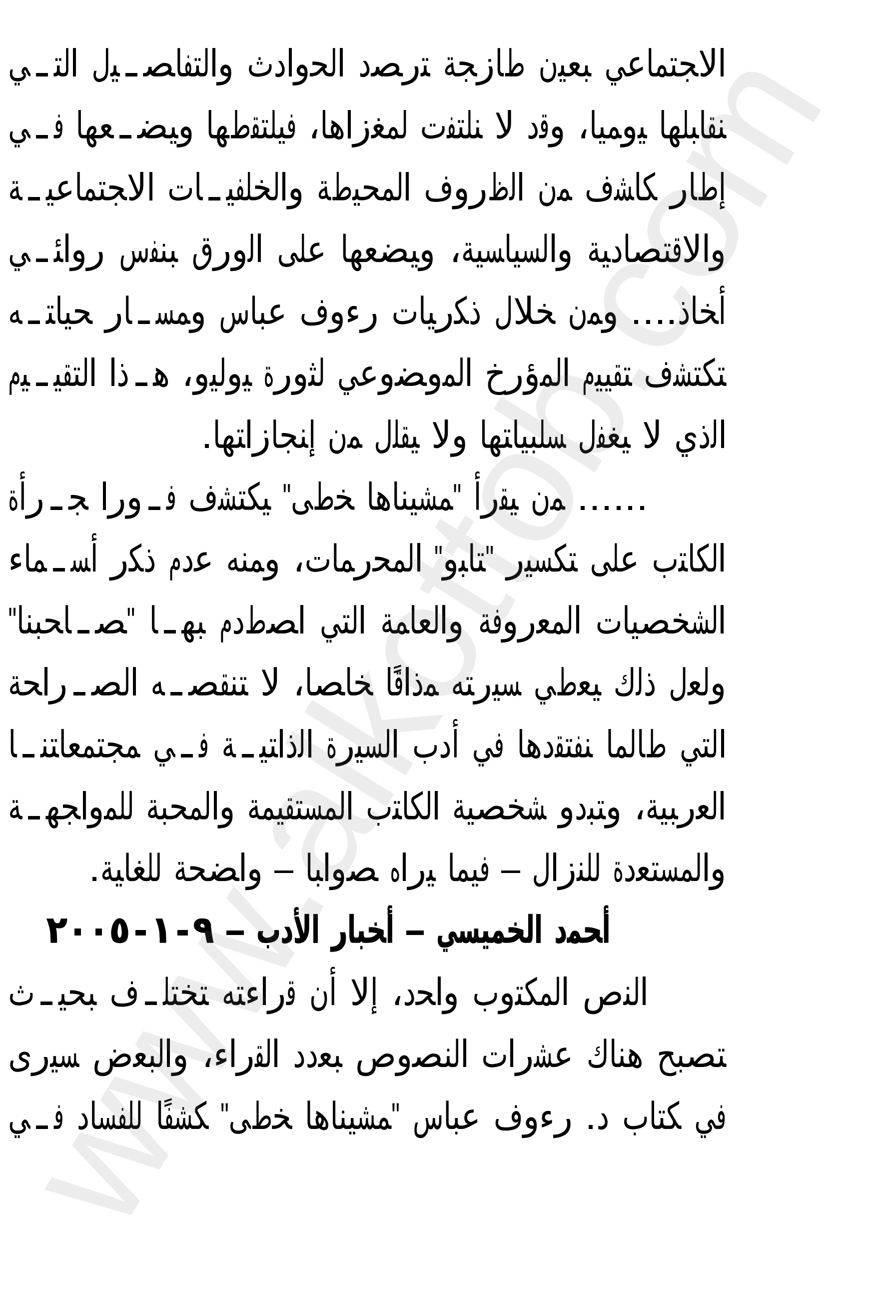
فيه.. حمل تاريخه على ظهره، لم يتعب ولم يكل ولم يمل، لم يكن كاشفًا فقط لكل ما تعرض له في الحيـاة، ولكـن كـان فاضحا كذلك لكل من سقط مـن رجـال وأسـاتذة جامعـة ومؤرخين وسياسيين فـي صـراعهم مـع الحيـاة. سـيرة د. رءوف عباس ليست حكاية للتسلية، ولكنها وثيقـة إدانـة لعصر فاسد وبشر فقدوا شرعية وجودهم في الحياة.

يحمل رءوف عباس على كتفيه خمسة وستين عاما لا يعتبرها كلها في صالحه ففي تقييمه لمسيرته يرى أنه لم يكن دائما حكميا خاليا من العيوب والأخطاء.. فلا يوجد قديسـون بين البشر بل جميعهم خطاءون.. معنا إذن رجل موضوعي في نظرته لنفسه، ونظرته للآخرين، وهذا ما يجعلني أرتـاح كثيرا لمعظم الحكايات التي علقها في رقبته ورقبة من حوله، فهو لم يخف شيئًا لا عن عائلته ولا عـن زمـلاء طريقـه الأكاديمي.

إيمان يحيى – القاهرة – ٤-١-٢٠٠٥

لقد تعود القراء لكتب السيرة الذاتية على شخصـيات سياسية أو أدبية، أما "مشيناها خطى" فيتعرض لرؤية مؤرخ مرموق لحياته ولمسيرة أكثر من نصف قرن مـن التحـول

www.alkottob.com



الاجتماعي بعين طازجة ترصد الحوادث والتفاصـيل التـي نقابلها يوميا، وقد لا نلتفت لمغزاها، فيلتقطها ويضـعها فـي إطار كاشف من الظروف المحيطة والخلفيـات الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية، ويضعها على الورق بنفس روائـي أخاذ.... ومن خلال ذكريات رءوف عباس ومسـار حياتـه تكتشف تقييم المؤرخ الموضوعي لثورة يوليو، هـذا التقيـيم الذي لا يغفل سلبياتها ولا يقلل من إنجازاتها.

...... من يقرأ "مشيناها خطى" يكتشف فـورا جـرأة الكاتب على تكسير "تابو" المحرمات، ومنه عدم ذكر أسـماء الشخصيات المعروفة والعامة التي اصطدم بهـا "صـاحبنا" ولعل ذلك يعطي سيرته مذاقًا خاصا، لا تنقصـه الصـراحة التي طالما نفتقدها في أدب السيرة الذاتيـة فـي مجتمعاتنـا العربية، وتبدو شخصية الكاتب المستقيمة والمحبة للمواجهـة والمستعدة للنزال – فيما يراه صوابا – واضحة للغاية.

أحمد الخميسي – أخبار الأدب – ٩-١-٢٠٠٥

النص المكتوب واحد، إلا أن قراءته تختلـف بحيـث تصبح هناك عشرات النصوص بعدد القراء، والبعض سيرى في كتاب د. رءوف عباس "مشيناها خطى" كشفًا للفساد فـي

www.alkottob.com

الجامعات وتردي أحوال العلم، وقد يجد البعض أن الكتـاب يعكس – بشكل ما – رحلة مصر الاجتماعية والثقافية منـذ ثـورة يوليـو ١٩٥٢ إلـى يومنـا متبلـورة فـي رحلـة د. رءوف عباس ذاته وحياته الحافلة بالعطاء العلمي.

ولكن شخصية الكاتب، الذي كلما اعتصـرته أزمـة تمس كرامته "نفر في جبينه العرق الصـعيدي" (علـى حـد تعبيره) الذي ورثه عن جده النازح من جرجا إلى القاهرة.

....يقول د. رءوف عباس في مقدمة كتابه "مشـيناها خطى" إنه كان مستقلاً، بينما تشهد حياته كلها، وكتابه هـذا، وأعماله، أنه أفنى حياته في الانحياز إلى قضـايا المجتمـع المصري، والوطنية، وكتابة تاريخ مصر بعيـون فقرائهـا، دون أن يفارقه خلال تلك الرحلة الطويلة شـعوره الشـديد بكرامته.. قدم إلينا سيرة ذاتية ممتعـة، تكـاد فـي بعـض صفحاتها تقترب من الكتابة الأدبية. أهم ما فيها أنها تشـكيل لذلك الفهم الغريزي للعلم الذي يتميز به العقل المصري فـي أشق الظروف، فيجعله يشق طريقه بإرادة وصبر مذهل نحو النور.

www.alkottob.com

علاء الديب – القاهرة – ١١-١-٢٠٠٥

قدم المؤرخ الدكتور رءوف عباس كتابا فريـدا فـي صراحته، صراحة عن نفسه وعن وطنه، وعن أدغال الفساد التي خاض فيها. حدثنا عن قوة الفقـراء وعـزمهم، عـن إصرارهم على العلم وتمسكهم بالكرامة، ورفضهم المهانة.

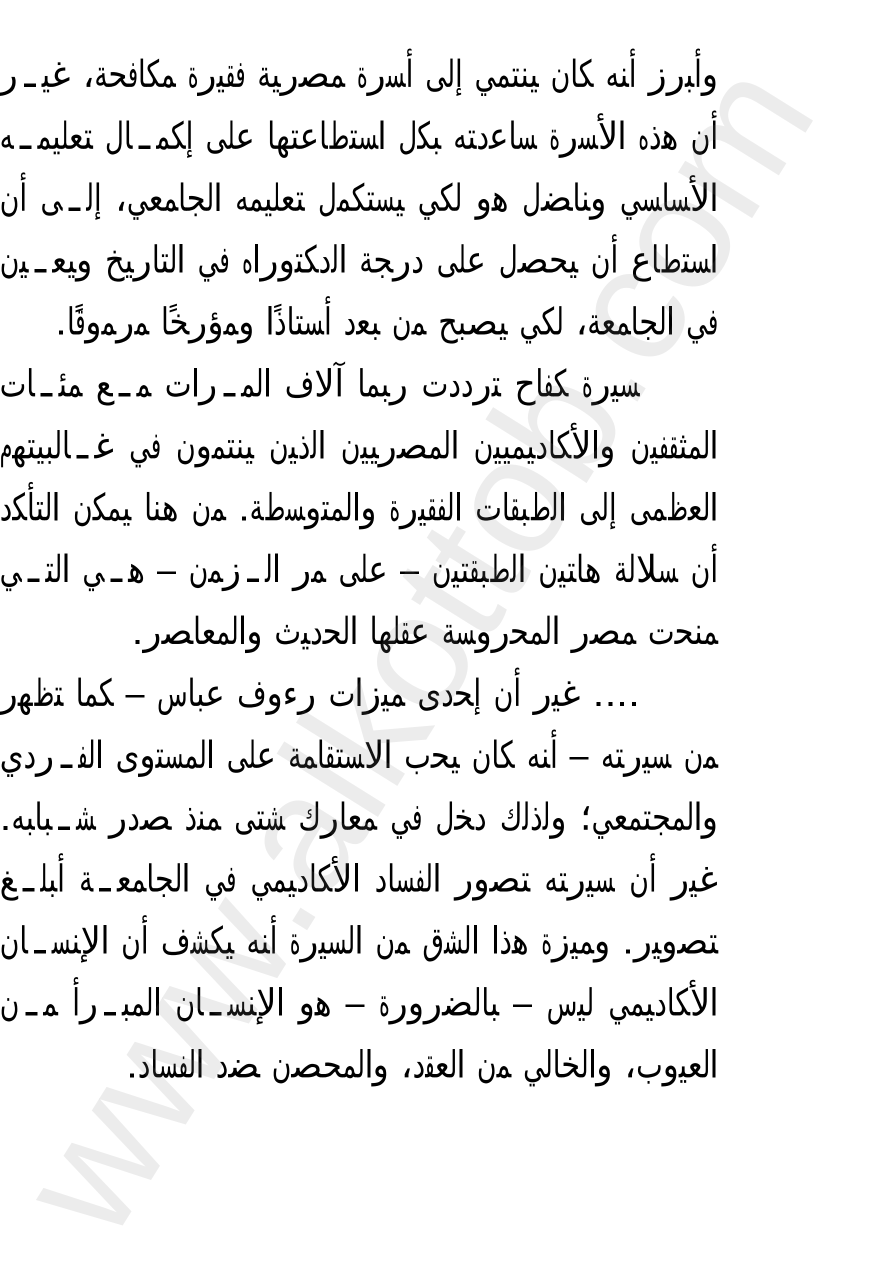
.... من أفظع فصول الكتاب فصل "تحـت القبـة وهم" والقبة هنا هي قبة الجامعة، أما الـوهم فهـو الفسـاد العنكبوتي الذي التف حول هذه المؤسسة العريقة، التي كـان يجب أن تقوم فوق المجتمع، لتقدم له أدوات الفهـم والعلـم والتقدم ، فتحولت إلى "مفرخة" للفساد والمفسدين، والتجـار والمتاجرين بالعلم وبالحلم الوطني.

.... كل صفحات الكتاب تقدم صرخة من أجـل الإصلاح وتؤكد أن بقاء الحال على ما هو عليه في الجامعة أمر يشبه الانتحار أو شرب السم.

السيد يس – القاهرة- ١١-١-٢٠٠٥

مازالت أصداء السيرة الذاتية للمؤرخ المعـروف الـدكتور رءوف عباس تتردد في الأوساط الثقافية، ولذلك تفسـيرات متعددة، لعل أهمها أنه حكى بكل صراحة عن أصوله الطبقية

www.alkottob.com



وأبرز أنه كان ينتمي إلى أسرة مصرية فقيرة مكافحة، غيـر أن هذه الأسرة ساعدته بكل استطاعتها على إكمـال تعليمـه الأساسي وناضل هو لكي يستكمل تعليمه الجامعي، إلـى أن استطاع أن يحصل على درجة الدكتوراه في التاريخ ويعـين في الجامعة، لكي يصبح من بعد أستاذًا ومؤرخًا مرموقًا.

سيرة كفاح ترددت ربما آلاف المـرات مـع مئـات المثقفين والأكاديميين المصريين الذين ينتمون في غـالبيتهم العظمى إلى الطبقات الفقيرة والمتوسطة. من هنا يمكن التأكد أن سلالة هاتين الطبقتين – على مر الـزمن – هـي التـي منحت مصر المحروسة عقلها الحديث والمعاصر.

.... غير أن إحدى ميزات رءوف عباس – كما تظهر من سيرته – أنه كان يحب الاستقامة على المستوى الفـردي والمجتمعي؛ ولذلك دخل في معارك شتى منذ صدر شـبابه. غير أن سيرته تصور الفساد الأكاديمي في الجامعـة أبلـغ تصوير. وميزة هذا الشق من السيرة أنه يكشف أن الإنسـان الأكاديمي ليس – بالضرورة – هو الإنسـان المبـرأ مـن العيوب، والخالي من العقد، والمحصن ضد الفساد.

www.alkottob.com

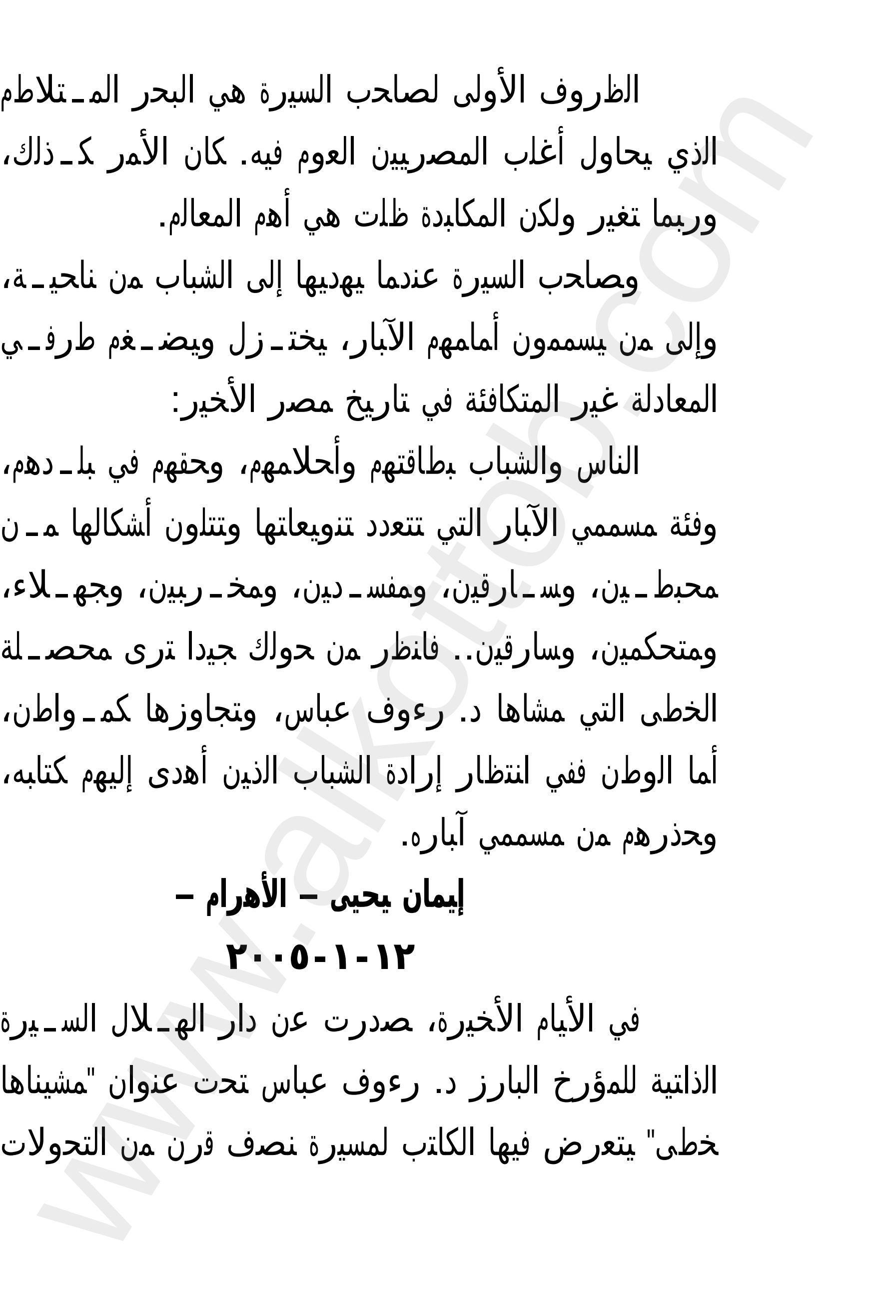
...... غير أن هذا شيء، وذكر المفسدين الجـامعيين بأسمائهم الحقيقية شيء آخر .. وأنا في الواقـع ضـد هـذه الممارسة على طول الخط؛ لأنها قد تختلط بمسـألة تسـوية الحسابات بعد أن انتهت المسيرة أو كـادت. وقـد تصـبغ العوامل الذاتية أحكام صاحب السيرة وتنال من موضوعيته..

ماجدة الجندي – الأهرام –١١-١-٢٠٠٥

مثل عدد من السير الذاتية التي صدرت في السنوات الأخيرة تأتي خطى المؤرخ الدكتور رءوف عباس التي مشاها، سيرة حياة مواطن ووطن. هكذا عايشت وعشت "مشيناها خطى" الصادرة عن دار الهلال. فكأنها خطى الوطن، تكافح الظلم والفقر وشظف العيش، تفتش عن مخرج وميلاد، تمني نفسها بالمستقبل وأحلام البناء، فإذا بالمسافة بين الحلم والحقيقة والانفصال بين الفكر والواقع.

وإذا بالتحولات والخلخلة لمؤسسات الوطن، والحيـرة والمقاومة، ومحاولة النجاة بأبسط الخسائر من زمن سـيادة أخلاق السوق.

www.alkottob.com



الظروف الأولى لصاحب السيرة هي البحر المتلاطم الذي يحاول أغلب المصريين العوم فيه. كان الأمر كذلك، وربما تغير ولكن المكابدة ظلت هي أهم المعالم.

وصاحب السيرة عندما يهديها إلى الشباب من ناحية، وإلى من يسممون أمامهم الآبار، يختزل ويضغم طرفي المعادلة غير المتكافئة في تاريخ مصر الأخير:

الناس والشباب بطاقتهم وأحلامهم، وحقهم في بلدهم، وفئة مسممي الآبار التي تتعدد تنويعاتها وتتلون أشكالها من محبطين، وسارقين، ومفسدين، ومخربين، وجهلاء، ومتحكمين، وسارقين.. فانظر من حولك جيدا ترى محصلة الخطى التي مشاها د. رءوف عباس، وتجاوزها كمواطن، أما الوطن ففي انتظار إرادة الشباب الذين أهدى إليهم كتابه، وحذرهم من مسممي آباره.

إيمان يحيى – الأهرام –

١٢-١-٢٠٠٥

في الأيام الأخيرة، صدرت عن دار الهلال السيرة الذاتية للمؤرخ البارز د. رءوف عباس تحت عنوان "مشيناها خطى" يتعرض فيها الكاتب لمسيرة نصف قرن من التحولات

www.alkottob.com

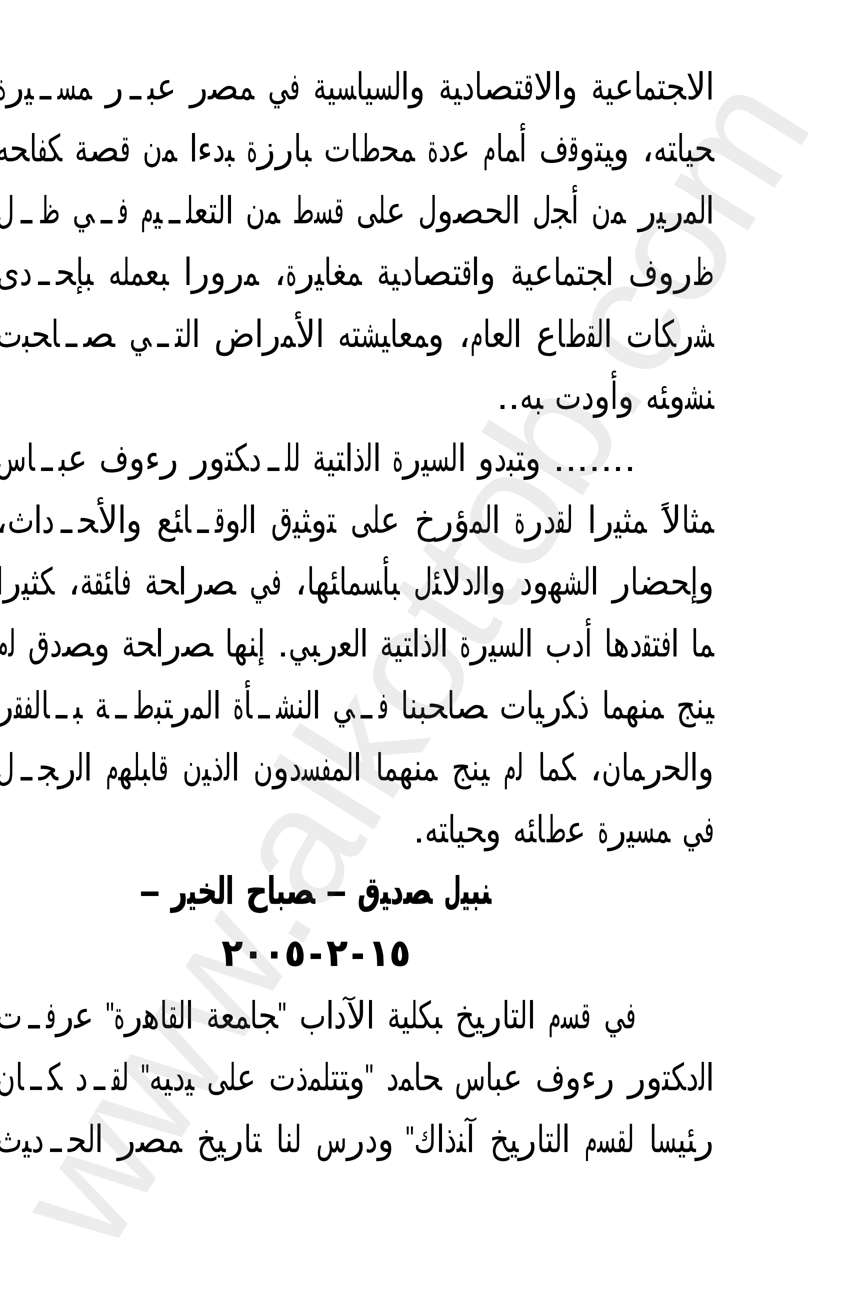
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر عبـر مسـيرة حياته، ويتوقف أمام عدة محطات بارزة بدءا من قصة كفاحه المرير من أجل الحصول على قسط من التعلـيم فـي ظـل ظروف اجتماعية واقتصادية مغايرة، مرورا بعمله بإحـدى شركات القطاع العام، ومعايشته الأمراض التـي صـاحبت نشوئه وأودت به..

.... وتبدو السيرة الذاتية للـدكتور رءوف عبـاس مثالاً مثيرا لقدرة المؤرخ على توثيق الوقـائع والأحـداث، وإحضار الشهود والدلائل بأسمائها، في صراحة فائقة، كثيرا ما افتقدها أدب السيرة الذاتية العربي. إنها صراحة وصدق لم ينج منهما ذكريات صاحبنا فـي النشـأة المرتبطـة بـالفقر والحرمان، كما لم ينج منهما المفسدون الذين قابلهم الرجـل في مسيرة عطائه وحياته.

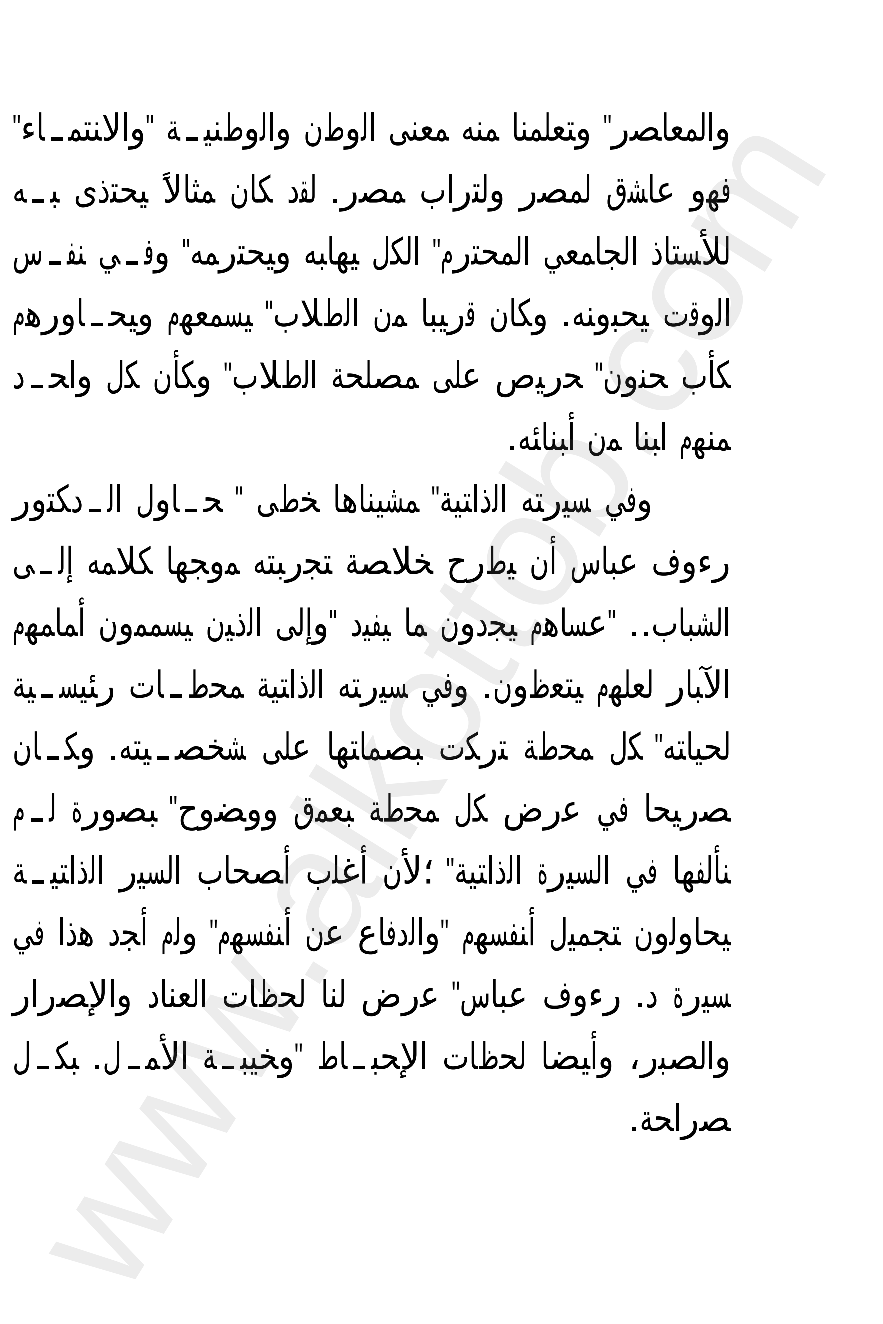
نبيل صديق – صباح الخير –

١٥-٢-٢٠٠٥

في قسم التاريخ بكلية الآداب "جامعة القاهرة" عرفـت الدكتور رءوف عباس حامد "وتتلمذت على يديه" لقـد كـان رئيسا لقسم التاريخ آنذاك" ودرس لنا تاريخ مصر الحـديث



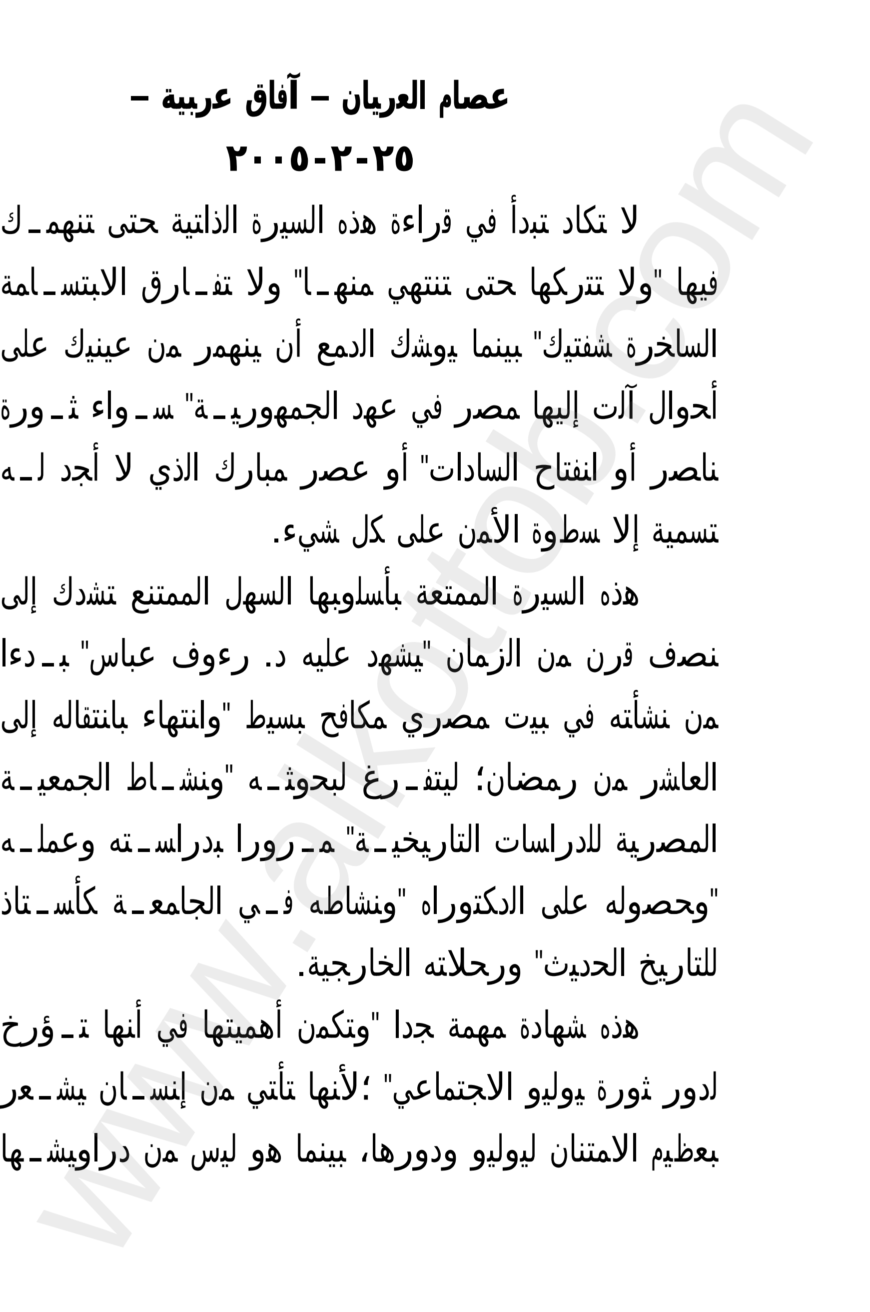
www.alkottob.com



والمعاصر" وتعلمنا منه معنى الوطن والوطنيـة "والانتمـاء" فهو عاشق لمصر ولتراب مصر. لقد كان مثالاً يحتذى بـه للأستاذ الجامعي المحترم" الكل يهابه ويحترمه" وفـي نفـس الوقت يحبونه. وكان قريبا من الطلاب" يسمعهم ويحـاورهم كأب حنون" حريص على مصلحة الطلاب" وكأن كل واحـد منهم ابنا من أبنائه.

وفي سيرته الذاتية" مشيناها خطى " حـاول الـدكتور رءوف عباس أن يطرح خلاصة تجربته موجها كلامه إلـى الشباب.. "عساهم يجدون ما يفيد "وإلى الذين يسممون أمامهم الآبار لعلهم يتعظون. وفي سيرته الذاتية محطـات رئيسـية لحياته" كل محطة تركت بصماتها على شخصـيته. وكـان صريحا في عرض كل محطة بعمق ووضوح" بصورة لـم نألفها في السيرة الذاتية" ؛لأن أغلب أصحاب السير الذاتيـة يحاولون تجميل أنفسهم "والدفاع عن أنفسهم" ولم أجد هذا في سيرة د. رءوف عباس" عرض لنا لحظات العناد والإصرار والصبر، وأيضا لحظات الإحبـاط "وخيبـة الأمـل. بكـل صراحة.

www.alkottob.com



عصام العريان – آفاق عربية –

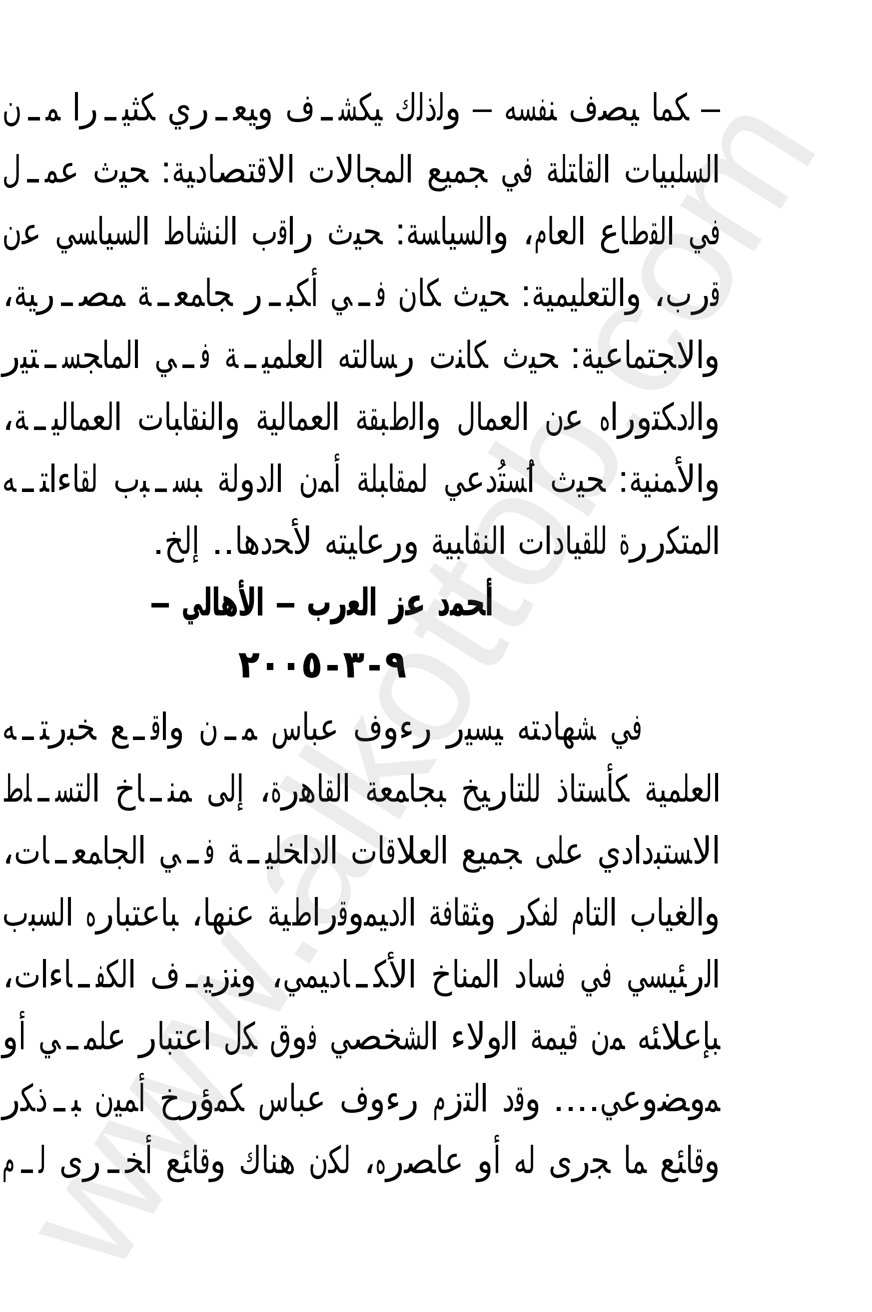
٢٥-٢-٢٠٠٥

لا تكاد تبدأ في قراءة هذه السيرة الذاتية حتى تنهمك فيها "ولا تتركها حتى تنتهي منها" ولا تفارق الابتسامة الساخرة شفتيك" بينما يوشك الدمع أن ينهمر من عينيك على أحوال آلت إليها مصر في عهد الجمهورية" سواء ثورة ناصر أو انفتاح السادات" أو عصر مبارك الذي لا أجد له تسمية إلا سطوة الأمن على كل شيء.

هذه السيرة الممتعة بأسلوبها السهل الممتنع تشدك إلى نصف قرن من الزمان "يشهد عليه د. رءوف عباس" بدءا من نشأته في بيت مصري مكافح بسيط "وانتهاء بانتقاله إلى العاشر من رمضان؛ ليتفرغ لبحوثه "ونشاط الجمعية المصرية للدراسات التاريخية" مرورا بدراسته وعمله "وحصوله على الدكتوراه "ونشاطه في الجامعة كأستاذ للتاريخ الحديث" ورحلاته الخارجية.

هذه شهادة مهمة جدا "وتكمن أهميتها في أنها تؤرخ لدور ثورة يوليو الاجتماعي" ؛لأنها تأتي من إنسان يشعر بعظيم الامتنان ليوليو ودورها، بينما هو ليس من دراويشها

www.alkottob.com



– كما يصف نفسه – ولذلك يكشف ويعري كثيرا من السلبيات القاتلة في جميع المجالات الاقتصادية: حيث عمل في القطاع العام، والسياسة: حيث راقب النشاط السياسي عن قرب، والتعليمية: حيث كان في أكبر جامعة مصرية، والاجتماعية: حيث كانت رسالته العلمية في الماجستير والدكتوراه عن العمال والطبقة العمالية والنقابات العمالية، والأمنية: حيث أستُدعي لمقابلة أمن الدولة بسبب لقاءاته المتكررة للقيادات النقابية ورعايته لأحدها.. إلخ.

أحمد عز العرب – الأهالي –

٩-٣-٢٠٠٥

في شهادته يسير رءوف عباس من واقع خبرته العلمية كأستاذ للتاريخ بجامعة القاهرة، إلى مناخ التسلط الاستبدادي على جميع العلاقات الداخلية في الجامعات، والغياب التام لفكر وثقافة الديموقراطية عنها، باعتباره السبب الرئيسي في فساد المناخ الأكاديمي، ونزيف الكفاءات، بإعلائه من قيمة الولاء الشخصي فوق كل اعتبار علمي أو موضوعي.... وقد التزم رءوف عباس كمؤرخ أمين بذكر وقائع ما جرى له أو عاصره، لكن هناك وقائع أخرى لم

www.alkottob.com

يذكرها؛ لأنه لم يعاصرها.. وعذر رءوف عباس في عنوان كتابه (سيرة ذاتية)، وقد كتبها بوعي المؤرخ لوظيفـة علـم التاريخ، وهي أن يساعد الإنسان على رؤية واقع، والنظـر إلى مستقبله.

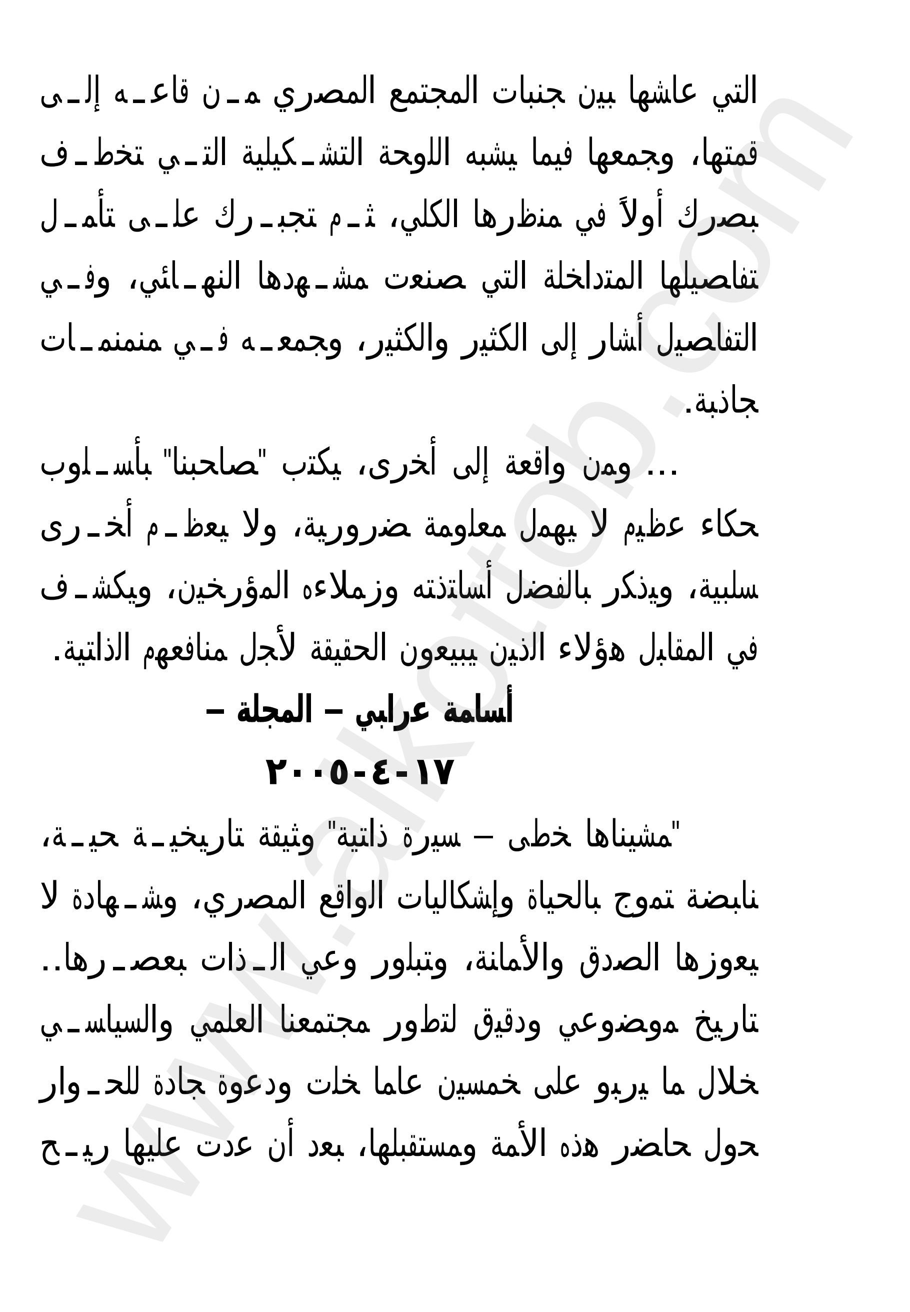
لذلك لم يشغله كثيرا الجانب الذاتي أو الشخصي بقدر ما شغله أن تكون سيرته شهادة عصر، تعكس تجربته كأستاذ جامعي، لعلها تنفعنا ونحن ننظر فيما آلت إليه أحوالنا.

سعيد الشحات – العربي –

١٠-٤-٢٠٠٥

أجمل ما في السيرة الذاتية "مشيناها خطـى" للمـؤرخ القدير الدكتور رءوف عباس، أنها احتوت علـى صـراحة واضحة، وصلت إلى حد أنه قال للأعور: "أنت أعـور فـي عينك"، كما احتوى على تواضع العلماء، فالرجـل يلخـص تاريخه الوطني المشرق في بند "المحاولة" رغم ما قدمه مـن أدوار رائدة في المجال العلمي كمؤرخ وطني بـارز، ومـا قدمه في المجال العام من خدمات وطنية جليلة حسـب مـا أتاحت له الظروف.. وأضفى تحرر "صاحبنا" من الارتبـاط بالسلطة على سيرته طابعا "شعبيا" تمثل في التقاطه لتفاصيل

www.alkottob.com



التي عاشها بين جنبات المجتمع المصري من قاعه إلى قمتها، وجمعها فيما يشبه اللوحة التشكيلية التي تخطف بصرك أولاً في منظرها الكلي، ثم تجبرك على تأمل تفاصيلها المتداخلة التي صنعت مشهدها النهائي، وفي التفاصيل أشار إلى الكثير والكثير، وجمعه في منمنمات جاذبة.

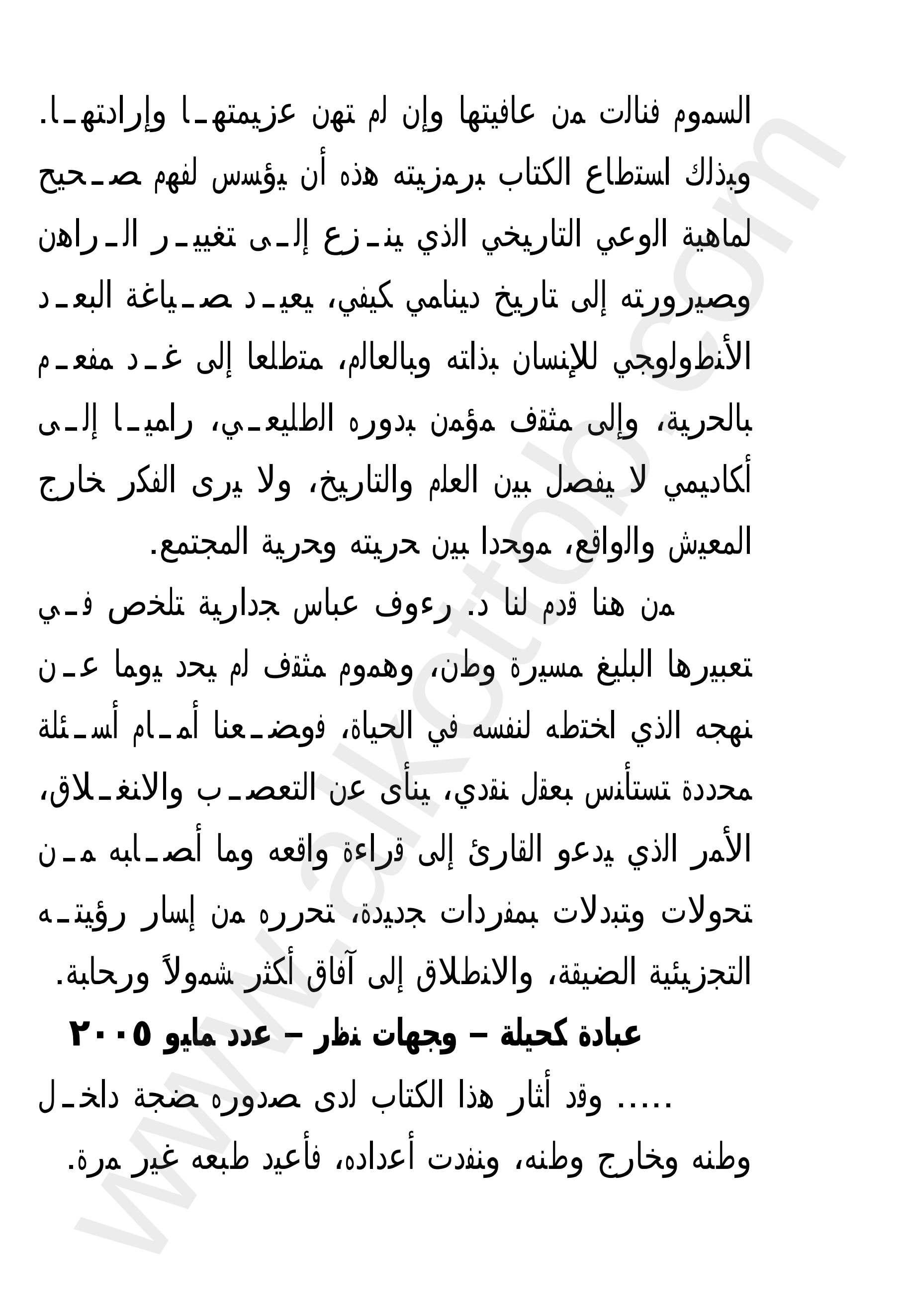
... ومن واقعة إلى أخرى، يكتب "صاحبنا" بأسلوب حكاء عظيم لا يهمل معلومة ضرورية، ولا يعظم أخرى سلبية، ويذكر بالفضل أساتذته وزملاءه المؤرخين، ويكشف في المقابل هؤلاء الذين يبيعون الحقيقة لأجل منافعهم الذاتية.

أسامة عرابي – المجلة –

١٧-٤-٢٠٠٥

"مشيناها خطى – سيرة ذاتية" وثيقة تاريخية حية، نابضة تموج بالحياة وإشكاليات الواقع المصري، وشهادة لا يعوزها الصدق والأمانة، وتبلور وعي الذات بعصرها.. تاريخ موضوعي ودقيق لتطور مجتمعنا العلمي والسياسي خلال ما يربو على خمسين عاما خلت ودعوة جادة للحوار حول حاضر هذه الأمة ومستقبلها، بعد أن عدت عليها ريح

www.alkottob.com



السموم فنالت من عافيتها وإن لم تهن عزيمتهـا وإرادتهـا. وبذلك استطاع الكتاب برمزيته هذه أن يؤسس لفهم صـحيح لماهية الوعي التاريخي الذي ينـزع إلـى تغييـر الـراهن وصيرورته إلى تاريخ دينامي كيفي، يعيـد صـياغة البعـد الأنطولوجي للإنسان بذاته وبالعالم، متطلعا إلى غـد مفعـم بالحرية، وإلى مثقف مؤمن بدوره الطليعـي، راميـا إلـى أكاديمي لا يفصل بين العلم والتاريخ، ولا يرى الفكر خارج المعيش والواقع، موحدا بين حريته وحرية المجتمع.

من هنا قدم لنا د. رءوف عباس جدارية تلخص فـي تعبيرها البليغ مسيرة وطن، وهموم مثقف لم يحد يوما عـن نهجه الذي اختطه لنفسه في الحياة، فوضـعنا أمـام أسـئلة محددة تستأنس بعقل نقدي، ينأى عن التعصـب والانغـلاق، الأمر الذي يدعو القارئ إلى قراءة واقعه وما أصـابه مـن تحولات وتبدلات بمفردات جديدة، تحرره من إسار رؤيتـه التجزيئية الضيقة، والانطلاق إلى آفاق أكثر شمولاً ورحابة.

عبادة كحيلة – وجهات نظر – عدد مايو ٢٠٠٥

..... وقد أثار هذا الكتاب لدى صدوره ضجة داخـل وطنه وخارج وطنه، ونفدت أعداده، فأعيد طبعه غير مرة.

www.alkottob.com

إذا نحن طالعنا "مشيناها خطى" نجد الكاتب قد التـزم فيه بالشروط الأولى للسيرة الذاتية، فقد كتبها بعـد أن بـدأ مرحلة الشيخوخة (٦٥ عاما).. وقد بلغت تجربتـه الحياتيـة مرحلة نضجها، عركته وعركها، وشرع في تأمل مجرياتهـا بنظرة فاحصة إليها، كابد فيها ما كابد، وعاند فيها ما عاند..

من هذه الشرائط أن يكون الكاتب ذا تميز في منحـى من المناحي، أضاف إليه وترك بصمة واضحة عليه، وهو ما يتحقق في شخص رءوف عباس، وقد كتبت عنه ذات يـوم أصفه بأنه "بقية باقية من جيل البنائين العظام الذين تعتز بهم جامعاتهم اعتزازهم بهذه الجامعات، فقد خلف في علم التاريخ مدرسة تردد أصداؤها في وطنه، وجاوزته إلى وطنه العربي الكبير، واجتمع فيه إلى كونه عالما، كونه إنسانا مضى بـه قطار العمر شامخًا مترفعا عن الدنايا، لم تعرف عنه ذلة في صبوته، ولا هفوة في كهولته، وهو في تعامله مع عالمنا هذا الرديء، كان العهد به وما يزال شجاعا، يقول قولـة حـق ومقالة صدق، لا يقيم وزنًا لمال ولا جاه. ومناط المرء عنده عطاؤه.. عطاؤه وحسب.

www.alkottob.com

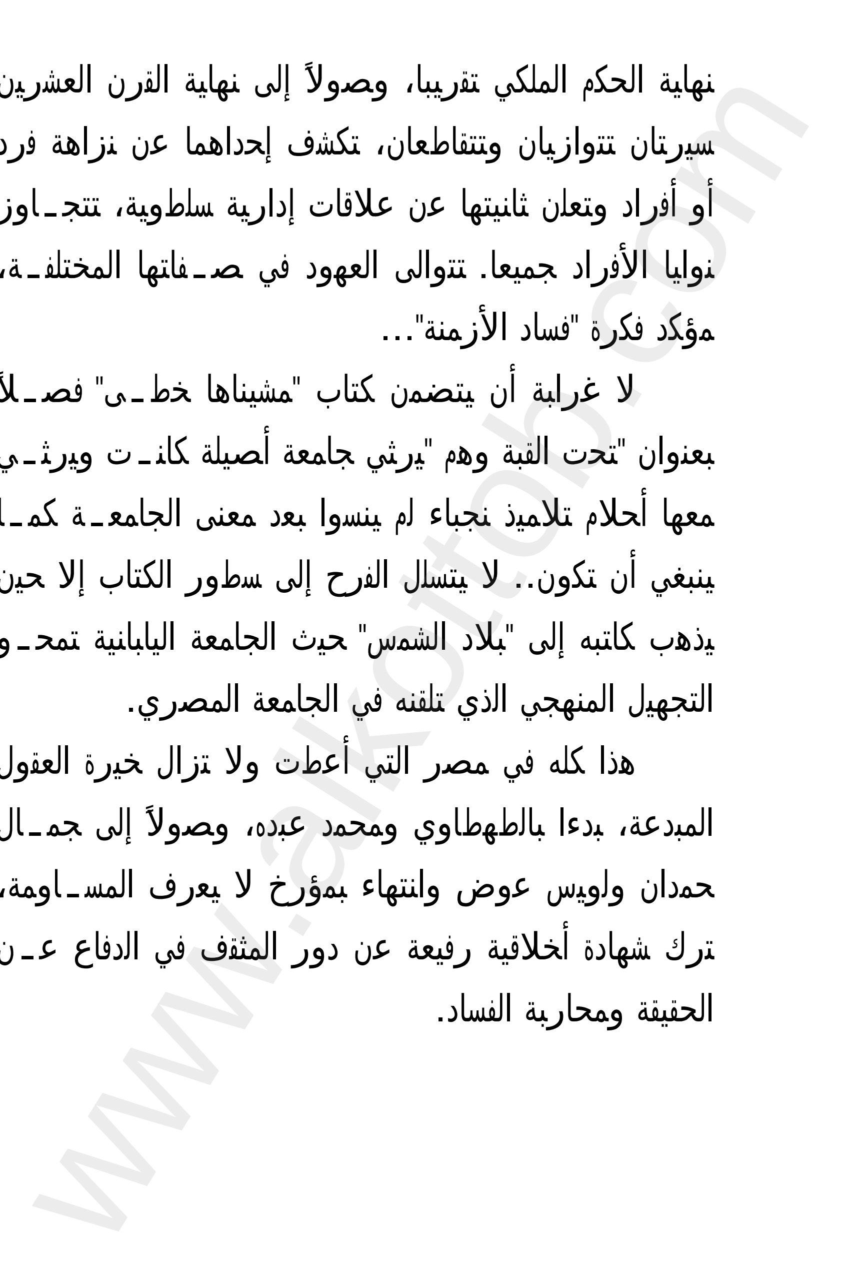
... ولكن الكاتب لا ينظر إلى نفسه بعد هـذا العمـر على أنه مبرأ مما يصيب البشر من أوجه القصور.. لا يقف عند وصف صورته، إنما يصف أيضا صور من عاصـروه لأنه في علاقته بهؤلاء يتكشف الصراع الذي يعطي السـيرة الذاتية حيويتها، فهو ضرورة لها مثلما هو ضرورة للرواية، فهناك أخيار وأشرار، ودرجات بين هذا وذاك، وبكل ألـوان الطيف.

.. ولان سيرة الكاتب لا تنفصل عن سيرة عصر فإن من واجبه أن يكون شاهد عيان على هذا العصر، وهو مـا التزم به في هذا الكتاب بحيث إننا نستمد منه بعضا مما كانت عليه صورة مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة من القـرن العشرين. وقد كان في هذه الشهادة منفعلاً بمشاكل وطنه، كما كان طرفًا في بعض هذه المشاكل والهموم، مشـاركًا فيهـا أو منفعلاً بها أو مراقبا جيدا لها.

فيصل دراج (سوريا) – الحياة – ٤-٥-٢٠٠٥

"مشيناها خطى" سيرة مجزوءة لإنسان عصـامي نمـوذجي، جاء من صفوف الفقراء وتسلل إلى الجامعة، وأصبح علمـا في الميدان الذي كرس له اجتهاده، أي "علم التـاريخ". منـذ

www.alkottob.com



نهاية الحكم الملكي تقريبا، وصولاً إلى نهاية القرن العشرين سيرتان تتوازيان وتتقاطعان، تكشف إحداهما عن نزاهة فرد أو أفراد وتعلن ثانيتها عن علاقات إدارية سلطوية، تتجاوز نوايا الأفراد جميعا. تتوالى العهود في صفاتها المختلفة، مؤكد فكرة "فساد الأزمنة"...

لا غرابة أن يتضمن كتاب "مشيناها خطى" فصلاً بعنوان "تحت القبة وهم "يرثي جامعة أصيلة كانت ويرثي معها أحلام تلاميذ نجباء لم ينسوا بعد معنى الجامعة كما ينبغي أن تكون.. لا يتسلل الفرح إلى سطور الكتاب إلا حين يذهب كاتبه إلى "بلاد الشمس" حيث الجامعة اليابانية تمحو التجهيل المنهجي الذي تلقنه في الجامعة المصري.

هذا كله في مصر التي أعطت ولا تزال خيرة العقول المبدعة، بدءا بالطهطاوي ومحمد عبده، وصولاً إلى جمال حمدان ولويس عوض وانتهاء بمؤرخ لا يعرف المساومة، ترك شهادة أخلاقية رفيعة عن دور المثقف في الدفاع عن الحقيقة ومحاربة الفساد.

www.alkottob.com

نصار عبد ا – صوت الأمة – ٩-٥-٢٠٠٥

لكل شيء تاريخ، ولأستاذ التاريخ أيضا تاريخ!! إنه مثل كل شخص في الدنيا، بل ومثل كل شيء في الدنيا له بالضرورة تاريخ.. قد يكون تاريخًا عاديا أو ممـلاً مـن وجـه نظـر البعض، لكنه ممتع ومثير من وجهة نظر آخرين. وقد يـراه البعض مستفزا و باعثًا على الغيظ والغضب، لكن غيرهم قد يراه تاريخًا مشرقًا حافزا للهمة وجديرا بالاحتذاء.. وبالنسبة لي شخصيا فقد كانت ساعات ممتعة حقًا تلك التـي طالعـت فيها السيرة الذاتية الواحد من أبرز الأساتذة المتخصصين في تاريخ مصر الحديثة، وأعني بـه الأسـتاذ الـدكتور رءوف عباس الذي سرد سيرته الذاتية في كتاب صدر مؤخرا عـن دار الهلال بعنوان "مشيناها خطى"، والذي أعده واحدا مـن أروع كتب السيرة في تاريخ الكتابة العربية. وفي تقـديري فإن أهم المزايا التي يتسم بها الكتـاب أن الـدكتور رءوف عباس لا يتنكر لأصوله الطبقية ولا ينحـاز لأعـدائها فـي الداخل والخارج بعد أن صعد وضعه الاجتماعي، بـل إنـه يعبر من خلال سرده سيرته الذاتية عن هموم وأوجاع الطبقة التي شب فيها، والتي هي في النهاية هموم وأوجاع الأغلبيـة

www.alkottob.com

الغالبة من أبناء الشعب المصري. وهكذا فإن الدكتور رءوف عباس يروي لنا السيرة الذاتية الشخصية فحسب (رغـم أن كتابه على المستوى الشخصي مفعم بالدراما الإنسانية الكفيلة وحدها بجذب القارئ إلى سطوره)، لكنه يروي لنـا – فـي الوقت ذاته – قصة تطور اجتماعي طرأ على وطن بأكملـه، قصة تحول سياسي شمل أمة بأسرها خلال النصف الثـاني من القرن العشرين...

فريدة النقاش – المصري اليوم –٢٤-٥-٢٠٠٥

وبوسعنا أن نتصور كيف يمكن أن ينعكس هذا الثراء في كل من التجربة الحياتية والبحثية على مذكرات كتبها واحد من كبار المؤرخين المصريين وهو الدكتور رءوف عباس، الذي أعطاها عنوانًا دالاً هو "مشيناها خطى" وأهداها إلى الشباب عساهم أن يجدوا فيها ما يفيد: واستطرد: وإلى الذين يسممون أمامهم الآبار لعل يتعظون، ويمكننا أن نضيف: إنهم يواصلون تسميم الآبار ولا يتعظون!

.. تضاف هذه المذكرات الغنية – التي ما أن ننتهـي من قراءتها إلا ونجد أنفسها شغوفين لمعرفة المزيد – إلـى سجل طويل يبدأ من "أيام" طه حسين مرورا "بأوراق العمر"

www.alkottob.com

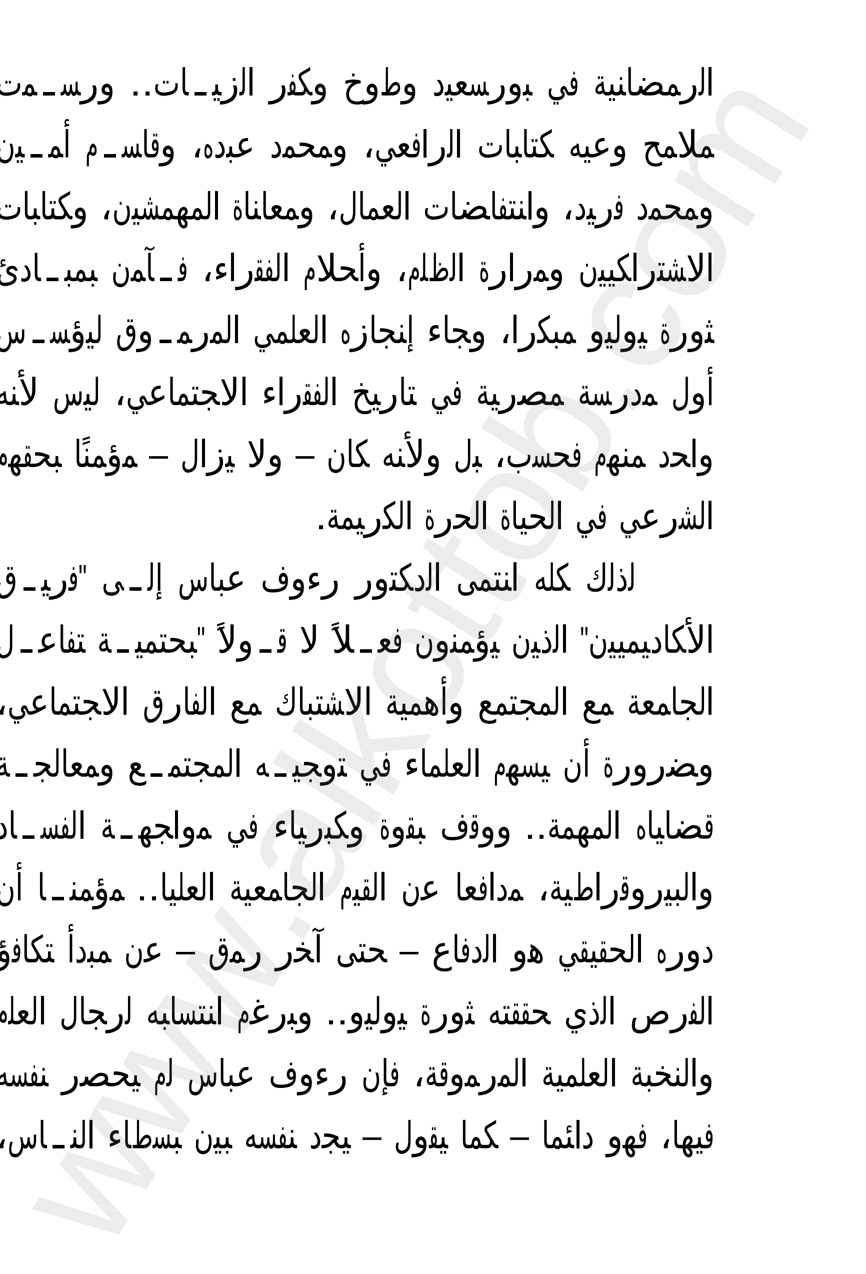
للويس عوض، وليس انتهاء "بحملة تفتيش أوراق شخصـية" للطيفة الزيات، التي تشكل جميعا مصدرا بـالغ الخصـوبة للمعرفة في التاريخ الاجتماعي، معرفة يسوقها الفـاعلون لا المتفرجون، فما بالنا إذا كان الفعال هو واحد من أكبر أساتذة المدرسة الاجتماعية في التاريخ، الذي يعتز أيما اعتزاز بأنه قد نجا من ورطة التعاون من نظام السادات، وحـزب خـدم السلطان، وحكى عن هذا الحزب حكايات دالة تشـير إلـى أصحابها، وعلى الرغم من أنه ساند كل ما أنجزتـه ثـورة يوليو على طريق التحرر من الاستعمار، ورفع شأن الفقراء، فإن هذا لم يمنعه من توجيه سهام النقد المريـر لممارسـاتها المنافية للديموقراطية التي كانت سببا رئيسيا في انهيارها.

بورتريه (بدون توقيع) – الموقف العربي –

٢٤-٥-٢٠٠٥

حارس تكافؤ الفرص العنيد.. شـفاف كنـدى الفجـر الريفي الوديع.. قاس كصخور المقطم المطلة على القـاهرة في حنو.. عنيد كشأن من تجري في شرايينه دماء الجنـوب الساخنة الطيبة. وديع وعاصف، سـاخر وألمعـي. شـكلت تضاريس روحه ترانيم كنـائس شـبرا، وتواشـيح الفجـر

www.alkottob.com



الرمضانية في بورسعيد وطوخ وكفر الزيـات.. ورسـمت ملامح وعيه كتابات الرافعي، ومحمد عبده، وقاسـم أمـين ومحمد فريد، وانتفاضات العمال، ومعاناة المهمشين، وكتابات الاشتراكيين ومرارة الظلم، وأحلام الفقراء، فـآمن بمبـادئ ثورة يوليو مبكرا، وجاء إنجازه العلمي المرمـوق ليؤسـس أول مدرسة مصرية في تاريخ الفقراء الاجتماعي، ليس لأنه واحد منهم فحسب، بل ولأنه كان – ولا يزال – مؤمنًا بحقهم الشرعي في الحياة الحرة الكريمة.

لذلك كله انتمى الدكتور رءوف عباس إلـى "فريـق الأكاديميين" الذين يؤمنون فعـلاً لا قـولاً "بحتميـة تفاعـل الجامعة مع المجتمع وأهمية الاشتباك مع الفارق الاجتماعي، وضرورة أن يسهم العلماء في توجيـه المجتمـع ومعالجـة قضاياه المهمة.. ووقف بقوة وكبرياء في مواجهـة الفسـاد والبيروقراطية، مدافعا عن القيم الجامعية العليا.. مؤمنـا أن دوره الحقيقي هو الدفاع – حتى آخر رمق – عن مبدأ تكافؤ الفرص الذي حققته ثورة يوليو.. وبرغم انتسابه لرجال العلم والنخبة العلمية المرموقة، فإن رءوف عباس لم يحصر نفسه فيها، فهو دائما – كما يقول – يجد نفسه بين بسطاء النـاس،

www.alkottob.com

يطيب له الجلوس إليهم، ويوقف عمله العام علـى خـدمتهم والدفاع عنهم، أداء لحق واجب في عنقه لمـن خـرج مـن بينهم، وورث عنهم حكمة العربي المصري القديم.

حلمي سالم – الأهالي – ٢٥-٥-٢٠٠٥

... يلفت نظر قارئ "مشيناها خطى" أربعة أمور أساسية:

الأول: الشجاعة الأدبية التي جعلت المؤرخ المرموق لا يتحرج عن ذكر منبته الاجتماعي المتواضع فـي أسـرة بسيطة عاملة، وما واكب ذلك من طموح وكفاح لديه حتـى وصل إلى مكانته العلمية والاجتماعية والأدبية العالية الحالية.

الثاني: الخط المستقيم الصريح الذي أدى به الكاتـب سطوره ورصد وقائعه، بلا مراوغة أو مداورة أو تزيين أو مداهنة، وهو الخط الذي جعل هذه السيرة وثيقـة واضـحة تفتضح الجوانب العديدة للهاوية التي تـردى فيهـا الحقـل الأكاديمي المصري كواجهة لتردي المجتمع كلـه، سياسـيا واجتماعيا وأخلاقيا.

الثالث: هو التوجه نحو "الموضوع" لا نحـو "الـذات" فعلى الرغم أن مشيناها خطى "هو سيرة ذاتية صـريحة، إلا أن كاتبها (المؤرخ) لم يؤرخ فيها (نفسـه) بقـدر مـا أرخ

www.alkottob.com

(عالمه) المحيط.. تناول الحياة (الجامعيـة خاصـة) بصـفة أساسية، ولم يعرج على سيرة ذاته إلا بالقدر الذي يضـيء الواقع حوله، ويفسر لنا حركته الشخصية أو الفكرية فيه. إنها إذن سيرة مجتمع في قلبه شخص، وليست سـيرة شـخص حوله مجتمع.

الرابع: هو المسحة الأدبية التي تغلف الكتـاب كلـه. تتجلى هذه المسحة الأدبية في ثلاثة ملامح:

الأول هو التتـابع السـردي المتنـامي للأشـخاص والأحداث بما يشبه السياق الدرامي المتصاعد مع ما ينطوي عليه ذلك من تشابك خطوط وخيوط ،الثاني هو "بلاغة الدقة" لا بلاغة التهويم، والثالث هـو الأداء التصـويري المـليء بالشجن الذي يكاد يكون شعريا في مواضـع عديـدة مـن الكتاب، لاسيما تلك السطور التي ختم بها عمله البديع حينما تحدث عن بعض أمنياته المستقبلية "وآخر الأمنيات أن يموت كالأشجار واقفًا، وألا يسقط القلم من يده".

www.alkottob.com